New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Web Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DATE		

149613

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Web Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DATE

149613

Zaydān, Jurjī 1861-1914

كتاب

Kitāb tārikh Miṣr al-hadīth

تاريخ مصر الحديث

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم

FRONT

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الاول ٧٠١

طبع بالرخصة الرسمية (نمرة ٦٢)

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

طُبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٠٦ هجرية او ١٨٨٩ مسيحية

DT
95
.Z3

Near East

DT
94
.Z3
V.1
C.1

بحر الروم
الغربية
الشرقية
العربية
الصحراء العربية
خليج السويس
مصر
ليبيا
نوبيا
اورشليم
جراسه
بترا
جزيرة ايونابه
جزيرة سابيه
جزيرة فيله
فيلوتراس بوليس
بورلوشيه
بيكسه
جزيرة بنبه
اريستونس
بلاكروم
جزيرة فيس
جزيرة زعبه
خط السرطان
مصر القديمة
اى بلاد مصر ايام المصريين القدماء
1869

فاتحة الكتاب

حمدًا لمن جعل اقاصيص الاولين عبرة للآخرين . اما بعد فلا ازيد القارئ علمًا بمجد التاريخ ولا بما لهُ من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال عليهِ من اصلاح الشؤون . وانما اكتفي بكونهِ اكثر ارتباطًا بمصالح خاصة الناس منهُ بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين احوج الى معرفتهِ من سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولاة الأمور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون العناية في مطالعتهِ وفهم خفاياهُ ويبذلون النفيس في استطلاع مكنوناتهِ وجمع شظاياهُ . فتكاد لا ترى مؤرخًا من القدماء الاَّ وقد أُوعز اليهِ من وليّ الأمر او من جرى مجراهُ ان يضع في التاريخ كتابًا . بل كثيرًا ما رأينا من ولاة الامور انفسهم من ألَّف فيهِ كتبًا غير مبالٍ بما يقتضيهِ ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس انهُ اعتنى بما هو دون مقامهِ

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسَّر لضعيف مثلي ان يطرق بابهُ او يخوض عبابهُ لقصر باعهِ عمَّا يحتاج اليهِ في ذلك من المادة التي تمتنع الاَّ على الملوك او المقرَّبين منهم

اما الآن فما يتباحث فيهِ الملوك صباحًا في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي عليهِ الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في اقاصي

المشرق . والفضل بذلك لاسلاك البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجابًا . فلا غرو والحالة هذه اذا تجرَّأ من كان عاجزًا مثلي ان يضع في مثل ذلك كتابًا

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمدُّنًا واكثرها حوادث وطوارئ ومحنًا لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعةً ولغةً ووطنًا كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطًا بحالتها الحاضرة من تاريخها قبلهُ كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوهُ بتاريخ مصر الحديث

وقد قام من كتبة العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث (انظر صفحة ٨٧ ج ١) . واحدث هذه المؤلفات "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة" تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك ناظر عموم المعارف جعلهُ عشرين جزءًا كبيرًا وهو من التآليف التي لا يقدم على كتابتها الَّا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليهِ معتمدي واليهِ مرجعي في كثير من المواضع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ارَ بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيهِ الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عمومًا وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ارَ بين مدارس هذا القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسةً تعتني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في

ذلك عدم وجود الكتب الموضوعة على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزي ان ابذل الجهد في سدّ هذا العوز معتمدًا على اصح الروايات واصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزمًا في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عنيت اتمامًا لمعدّات التأليف بتنقد الآثار العربية بنفسي باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديمًا كجامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكهُ منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانهُ وصعب الصعود اليهِ الّا بالمخاطرة فكثيرًا ما كنت اخاطر بحياتي لهذهِ الغاية . ومن الآثار العربية التي تنقدتها عدا عن الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة وقناطر السباع ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تنقدتها كلها ايضًا ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئًا من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود وابا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار

مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فاتريب فغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك او غيرهم في حال محاربتهم لحكومة البلاد او دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن نفقدتها جيداً اتماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لديَّ المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته « تاريخ مصر الحديث » من الفتوح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتمُّ الاَّ اذا جعلت في مقدمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسوم والخارطات وايضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهاك ملخص ما تضمَّنهُ

(١) فذلكة في تاريخ مصر القديم من اول عهدها الى الفتوح الاسلامي

(٢) تاريخ مصر الحديث من الفتوح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافات او سلطنات او امارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبني امَيَّة فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

(٣) وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناب العالي والمغفور لهُ محمد علي باشا والخديوي السابق وبونابرت ورعمسيس الثاني وتحوتمس الثالث وامنوفيس الثالث وغيرهم . وبين هذه الرسوم ايضاً معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد والآلهة المصريين وخرائب المطرية وانس الوجود وادفو وغيرها

(٤) وفي ذيل الكتاب جدول عامٌّ لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفاء والسلاطين والباشوات من الفتوح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم وبجانب ذلك عدد الصفحة التي ذُكرت فيها

تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء او ولاة يُذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء او السلاطين الذين تولّوا البلاد باسمهم

(٥) في خاتمة الكتاب فهرس ابجديٌّ عامٌّ لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمّة كالفتوحات والمحاربات والبنايات والتقلبات واسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاصّ لكلٍّ من جزئي الكتاب

(٦) قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي . اولاً . خارطة مدينة القاهرة كما هي الآن . ثانيًا . خارطة مصر السفلى . ثالثًا . خارطة مصر العليا . رابعًا . خارطة القطر المصري قبل الفتوح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثهِ جهد الطاقة مُغفلاً كثيرًا من الروايات التي ترجح لي فسادها بعد النظر والتروّي متحاشيًا الالفاظ المستهجنة والتعبيرات المعقدة ما امكن متخذًا افضل اسلوب تفهمهُ العامة وترتضاهُ الخاصة بغير اخلال ولا املال . راجيًا من اصحاب النقد ان ينظروا اليهِ بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانهُ وتعالى .

يقالُ في الامثال « من ألّف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف » اما انا فان احسنت فان الفضل لافاضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آتِ بشيءٍ من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدّر لي ان اكون فيها شاهد عين وما تفقدتهُ بنفسي من الآثار العربية والمصرية . وان اسأت فذلك دأب العاجز ولكني ارغب الى من يعثر لي على خطاء ان ينبّهني اليهِ فاشكر سعيهُ واثني عليهِ لاني استحيي من الحق اذا عرفتهُ ان لا ارجع اليهِ . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطإٍ سهوٌ جرى بهِ القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الاّ لمن علّم الانسان ما لم يعلم

هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولاً واقبالاً وانقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نفثات اقلامهم بما هو اوفر مادة واجزل نفعاً . لاني اعلم ان بين ظهرانيهم رجالاً لهم من العلم وسعة المعرفة ما يؤهّلهم لما هو افضل من ذلك كثيراً . فتتم سعادة البلاد ونكون قد قمنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخطير سمو خديوينا المعظم محمد توفيق باشا الافخم ادام الله ايامهُ باسمة الثغور في ظليل ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا امير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد خان أبّد الله ايام دولتهِ العلية بالعز والاقبال وادام شوكتهُ واقتدارهُ ما تكرّر الجديدان

تنبيه — قد التزمت في هذا التأليف جانب الحقيقة المجرّدة شأن المحب لتقرير الحقائق كما هي بغير استحسان ولا استقباح الاّ في بعض الاحوال التي لا يختلف في استحسانها او استقباحها اثنان . وقد عزمت عند ورود اسماء العظام من رجال الحكومة المصرية وغيرهم في سياق تاريخنا هذا على اختلاف الازمان والاحوال ان اذكرها

مجرّدة من لقب الرتبة كصاحب السمو

وصاحب الدولة او السعادة

مثلاً او نحو

ذلك

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد عُلم من مصادر مختلفة سيأتي ذكرها ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول الجيل الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب

اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم بلغة مصر القديمة «حورشسُو» وهم اخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها الملك «مِنًا» وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنهُ يبتدئ تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى تمدنها الى ثلاثة ادوار كبرى وهي

(١) الدور الجاهليّ . يبتدئ عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق ه او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق ه او ٣٨١ بعد المسيح وذلك عند ما نهى الملك ثيودوسيوس عن عبادة النصُب والتماثيل وامر باتباع الدين المسيحي

(٢) الدور المسيحي . يبتدئ عند شيوع سُنّة ثيودوسيوس وينتهي عند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب ه او ٦٤٠ ب م

(٣) الدور الاسلامي . يبتدئ عند فتوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلّط اثناءها على مصر ٣٤ عائلة وهي

(١) الدولة الملكية القديمة ـ تبتدئ بتسلط العائلة الاولى وتنتهي

بانتهاء العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ ـ ٤٦٨٦ ق ه) اومن ٥٠٠٤ ـ ٢٠٦٤ ق م) ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة

(٣) الدولة الملكية الوسطى ـ تبتدئ بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة (من ٤٦٨٦ ـ ٣٢٢٥ ق ه) او (٢٠٦٤ ـ ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٤٦١ سنة

(٣) الدولة الملكية الاخيرة ـ تبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة الحادية والثلاثين (من ٣٢٢٥ ـ ٩٥٤ ق ه) او (من ١٧٠٣ ـ ٣٢٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

(٤) الدولة اليونانية ـ تبتدئ بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ ـ ٦٥٣ ق ه) او (من ٣٢٢ ـ ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

(٥) الدولة الرومانية ـ ويسمّيها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٣ ـ ٢٤١ ق ه) او (من ٣٠ ق م ـ ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد شيوع سُنّة ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق ه ـ ١٨ ب ه) او (من ٣٨١ ـ ٦٤٠ ب م) ومدته ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يُقسم الدور الاسلامي الى اثني عشرة دولة وهي

(١) دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ ـ ٤١ ب ه) او من ٦٤٠ ـ ٦٦١ ب م)

(٣) الدولة الأموية (من ٤١ ـ ١٣٢ ب ه) او (من ٦٦١ ـ ٧٥٠ ب م)

(٤) الدولة العبّاسية الاولى (من ١٣٢ ـ ٢٥٧ ب ه) او (من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ ب م)

(٥) الدولة الطولونية (من ٢٥٧ ـ ٢٩٢ ب ه) او (من ٨٧٠ ـ ٩٠٥ ب م)

(٦) الدولة العبّاسية الثانية (من ٢٩٢ ـ ٣٢٣ ب ه) او (من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ ب م)

(٧) الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ ـ ٣٥٨ ب ه) او (من ٩٣٤ ـ ٩٦٩ ب م)

(٨) الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ ـ ٥٦٧ ب ه) او (من ٩٦٩ ـ ١١٧١ ب م)

(٩) الدولة الأيّوبية (من ٥٦٧ ـ ٦٤٨ ب ه) او (من ١١٧١ ـ ١٢٥٠ ب م)

(١٠) دولة المماليك الأولى (من ٦٤٨ ـ ٧٨٤ ب ه) او (من ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ ب م)

(١١) دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ ـ ٩٢٣ ب ه) او (من ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ب م)

(١٢) الدولة العثمانية (من ٩٢٣ ـ ١٢١٦ ب ه) او (من ١٥١٧ ـ ١٨٠١ ب م)

(١٣) الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ ب ه او ١٨٠١ ب م ولا تزال)

ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث اما القديم فمن اول تاريخها الى الفتوح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي. والحديث منذ الفتوح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوبًا عنا حتى أُتيح لابناء هذا القرن حلّ رموز الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخلُ من بعض التلميح في ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضدهُ وما زال ذلك شأن تاريخ مصر القديم حتى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر تاريخ مصر القديم

(١) نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحّالة المؤرخ اليوناني هو أقدم من كتب عن مصر ما يصحّ ان يسمّى نصًّا تاريخيًا وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل المسيح . وبعد هيرودوتس ظهر سبانيتوس احد كهنة المصريين العظماء في الجيل الثالث قبل المسيح وكتب تاريخًا نفيسًا عن مصر لكنهُ فُقد ولم يصلنا منهُ الا بعض ما ذكرهُ يوسيفوس عن اثار الاسرائيليين وما كتبهُ سنسلوس احد كتبة الجيل الثامن . ثم جاء ثيودوروس من صقيلية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي وبلورتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي واما قائمة اسماء الملوك فقد وُجدت بين ما كتبهُ بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انهُ لم يكتب عن مصر شيء جدير ان يدعى نصًّا تاريخيًا الا منذ الجيل الخامس قبل المسيح

(٢) الآثار

واعلم ان ما كتبهُ اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئًا صريحًا عمّا وراء الجيل السابع قبل المسيح اما الآثار . تلك الاطلال البالية التي نراها مبنية

لا حراك بها وقد مكثت رغمًا عن تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها وهي لا تخبرنا عن تاريخهم فقط بل توضح امامنا ايضًا عوائدهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلوّ الهمّة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها عبارة عن كتاب مزيّن بالرسوم والاشكال لا تحرقهُ النار ولا يخرقهُ الغار

هذه الهياكل العظيمة والمسلّات الشامخة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صمّاء وقد افعم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلقت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القويمة العماد تبقى معها في عالم الخلود تنصُّ على القادمين اقاصيص الاقدمين . وجميع هذه تُعد من وثيق المصادر التاريخية

(٣) الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلّطهم على مصر لم يكترثوا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المفتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنساوية في اواخر الجيل الماضي اذ أُتيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده عدة ممن اعتنوا بحلها فأتوا على فهمها فهمًا جيدًا بحيث امكنهم قرأة ما كُتب بها على البردي (البابيروس) والاحجار فخدموا التاريخ خدمة تستحق الاعتبار وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم النابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجالهِ سنة ١٧٩٩ ب م بالقرب من ثغر رشيد حجرًا اسود غير منتظم الشكل الأسطح منهُ كان مستويًا املس في اعلاهُ كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة أُخرى بالقلم العامي او الديموتيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية

القديمة فأُهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنساوي في القاهرة ثم لما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر بعد ذلك أُهدي الى المتحف البريطاني في لندرا ولا يزال هناك. وقد شاهدتهُ في ذلك المتحف منذ سنتين موضوعًا في صدر الآثار المصرية محفوظًا في صندوق غطاؤهُ من زجاج اما طول ذلك الحجر فثلاث اقدام وقيراطان وعرضهُ قدمان وخمسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورتهُ وفرّقتها في جمهور العلماء لينظروا في امر قراءتها فاهتدوا الى قراءة الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها للملك بطليموس ابيفانيس سنة ١٩٤ ق م تشكرًا لما اسبغ عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنساوي ده ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموتيقية وغاية ما وصلوا اليهِ انهم عيّنوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية. ثم عيّن العلّامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي. اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حلّهِ الى ذلك الحين

وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبيليون الفرنساوي في حل هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبهُ المتقدمون عن مصر والمصريين وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلّة مصرية عليها كتابة يونانية ومصرية وارسل صورة الكتابة الى اوروبا. فلما رآها شمبيليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية. ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلامًا واسماء الاعلام لا تُترجم فتوسّم من ذلك هداية الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية ووجد في الكتابة المصرية نقوشًا محاطة بخط اهليلجي مكررة مرارًا. ووجد في الكتابة

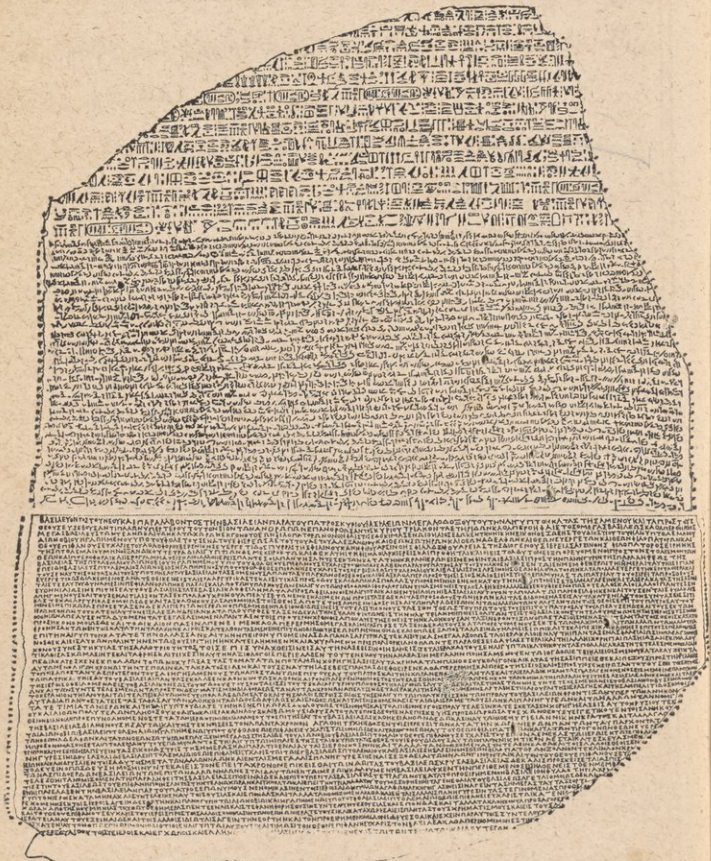

حجر رشید

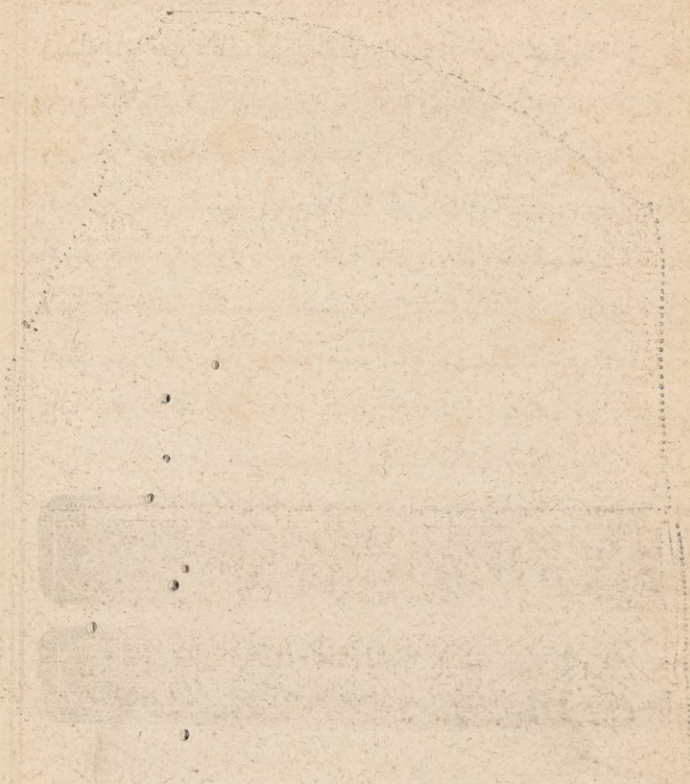

اليونانية اسم بطليموس، مكررًا مرارًا كثيرة ايضًا فاستنتج ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيدًا عند ما رأى اسم بطليموس واردًا في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابلهُ في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخطّ اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تمامًا فعلى ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية الحرف الثاني اي الطاء وهلمَّ جرًّا ووجد ايضًا في الكتابة اليونانية اسم كليوبيطرا ويقابلهُ في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليلجي. فقال شمبليون بنفسهِ اذا كانت الاولى بطليموس فهذه كليوبيطرا واخذ بالمقابلة مستعينًا باللغة القبطية لانها بقيَّة اللغة المصرية القديمة فرسم امامهُ الشكلين الذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبيطرا وجعل يقابل الاحرف المتماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرها فاذا بها متماثلة تمامًا في الشكلين بمواقعها في الاسمين وهاك صورة اسم كليوبيطرا وبطليموس في القلم المصري القديم

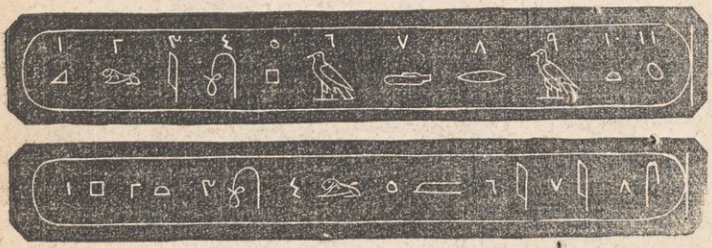

الشكل الاول صورة اسمي كليوبيطرا وبطليموس

فالحرف الاول من اسم كليوبيطرا صورة ركبة. واسم الركبة في اللغة القبطية يبتدئ بحرف الكاف فهو حرف الكاف. والحرف الثاني صورة اسد. واسم الاسدة يبتدئ في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة. والحرف الثالث من اسم كليوبيطرا صورة قصبة. وهو الحرف السادس

والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء . واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدي بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة نسر . واسم النسر في القبطية يبتدئ بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد . واسم اليد في القبطية يبتدئ بحرف الطاء فهو حرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يبتدئ بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكرهُ والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لا حرف لهُ باليونانية وقد عرف بعد ذلك انهُ علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبيطرا . فالاول هو الميم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبليون من معرفة عدد من حروف الهجا وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في مدة تسع سنوات كلها بحثٌ وجدٌ . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صوَرها ما هو حروف ومنهُ ما هو مقاطع او كلمات . وجميع هذه الصور يعد بالمئات

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعُرفت بالمقابلة باللغة القبطية وببعض ما كان يكتبهُ المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فذلكة تاريخ مصر القديم كتاب العقد الثمين ومصر لمَري وعوائد المصريين لويلكنسن وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في ايام الدول المصرية القديمة الى فتوح الاسلام

تُدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او

« ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكّرنا بحام ونسلهِ . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصرايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فيلوح لي انها مشتقة من قولهم « صرّ » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومِصر » اسم مكان من صرّ اي مكان الشدة . ولعلّها اشارة الى ما قاساهُ الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنّى فربما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوهُ على صيغة المثنّى للدلالة على القسمين معًا والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايجبت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يُقسم الى قسمين عظيمين الواحد يُدعى ارض الشمال او الوجه البحري والاخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتدًا من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الدلتا » لمشابهتهِ بحرف الدال عندهم اما الوجه القبلي فيمتد جنوبًا من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوهُ اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرّين » اشارة الى تسلطهِ على الوجهين البحري والقبلي

وكلٌّ من هذين القسمين كان ينقسم عندهم الى اقسام دعاها اليونان « نومس » أي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معًا يختلف عددًا باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودوروس انها ٣٦ والمعوّل عليهِ عند الجمهور انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي وكان لكلٍّ من هذه المقاطعات عاصمة مخصصة بها وفيها مقرُّ الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدول يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

الوجه القبلي

عواصمها

اسماء المقاطعات باليونية	بالمصرية القديمة	باليونانية	بالعربية
١ اومبيتس	ابو	امبوس	كوم امبو
٢ ابوليتو بوليتس	تب	اولينو بولس مانيا	ادفو
٣ لاتو بوليتس	نخب	لاتوبولس (ايليثيا)	اسنا (الكب)
٤ هرمونثيتس	هرمونت	هرمونثس	ارمنت
٥ باثيريتس			القرنة
٦ ديوسبوليتس	نوامن	ديوسبولس مانيا	الكرنك والاقصر
٧ كوبتيتس	كوبتي	كوبتوس	قفط
٨ تنتيريتس	تنتيريو	تنتيرا	دندره
٩ ديوسبوليتس	ها	ديوسبولس بارفا	هو
١٠ ثينيتس	ابدو	ثيس · ابيدوس	البربه · العرابة المدفونة
١١ بانوبوليتس	ابو	بانوبولس	اخميم
١٢ افروديتوبوليتس	تبيو	افروديتوبولس	العطف
١٣ انتوبوليتس	ياتباك	انتوبولس	قاو الكبير
١٤ هيبسيليتس	شاسحوتب	هيبسليس	شدب
١٥ ليكوبوليتس	سيوت	ميكوبولس	اسيوط
١٦ انتينويتس		انتينوو بولس	شيخ عباده
١٧ هرموبوليتس	خمونو	هرموبولس مانيا	اشمونين
١٨ سينوبوليتس	كوسا	سينوبولس	القيس
١٩ اكسيرنخيتس	بيماسا	اوكسيرنخس	بهنسا
٢٠ هيراكليوبوليتس	خيننسو	هيراكليوبولس	اهناس المدينة
٢١ ارسينويتس		كروكوديتوبولس	مدينة الفيوم
٢٢ افروديتوبوليتس	تيباه	افروديتوبولس	عطفية

الوجه البحري

عواصمها

اسماء المقاطعات باليونانية	المصري القديم	باليونانية	بالعربية
١ ممفيتس	منوفر	ممفيس	ميت رهينة
٢ لينووليتس	سوخم	ليتوبولس	
٣ ليبيا	نيانتهابي	ايسس	
٤ سايتس	زوكا	كانوبوس	
٥ سايتس	صا	سايس	صا الحجر
٦ خويتس	خسون	خويس	سخا
٧ متليتس	سونتينوفر	متليس	فوه
٨ سيثرويتس	ثوكوت	سيتروي	
٩ بوسيريتس	بيوسير	بوسيرس	ابو صير
١٠ اثريبيتس	حاتا حيراب	اتريبيس	تل اتريب · بنها العسل
١١ كاباسيتس	كاهبيس	كاباسا	كوم شباس
١٢ سنيتس	ثينوتر	سبنيتوس	سمنهود
١٣ هيليوبوليتس	انو	اون · هيليوبولس	المطرية
١٤ تانيتس	زوان	تانس	صان
١٥ هرموبوليتس	يوت	هرموبولس بارفا	دمنهور
١٦ مندسيوس	بيبينبداد	مندس	اشمون
١٧ ديوسوليتس	بخون ان امن	ديوسبولس	
١٨ بوباستيتس	بيباست	بوباستس	تل بسطة (زقازيق)
١٩ بثينستس	بيوتو	بوتو	
٢٠ فاريثيتس	كوسم	فاريثوس	هربت

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين قد جُعلا بعد ذلك ثلاثة عُرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من اخر الحدود القبلية الى دروط . والوسطى يدعوها اليونان « هپتانومس » اي ذات السبع مقاطعات وتمتد من دروط الى رأس الدلتا . والسفلى تمتد من رأس الدلتا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في اخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍّ منها عدة مقاطعات

ودُعيت مصر السفلى في ايام اركاديوس ابن ثيودوسيوس الاعظم « اركاديا » نسبة اليه وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دُعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم او ما يجاورها . وتكاثر عدد المقاطعات في اخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعة منها ٢٤ في الدلتا فقط

ثم ان بين ملوك المصريين القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان مُلوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوهُ من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكنّا قد رأينا بعد استطلاعنا اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوهُ على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات او اعمال الهٍ حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فاصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الاّ تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع

ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما الهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة وانما مرجعها جميعاً الى الهين هما اصل لكل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظيم و« رع » في طيبة (الاقصر) وهو الشمس . وهذان الالهان هما اقدم الهة المصريين ويرجعان الى اولها لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً لاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم لما انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم جعلوا يقيمون في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فعددت الاشباه ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر . ومن جملة دواعي تعدد الالهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء مختلفة باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هرمخيس » عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و« رع » عندما تكون في خط الهاجرة . و« توم » عند الغروب و« اوزيريس » عند الظلام اي عندما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكلٍّ من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وعلى مثل ذلك قس ما بقي من الآلهة الكثيرة العدد التي قد اقاموا منها محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنود وما شاكل

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى الٰهٍ واحد . فمن هذه المثلثات مثلث مؤلف من الالهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بمثلث منف . والمتأمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي

ويوجد بين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنو وست ونوت واوزيريس وايزيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيما يلي اسماء أهم الآلهة المصرية مع ذكر مميزات كلٍّ منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية

ان يميّز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات اقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً . ذات الرؤوس البشرية . ثانيًا . ذات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي

(١) «فتاح» يمتاز بكونهِ على شكل جثة محنطة (مومية) وفي يديهِ صولجان وليس على رأسهِ شيء يمتاز بهِ

(٢) «أمن» او «أمن رع» على هيئة رجل منتصب وعلى رأسهِ قبعة مبلطحة تنتهي بريشتين غليظتين مستطيلتين بيدهِ الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا كما ترى في الشكل الثاني وقد يكون على شكل جثة محنطة جالسًا على كرسي وعلى رأسهِ القبعة المتقدم ذكرها وفي يدهِ نمشة وعقافة وصولجان . ويدعى في هذه الحالة «أمن اوزبريس»

ش ٢ «أمن رع»

(٣) «هوروس» صبيّ على رأسهِ تاج مزدوج يراد بهِ تاجَي الوجهين القبلي والبحري . يدهُ اليسرى في فيهِ وفي يدهِ اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس براس طير كما سيجيء

(٤) «خم» جثة محنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة زواية كبيرة

(٥) «اوزبريس» جثة محنطة على رأسهِ تاج مصر العليا بريشتي نعام واحيانًا بغير ريش . وفي يدهِ النمشة

والعقافة واحيانًا الصولجان ايضاً . وقد يكون على رأسهِ هلال فيهِ قرص الشمس كما ترى في الشكل الثالث

ش ٣ اوزبريس

(٦) « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسهِ

(٧) « توم » على رأسهِ شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق او بريشة . وقد يكون على رأسهِ تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذات الرؤوس البشرية الانثوية فهي

(١) « ايزيس » على رأسها طاقية تشبهُ النسر فوقها تاجا مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح والاخرى صولجان كما ترى في الشكل الرابع وقد يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

(٢) « ما » الهة الصدق على راسها ريشة واحدة منتصبة وعلى عينيها غالبًا غطاء يشبهُ العوينات

ش ٤ ايزيس

(٣) « موت » (ام الجميع) على رأسها طاقية بشكل النسر وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها رأس نسري

(٤) « نيث » على رأسها احيانًا مكوك واحيانًا تاجا مصر العليا والسفلى

(٥) « نفثيس » على رأسها الطاقية النسرية وفوقها ما يشبهُ البرج

والآلهة برؤوس الطيور هي

(١) « هوروس » قد تقدم ذكرهُ بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس

حيواني كرأس الصقر وفوقهُ التاجان

(٣) «خونس» (الشمس المشرقة) رأسهُ كرأس الصقر فوقهُ هلال فيهِ قرص الشمس

(٣) «رع» (شمس الهاجرة) رأسهُ كرأس الصقر ايضًا عليهِ قرص الشمس فوقهُ ثعبان

(٤) «توت» (اله القلم) رأسهُ كرأس اللقلق عليهِ احيانًا هلال في وسطهِ ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

(١) «بشت» (حبيبة فتاح) تمتاز برأس الهرّ واحيانًا برأس الاسد عليهِ قرص الشمس فوقهُ ثعبان كما ترى في الشكل الخامس

(٢) «عنور» يمتاز برأس كرأس البقرة بين قرنيها دائرة البدر

(٣) «كنوم» او «كنف» يمتاز برأس كبش عليهِ اكاليل وتيجان

(٤) «انوبيس» يمتاز برأس كرأس ابن آوى

وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حبًّا بالاختصار

ش ٥ بشت

فذلكة

في تاريخ مصر القديم

لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين ابًا عن جدّ واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك «مِنًا» فاذا هو اول من حكم ونظّم. ولمّا لم يعثروا على ما كانت عليهِ مصر قبلهُ فرضوا ثلاث عائلات وهميّة زعموا انها تسلّطت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها «مِنًا» ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة. والثانية دعوها الشبيهة بالمقدسة والثالثة الكهنة «الحورشسُو» ويزعمون انهم اجدادهم

الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ ـ ٥٢٧٣ ق ه او من ٥٠٠٤ ـ ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩

اوّلهم الملك «مِنًا» او «مِينِس» ـ وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة «الحورشسُو» نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انهُ كان من الكهنة فثار في خاطرهِ امر الاستقلال بالملك فقاومهُ الكهنة فتغلّب عليهم فترك وطنهُ واسّس مدينة «منف» (البُدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكهِ وشاد حولها جسرًا يعرف الان بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا. فعمرت منف واخصبت وزهت فشاد فيها الهياكل والمعابد واقام فيها تماثيل الالهة. فاذا زرت خرائب سقّارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقىً في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بناهُ هذا الملك لمعبودهِ «فتاح» وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان. ومما يذكر عنهُ انهُ فتح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامهِ وكان رفوقًا برعاياهُ فلم يضغط على افكارهم ومعتقداتهم فغادرهم

على ما اعتادوهُ ولم يسلب الكهنة شيئًا من حقوقهم في قبائلهم على انهُ لم ينجُ من ايقاعهم بهِ فزعموا انهُ اضرَّ بالعبادة من حيث فتور الناس في ايامهِ عن الزهد واستحداثهم انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم مضطجعين على اسرَّتهم

وقام بعد «مِنًا» اخوه «تتا» فأسَّس القصر الملوكي في منف وكان عالمًا بفن الطب ولا سيَّما التشريح فكتب فيهِ رسالةً جُدِّدت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني

ومن ملوك هذه العائلة «ونيفس» حصلت في ايامهِ مجاعةٌ وهو الذي بنى هرم «كوكمه» بقرب الهرم المدرَّج في سقارة وكان مُعدًّا لدفن ما كانوا يعبدونهُ من الثيران في عصرهِ فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بُني من الاهرام في مصر ولم يبقَ من العائلة الاولى من يستحق الذكر

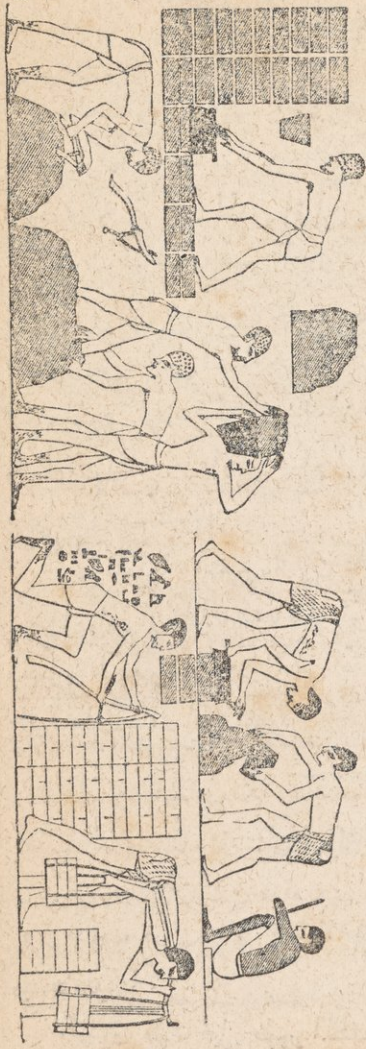

ش ٦ البنائين المصريين

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٢٧٣ ـ ٥٠٧١ ق ه او من ٤٧٥١ ـ ٤٤٤٩ ق م
وعدد ملوكها ٩ . نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة

من ملوكها «كايه خوس» اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور «أبيس» في منف والثور «منيفس» في عين شمس (المطرية) . وقام بعدهُ «بينوتريس» فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك هذا اذا لم يكن للملك المتوفّى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب عن الالهة في الاحكام وادّعى ان بينهُ وبين الالهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدّعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها «اسنس» كان عالماً وطبيباً فاتمّ الرسالة الطبية المتقدم ذكرها . واعلم ان الملك «مِنًّا» لم يقوَ في حياتهِ على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمهِ ولا ان يجعل مصر امّةً واحدة . اما العائلة الثانية فلم تنتهِ حتى جعلت ذلك امرًا مفعولاً

العائلة الثالثة المنفية

حكمت من ٥٠٧١ ـ ٤٨٥٧ ق ه او ٤٤٤٩ ـ ٤٢٣٥ ق م
وعدد ملوكها ٩

كانت طينة قبل ظهور الملك «مِنًّا» مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بُنيت منف تحول كل ذلك تدريجًا اليها وما زالت تخطُّ شيئًا فشيئًا حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فأوّل ملوكها «نخروفس» وفي اول حكمهِ تمرّدت ليبيا وشقّت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فأبت فأدّى بهِ الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين رأوا تلك الليلة دائرة القمر تنسع على غير المعتاد فخيل لهم ان ذلك من غضب الآلهة على اعمالهم فالقوا السلاح مسلّمين. وقام بعدهُ الملك «توسرتسر» وكان عالمًا بالطب فوضع فيهِ كتبًا تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي.

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها واقيمت فيها النُصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمهِ القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة ويسمّى بلغتهم «خورمخي» اي شمس الافقين جعلوا جسمهُ جسم اسد ورأسهُ رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعقل. وأشباهُ هذا التمثال كثيرة في الاثار المصرية بين ما حجمهُ هائل الكبر كابي الهول الذي يبلغ طولهُ ٣٠ مترًا تقريبًا وعرضهُ اربعة امتار وما لا يزيد عن حبّ المرجان حجمًا كانوا يصنعونهُ من العقيق حلية للعقود. ومن اثارهم ايضًا الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبنيّ من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضًا آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة ايضًا «سنغرو» عمدتُ الى ذكرهِ لما عُرف بهِ من العدل والبرّ وما أُوتي من العزم والقدرة على الفتوحات فقهر اهل جبل الطور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصونًا ومعاقل واحتفر آبارًا جعل فيها رجالاً يستخرجون معادنها ونقش رسمهُ حفرًا على حجر في وادي مغارة. ويقال انهُ لما عاد الى مصر ابتنى لنفسهِ هرمًا لم يعلم مقرهُ الى الان

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من سنة ٤٨٥٧ـ٤٥٧٣ ق هـ او من ٤٣٢٥ـ٤٩٥١ ق م
وعدد ملوكها ١٤

اعظم ملوك هذه العائلة واحقُّها بالذكر الملك "خوفو" كان بنّاءً ماهرًا ومحاربًا باسلاً فبنى اعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر بهِ مصر على سائر الامصار . ويقال ان اللذين اشتغلوا في بنائهِ مائة الف رجل اثناء ثلاثين سنةً كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى لهُ جسرًا موصلاً بينهُ وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدمًا وبعض القدم وعرضهُ ٧٤٦ قدمًا وهو من جملة عجائب الدنيا لا يزال مقصودًا من السياح والمتفرجين الى هذا العهد

ونحت "خوفو" عدة تماثيل للآلهة ورمم بعض الهياكل وقد قال فيهِ بعضهم انهُ كان عاتيًا يبخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم زعمًا منهم انهُ ابتنى هرمهُ على نفقة الفعلة المساكين على انهُ لم يكن على شيءٍ من ذلك وربما بنى المعنفون قولهم على انهُ كان يستخدم الاسرى مجانًا وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد ولا تزال

ومن ملوك هذه العائلة "خفرع" وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم "خوفو" وسماهُ "أُر" اي العظيم ارتفاعهُ ٤٤٧ قدمًا ونيف وعرض قاعدتهِ ٦٩٠ قدمًا وبعض القدم . ولم ينجُ هذا من ألسنة القاذفين فقد كان وسلفهُ "خوفو" مضغةً في افواه المرجفين وقد بلغت قحتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيهما ورموا بالجثتين الارض اهانة واحتقارًا . وقد وُجد في المعبد بجوار الاهرام سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعةً على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في متحف بولاق

ومن ملوكها ايضاً "منكورع" بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسمّاه "حور" اي الاعلى جعل ارتفاعهُ ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدتهِ ٣٥١ قدماً وبعض القدم . وقد كان حظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفيهِ لانهم بالغوا في مدحهِ كثيراً . ويقال انهُ ارسل ابنهُ ليطوف في الهياكل المصرية ويرمّم ما كان منها في احتياج الى الترميم

وكان "منكورع" عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وُجدت جثتهُ محنطةً في تابوت من الصوان في هرمهِ المتقدم ذكرهُ فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبقَ الاَّ الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجميز

ومن ملوكها ايضاً "سبسكاف" ويسميهِ مانيثون "سبرخرس" وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بمنف وهو اعظم ايوان فيهِ وكان محبّاً للعلوم فقيهاً . ويقال انهُ ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسنّ قانوناً للقرض من مقتضاهُ انهُ يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيهِ على مبلغ يستدينهُ وللدائن الحقّ في استخدام المدفن حتى يفيهِ الفلس الاخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٤ ـ ٤٤٢٥ ق ه او من ٢٤٥١ ـ ٢٣٠٢ ق م

وعدد ملوكها ٩

منهم "سحورع" او "سفرس" بنى هرماً شمالي قرية ابي صير ولهُ في وادي مغارة لوح لا يزال هناك محفور عليهِ صورتهُ منصوراً على اعدائهِ . وبعد وفاتهِ عبدهُ المصريون زمناً طويلاً . ومن ملوكها "نفراركارع" او "نفرخرس" اتسع نطاق العلم في ايامهِ وعمرت البلاد وقد بنى هرماً لا يُعرف مقرّهُ . ومن ملوكها "اعنوسر" وهو اول من اضاف الى اسمهِ لقب

عائلتهِ "آن" فصار "اعنوسرآن" غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورتهُ على حجر هناك وبنى هرمًا في ابي صير دُفِنَ فيهِ بعد موتهِ. وكان في عصر هذا الملك رجلٌ يدعى "تي" بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببربة "أبيس" يقصدُها المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل النقوش وتعداد الرسوم. وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولتهِ ولهُ رسم محفوظ في متحف بولاق

ومن ملوكها "ددكارع" اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرمًا لم يُعلم مكانهُ ولرجال دولتهِ عدة مقابر في سقارة. ومن ملوكها "اوناس" او "انوس" بنى هرمًا في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرَّج ترى حولهُ كثيبًا من الرمال والحصا قد تراكمت هناك عندما حاولوا فتحهُ سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائهِ الخارجي. وكان عرض قاعدتهِ ٢٢٠ قدمًا وارتفاعهُ ٦٢ قدمًا ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقهُ من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزًا فيحاولون فتحها هدمًا. ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيهِ الاَّ تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعهُ الايمن وساقهُ وقطعًا من اكفانهِ

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٤٣٥ ـ ٤١٣٣ ق هـ او من ٢٧٠٣ ـ ٢٥٠٠ ق م

وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة "مريرع" اتخذ جزيرة اصوان سريرًا لمملكتهِ التي كانت شاملة لسائر القطر المصري. ومن ذلك الحين جعلت منف تنحطّ. وكان لهُ وزيرٌ اشتهر بالدراية والحكمة فعهد اليهِ نظارة الاشغال

فقام باعبائها حتى القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجر في متحف بولاق منقوش عليهِ ما يفهم منهُ شيء من سيرتهِ . ومن اعمال "مريرع" انهُ فتح طريقًا تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصلح معبد دندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك مدوَّن نقشًا على حجر وزيرهِ المتقدم ذكرهُ . وخضعت لهُ النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة . ومن ملوكها "مرنرع" الاول ابن المتقدم ذكرهُ ويسمَّى ايضًا "سوكرمساف" وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمَّة ودراية وزيرهِ الذي كان وزيرًا لابيهِ قبلهُ . ومن ملوكها ايضًا الملكة "نيتوقريس" كذا دعاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذتهُ بعلاً فقتلهُ بعض رجال دولتهِ قبل تولينها الملك . فلما تولَّت اخذت تسعى الى طلب الثار فاصطنعت سردابًا تحت الارض يصل بين النيل ومحلّ اعدَّتهُ لوليمة دعت اليها نفرًا من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالوليمة فتحت باب السرداب من جهة النيل فسار الماء فيهِ الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . اما هي فاسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت

وفي ايام هذه العائلة أُتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعوَّد معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة .

العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الاهناسية

حكمت من سنة ٤١٢٢ ـ ٤٦٨٦ ق ه او من ٢٥٠٠ ـ ٣٠٦٤ ق م
لم يُعلم ما الداعي لطموس اخبار هذه العائلات على انهُ قد عُلم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والاخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيءٌ من اثارهم الاَّ انها على كلٍّ لا تستحق الذكر

الدولة الملكية الوسطى

العائلة الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتين سريرهما طيبة

حكمتا من ٤٦٨٦ ـ ٤٤٧٣ ق ه او من ٣٠٦٤ ـ ٢٨٥١ ق م
وعدد ملوكهما ٤

اول ملوك العائلة الحادية عشرة «انتف عا» لم يكن من ذوي العصبية الملكية انما كان من عمّال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي. على انهُ كان مهابًا لسطوتهِ وعلوّ همتهِ. بنى هرمًا من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجاء بمديرية قنا وجعل في وسطهِ ضريحًا متقنًا دُفنت فيهِ جثتهُ في تابوت غطاؤهُ مطليٌّ بالذهب استخرجهُ اهل تلك الناحية وذهبوا بهِ فلما توفى قام ابنهُ «منتوحتب» فجعل نفسهُ من مصاف الملوك وليس لهُ من الاثار ما يذكر بهِ

ومن ملوك هذه العائلة ايضًا «انتف الرابع» تمكن بحكمتهِ وبطشهِ من الاستيلاء على الوجه القبلي رغمًا عن ملوك اهناس واستقلّ بالحكم عليهِ وعلى اسيا الشمالية وقد قال «اني استوليت على الوجه البحري» ولا حجة لقولهِ. ومن مآثرهِ انهُ جدَّد بنايات رفيعة العماد في جهة قفط استعملت

انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . ولما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من اثاره مسلّة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعدهُ « منتوحنب الرابع » ولقب « بنخرورع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاتلهم حتى استقلّ بالملك جميعهِ فكل من حكم قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكًا مستقلين

وتولى بعدهُ «سنخ كارع» ومن عظيم اعمالهِ انهُ أنفذ «حنّو» احد رجالهِ فاتمّ الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مريرع المتقدم ذكرهُ جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتمّ بها التواصل مع بلاد العرب والهند . وكانت تسلكها القوافل قادمةً بالبضائع والسلع من بلاد الهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم كما سيجيء

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً منحتة يلونوّنها بالوان مختلفة زعمًا منهم ان احدى معبوداتهم « ايزيس » كانت ترفُّ على اخيها « اوزيرس » ناشرة جناحيها حنوًّا ومعظم اثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوبًا

اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبلها منقسمة غالبًا الى حكومات متعددة في وقت واحد امّا في ايامهم فانضمت جميعها تحت لواء واحد قاعدتهُ مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة « امنمحعت الاوّل » كان من اتباع الملك منتوحنب الثالث ويسميهِ مانيثون « امنميس » فلما استتبّ لهُ الملك قاتل الذين كانوا يكدرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة واسيا تجمعوا لقتالهِ حول قلعة تاتوي غربي منف فحاربهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكيمًا وشجاعًا مدربًا استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاتهِ ولّى ابنهُ «اوسرتسن الاول» ويدعوهُ مانيثون «سيسونخوسيس» وهو صاحب المسلّة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون مترًا وبعض المتر نصبها امام هيكل الشمس المدعو «اتوم» اجلالاً لذلك الهيكل ومعبودهِ ونصب بجانبها مسلّة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبقَ لها اثر الان. اما الاولى فلا تزال باقية منقوشًا عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمتهُ ملخصًا «ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاه قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليدًا لذكرهِ واحياء لهذا العيد» انظر الشكل السابع

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلّتها ترى حولك بقعة من الارض فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦. قدمًا بعرض ٣٥٦. محاطة بتلال متلاصقة كانها سور من تراب. يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب

ونصب اوسرتسن ايضًا مسلّة اخرى فيما يجازي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظنّ بعض المورخين مستنتجًا من سياق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انهُ الفرعون الذي حصلت في ايامهِ المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ. ويقال بالاجمال ان هذا الملك يُعدُّ من اول المؤسسين لهيكل طيبة «الاقصر» وقبل وفاتهِ امر مهندسهُ الخاص ان يبني لهُ مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضًا متصلاً بالنيل وصنع لها ابوابًا ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض.

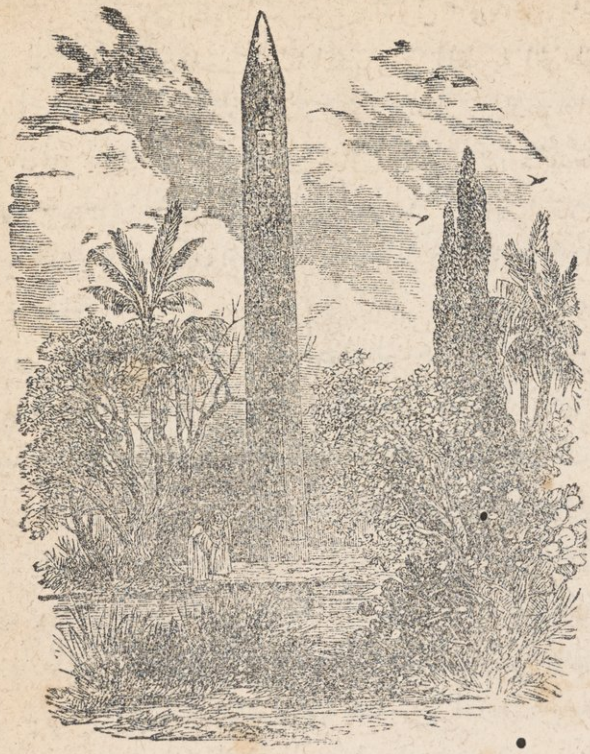

ش ٧ مسلة المطرية

ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميهِ مانيثون « سيزوستريس » ترك اثاراً كثيرة قلَّما يستفاد منها شيءٌ عن تاريخهِ وغاية ما عُلم منها ان مملكة مصر كانت في عصرهِ محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها ايضًا « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازمًا مقدامًا واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلتهُ في قلوب الاهلين فعبدوهُ ومن اعمالهِ انهُ جردَّ على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكتهِ . وشاد في وادي حلفا قلاعًا منها قلعتان تعرفان الان « بقمنة » و« سمنة »

لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجدران الشامخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرّت الآن

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية. ذلك ما فُهم مما هو مكتوب عليها. وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرنًا اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد «تحوتمس الثالث» معبدًا في سمنة وكتب عليهِ ابنهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين. ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة «امنحمعت الثالث» ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانهِ في اقليم الفيّوم. وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعًا معلومًا اذا بلغهُ كان غيثًا وحياةً لارض مصر واذا زاد عنهُ كان ضربة ودمارًا فتسقط الجسور وتغرق البيوت. واذا نقص لا تكون مياههُ كافيةً للرّي فيخشى من المجاعة. فلما علم هذا الملك بذلك همَّ الى تدارك الامر. فرأى في الصحراء الغربيّة من مصر باديةً شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم ينفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع. وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعًا عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربّعة. وبجانبهِ الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الآن ببركة قارون «او القرون» طولها يزيد عن عشرة فراسخ. فامر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احداهما كانت تبتديء من النيل بجانبهِ الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي. والاخرى كانت تجري شمالاً. وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبّان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاها قناطر بحواجز تُسدّ وتُفتح حسب اللزوم. فكانت تلك البقعة بصفة حوضٍ عظيم تجتمع فيهِ مياه النيل عند فيضانهِ عُرفت ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقلّ من احتياج الارض انصرف اليها من مياهه ما يسدُّ احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفح ماؤهُ انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تُسدُّ وتفتح على قدر الحاجة . وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار زيادته في جهة سمنة وقمنة وفي تلك الجهات الآن كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمانِ في كلٍّ منهما تمثال . واصل كلمة موريس « مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دُعيتْ بذلك نسبةً الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « پايوم » ومؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناءٌ هائل يعرف باسم « لابرانتا » واسمهُ بالمصرية « لابوراحونت » اي معبد فم البحر بناهُ هذا الملك لاجتماع مجلس الاعيان من الكهنة . وفي هذا البناء رحبات الى كلٍّ من الجانبين فيها من الغرف نحوٌ من ثلاثة الاف غرفة . ويحيط بالبناء من الخارج سورٌ عليهِ نقوش

اما بركة موريس فقد جفّت ولم يُعد لها أثر الآن . اما موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقتهِ ومن رأي المستر كوب وايتهَوس انهُ واقع في وادٍ وسيع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٤٠ ' ٤٨ ° و ٤٠ ' ٢٩ ° شمالاً وهو المعروف الآن بوادي الريّان . وقد اقترح المستر وايتهَوس مؤخرًا على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخرًا لماء النيل كما كان قديمًا

وامتدّت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية واسيا علاقاتٌ تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الليبيين علم الرياضة الجسديَّة (الجمناز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد

كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية الشكل في الآثار المصرية انما هي من مصنوعات هذهِ العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ٣٤٧٣ ـ ٣٠٢٠ ق ه او من ٢٨٥١ ـ ٣٢٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

من ملوك هذه العائلة «سبك حتب الثالث» له آثار كتابية على صخور شامخة صعبة التسلق عند ضفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في السنة الثالثة من حكم الملك سبك حتب الثالث واوطأ جزء من هذه الكتابة يعلو اعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعهِ في هذه الايام بنحو سبعة امتار. وذلك من الادلة على انّ النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منهُ في هذه الايام بما يستحق الاعتبار. وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من سنة ٣٠٢٠ ـ ٢٨٢٦ ق ه او من ٣٢٩٨ ـ ٣٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريرًا للدول المصرية نحوًا من سبعمائة سنة. على ان ملوك العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمامٍ لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانّما صرفوا اهتمامهم في تعمير الدلتا ورفع شأنهِ فزهت

منديس وسايس وبوباستس وعلى الخصوص تانس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريرًا لملكهم . اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينةٍ كانت تدعى خيس (سخا) في منتصف الدلتا . لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وُجدت مكتوبةً على صفيحةٍ من الپاپيروس (البُردي) حُفظت في متحف تورين

العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من سنة ٢٨٢٦ ـ ٢٣٢٥ ق م او من ٢٢١٤ ـ ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا «اواريس» سريرًا لملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . اما القبلي فكان يحكمهُ بعض الملوك الوطنيين . اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون «هيكسوس» فقد اختلف المؤرخون في حقيقتهِ والأظهر انهم اخلاط من العرب واهل الشام واكثرهم من الحثيين . ومما يُؤيّد ذلك ان اكبر قبيلة منهم حكمت في مصر كانت تُدعى باللغة المصرية القديمة «خيتا» والعرب يسمونهم العمالقة ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا فنفاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجًا حتى انتشروا فيها كالجراد . وجعلوا يعيثون استبدادًا فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها . واتخذوا منف قاعدةً لحكمهم ففرَّ الملوك المصريون الى الصعيد

واول من ملك من العمالقة «سلاطيس» شاد قلاعًا حصينةً في اماكن مختلفة وجعل في السويس جندًا عظيمًا خيفة ان يهاجمهُ كنعانيو الشام والعراقيون . وفي ايامهِ تقاطر اهل اسيا الى مصر أسرابًا يطلبون ملجأً ورزقًا فبنى لهم في اواريس معسكرًا عظيمًا يسع نحوًا من مائتين واربعين

الفًا وجعل حولهُ خندقًا ورتّب لهم ارزاقًا فصاروا لهُ اعوانًا فهابهُ المصريون

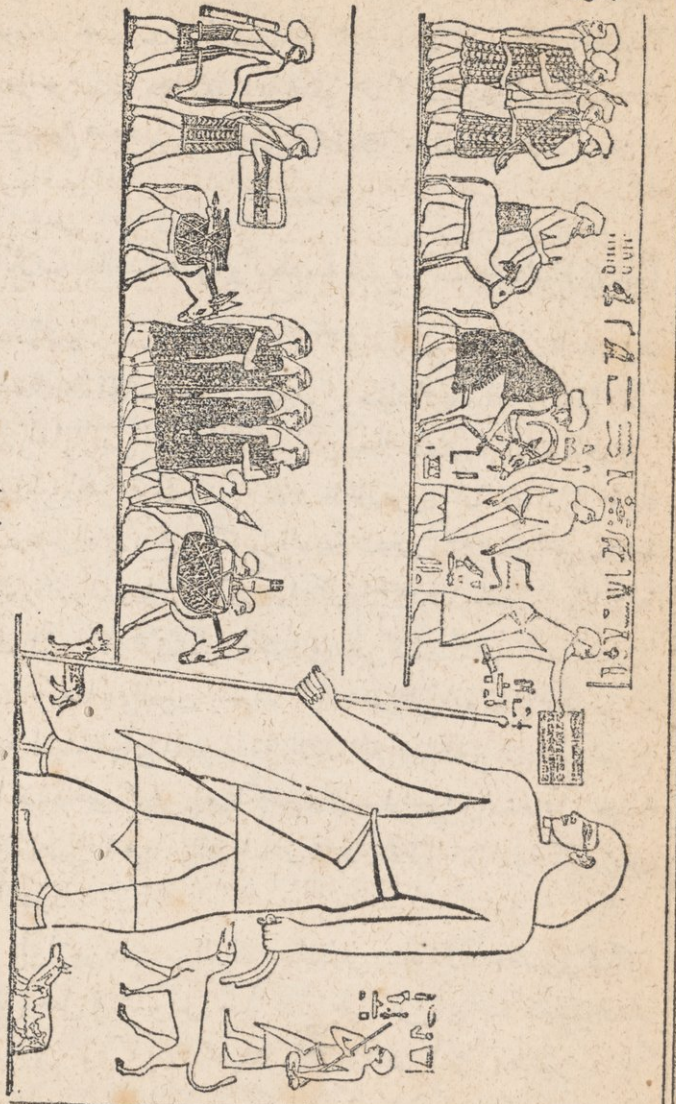

ش ٨ مهاجري اسيا

ثم تداول خلفاؤهُ على سرير الملك الواحد بعد الاخر . وعددهم ستة ومدة حكمهم جميعًا مائتان وستون سنة وقد كانوا في اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شرَّ المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قرَّبوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرفوا اهتمامهم في احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المدارس والمعابد ودانوا بديانة اهل مصر . فخضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يُعرف منهم الاَّ ملك واحد يدعوهُ المصريون « اباي اعاكنن » والعرب يدعونهُ « الريَّان ابن الوليد » ومانيثون يدعوهُ « اپوفيس » . وفي ايامهِ نزح كثيرون من أهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوها . وفي ايامهِ ايضًا وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يُدعى بلغة مصر القديمة « پدفير » اي هديَّة الشمس وقصتهُ مشهورة . وقد وُجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيِّد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كلٍّ من الحكومتين نحوًا من ٤٣ ملكًا قلَّما يعرف عنهم وكانت قاعدة مملكة الرعاة « صان » والوطنيين « طيبة » . وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنتهِ حتى انتهى معها حكم الرعاة وبانقضائهِ انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٢٢٥ الى ٩٥٤ ق ه وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ٢٢٢٥ ـ ٢٠٨٤ ق ه او من ١٧٠٢ ـ ١٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤ ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اوّل ملوكها «احمس» ويسميهِ مانيثون «اموزيس» تزوّج بابنة ملك اثيوبيا وتحالف معهُ على طرد بقية العمالقة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اواريس برًّا وبحرًا فحاصرهم ثم طردهم منها . وما زال يتتبعهم بجنودهِ حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها مدة ستماية سنة . وبقيت منهم بقيةٌ رضخت لاحكامهِ قهرًا . وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصتهُ اهل النوبة فجرَّد اليها وظهر عليها اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعتهِ بغير حرب وامتدت سلطتهُ الى البحر المتوسط . وفي السنة الثانية والعشرين من حكمهِ استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد «فتاح» في منف ومعبد «امون» في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وُجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في متحف بولاق

ومن ملوكها «امنحتب الاول» ويسميهِ مانيثون «امنوفيس» كان ملكًا عادلاً مسالمًا تزوّج بابنة ملك اثيوبيا وجثتاها في متحف بولاق الان

ومن ملوكها ايضاً «تحوتمس الاول» رغب في توسيع دائرة ملكهِ فجعل يحارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطتهُ الى محاجر مدينة «انبو» في وسط النوبة ويُستدَل على ذلك بوجود اسمهِ منقوشاً على حجر هناك. وقد وُجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك. وامتدت مملكة مصر في ايامهِ جنوباً الى جبل «أبته» في الحبشة. وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرها. اما معظم ثروة بلادهِ فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونةً في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيرهِ. ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من «نب» اي ذهب. ومن آثارهِ انهُ شاد معبد امون في الكرنك ومسلّتين احداهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان.

ومنهم الملكة «حتشبو» ويسميها مانيثون «مفرس» ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجلٍ ذي لحيةٍ ملوكيةٍ مهيبة. وقد سعت هذه الملكة الى نشر سطوتها فافتتحت بلاد «بون» جنوبي بلاد العرب فكانت فيئاً للتجارة. وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل. ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتهما في الكرنك لم تزل احداهما قائمةً الى هذه الغاية عليها كتابةٌ بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها. وكان على قمة كل منهما اكليلٌ هرميُّ الشكل مصنوع من الذهب المغتنم من الاعداء. والمسلّة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً اربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة «تحوتمس الثالث» وهو شقيق الملكة المتقدم

ذكرها . لم يمكنهُ الملك الاَّ بعد وفاتها ولم يكن راضيًا بحكمها الاَّ رغمًا عنهُ فلمَّا تولَّى محا اسمها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمهُ مكانهُ لتُنسب تلك الانتصارات اليهِ

رأس تحوتمس الثالث ش ٩

وفي ايامهِ استقلَّت اسيًّا من سلطة المصريين الاَّ غزَّة وضواحيها . ثم ظهر التمرد في الشام فثار اهلها وحرَّضوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدنًا اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق والجزيرة وبعد انتصارهِ أراد اكرام جيشهِ فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافرًا . ثم لم يمضِ يسير حتى عادت اسيًّا الشمالية الى الثورة فشقَّت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرَج عليهِ الزنج والعبيد من النيل الأعلى فحاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى الى مصر . (انظر ش ١٠) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروبًا وشدائد ولذلك لقبوهُ بالسلطان الأكبر . وفي متحف بولاق حجر جيّ بهِ

ش ١٠ زنوج مكتّفون

من الكرنك عليه من الأعلى صورة الملك المذكور كأنّه يقرّب القرابين لبعض الآلهة وهم وقوف بين يديه وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثر ونظم كُتبت عن لسان أمون إله طيبة يخاطب بها الملك بما يُشبه المدح والتنشيط

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس. اما جثّته فتُشاهد في دار التحف المصرية في بولاق. ومن آثار تحوتمس الثالث مسلتان اقامهما في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوبطرا نقلتا الى الاسكندرية وجُعلتا امام هيكل القيصر وعُرفتا بعد ذلك بمسلتي كليوبطرا وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينها اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي الثاني ولا وجود لاسم كليوبطرا عليهما. وفي سنة ١٨٧٧ ب م نقلت احداهما الى لندرا واقيمت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك «امنوفيس الثاني» استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الّا ان اشور نظرًا لبعدها من مصر ثارت واستمالت اليها ما حولها من المدن فجهّز اليها امنوفيس وما زال

يحاربها ومن تابعها نحوًا من سنتين كان يتردَّد اثناءها بين العراق والجزيرة وأكاد. واخيرًا عاد الى مصر بحرًا غانمًا ظافرًا. وفي جملة ما جاء بهِ من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلَّق ستًّا منها على سور طيبة. ولهذا الملك رسمٌ منقوش على مقبرة في القرنة هو فيهِ على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نُقش على قاعدتهِ اسماء البلاد الخاضعة لهُ

ومن ملوكها ايضًا الملك «تحوتمس الرابع» ومن اعمالهِ اعادة عبادة الشمس الى مصر. فكرَّم ابا الهول المرموز بهِ عنها. ومن بزر هذا التمثال العظيم في الجيزة برَ في صدرهِ لوحًا ارتفاعهُ اربع عشرة قدمًا انكليزيةً في اعلاهُ الى اليمين رسم هذا الملك يقدِّم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس. وبلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يُبقِ شيئًا في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والاماثيل والمعبودات وكان ملكًا قويًّا مهابًا

ومن ملوكها ايضًا «امنوفيس الثالث» لما تولَّى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدةً شمالاً الى نهر الفرات وجنوبًا الى جلَّة ولكثرة شهرتهِ في الاقطار الغربيَّة دعاهُ اليونان بالممنون. ولهُ تمثال عظيم في طيبة مشهورٌ بهذا الاسم. وقد كثرت في ايامهِ القلاقل والفتن فسعى الى اخمادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلاً مقدامًا. كل ذلك تراهُ مكتوبًا نقشًا على تاج هيكل الاقصر لانهُ جدد فيهِ قسمًا عظيمًا. وكان يُلقب نفسهُ بسلطان البرَّين وامير العالمَين (بريد عالَمي اسيَّا وافريقيا) وكان حسن السياسة فزادت مصر في ايامهِ سطوة ومملكتها اتساعًا

ومن آثارهِ هيكل في «نبته» جعل في الطريق الى بابهِ صنَّين من الكباش الراقدة على مثال ابي الهول وحسَّن معبد تحوتمس الثالث في سولين بين الشلال الثاني والثالث وشاد هيكلاً غربي الكرنك خدمةً للمعبود أمون. وهناك اصلاحات اخرى اجراها في هياكل ومعبودات اصوان

وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الأقصر معبدًا طالما كان من اعظم الآثار القديمة اما الآن فقد اصبح خرابًا لاسباب لا نعلمها الا صنمين كبيرين كانا على بابهِ ولا يزالان قائمين رغمًا عن مصادمة الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثال امنوفيس الثالث كما ترى في الشكل الحادي عشر . وبقيا الى سنة ٥٩٥ قبل الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احدهما الأعلى وبقيت قاعدتهُ في مكانها فلوحظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها الندى ثم اشرقت عليها الشمس اخرجت صوتًا يستمر مدةً فجعلوا يقولون في شأنهِ اقوالاً شتى اكثرها مبنيٌّ على الوهم والخرافات . ثم اهتم القوم باعادة الجزء الساقط الى قاعدتهِ فاعادوهُ وملّطوا مكان الالتحام جيدًا فلم يعد يسمع لهُ صوتٌ فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعّة الشمس على نقط الندى بعد تخللها جسم ذلك الحجر

ش ١١ امنوفيس الثالث

ومن ملوكها ايضًا الملك « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل العمارنة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريرًا لملكهِ بدلاً من طيبة ونقل اليها معبود قرص الشمس وسماه (أتَنْ) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامهُ في معبد ابتناهُ من اجلهِ . وقد نقبوا مؤخرًا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على دهليزين وستة اعمدة مدرّجة الوضع يظهر انها كانت منصوبةً في صحنهِ وشاهدوا على جدرانهِ رسم الشمس مشرقة على الملك ورجالهِ وهم وقوف يقربون القرابين اليها وبين اشعّتها ايدٍ ممتدّة كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعيةٌ وقصائدُ كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى

جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك ورجالهِ على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة بتل العمادنة نقوش بينها صورة الملك واقفاً على عربتهِ الحربية وبجانبهِ بناتهُ السبع يقاتلنَ معهُ ولهُ آثار في سوليب وهيكل ومسلَّة بمدينة طيبة .

ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع » ثارت عليهِ الرعية عند اول حكمهِ فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة جميعها واعادة الديانة المصرية القديمة . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك . وفي ايامهِ خرجت اسيا من سلطة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ١٩١٠ ـ ١٨٠٣ ق م او من ١٢٨٨ ـ ١٤٦٣ ق م وعدد ملوكها ٨

اول ملوكها « رعمسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن انهُ كان مصريَّ المولد او اسيويَّهُ تبوَّأ كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية ثنَّ لخروج معظم ايالاتها من طاعتها على أثر الحرب الدينية فجدَّد شبابهُ ونهض للجهاد فحارب الاثيوبيين والحثّيين وكانوا امَّةً عظيمةً تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان هذا الملك هو أول من ناهض الحثّيين واخترق بلادهم وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاصي

وخلَفهُ ابنهُ « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع مملكتهِ فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربيَّة . ذلك ما يستفاد مما كُتب على هيكل الكرنك

ش ١٢ اسرى الحثيين

فغزا غزوات عديدة الى الشام والعراق وغيرها ففتح بلادًا تمتد من جنوبي الشام الى ارمينيا . وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرّة فادخل اهلها في طاعتهِ وجعل عليهم حكّامًا من امرائهِ واحاطهم بنقط حصينة كغزّة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجالهِ فأمِن طغيانهم الّا ما جاور الفرات فانهُ عجز عن ابقائهِ في حوزتهِ وعصتهُ الجزيرة والعراق ولم يعد قادرًا على مقاومتهما فوقف عند حدّهِ ولذلك كانت فتوحاتهُ كبيرةً في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات جعل يمكن العلاقات مع ايالاتهِ بواسطة النقط العسكرية التي كان قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم المتحابّة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثّلوهُ بالشمس وكان لهذا المعبود زوجة اسمها (استارته) مثّلوها بالقمر واتخذوا من اسيا ايضًا آلهة اخرى

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة واخر في رداسية واخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجرًا جعلهُ في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبتدئ من تل بسطة وتجري شرقًا في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة وهي خطّ دفاع شرقي مصر وشاد محرابًا في القرنة وفتح طريقًا للقافلة بين قرية رداسية باقليم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عينًا صناعية بنجر

منها الماء غزيرًا . واصلح الغار الذي في بني حسان للمعبودة « بشت » ويعرف الان بغار " اتيميدس " واخيرًا بنى لنفسهِ ضريحًا في بيبان الملوك يعجب لهُ كل من عاينهُ لدقّة صنعهِ ولما فيهِ من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال لهُ « رعمسيس الاكبر » لانهُ في الواقع اعظم واشدّ من ملك مصر حكمةً وبطشًا . حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبانٍ ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الّا وعليهِ اسمهُ ورسمهُ . وُلّي الملك صغيرًا فشبَّ معتادًا على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيهِ فطنة ونباهة منذ حداثتهِ . ولما توفي والدهُ قام باعباء الملك بنفسهِ فاخذ في توسيع نطاقهِ بالفتوحات . واوّل غارة شنّها كانت على الشام فسار بجيشهِ وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركًا اثرًا منقوشًا على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمهِ ثار عليهِ سكان شمالي اسيا وهم الحثّيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقوامًا من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربتهِ وساروا جميعًا حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليهِ امرآءهُ ورجال دولتهِ وقوّادهُ وجنودهُ وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس . فاذا هي على جانب من المنعة ففرّق رجالهُ فرقًا في نقطٍ معينةٍ ثم سار في حاشيتهِ منفردًا فلقيهُ جواسيس الحثيين فاغروهُ على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيتهِ تاركًا جيشهُ في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا بمركبات الحثيين حولهُ لاعداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيتهِ طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رعمسيس وحدهُ فاستنجد الههُ وهاجم الحثيين بمفردهِ على مركبتهِ ففرّقهم وفاز بهم وبعد يسير عادا اليهِ رجال حاشيتهِ وقد كادوا يذوبون خجلاً لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم

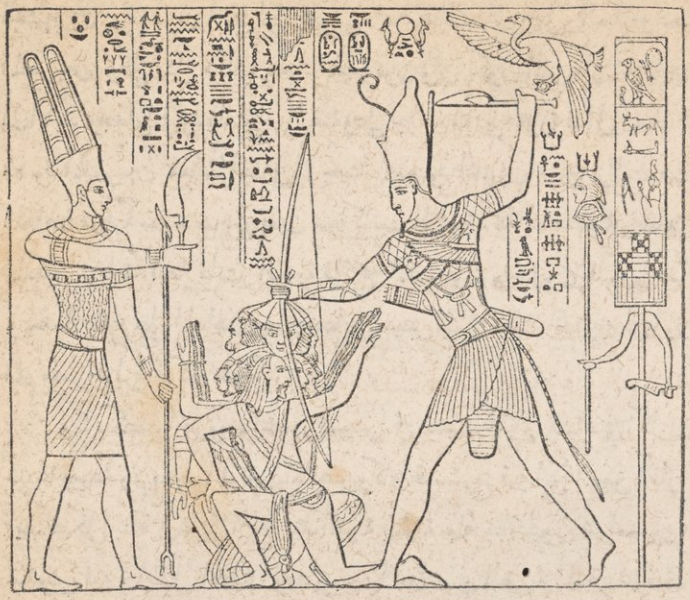

ش ١٢ رعمسيس الثاني يقاتل الحثيين

ثم اجتمع بجيشهِ ثانيةً وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينهُ وبينهم ثم همَّ بالجلاء من اسيا . وبينما هو في طريقهِ الى مصر ثار عليهِ الكنعانيون وانضمَّ اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الاَّ اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا أوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي ثابور وميروم وقلعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالاً وقاتل هناك حتى أخذ من الحثيين مدينتين وُجد في احداها الان تمثالهُ وما زالت الحرب سجالاً حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رعمسيس وذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمهِ فعقدوا معاهدة كُتبت اولاً بلغة الحثيين ثم نُقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان

الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبهِ الأعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقًا لتمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعيَّةً مدة ست واربعين سنة كانت الراحة اثناءها مستتبَّة وتصاهر الملكان توطيدًا للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلبًا واحدًا وبعد التوقيع على المعاهدة يسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارتهِ الى مصر فزارهُ فاكرم مثواهُ

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبدًا وتم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيهِ ابوهُ . ومن آثارهِ ايضًا هيكل بناهُ في شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماهُ شامبليون «رامسيون» منقوش فيهِ تفاصيل احدى وقعاتهِ ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف ونل بسطة وغيرها وأسَّس في الوجه البحري مُدنًا عديدة دعاها باسمهِ . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيتهِ من المحبة الى حدّ الشغف وكان لهم فيهِ من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دُفن في مقبرة بيبان الملوك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى متحف بولاق وهو هناك الى هذه الغاية .

ومن ملوك هذه العائلة «منفتاح الاول» ابن رعمسيس الثاني اتَّبع خطوات ابيهِ فجعل يزيد في بنايات الذلتا وتحسينها ثم ثار عليهِ اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين فانفذوا اليهِ بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوَّةً بالعدة والرجال من قبائل مختلفة وما زالوا حتى انوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الذلتا كل ذلك والمصريون لا يبدون حراكًا الا اذا كان للتسليم ولم يمضِ كثير حتى اصبح معظم الوجه البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفتاح بذلك تجنَّد في منف وارسل فرقة من

فرسانهِ لمقابلة العدوّ ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد . فتقاتل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتّتتهم وعاد المصريون فائزين غانمين بعد ان احرقوا معسكر العدوّ فعاد الأمن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائليين هاجروا مصر في ايام هذا الملك ولهم على ذلك ادلّة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسيسية)

حكمت من سنة ١٩١٠ ـ ١٧٤٣ ق م او من ١٢٨٨ ـ ١١١٠ ق م
وعدد ملوكها ١٢

من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي اول حكمهِ ثارت عليهِ اهل البداوة فنهددوا استحكامات الذلتا واهانوا العملة الذين كانوا يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعتهِ وسطا الليبيون على ارضهِ فاحتلوا بعضاً من الذلتا من جهة الغرب

فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجالهِ على البدو فهزمهم ثم على الليبيين فاقلعهم من محلّهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جرّدوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى أتوا الذلتا فلاقتهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبالٍ بما كان حولهُ من الأسهم المتساقطة عليهِ من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالاً الى ان فاز المصريون فوزاً تاماً .

ولهذه المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاوّل من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو

سنتين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضمّوا اليهم بعضًا من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقابلهم المصريون بثبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضًا . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمّة المصريين ايضًا اهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهابة واسعة النطاق واستعزّ رعمسيس بالملك . الا انهُ لم ينجُ من بعض المتاعب الداخلية لأن اخاه ارمانيس كان يسعى اليهِ بدسيسة يُذهب بها حياتهُ ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فانى باخيهِ ومن شاركهُ وبعد تحققهِ ارتكابهم جازى كلًّا منهم بما فعل فصفا لهُ الدهر فجعل يجدّد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصرًا كبيرًا نقش على جدرانهِ ما كان من محارباتهِ ووسع معبد الكرنك واصلح هيكل الأقصر وغيرهُ من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامهِ رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخر من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامهِ منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصّدها الاعداء يريدون التهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو أوّل من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبية والطينية

حكمت من سنة ١٧٤٣ ــ ١٦٠٢ ق هـ او من ١١١٠ ــ ٩٨٠ ق م
وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختلس الحكم اختلاساً من العائلة الرعمسيسية على اسلوب دنيء منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من بقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنهُ الكاهن (يعنخي) وليس لهُ ما يذكر بهِ سوى انهُ تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنهُ الكاهن "بينوزم الاول" وفي سنة ٣٥ من حكمهِ قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعمسيسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامهِ اتى النمرود بجيشهِ من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعمسيسية وانما كان قصدهُ الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت آمالهُ واخذها عنوة وضمها الى بلادهِ ثم توفي النمرود ودفنتهُ امهُ في العرابة المدفونة وجعلت لمدفنهِ المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنهُ (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً لملكهِ وسيأتي ذكرهُ في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٣ ـ ١٤٢٣ ق ه او من ٩٨٠ ـ ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٧٠ سنة

اول ملوكها الملك «ششنق الاول» ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . وُلد في مصر ونشأ فيها ولما استتبَّ لهُ المقام في عاصمتهِ سار الى العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيهِ فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة الفضيَّة فأمر بقتلهم بعد ان سار الى

طيبة واستشار معبودها «امن رع» بذلك . واعاد الى المعبد منهوباتهِ ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة

ومن اعمال هذا الملك انهُ سار الى فلسطين ووضع يدهُ على اموال المسجد الاقصى الذي بناهُ سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكيَّة وفيها الدروع السليمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائيليين فسلموا لهُ القلاع بغير قتال . وبعد عودهِ من هذه الغزوة نقش صورتهُ على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطة الذي أسَّسهُ هو وبجانب صورتهِ اسماء المدن التي افتتحها مكتوبةً في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمهِ وفي جملتهم الملك رحبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهرهِ وفي عنقهِ حبل كما ترى في الشكل الرابع عشر اما الكتابة الهيروغليفية التي على الرسم فهي لقب رحبعام «ملك يهوذا» . وبنى عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكرهُ ولا تزال آثارهُ باقية الى هذا العهد قبلي هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان البسايطة وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة

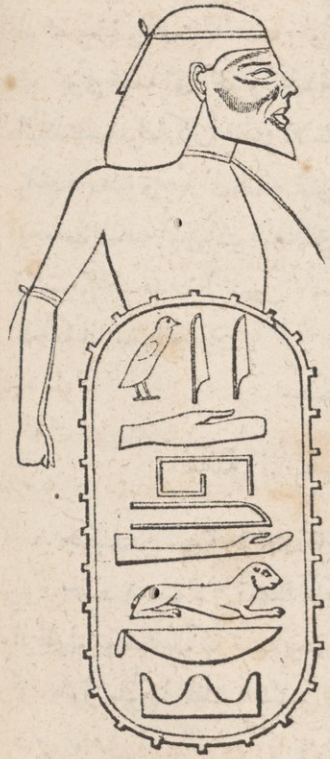

ش ١٤ ملك يهوذا

وتولى بعدهُ ابنهُ «اوسوركون الاول» وليس لهُ آثار تُذكر وخلفهُ هذا ثلاثة ملوك ليس لدينا شيءٌ من

اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكلوت الثاني » وله لوح حجري في رواق البسايطة بالكرنك منقوش عليهِ بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرتهِ وفي ايامهِ ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد نفذ نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « شششنق الثالث » « وبيمايي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى اعمال متفرقة على كل منها حاكم ليبي تحت ادارتهم فاستبدّ اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً وما زالوا حتى ازالوا سلطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم ولقبوا انفسهم بالفراعنة ونزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت شششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٤٣ ــ ١٣٤٤ ق هـ او من ٨١٠ ــ ٧٢١ ق م
وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اوّل استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اوّل ملوك هذه العائلة . وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولّى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامهِ الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٤٤٣ ـ ١٤٢٧ ق ه او من ٧٢١ ـ ٧١٥ ق م
وعدد ملوكها ٥

اوّلهم « تفنخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوتهُ شيئًا فشيئًا حتى تمكّن من جميع مصر قبليها وبحريها الاّ اقليم الشرقية فانهُ تركهُ للعائلة الملوكية السابقة ولمّا علم ملك اثيوبيا بما كان جرّد اليهِ جيشًا وحاربهُ فقهرهُ ونقش صورة المحاربة على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمهُ « يعنخي » جعلها ملحقة ببلادهِ لكنهُ ابقى لروسائها الامتياز وجعل «تفنخت» ملكًا عليهم بالاصالة وبعد يسير مات يعنخي وخلفهُ آخر لم يكن اهلاً للاحكام فتحرر المصريون من سلطتهِ فانسحب برجالهِ الى بلادهِ وفي اثناء ذلك مات تفنخت فتولى بعدهُ ابنهُ « باكوريس » وكان قويّ الادراك فقيهًا بارعًا فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمهِ الاّ ان الدهر لم يدُم لهُ لأن الدولة الاثيوبية اصبحت تحت سلطة ((سباقون)) فجاء مصر وافتتحها عنوةً والقى باكوريس حيًّا في النار وبموتهِ ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايالة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٤٢٧ ـ ١٢٨٧ ق ه او من ٧١٥ ـ ٦٦٥ ق م
وعدد ملوكها ٤

اوّلهم « سباقون » المتقدم ذكرهُ تولّى زمام مصر وجعل لنفسهِ القاب الفراعنة واخذ يبثّ النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقى كل رئيس على اقليمهِ مع حفظ نفوذهِ عليهم جميعًا بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصًا على البلاد ان يمسّها غرقٌ او شرق ورمّم كثيرًا من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكتسب ثقة المصريين واشتهر بالرأفة وحسن التدبير

الّا ان ذلك لم يدم لهُ لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدّت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هولاء في التخلّص من نير الاشوريين فأجمعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فأنفذ هوشع ملك اسرائيل اليهِ هدايا فاخرة وسأله التحالف معهُ على « شلمنصّر » ملك الاشوريين فاجابهُ سباقون الى طلبهِ طمعًا منهُ بالحصول على ما كان لاسلافهِ من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شلمنصّر فاحتال على هوشع حتى أسرهُ وفاجأ قومهُ بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا لهُ بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شلمنصّر » الى السامرة وحاصرها لكنهُ مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية . فاقيم مكانهُ « سرجون » رئيس قوّادهِ فاقتدى بهِ وسار على خطواتهِ فاتمّ فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهويد » احد المتحالفين مع سباقون . فلما رأى سباقون ذلك خاف على بلادهِ فتقدم بجنودهِ الى الشام لردّ « سرجون » بعد ان انضم اليهِ « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا بجيوش الاشوريين في مدينة رافيا وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية واُخذ « حانون » اسيرًا ونجا سباقون فضلّ في الصحراء الى ان وَجد من اهداهُ الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة لهُ لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نوالهِ . ولم يكن ذلك كل شقائهِ فانهُ بعد هذه

الهزيمة ثار عليهِ سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطينانيتس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعيًا الى اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقلَّ باكوريس بالوجه البحري لكنَّهُ لم ترسخ قدمهُ حتى انقسمت حكومتهُ على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفهُ ابنهُ « سيخون » فاغتنم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليهِ . وهذا ما لبث ان ثبتت قدمهُ حتى قتلهُ « طهراق » وتولى مكانهُ

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محاربًا نزع مدينة منف من « اسطفانيتس » ثم جاءهُ ملك اشور (اشوراخي الدين) فاتحًا ففرَّ طهراق الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلادهِ لتحفظ تذكارًا لتلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر فاعاد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمهِ وضرب عليهم الجزية وبعد أن تمَّ لهُ ذلك سار الى « نينوى » تاركًا بعض جنودهِ حامية في قلاعهِ خوفًا من غائلة الاثيوبيين فمرَّ اثناء الطريق بنهر الكلب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبهُ رعمسيس الثاني نقوشًا كثيرة بيَّن فيها فتكهُ بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتنم طهراق فرصة مرض اشوراخي الدين وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليهِ فلما علم اشوراخي الدين بذلك وعلم بعجزهِ عن الدفاع تنازل عن الملك لابنهِ الاكبر « اشور بانبال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنهِ . فعاد طهراق الى مشروعهِ فتحالف مع المصريين سرًّا على ان يعضدوهُ فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليهِ اسرى الآن ذلك لم يمنع طهراق ممَّا اراد فهجم على مصر واستولى على منف وطيبة وابطل عبادة الصنم « ايبس » منها . اما

ملك اشور فجعل يقرّب منهُ رؤساء الاقاليم المأسوريين عندهُ استجلابًا لرضاهم وطلبًا لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة "نوان ميامون" ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائهِ مكتوبةً بالهيروغليف نقشًا على حجرٍ وجد في اطلال مدينة "نبته" بجبل برقل وهو محفوظ في متحف بولاق الآن

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ـ١١٤٩ ق هـ او ٦٦٥ـ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاوّل » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبيًّا ليس من العصبية الملوكية بشيء الّا انهُ اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكتسب حق التملك بواسطتها . فتولّى الملك ومصر ثِنٌ ضعفًا وقنوطًا لما قاستهُ من الحروب التي توالت عليها اعوامًا بين الاشوريين والاثيوبيين فأخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يعلفون فيها العجل « ابيس » ورمّم ما كان منهدمًا من معبد الكرنك . وباشر جميع هذه الاعمال دفعةً واحدة فاصبحت مصر كأنها معمل عظيم للبناء والترميم ونشّط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجًا رفيعًا . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة باعداء كثيرين اشدّ بأسًا منها كالاشوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضايق طرق الشام من الشرق وفي

ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من «تسال» لمنع أغارة الاشوريين وحصّن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انهُ عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلادهِ قانعًا بما اوتيهِ من النصر . وفي ايامهِ كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويُقطعهم من بلادهِ على سواحل بحر طينة ما يبتنون فيهِ معاقل وبيوتًا يقيمون فيها

اما اليونان فاعجبتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلّمون علومها وصنائعها واعجبتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لا نزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويجتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جدًّا في وجوب الابتعاد عنهم . اما «بسامتيك» فكان يحبهم ويقربهم منهُ حتى جعل بطانتهُ منهم وألّف ميمنة جيشهِ من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حدٍّ لم يمكنهم معهُ البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلًا لاشفاء ما في نفوسهم الا في المهاجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ ألفًا وهموا بالجلاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأبوا فقال لهم ولمن تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساء واولادًا وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشهِ فتألفت منهم جيوش عُرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك «انوبولس» . اما «بسامتيك» فعرف بعد ذلك خطأهُ فأخذ في اصلاحهِ فسعى الى انشاء الجيوش وحشدها ولكن هيهات ان تعود مصر

الى رونقها وكان الجاني على نفسهِ

ولما توفّي توفّى ابنهُ «نخاو الثاني» فاتمّ تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابيّة وهمّة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نيّة افتتاح سواحل البحر الاحمر والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان. ولاح لهُ لاتمام مشروعهِ ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل بحرية وعرضها يسع سفينتين اوّلها مدينة بسطة بقرب الزقازيق واخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقهُ الى هذا المشروع (حسب ظن بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سُدت بعد ذلك بالرمال. وسيأتي امامك كلام مفصّل عن تاريخ الوسائل التي اتُّخذت لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس في هذا الكتاب

ثم سار نخاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقهِ اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكرهِ من اليونان

ثم ان ملك الاشوريين «نبوخذ نصّر» ارسل ابنهُ بختنصّر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصودهُ حتى بلغهُ موت ابيهِ فعاد الى بابل مسرعًا بعد ان استرجع الشام. وحاول «نخاو الثاني» بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانيةً فلم يستطع

ثم توفي وخلفهُ ابنهُ «بسامتيك الثاني» وهذا لم تطل ايام حياتهِ فخلفهُ «وح ابرع» وهو الذي استنجد بهِ «صدقيا» ملك اليهود على محاربة بختنصّر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضًا بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجمًا وقتل ملكها واستولى عليها وأقام فيها عاملاً من امرائهِ وعاد الى بلادهِ وساق معهُ جميع من كان في مصر من العملاء الاَّ ان هيرودوتس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلادهِ ولذلك كان يحاذرهم لقوَّتهم على انهُ لم يخُ من غائلتهم فسلبوهُ بعضًا من بلادهِ لكنهُ بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكهِ فاستراحت مصر في ايامهِ فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضًا ابتنوا فيها بيوتًا لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجمل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها وبعد يسير سُنوا لانفسهم قانونًا مخصوصًا . وكانت تجارة مصر في ايديهم فاتسعت وباتساعها اتسعت شُهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم رأى « أموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعلها تنيدهُ ضد ملك فارس ففعل وتمَّ التحالف

وفي اثناء ذلك مات « كيروس » ملك فارس فقام ابنهُ « كمبيز » مكانهُ وكانت مطامعهُ لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليتهِ الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برًّا ولزيادة التامين عقد معاهدات مع القبائل البدوية التي في طريقهِ ليمدُّوهُ بالماء الذي يحتاج اليهِ رجالهُ وبناءً على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتى نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانهُ « بسامتيك الثالث » وهذا جهَّزَ جيوشهُ وعساكرهُ عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عددًا عظيمًا من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين

فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الاَّ الفرار ففرُّوا الى منف . فارسل اليهم «كمبيز» رسلاً في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروهُ اربًا وقتلوا من كان فيهِ جميعًا فاستشاط كمبيز غضبًا وانتقامًا فسار بجيشهِ الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيَّدهُ واهانهُ واودعهُ السجن ومن معهُ وكان بسامتيك صبورًا فاحتمل كل ذلك ولم يبدِ تضجرًا فعجب كمبيز لصبرهِ ثم اتفق بينما كان بسامتيك جالسًا في السجن مقيدًا وكمبيز بجانبهِ إذ مرَّ بهِ احد ندمائهِ السالفين متردِّيًا بثوب خلق فتأفَّف بسامتيك وصفع يدهِ على جبهتهِ متأسفًا فقال لهُ كمبيز مالك تتأسف وتتأفَّف الآن وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبدِ اثناءها اسفًا . فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانهُ كان في عزٍّ وقد اصبح كما ترى والرجل اذا حلَّت بهِ المصائب وتجرد من ذات يدهِ واهين شرفهُ يحق عليهِ الأسف فتأثر كمبيز من ذلك واسرع الى حل قيودهِ واعاد اليهِ شرفهُ الا انهُ رآهُ بعد ذلك يسعى ضدهُ فامر بقتلهِ فانتهت هذه العائلة وابتدأت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

وهي الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ ـ ١٠٢٨ ق هـ او من ٥٢٧ ـ ٤٠٦ ق م
وعدد ملوكها ٧

اولهم «كمبيز» المتقدم ذكرهُ فهذا كان براعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم من الاعتبار

وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له المام فيها واضاف الى اسمه القابًا فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هيبة وتأثير عند الامم المجاورة فسعوا جميعًا الى كمبيز بالهدايا والجزية عن يدٍ وهم صاغرون وجعل كمبيز مصر حصنًا يستعين به في فتح افريقيا. ثم جنّد لقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبرٌ

ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا وقدموها الى ملك اثيوبيا وكان فطنًا نبيهًا فعرف مقاصدهم لكنه اظهر استحسانًا لهديتهم. ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة "انظروا الى هذه القوس" ورمى منها سهمًا وقال "خذوا هذه القوس الى ملككم كمبيز واخبروه ان الانسب ان يأتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحدثه به نفسه حقًا لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء ما يكنه ضميره والا فليحمد الآلهة لاغضائنا عن بلاده" فلما بلغ كمبيز ذلك اخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبيا من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مسافتها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضًا فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يذيبه فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين لخيبته فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل "أبيس" والقاه للكلاب تاكله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق كما ترى في الشكل الخامس عشر ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فجوره حتى قتل اخته وغيرها ممن هم بريئو الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف. وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتله شعبه

وتولى بعده "دارا" فاخذ يسعى الى وسيلة يستجلب بها رضاء المصريين فاتفق موت العجل ابيس في اول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد

واظهر تأسفهُ الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل اخر مثله فاحبهُ المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامهِ كثيرًا فكان تحتها ٢١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف واراد ان يجعل تمثالهُ بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعتهُ الكهنة بحجة انهُ لم يأتِ بعد على ما أتاهُ رعمسيس الاكبر فانهُ فتح بلاد التتر فنال لهم دارا "اني أرجو ان اساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمرهِ" وأذعن دارا لقول الكهنة بكل احترام

ش ١٥ صورة القزم

ومن مآثرهِ انهُ مهَّد سبل التجارة فاتمَّ طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق قفط للمواصلات برًّا وطريق اسيوط الممتدة الى العرابة المدفونة ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر مجوسًا متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق

ثم ثار اليونان في اسيا فسار بجيش كبير لاقناعهم فاستغنم المصريون فرصة غيابهِ وشقُّوا عصا الطاعة وانزلوا ولاة "دارا" وعهدوا الحكم الى رجل يُدعى "خبباش" من سلالة "بسامتيك" فعلم دارا بذلك فهمَّ اليهِ لكنهُ توفي قبل اتمام مشروعهِ فأقيم ابنهُ "شيارش" مكانهُ فجاء مصر واسترجعها عنوة الَّا انهُ كان فاتر الهمة فاطلق تدبير الاحكام لولاة يعيثون بها كيف شاؤا وهكذا كان شأنهُ في سائر ولاياتهِ من اوربا واسيا وافريقيا فلم تمض مدة من الزمن حتى تجرَّد من سائر تلك الايالات وقتلهُ من هم حولهُ وتولَّى المُلك بعدهُ الملك "ارتحشارشا" فاحب المصريون الخروج من

طاعته فاستنجدوا عليه اليونان فانجدوهم فحصلت حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس

وفي سنة ٤٣٥ ق م توفي "ارتحشارشا" وخلفهُ الملك "شيارش الثاني" ثم "سوغديانوس" ثم "دارا الثاني" وبهِ انتهت هذهِ العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٣٨ ـ ١٠٣١ ق ه او من ٤٠٦ ـ ٣٩٩ ق م

ليس لهذه العائلة الاَّ ملك واحد يدعى "اميرتيوس" ولأَنهُ المصريون عند تخلّصهم من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

ابتدأ حكمها سنة ١٠٣١ ـ ١٠٠٠ ق ه او من سنة ٣٩٩ ـ ٣٧٨ ق م

وعدد ملوكها ٤

وليس في تاريخها شيءٌ مهمٌ سوى ان الفرس كانوا يتهددونها وقدموا يريدون الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

حكمت من سنة ١٠٠٠ ـ ٩٦٣ ق ه او من ٣٧٨ ـ ٣٤٠ ق م

وعدد ملوكها ٣

قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل

بينهما عدة مواقع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجربين ولم يفز الفرس الا في الموقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد «نكتانيبس» فانهزم الى النوبة وهو آخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يدهِ الى الفرس ومنهم الى الروم ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

وهي الدولة الفارسية الثانية

حكمت من سنة ٩٦٣ ـ ٩٥٤ ق هـ او من ٣٤٠ ـ ٣٣٢ ق م
وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك «اوخوس» الملقب «بارتحشارشا الثالث» وهو الذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً فجاء ابنهُ «ارسيس» وحكم سنتين ثم مات وخلفهُ احد اقاربهِ المدعو الملك «دارا الثالث» وكان يدعى قبل توليتهِ «كودومانوس» وكان معاصراً للاسكندر المكدوني المشهور وفي ايامهِ جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدأ نجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاتهِ وتوسيع مملكة ابيهِ ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجالهِ ثم قتلهُ احد نوابهِ فانتقل بعدهُ حكم مصر الى اليونان

الدولة اليونانية

العائلة الثانية والثلاثون

حكمت من سنة ٩٥٤ ـ ٩٤٥ ق ه اومن ٣٢٣ ـ ٣٢٣ ق م
اوّل ملوكها وآخرهم "اسكندر الاكبر المكدوني" . تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فمرّ ببقعةٍ من الارض على شاطئ البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانهُ رآها عبارة عن لسان من اليابسة داخل في البحر وعلى احد جانبيهِ بحيرة مريوط المشهورة فلاح لهُ ان يبتني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمهُ بنفسهِ وعهد اتمام العمل الى المهندس "دينوكراتس" فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنهُ ٣٣ سنة فنقلت جثتهُ الى الاسكندرية ودُفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون البطالسة

حكمت من سنة ٩٤٥ ـ ٦٥٣ ق ه اومن ٣٢٣ ـ ٣٠ ق م
لما تُوفي الاسكندر جاء "بطليموس الاول" من بابل ووضع يدهُ على مصر وجعل يسعى الى اكتساب ثقة اهلها ثم ارسل احد قوّادهِ المدعو ((نيكانور)) في جيش لافتتاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمضِ بضع سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرس وفينيقيا

ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يوصلها بالاسكندرية برزخ صغير برجًا يبلغ علوُّهُ الف ذراع على قمته نور يستضيءُ به القادمون بحرًا وقد هُدم هذا البرج الان ولم يبقَ له أثر . ومن مآثر هذا الملك مدرسة الاسكندرية الشهيرة فانهُ جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة في ذلك العهد وكان يُكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ مكتبة نفيسة طار صيتها في الافاق

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكمهِ عهد الملك لابنهِ البكر «فيلادلفوس» واجلسهُ على كرسي الحكم في حياتهِ سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقَّبهُ ببطليموس الثاني ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتمَّ بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخابرات مطلقًا وليتها لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعيًا لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك على تنشيط العلم وذويهِ فزاد في مكتبة ابيهِ فبلغت الاسكندرية في ايامهِ مبلغًا من العلم والثروة لم تَعُد ترى مثلهُ بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رحال العلماء والفلاسفة . وفي ايامهِ ايضًا تُرجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة

ومن آثارهِ خرائب انس الوجود عند شلال اصوان فانهُ هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلالهُ هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان و يدعوها العامة ايضًا جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء هذا الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطالسة . (أُنظر الشكل السادس عشر

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم تُوفي وخلفهُ ابنهُ «افرجيت الاول» ولُقب ببطليموس الثالث وكان محبًّا للفتوحات فجرد جيوشهُ

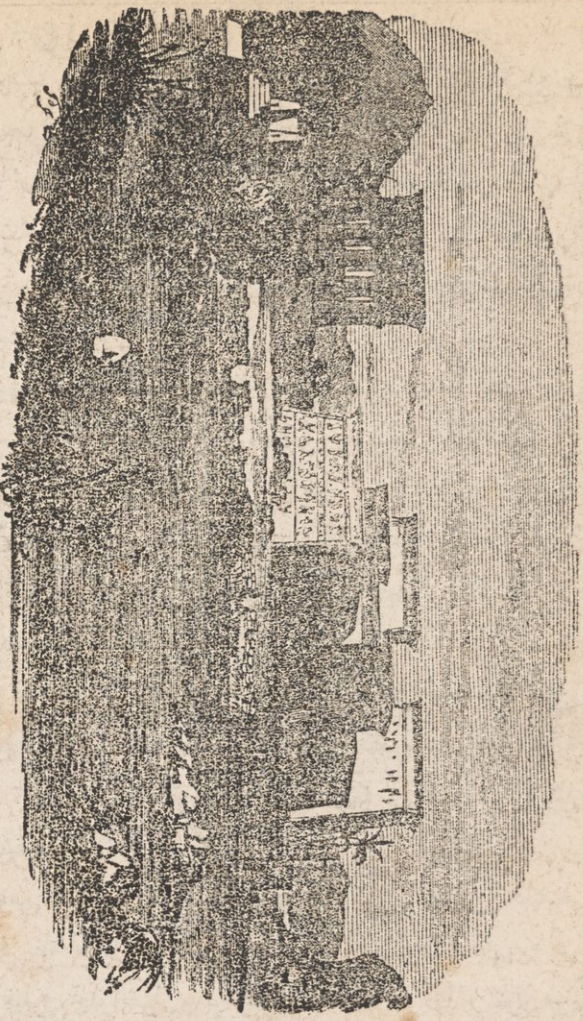

خرائب انس الوجود ص ١٦

الى اسيا مقتديًا برعمسيس الثاني فلم يكن حظهُ منها بأقل من حظهِ لانهُ دوّخ جميع البلاد التي على الفرات فبابل فالفرس فما وراؤها وضرب الجزية عليها كلها واعظم ما أسرّ بهِ المصريين انهُ استرجع من الفرس جميع ما كان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا اثيوبيا

حتى «ابريم»

وفي سنة ٨٤٤ قبل الهجرة او ٢٢٣ قبل المسيح توفي «افرجيت الاول» بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركًا الملك لابنهِ «فيلوباتر» فتولّى الاحكام حال وفاة ابيهِ ولقب ببطليموس الرابع الا ان المصريين اتّهموهُ بقتل ابيهِ فكرهُوهُ وكان فظًّا عاتيًا فزادهم كرهًا وبعد جلوسهِ بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس في سوريا فحاربهُ فطلب الصلح بان يرجع لهُ سوريا وفينيقيا فقبل فيلوباتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية كل ذلك واختهُ «ارسينوا» معهُ لم تفارقهُ يومًا واحدًا. فاصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فانعكف فيلوباتر على الملذّات فنسي واجباتهِ المقدسة نحو البلاد فكثر اللغط بين الاهلين وتكرّرت التظلمات وليس من مجيب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٣٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلامًا ولم يكن من وارثي الملك غيرهُ فما كان من فيلوباتر الا انهُ قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويهِ. وفي ٢٩ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوباتر واخفى اصحابهُ خبرهُ حينًا ريثما يتمكنون من سلب اموالهِ ثم شاع خبرهُ فاقاموا عوضًا عنهُ ابنهُ الوحيد «ابيفان» وهو بطليموس الخامس ولم يكن لهُ من العمر الا خمس سنوات فاقيم عليهِ وصيٌّ من سراة الدولة

وفيلوباتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد أتمّ بناءهُ مَن جاء بعدهُ من البطالسة. والهيكل المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانهُ باقٍ برمّتهِ الا ان الرمال قد غطّت جزءهُ السفلي وتراهُ في الشكل السابع عشر تام الظهور لا يغشاهُ شيءٌ وهي صورتهُ قبل ان غطتهُ الرمال فترى فيهِ الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفًا تامًا

فلما رأى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوباتر عاد

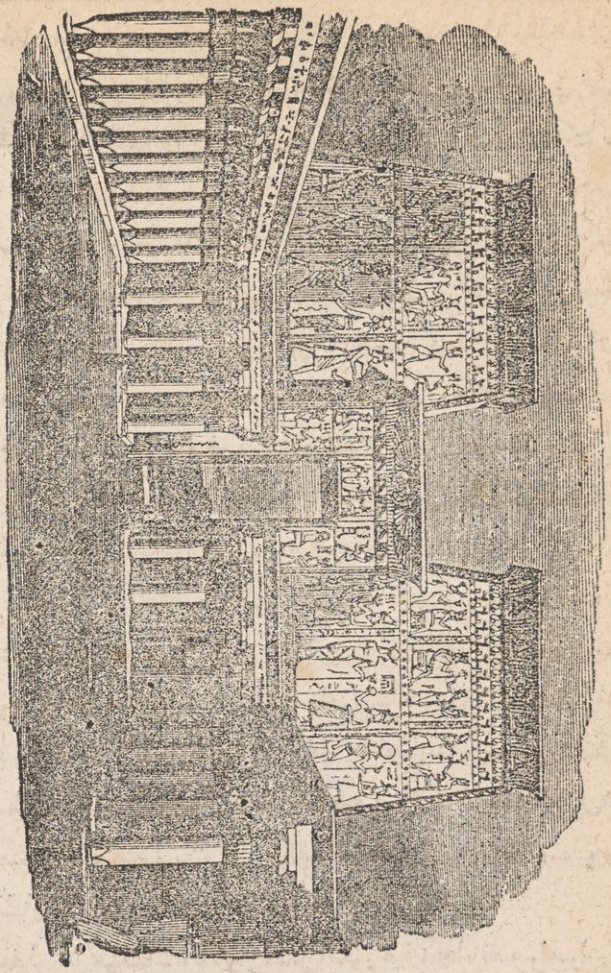

هيكل ادفو ق ١٧

الى ما كان شارعًا فيهِ فتح سوريا وفينيقيا عنوة وهمَّ الى مصر فعرض لهُ شاغلٌ اكثر اهمّية فعقد مع نواب مصر صلحًا على أن يُعطي ابنتهُ كيليوبيطرا زوجة لبطليموس الخامس وان يُترك لهُ في مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

وفي ٢٧ مارس سنة ١٩٧ قبل المسيح أُجلس «ايپنان» على كرسي الملك وسُلّم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئًا عن ذلك نقشًا على حجارة في

ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموقريتية واليونانية وقد وُجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطتها توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرَّ بك . وفي سنة ١٩٣ زُفَّت «كيليوبيطرا» ابنة «انطيوخس» على ايبفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمهِ زادت التشكيات والتظلمات لسوء تدبيرهِ ورخائهِ وما زال الاهلون يزيدون عليهِ حنقًا وحندًا حتى يئسوا من الاصلاح فأماتوهُ مسمومًا في سنة ١٨١ قبل المسيح

فتولى مكانهُ ابنهُ «فيلوماتر» وهو بطليموس السادس ولهُ من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امّهِ كيليوبيطرا فأقامت لهُ اوصياء من رجال دولتهِ العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمهِ انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالاً حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلوماتر . وسار السوريون في مصر برًّا الى منف اما الاسكندرانيون فلما علموا بسقوط منف وأسر ملكهم اقاموا عوضًا عنهُ اخاهُ «افرجيت الثاني» وبعد اربع سنوات أخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلوماتر الى منصبهِ

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلوماتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقيم على مصر «افرجيت الثاني» وهو بطليموس السابع وقد كان الحقُّ في الحكم لابن فيلوماتر الا انهُ كان صغيرًا فقتلهُ عمُّهُ وتزوج بامّهِ فكان الوريث الوحيد . ولم يكن «افرجيت الثاني» حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامهِ بغير وجه حق فكرهتهُ الرعية وصاروا يتوقعون لهُ داهية وبالغوا في اضطهادهِ الى حدّ أنهُ لم يعد يمكنهُ البقاء بينهم ففرَّ من مصر ثم عاد اليها وما زال حملاً ثقيلاً على عاتق رعيتهِ الى آخر ايام حكمهِ فاهتدى الى السراط واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انهُ كان يمارسهما بنفسهِ وألّف نحوًا من اربعة وعشرين كتابًا معظمها

في علم الحيوان

وفي سنة ٧٢٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح تُوفي افريجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كيليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرس فأتى مصر فولّتهُ الملك ودعتهُ «سوتر الثاني» ويسميهِ العرب «شوطار» فهو بطليموس الثامن ثم سعت الى ابعادهِ لغرض في نفسها فاشاعت انهُ مضمر قتلها فثارت عليهِ الرعية ففرَّ الى قبرس ثم الى سوريا فاستدعت اخاهُ «اسكندر» وولّتهُ الملك فكان بطليموس التاسع فخاف على نفسهِ ايضاً ففضَّل الاعتزال على اخطار الملك ففرَّ الى قبرس وكان اخوهُ «سوتر الثاني» في سوريا يستعدُّ للهجوم على مصر فلما رأت كيليوبيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرس وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كيليوبيطرا فكانت رغماً عن كل عاطفة والديَّة تحاول التخلص من ابنها هذا اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفرَّ من مصر. فاستدعى اهالي الاسكندرية «سوتر الثاني» من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فترحب بهِ المصريون الأاهالي طيبة لكنهم ما لبثوا حتى اذعنوا

وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة. ثم مات في سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

فتولّى مكانهُ ابنهُ «اسكندر الثاني» او بطليموس العاشر ولم يحصل في ايامهِ ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعيًا جهدهُ الى إرضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبُّونهُ بل كانوا يعتبرون فيهِ العسف والظلم وما زالوا عليهِ حتى أبعدوهُ من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراهُ مرض اشتدَّ عليهِ حتى ذهب بحياتهِ

بعد ان حكم ثماني سنوات

ولم يكن من العائلة الملوكية من يحكم بعدهُ فانتخب الاسكندرانيون من بينهم رجلاً يدعى « ديونيسيوس » ولقبوهُ « بأُولينس » لانهُ كان مغرمًا بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهمُّهُ امر الملك على ان مصر كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير لما كان يتهددها من المخاطر فثار الاهالي عليهِ في طلب الاصلاح وهو غير قادر عليهِ ولم يكن في وسعهِ اخماد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفرَّ الى رومية . وكان لهُ ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر مانت الاولى (كليوبيطرا) فتولَّت الثانية مدة سنتين فعلم « اولينس » بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنتهُ قصاصًا لها على اختلاسها الملك

وبعد يسير توفي اولينس فتولت ابنةٌ لهُ ثالثة اسمها ايضًا كليوبيطرا وكانت بالغةً رشدها ولولا ذلك لتولَّى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسهِ ان يتولى مكانهُ الاَّ ان كليوبيطرا جلست على الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في الملك وقد ملكت رغمًا عن صعوبات كثيرة كانت تحول بينها وبين ما تريد ففي اول الامر نازعها احد اخوتها ووافقهُ الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستنجدت بجيوش الروم فساعدها القيصر (يوليوس) واعاد لها الملك واغرق اخاها في النيل فتولَّت وتزوجت اخاها الاخر ثم سارت برفقة القيصر الى رومية وبقيت عندهُ الى يوم مقتلهِ سنة ٤٤ قبل المسيح

وفي سنة ٤٣ قبل المسيح قتلت اخاها بالسمّ فخلا لها الجو ثم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومين كانا في حرب مع « بروتس » فامدَّت هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولدًا دعتهُ

قيصرون نسبة لقيصر والده فكان هو الملك على مصر رسميًا

فلما بلغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا انجدت بروتس عدوّهُ بالمال والرجال خلافًا للمعاهدة استدعاها الى طرسوس للمرافعة فركبت زورقًا جميلًا مزخرفًا جؤجؤهُ من ذهب ومجاذيفهُ من فضة تُخرج عند التجذيف بها صوتًا موسيقيًا مطربًا وكانت كليوبيطرا من اجمل النساء فلبست افخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف لها امرًا فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غانمة

وبعد يسير زارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواهُ فدعاها ملكة الملوك ودعى ابنها قيصرون ملك الملوك بدعوى انهُ ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عُجبًا على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملوك فدعوها ابزيس الإلهة الجديدة . واما انطونيوس فانساهُ الغرام كل واجباتهِ ولم يعد يعلم نفسهُ أهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانهُ اصبح اسيرًا لكليوبيطرا وكتب اسمهُ بجانب اسمها

ولما بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ قبل المسيح فجهزت اوكتا فيوس بجيش وجعلت نقطة المحاربة في «فارنتو» و«برندزي» فلم يقبل انطونيوس بذلك وطلب ان تكون الحرب في فرساليا ثم جهّز جيشهُ وسار في خمسمائة مركبٍ وسارت معهُ كليوبيطرا في ستين مركبًا فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وأبت كليوبيطرا الّا ان تكون الحرب بحرًا ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئًا فشيئًا وكان انطونيوس مهتمًا باعداد المهمات الحربيّة غير مبالٍ بالموت في جانب مرضاة سالبة لبّهِ ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تخترق عباب البحر فاقتفى اثرها تاركًا

رجالهُ يحاربون ولا يدرون مقرّهُ وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر اما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رأت كيليوبيطرا ان محبّها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سرًّا الى اوكتافيوس وطلبت مساعدتهُ فوعدها بما تريد بشرط ان تتخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها ثم بلغتهُ خيانتها فقتل نفسهُ اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكيليوبيطرا سوءًا اما هي فاوجست خيفةً منهُ وجعلت تستجلبهُ بما استجلبت غيرهُ من قبلهِ فلم تفز وفي اخر الامر قبض عليها فتضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فاكلت السم وماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم اخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها

الدولة الرومانية

وهي العائلة الرابعة والثلاثون

حكمت من ٦٥٢ ــ ٢٤١ ق هـ او من ٣٠ ق م ــ ٣٨٠ ب م

لما ماتت كيليوبيطرا على ما تقدم دخلت مصر في حكم دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاّها والٍ منهم بحكم بمقتضى شرائعهم

وهذهِ الدولة هي اخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حكم

دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوهُ فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطس فانهُ بالغ في اضطهاد المسيحيين وقتل منهم جمعًا غفيرًا بين كهنة وعامة ومن تولية هذا الملك (في ١٢ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م) يبتدئ التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعوّل عليهِ عند الطائفة القبطية الى هذا العهد. وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكهِ في مدينة بيزانس (القسطنطينية) فانحطت سطوة مصر

وفي سنة ٣٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور "ثيودوسيوس" المصريين عن عبادة الاصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذًا لامرهِ هذا اسرع الى هدم جميع الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال جميع التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات التدين وكل ذلك كان بمساعدة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس. وهنا ينتهي الدور الجاهلي ويبتدئ الدور المسيحي

الدور المسيحي

يبتدئ من سنة ٣٤١ ق هـ — ١٨ ب هـ او من ٣٨١ — ٦٤٠ ب م

لما توفي «ثيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولداه «هونوريوس» و«أركاديوس» واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاها مملكتين شرقية

وغربية وجعلا عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكمين معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية

وكأن هذا الانقسام كان رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجالاً بين لاهوتيي بيزانس ولاهوتيي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب جمة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية فآل الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينها

فقد كانت النصارى اذ ذاك على قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورأيهم وديانتهم باجمعهم الديانة الملكية وعدتهم تزيد على ثلثماية الف رومي والقسم الاخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لا يكاد يميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتّاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع ازواجهم ويوجب قتل بضعهم بعضاً ويبلغ عددهم عشرات الاف كثيرة جداً وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها

وفي سنة ٦١٠ مسيحية في حكم هرقل كانت دولة الروم لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر وقد كانت ولا تزال . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مباديهم وحنظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجموا جميع تعاليمها اليها ولا يخفى ان ذلك مما جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم فقووا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان

في وسعهم لو حاولوهُ

ومما كان يزيد الاقباط ثبوتًا ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة ما كان يتهددها من جميع جهاتها فالفرس تهددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرهما من الولايات . الآن التقادير كانت تعدّ هذه البلاد لامّة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعني بها الامّة الاسلامية

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءًا من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الّا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها لمجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدئ الدور الاسلامي

تاريخ مصر الحديث

فصل في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم أرَ بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث مَن جاء على كتابة مستوفية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب مَن اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر واعتنى بتاريخها على انفراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجم بعض مشاهير حكام

مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنهُ اوجز كثيرًا فلم يأتِ بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضًا اثناء تكلمهِ عن تاريخ الدولة الاسلامية عمومًا . فكان قولهُ متفرقًا متخللاً فضلاً عن كونهِ موجزًا

اما مؤرخو المغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوبًا اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الأعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يسقطون المخاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء فيما بينهم والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يسقطوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا أُريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأتي على اصلها تمامًا

فرأيت ان لكلٍّ من الطرفين حسنات فجمعت بينها ملتزمًا صحة النقل وانتقاء اصحّ الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو مفعول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلاقات وتقاليد

فكان مجمل المؤلفات التي اخذتُ عنها كتابي هذا ما ينوف عن الاربعين مؤلفًا فضلاً عن القواميس الكبيرة . ومن هذه المؤلفات ما هو مطبوع تتداولهُ الايدي ومنها ما لا يزال خطيًّا محفوظًا في بعض المكاتب الخصوصية او العمومية كالمكتبة العامرة الخديوية ومنها ما لم يبقَ منهُ الا بعض الروايات المنقولة الى كتب الآخرين

وهاك جدول فيهِ اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في تأليف هذا التاريخ

الكتب العربية

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الخطط	المقريزي
الكامل	ابن الاثير
ديوان العبر وكتاب المبتدا والخبر	ابن خلدون
وفيات الاعيان	ابن خلكان
اخبار الأُوَل	الاسحاقي
الافادة والاعتبار	عبد اللطيف البغدادي
النجوم الزاهرة	ابو المحاسن
خطط القاهرة	ابن عبد الظاهر
نزهة المقلتين	القيسراني
فتوح مصر	ابن عبد الحكم
سيرة المعز لدين الله	ابن زولاق
تاريخ مصر الكبير	المسبحي
شرح الاربع	ابن رضوان
اخبار امراء مصر	الكندي
اخبار مصر وعجائبها	وصيف شاه
اخبار الزمان	المسعودي
مروج الذهب	»
الطالع السعيد في تاريخ الصعيد	لابي الفضل
اخبار النوبة	الاصواني
عجائب البلدان	شافع ابن علي
المنهاج	المخزومي

ايقاظ المتغفل	ابن المتوّج
الجوهر المكنون	الجوابي
عجائب الآثار	الجبرتي
زخيرة الاعلام	الغمري
رفع الاصر	العسقلاني
خطط مصر	علي باشا مبارك
تاريخ الدولة العثمانية	ابراهيم الطبيب
مصر للمصريين	سليم خليل النقاش
تاريخ الحرب السودانية	جبرائيل حداد الطرابلسي

الكتب الافرنجية

تاريخ الحروب الصليبية	مونروند	فرنساوي
» مصر الحديث	مارسل	»
» الحملة الفرنساوية	اميديه ريم	»
» محمد علي	ب وه	»
الانبياء الثلاثة (عرابي وغوردون والمهدي)	مونرو	»
المشرق ومصر	دافاسيه دي پونته	»
تاريخ الدوائر الصحية المصرية	نتروتسوس بك	»
الآثار المصرية	مري	انكليزي
الحوادث المصرية الاخيرة	شارلس روبل	»
تاريخ المماليك الى وفاة محمد علي	باتون	»
المملكة العثمانية	جمعية الرسائل الدينية	»

الانسيكلوپيديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

« حدود مصر واقسامها »

كانت المملكة المصرية قبل الحوادث السودانية الاخيرة تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة ألبرت نيانزا وشرقاً تبتدئ من العريش على ساحل البحر المتوسط ونسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سينا وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوّع فخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت لا تزال مستقلة . وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء لبيبا حتى دارفور ثم تنعطف شرقاً الى الجبال الزرق

اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري مع استبقاء سواكن وشبه جزيرة سينا وواحات صحراء لبيبا

فالقطر المصري او وادي النيل يحدُّهُ شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر حتى سواكن وغرباً راس الكنائس وصحراء لبيبا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين ينقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها

مصر السفلى

اسم المديرية	اسم قاعدتها
مديرية البحيرة	دمنهور
« المنوفية	شبين الكوم
« الشرقية	الزقازيق
« الدقهلية	المنصورة
« الغربية	طنطا
« القليوبية	بنها

مصر العليا

اسم المديرية	اسم قاعدتها
مديرية الجيزة	الجيزة
« بني سويف	بني سُويف
« الفيوم	الفيوم
« المنيا	المنيا
« اسيوط	اسيوط
« جرجا	سوهاج
« قنا	قنا

وتنقسم المديرية الى عدة مراكز على كل منها ناظرٌ

وفي القطر المصري عدا عن هذه المديريات خمسة مراكز كل منها مستقل باحكامهِ عن المديرية الواقع هو فيها تُدعى محافظات وهي محافظات القاهرة واسكندرية ودمياط وعموم القنال (بما فيهِ بورت سعيد والاسماعيلية والسويس) ومحافظة الحدود وعلى كلٍّ منها حاكمٌ يقال لهُ محافظاً. وجميع المديريات والمحافظات ترجع باحكامها الى نظارة الداخلية

وعند ما كانت بلاد السودان في حوزة الحكومة المصرية كانت

حكمدارية تحتها تسع مديريات هي مديريات دنقله وبربر والخرطوم وكردوفان وسنّار ودارفور والبحر الابيض والتاكا والجدارف . ومحافظة في محافظة سواكن

وقد كانت مساحة الاراضي المصرية قبل الحوادث السودانية الاخيرة نحوًا من مليون ونصف من الاميال المربعة فاصبحت الآن لا تزيد عن عشرة آلاف ميل نصفها في الدلتا والنصف الآخر فيما بقي

« سكان مصر »

بلغ عدد سكان مصر بناء على تقويم سنة ١٨٨٢ ٦٨٠٩٧٤٧ نفسًا منهم ٩٠٨٨٨ اجانب . ويظهر ان عدد سكانها في عهد المصريين القدماء قد تجاوز هذا العدد فقد قال هيرودوتس المؤرخ انهُ كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدينة وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسينوس يقول سبعة ونصف وقد انحط هذا العدد في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين ثم اخذ يتزايد من عهد المغفور لهُ محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى يومنا هذا

ويقسم سكان مصر الآن الى وطنيين واغراب فالوطنيون منهم سكان القرى وسكان المدن وعرب البادية وهولاء يقسمون الى ١٥ قبيلة متفرقين في انحاء القطر

اما الاغراب فمنهم الاوروباويون على اختلاف اجناسهم والاتراك والسوريون والحبش واهل نوبيا والزنوج وغيرهم

« مزروعات مصر »

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حُسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٢٠٠ نوعًا

فمن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفول والعدس والحمص والترمس والبشلة والباميا واللوبيا واللبلاب والبصل والكراث والثوم والخبيزة والخس والكرمب والباذنجان والرشاد والنجل والخيار والقثاء وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسمسم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والجميز والموز والمشمش والخوخ والرمان والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم واللبخ وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفًا لدى المصريين القدماء الآن بعضها قد دخل الى البلاد حديثًا منها اللبخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظلّهِ

حيوانات مصر»

نقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرّية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضان والماعز والخنزير والكلب والهرّ والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضان والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء

والحيوانات البرّية منها الخنزير البرّي والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل والوعل والحسين والذئب والثعلب والقط البرّي والنمس والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

خلافة عمر بن الخطاب

من سنة ١٣ ـ ٢٣ ﻫ او ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م

« مبدأ الدولة الاسلامية »

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبدالله القرشي (صلعم) ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ لميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ ايوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعوّل عليهِ الآن . وفي اخر السنة السادسة للهجرة كتب الى هرقل الروماني ملك القسطنطينية كتابًا يدعوهُ فيهِ الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتابٌ الى المقوقس بوحنا بن قرقت اليوناني حاكم مصر من قِبل ملك الروم فبعث اليهِ المقوقس اربع جوار منهنَّ مارية ام ابراهيم ابنهِ فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر

ثم كانت الغزوات والفتوحات المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي حضرة صاحب الشريعة (صلعم) وبويع الخليفة ابو بكر الصدّيق (رض) فعمل على استمرار الفتوحات حتى كانت خلافة امير المؤمنين عمر بن

الخطاب (رض) سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام أن ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز الثماني عشرة سنة

فلما رأى هرقل الروماني ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلادهِ عنوةً أوجس خيفةً على باقيها ولا سيما مصر الاَّ انهُ لم يكن في حسبانهِ ان العرب يقدمون الى مصر مفتتحين حالاً على أثر فتوحاتهم الكثيرة فاقام بينهُ وبين الخليفة الامام عمر بن الخطاب (رض) معاهدة مآلها ان يدفع الرومان جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم عن فتوح مصر. الاَّ ان هذه الجزية لم تكن تُدفع في حينها وبالقدر المعيَّن فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة لاغية

«فتح مصر. سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م»

وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانهُ كان قد ذهب اليها قبل ان اعتنق الدين الاسلامي ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعلهُ شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول لهُ «انك ان افتتحتها كانت قوَّة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب» وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولا سيما بعد ان اقام المعاهدة بينهُ وبين هرقل لكنهُ بعد ان نُقضت على ما تقدم رأى ان يجيب طلبهُ فانفذ اليهِ ان يسير باربعة الاف رجل اشدَّاء وقال لهُ «سِرانِي مستخيراً الله في سيرك وسيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي أمرك فيهِ بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامضِ لوجهك واستعن بالله واستنصرهُ» وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس

بأيام فسار عمرو بن العاص ومن معهُ قاصدًا مصر وهو يكاد لا يصدق ان أُذِنَ لهُ بذلك فما بلغ رفح (وهي قرية تدعى الان رفح تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركهُ رسولٌ من قِبل امير المؤمنين وألقى اليهِ كتابًا فخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذنًا بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجَّل فتحهُ حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجدّ السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن فقيل لهُ في العريش فعلم انهُ دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يدهِ كتاب الخليفة ففضَّهُ بكل احترام وتلاهُ على الجمهور بصوتٍ عالٍ وهو «بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليهِ سلام الله تعالى وبركاتهُ. اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئًا من ارضها فامضِ واعلم اني ممدُّك» فالتفت عمرو الى من حولهُ قائلًا ابن نحن ياقوم فقالوا في العريش فقال وهل هي من ارض مصر ام الشام فاجابوا انها من مصر فقال هلمَّ بنا اذًا اذعانًا لامر الله وامر امير المؤمنين. وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوبًا في قسمها الشرقي وكان عددهم يزيد كل يوم ممَّن كان ينضمُّ اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرُّون بها في طريقهم. فكان اول موضع قوتل فيهِ الفرما قاتلت الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبدالله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربهِ. ثم تقدم عمرو وهولا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوهُ فيها نحوًا من شهر حتى فتح الله عليهِ وكان في بلبيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحبَّ عمرو ملاطفة المقوقس استجلابًا لودّهِ فسيَّر اليهِ ابنتهُ مكرمة في جميع مالها فسرَّ

ابوها بقدومها كثيرًا

ثم سار عمرو وما زال حتى مرّ بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة وكان حصنًا منيعًا رفيع العماد [1] الى شرقيهِ الجبل المقطم راسخ وعلى وجههِ تجعُّداتٌ تدلُّ على قديم عهدهِ وبين الجبل والحصن بقعة من الارض لاشيءَ من العمارة فيها الا بعض الادبرة والكنائس ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيدهُ مناعةً والى ما وراء النيل ارضٌ قد كستها الطبيعة من جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبةٍ وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجيزة يمرّ عليها الناس والدواب من البرّ الشرقي الى الجزيرة ومن هذهِ الى البرّ الغربي وكان هذان الجسران مؤلَّفين من مراكب مصطفّة بعضها بجذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد ومن فوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات

ثم تطلّع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت على كاهل الدهر فعجز عن هدمها ثم رمى بنظرهِ الى جنوبي اهرام الجيزة فاذا ببقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلّى فيها من العظمة والشوكة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقاره

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطّم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل

---

[1] ويسميهِ بعض مؤرخي العرب حصن باب اليون او باب الاون وللمؤرخين فيهِ اقوال اظهرها انهُ حصن بناهُ الفرس عند تملكهم مصر ودعوهُ باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

يسرح نظرهُ ويتأمل بما يتهدَّدهُ من الاخطار في مقاومة هذا الحصن ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيهِ النظر يخترقهُ النيل المبارك . على غربيهِ آثار منف والاهرام وعلى شرقيهِ ذلك الحصن وفيهِ قد حشدت جنود المصريين متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئًا من مثل ذلك فيما مرَّ بهِ من البلدان فعظم عليهِ الامر الَّا انهُ عاد الى عزمهِ عند ما تصور مقدار ما يلحق بهِ من العار اذا عاد خائبًا ومقدار ما يقع في يدهِ من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن على انهُ اذا لم ينز في جهادهِ هنا واستشهد ففي الاخرة ما هو افضل مآبًا

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انهُ حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا والسفلى ومعظم سكانها من القبط وكانت عاصمة حكومتهِ منف على الضفة الغربية واما هذا الحصن فقد اتخذهُ مركزًا حربيًا ليمنع العرب من المرور الى عاصمتهِ . والمقوقس هذا مع كونهِ يوناني الاصل فانهُ كان من حزب الوطنيين ويقال انهُ كان بينهُ وبين الرسول (صلعم) مكاتبة وعلى كلٍّ فانهُ لم يكن لهُ ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش الاسلام جهز حامية تحت قيادة احد كبراء جيشهِ المدعوّ الأعيرج وجاءها بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليهِ الفتح فكتب الى الخليفة يستمدُّهُ فامدَّهُ باربعة آلاف عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصُّهُ «اني قد انفذت اليك اربعة آلاف على كل الف منهم رجل مقام الف»

فانفذ عمرو احد قوادهِ ولعلهُ حذافة بخمسمائة فارس ليسيروا الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلًا وكان الروم قد خندقوا

خندقًا وجعلوا له ابوابًا وبذروا في اقنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الاَّ النيل وكان حول ذلك الحصن الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليهِ واستمرَّ رمي السهام طويلاً صباحًا ومساءً ثم تشاور عمرو والزبير بشأن ذلك فاقرَّا على تشديد الحصار ففرَّقا الرجال حول الخندق . والحَّ عمرو على الحصن ووضع عليهِ المنجنيق ثم جعل يتخابر معهم بشأن التسليم فلم يفعلوا على ان المقوقس كان ممن يريدون التسليم تخلصًا من نير الروم لما بينهُ وبينهم من الضغائن الناتجة عن الانقسامات الدينية الاَّ انهُ لم يكن يتجرأُ على التصريح ببغيتهِ هذه لان رجالهُ لم يكونوا كلهم من حزبهِ ولا سيما الأُعيرج . ولما رأى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيهِ خاف ان يظهروا على رجالهِ فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجالهِ الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبروا على الجسر الى الجزيرة ثم تبعهُ الأُعيرج تاركًا نفرًا قليلاً من رجالهِ والعرب غير عالمين . ولما ابطأَ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع سلَّمًا الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر عمرو انهم اذا سمعوا تكبيرهُ ان يجيبوهُ جميعًا فما شعروا الاَّ والزبير على رأس الحصن يكبرّ والسيف في يدهِ فتحامل الناس على السلَّم حتى كادوا يكسرونهُ لكثرتهم فنهاهم ثم كبرّ وكبرّ الناس معهُ واجابهم الناس من خارج فظنّ من كان باقيًا في الحصن ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا . وعمد الزبير واصحابهُ الى باب الحصن ففتحوهُ واقتحموا الحصن وتملكوهُ ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هؤلاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنهُ فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً ونصهُ «انكم قومٌ قد ولجتم في بلادنا واجتحتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعلهُ ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبُّون وتحب ويتقطع عنّا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليهِ ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم بهِ من شيءٍ»

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عندهُ يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك ردَّ عمرو الرسلَ وكتب الى المقوقس «انهُ ليس بيني وبينكم الاَّ احدى ثلاث خصال إما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين»

فلما جاءت رسل المقوقس اليهِ قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا «رأينا قوماً الموت أحبُّ الى احدهم من الحياة والتواضع احبّ الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم وامیرهم كواحد منهم لا يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السّيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم»

فاقسم المقوقس قائلاً «لو ان هؤلاء التقوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم» وما زال على رجال حكومتهِ حتى وافقوهُ على طلب الصلح فكتب الى عمرو

« ابعثوا الينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساهُ ان يكون فيهِ صلاحٌ لنا ولكم »

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طولهُ عشرة اشبار وجعلهُ متكلم القوم وامرهُ ان لا يجيبهم الى شيء دعوهُ الّا احدى هذه الثلاث خصال قائلاً " ان امير المؤمنين قد تقدم اليَّ في ذلك وامرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث خصال " فركبوا السفن الى ان اتوا المقوقس ودخلوا عليهِ فتقدم عبادة في صدر اصحابهِ فهابهُ المقوقس لسوادهِ وعظم جثتهِ وقال نحّوا عني هذا الأسود وقدّموا غيرهُ يكلمني فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيّدنا وخيرنا والمقدّم علينا وانما نرجع جميعاً الى قولهِ ورأيهِ وقد امرنا الامير ان لا نخالف لهُ امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو أسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلاَّ وان كان اسود فهو افضلنا »

فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك » فتقدم عبادة اليهِ وقال " قد سمعت مقالتك وانَّ فيمن خلفت من اصحابي الف رجل أسود كلهم اشدُّ سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشدُّ هيبةً مني وانا قد ولّيتُ وأدبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانهِ وليس غزونا عدوَّنا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الّا ان الله عزَّ وجل قد احلَّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا منهُ حلالاً وما يبالي احدنا ان كان لهُ قنطار ذهب او كان لا يملك الّا درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعهُ لليلهِ ونهارهِ وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الّا ذلك كفاهُ وان كان لهُ قنطار من ذهب انفقهُ في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يدهِ ويبلغهُ ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا

ليس نعيمًا ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا بهِ نبيُّنا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الاَّ ما يمسك بهِ جوعهُ ويستر عورتهُ وتكون همتهُ وشغلهُ في رضوانهِ وجهاد عدوِّهِ »

فلما سمع المتوقس منهُ هذا الكلام قال لمن حولهُ بلغتهم «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبتُ منظرهُ وان قولهُ لأهيب . ان هذا واصحابهُ اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الاَّ سيغلب على الارض كلها» ثم اقبل المتوقس على عبادة وقال لهُ

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الاَّ بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليهِ الاَّ لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجَّه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عددهُ قومٌ معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانّا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلَّتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرًا وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفُسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولامیركم مایة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم بهِ »

فقال عبادة « يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا بهِ من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانّا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا بهِ ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيهِ وان كان ما قلتم حقًّا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشدُّ لحرصنا عليهم لان ذلك اعذرُ لنا عند ربنا اذا قدمنا عليهِ أن قُتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانهِ وجنَّتهِ وماشيءٌ اقرَّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذٍ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولأنها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجل

قال لنا في كتابهِ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما منّا رجل الّا ويدعو ربّهُ صباحًا ومساء ان يرزقهُ الشهادة وان لا يردّهُ الى بلدهِ ولا الى ارضهِ ولا الى اهلهِ وولدهِ وليس لاحد منّا هم فيما خلفهُ وقد استودع كل منا ربّهُ اهلهُ وولدهُ وانما همُّنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدّة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليهِ فانظر الذي تريدهُ فبيّنهُ فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الّا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امرهُ امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيّم الذي لا يقبل الله غيرهُ وهو دين انبيائهِ ورسلهِ وملائكتهِ امرنا الله ان نقاتل من خالفهُ ورغب عنهُ حتى يدخل فيهِ فان فعل كان لهُ ما لنا وعليهِ ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرّض لكم وان ابيتم الّا الجزية فأدّوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى بهِ نحن وانتم في كل عام ابدًا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم بهِ عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الّا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى بهِ ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينهُ غيرهُ فانظروا لانفسكم ”

فقال المقوقس “ هذا ما لا يكون ابدًا ما تريدون الّا ان تتخذونا عبيدًا ما كانت الدنيا ”

فقال عبادة “ هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت ”

فقال المقوقس “ أفلا تجيبوننا الى غير هذه الثلاث خصال ”

فرفع عبادة يديهِ الى السماء وقال «لا وربّ هذه السماء وربّ هذه الارض وربّ كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم»

فالتفت المقوقس اذ ذاك الى اصحابهِ فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا «أيرضى احدٌ بهذا الذل امّا ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابدًا ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفهُ واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيدًا فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مرارًا كان اهون علينا»

فقال المقوقس لعبادة «قد أبى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرّتكم هذه ما تمنّيتم وتنصرفون»

فقال عبادة واصحابهُ «لا». فقال المقوقس لاصحابهِ «اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم نجبهم اليها طائعين لنجيبنّهم الى ما هو اعظم كارهين»

فقالوا «واي خصلة نجيبهم اليها» قال «امّا دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم بهِ واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بدّ من الثالثة» قالوا «فنكون لهم عبيدًا ابدًا» قال «نعم تكونون عبيدًا مسلّطين في بلادكم آمنين على انفسكم واحوالكم وذراريكم فاطيعوني من قبل ان تندموا» فاذعن القوم للجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونهُ.

فقال المقوقس لعبادة «اعلم اميرك اني لا أزال حريصًا على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل اليّ بها فليعطني ان اجتمع بهِ انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابهِ فان استقام الامر بيننا تمّ ذلك جميعًا وان لم يتمّ رجعنا الى ما كنّا عليهِ»

فرجع عبادة الى عمرو واخبرهُ بما كان فاستشار اصحابهُ فقالوا «لانجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئًا

وغنيمة كما صار لنا الحصن وما فيهِ . فقال عمرو قد علمتم ما عهد اليَّ امير المؤمنين في عهدهِ فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد اليَّ فيها اجبتهم وقبلتُ منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم . فوافقوهُ

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقوا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نصّ الشروط

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيءٌ في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهِ ممن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايتهِ اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فلهُ ما لهم وعليهِ ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنهُ ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمتهُ وذمة رسولهِ وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسًا وكذا وكذا فرسًا على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناهُ وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب »

ولما تم الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتابًا يعلمهُ بالامر كلهِ فكتب اليهِ ملك الروم يقبح رأيهُ ويعجزهُ ويردّ عليهِ ما فعل ويقول في كتابهِ « ان ما أتاك من العرب اثنا عشر الفًا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم

وبالاسكندرية ومن معك اكثر من ماية الف فارس معهم العدّة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزتَ عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاّء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلّتهم وضعفهم كأكلة ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتبًا الى جماعة الروم

فأقبل المقوقس الى عمرو فقال لهُ « ان الملك قد كره ما فعلت وعجّزني وكتب اليّ والى جماعة الروم ان لا نرضى بصالحك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم ولم اكن لأخرج مما دخلتُ فيهِ وعاهدتك عليهِ وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تمّ صلح القبط ما بينك وبينهم ولم يأتِ من قبلهم نقضٌ وانا متمٌّ لك على نفسي والقبط متمّون لك على الصلح الذي صالحتهم عليهِ، وعاقبتهم واما الروم فانّا منهم براءٌ وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى ألاّ تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليهِ فهم متمّون لك على ما تحب واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا فانهم اهلٌ لذلك لاني نصحتهم فاستغشّوني ونظرت اليهم فاتّهموني واما الثالثة فاني اطلب اليك ان أنا متُّ ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » . فاجابهُ الى ما طلب على ان يضمنوا لهُ الجسرين جميعًا ويقيموا لهم الأنزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعوانًا

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولاً بكتاب يخبرهُ بما تمّ بينهُ وبين المقوقس فاجابهُ منشطًا وسألهُ ان يصف لهُ مصر فاجابهُ

« ورد اليّ كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءهُ ويسألني عن مصر اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قريةٌ غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها

عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخطُّ وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيهِ الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . لهُ اوان بدرٌ حلابهُ وكثر عجاجهُ وتعظم امواجهُ فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلُّص من القرى بعضها الى بعض الاَّ في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهنَّ المخايل ورقُّ الاصابل فاذا تكامل في زيادتهِ نكص على عقبيهِ كأوَّل ما بدا في جريتهِ وطمى في درتهِ فعند ذلك تخرج ملَّةٌ محقورة وذمَّة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحبّ يرجون بذلك النماء من الربّ لقيهم ما سعوا من كدهم فنالهُ منهم بغير جدّهم فاذا احدق الزرع وأشرق سقاهُ الندى وغذَّاهُ من تحت الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء إذ هي عنبرة سوداء فاذا هي زمرّدة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقرُّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها وان لا يستأدي خراج الثمرة الاَّ في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

«فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ»

ولما تمَّ التعاهد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم ملتجئين الى الاسكندرية اما عمرو فعزم على النزول الى الاسكندرية فاقام في الحصن حامية ونادى برجالهِ ان يسيروا على نية الفتح وان يسير معهُ جماعة من روساء القبط يصلحون لهُ الطرق ويقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فجاءهُ قائلٌ « ان خيمة الامير قد عشعش في قمتها زوج من الحمام تحتهُ صغارهُ لا تستطيع الانتقال

فما رأي الامير» فاجاب عمرو قائلاً « ما عاذ الله ان نأبى حماية ذي حياة استجار بنا فنزل دارنا واستظل بجمانا فضلاً عن اننا لا نزال في شهر محرم المبارك الذي حرّم علينا فيه أتيان الاذى بشيء من خلق الله فاتركوا فسطاطي منصوبة لهذه الطيور فانها ضيوف عليّ لبينما نعود ان شاء الله » ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين . فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيرًا وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك واخرى في مربوط وكانا على جانب من المنعة فتغلب عليهما عمرو واحتلّهما اما القبط فكانوا اعوانًا للمسلمين في كثير من احتياجاتهم ذلك ما امرهم به المتوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتدّ غيظهم فاصرّوا على الحرب وأخذوا يعدّون مهمّات الدفاع اما عمرو فما زال يتقدّم بجيشه الى الاسكندرية وكانت عاصمة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يوقف الابطال وحاصرها برًّا اما بحرًا فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية وكان يأتيها منها كل ما تحتاج اليه من المؤن والذخائر فطال امد الحصار رغمًا عن جميع الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجاله وخطب فيهم ما انهض همتهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها فدخل المدينة عمرو واثنان من قواده وهما مسلمة بن مخلد ووردان الاّ انهم لم يكادوا يطأونها حتى قفلت الاسوار وراءهم والقي القبض عليهم واحضروا امام الحاكم فخاطبهم قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد اتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم ما لنا او ان تدفعوا الجزية عن يدٍ وانتم صاغرون والاّ فلا يمكننا الانكفاف عن قتالكم فان الله يأمرنا به

الّا اذا اجبمونا الى احدى الخصلتين » فبهت الحاكم لجوابهِ وعظيم انفتهِ على حين انهُ كان ينتظر منهُ تذلّلاً واستعطافًا شأن من كان على مثل حالهِ فداخلهُ الريب فقال لمن في مجلسهِ من الروم باللغة اليونانية يظهر لي ان هذا الرجل من وجوه العرب وربما كان من كبار قوّادهم فلا ينبغي ان نتخلّى عن قتلهِ وكان وردان عارفًا باللغة اليونانية فنهم ما قالهُ الحاكم ولكي يطلع عمرًا على ذلك لكمهُ مستهزئًا وناداهُ منتهرًا « ما هذا الهذيان يا رجل ومن انت حتى تنطق بمثل ما نطقت او ان تنسب الى اسيادك ما قد نسبت من اقامك متكلمًا عنهم او ما ادراك بمقاصدهم وما انت الّا احد صعاليكهم فاصمُتْ ولا تعد للتداخل فيما لا يعنيك »

فاختلف ظنُّ الحاكم لكنهُ لم يزل متعجبًا لتلك الجسارة وزاد تعجبهُ عند ما رأى ان المتكلم احد صعاليك العرب ثم قال مسلمة « اعلم ايها الحاكم المعتبر أن أميرنا اقرب الناس الى المسالمة لكنهُ يرغب قبلَ الانسحاب ان يعقد مجلسًا مؤلفًا من كبار الجيشين فيتفقون على شروط الانسحاب واذا اذنت بعودنا اليهِ نخبرهُ بما لاقيناهُ من حسن المعاملة وما انتم عليهِ من كرم الاخلاق » فاجابهم الى ما طلبوا فانصرفوا وهم لا يصدقون انهم نجوا من الموت فبينما هم في الطريق قال مسلمة لعمرو « والله ما نجاك من الموت الا لكمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وفي اثناء ذلك استبطأ الخليفة فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك الّا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا الّا بصدق نيّاتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت أعرف الّا أن يكونوا قد غيّرهم ما غيّر غيرهم فاذا اتاك كتابي هذا فاخطب في الناس

وحضّهم على قتال عدوّهم ورغّبهم في الصبر والنية وقدم اولئك الاربعة في صدور الناس ومر الناس جميعًا ان يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليجّ الناس الى الله ويسألوهُ النصر على عدوّهم» فجمع عمرو رجالهُ وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثّر فيهم تأثيرًا عظيمًا وعزموا على القيام بهِ

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية ضحية مقاومة الذين حولهُ لما رأوا فيهِ من الخمول وكيف انهُ بعد ما رأى من تملك الاسلام بلادهُ لم يُبدِ حراكًا وعقب موتهُ انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها دماء بريّة بسبب ادّعاء الملك من هم من غير العائلة الملوكية وانتهى الامر بان عهد كرسي الملك لولدهِ هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمضِ عليهِ مائة يوم من جلوسهِ حتى قضى مسمومًا بيد مارتين امرأة ابيهِ ثم بمساعي بطريرك القسطنطينية عقد على الملك بعدهُ لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطان بن هرقل الثاني فيقال اجمالاً انهُ كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد الامر الذي اوجب زيادة الانشقاق وتعاظم الخصام وكل ذلك مما اضعف من همة الاسكندرانيين وضاعف يأسهم فهاجر بعضهم بحرًا ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعًا لم يقووا عليهِ . فدخلها عمرو يوم الجمعة غرّة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة او ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد واقام فيها احتفالاً عظيمًا تذكارًا لما اوتيهِ من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتابًا ونصهُ

«من عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عليهِ سلام الله تعالى وبركاتهُ اما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبتُ فيها اربعة الآف بنية باربعة الآف حمام واربعين الف يهودي عليهم

الجزية واربعمائة ملعب للملوك واثنتي عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منهُ سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويجيب التماسهم في كل ما كانوا يسألونهُ منهُ حتى اجمع الكل على الميل اليهِ والاذعان لامرهِ

وقد شوَّه كتبة الافرنج تاريخ اعمال هذا القائد العظيم واعمال الخليفة عمر فيما يتعلق بحرق مكتبة الاسكندرية المشهورة فقالوا انها حرقت بمشورة الاول وامر الثاني وهاك ما ورد من اقوالهم بشأن ذلك قالوا « لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية علم بوجود مكتبة عظيمة هي مكتبة الاسكندرية الشهيرة وكان امرها مكتومًا عنهُ لمحاولة اهل الاسكندرية اخفاءها حرصًا عليها لانها كانت مشتملة على اثمن الكتب التي معظمها مكتوب على البابيروس (البردي) الَّا ان احد علماء الروم القاطنين الاسكندرية واسمهُ يوحنا الغراماطيقي من الطائفة اليعقوبية كان منذ تشيعهِ لتلك الطائفة مرذولاً من الاسكندرانيين فاعتزل للدرس والمطالعة فلما فتح الاسلام الاسكندرية خطر لهُ ان هذه المكتبة العظيمة لا تلبث حتى يتشتت شملها فرأى ان يسعى جهدهُ ليستولي على شيءٍ منها فطلب الى عمرو ان يسمح لهُ بالاطلاع على بعض كتبها فاجابهُ في بادئ الرأي ثم رأى من الحاحهِ وتلهُّفهِ ما يوجب المظنة فاستمهلهُ ريثما يخاطب امير المؤمنين بذلك فكتب اليهِ يستفتيهِ في امر المكتبة جملة فاجابهُ على الكتابين معًا في كتاب ونصهُ

« اني اهنئك بالفوز العظيم الذي أُوتيتهُ وانك اول من وُلي مصر من المسلمين اما المكتبة فلا يخلو ان تكون كتبها مصدقة لما في الكتاب العزيز فلا حاجة لنا بها او مناقضة لهُ فهي رجس وضلال وعلى التقديرين

حرقها اولى »

فلم يسع عمرو الّا الاذعان لاوامر الخليفة فجعل الكتب التي اقتضى لكتابتها اجيال وقودًا لحمامات الاسكندرية ستة اشهر »

اما كتبة العرب فينزهون الخليفة الامام عمر بن الخطاب عن تلك النعلة الشنعاء وربما كان الاقرب الى الصواب ان هذه المكتبة ومكتبة اخرى كانت في الاسكندرية قبلها ذهبتا فريسة النار وأيدي الاشرار على عهد البطالسة ومن جاء بعدهم من الروم اثناء الحروب الاهلية ولم يبقَ منها شيء الى الفتوح الاسلامي والله اعلم

« بناء الفسطاط »

ثم كتب عمرو الى الخليفة يستفتيه في السكنى في الاسكندرية فسأل الخليفةُ الرسولَ هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل . فكتب الى عمرو « اني لا أُحبّ ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفًا فمتى اردتُ ان أركب اليكم راحلتي حتى أقدم اليكم قدمتُ » فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وأمر فشُدّت الرحال الى حصن بابل . فلمّا بلغوا المكان حيث فسطاط الامير رأوها لا تزال منصوبة وفيها الطيور فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزًا لمعسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمّت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختطّ عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططًا واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطيّة قديمة العهد يدعون مجملها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس فاذا تجاوزتَ

جامع عمرو مسافة بضع دقائق تاركًا مصر العتيقة الى يمينك تشاهد الى يسارك بناء كبيرًا يظهر انهُ حارة مؤلفة من عدة ابنية عليها ملامح الشيخوخة وكأنها محاطة بسور كبير مقام من القرميد الاحمر عند اسفلهِ باب قديم مصفح بالحديد الغليظ يتّصل اليهِ بانحدار لا يقلُّ عن ثلاث اذرع وهذا هو احد ابواب الحصن على ما يظن ومن هذا الباب تدخل في زقاق ضيّق تتصل منهُ الى ازقّة كثيرة كلها ضيّق من النمط القديم ومنها تتصل الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيسٌ لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرتُ جميع هذهِ الكنائس فرأيتُ انها مع كونها تشير الى تقادم عهدها في البناء فقد جُدّد فيها قسم عظيم وجميعها داخلة في بناء الحصن

ومما يستحق الانتباه اني شاهدتُ تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقامًا للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر ويلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلّي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر للمتأمل مبنيّة على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة بينها تقرُّ في جدار المغارة اشبهُ بالمذابح وفي المغارة جرن للعمادة وكلُّها محفورة في الصخر

اما الحصن فاذا تأمّلت بجدرانهِ الباقية من الخارج تراها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلّقة سمّيت كذلك لارتفاعها وبينهما باب مسدود وقد طمرت الاتربة جزءهُ السفلي ويشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين وتشير هذه الابراج الى ما كان عليهِ هذا الحصن من المناعة فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلّة بابليون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن وانما

يشاهد الى جنوبي الحصن ببضع مئات من الامتار ديرٌ يقال لهُ دير بابلون يُدخل اليهِ من باب ضيّق مصفّح بالحديد وفيهِ الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبهُ ببناء الحصون منهُ بالاديرة وهو قائمٌ في منخفض بين تلّين يقال لهما تلّ غراب ولم يعُد الآن غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلّة

وكثيرًا ما يقع الالتباس بين بابل هذه وبابل العراق في بعض النصوص التاريخية فيجب الانتباه الى ذلك

اما الفسطاط فقد خَربت ولم يبقَ منها الاّ آكام من الاتربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة يحدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوبًا قناطر السباع ومصر القديمة وشرقًا آكام من الاتربة متصلة بالقرافة وغربًا مدافن النصارى

وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة بدلاً من الاسكندرية وجعل على الاسكندرية المقوقس وعلى الوجه القبلي عبدالله بن سعد بن ابي سرح بأمر الخليفة وتولّى بنفسهِ صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مليونًا من الدنانير سنويًا

وكان في جملة القبائل التي حضرت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همذان فهذه أحبّت النزول في الجيزة مع مَن والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير امير المؤمنين فكتب اليهِ يعلمهُ بما فتح الله عليهم وبما ارادت همذان فاجابهُ يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول لهُ «كيف رضيتَ ان تفرق اصحابك بان يكون بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فلعلّك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكرهُ فاجمعهم اليك فان أبوا عليك واعجبهم موضعهم بالجيزة واحبّوا ما هنالك فابنِ عليهم من فيء المسلمين حصنًا» فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا واعجبهم موضعهم فبنى لهم حصنًا يقيهم اذا فاجأهم امرٌ

ثم سار عبدالله بن سعد الى الوجه القبلي لتدويخ البلاد فلم يلقَ معارضاً وما زال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلَّها

« اصلاح البلاد وتنظيمها »

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او أعمال يرأس كلاًّ منها حاكم قبطي تأتيه القضايا فينظر فيها ويصدر احكامهُ الى من هم تحت حكمهِ رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الأمن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطَّلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انهُ اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهما ويجعلون عليها من الحلي افضلها ثم يلقونها في النيل ضحيةً . فابطل عمرو هذه العادة وعوَّض عن الجارية بتمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لا بأس من ذكرها وهي انهُ اتَّفق للنيل في السنة التالية للفتح انهُ لم يرتفع الارتفاع اللازم لري الاراضي ولما دخل شهر بؤونه القبطي قال لهُ اهل البلاد « ايها الاميران لنيلنا هذا سنَّةً لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثني عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها فارضينا ابويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمرو « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبلهُ » فمضى بؤونه وابيب ومسري وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا بالجلاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عمَّا كان فاجابهُ « انك قد اصبتَ ان الاسلام يهدم ما كان قبلهُ وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها في داخل النيل اذا اتاك كتابي »

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها « من عبدالله أمير المؤمنين الى نيل مصر اما بعد فان كنت تجري بامرك فلا تجرِ واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بامرهِ فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك » فالقى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد همّ اهل مصر للخروج منها لانهُ لا يقوم بمصلحتهم فيها الاَّ النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراهُ الله تعالى ١٦ ذراعًا فلما رأى المصريون ذلك تعجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامرهِ وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزًا عنها تمثالاً من طين يصنعونهُ كل سنة عند فتح الخليج يسمونهُ العروسة فيلقونهُ في الخليج ولا يزال ذلك جاريًا الى يومنا هذا اثرًا لما كان يرتكبهُ المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن النيضان

ثم اخذ عمرو في تنظيم العدلية وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب ماليّين او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدّون بالرعية كيف شاؤُا وليس من ينصف فاوجد لهم عمرو المجالس النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بد لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانهُ اوَّل من اوجد هذه المجالس بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاؤُها فيُنتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتُستأنف عند الاقتضاء لنقضها او ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الاَّ على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال . والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان لنواب القبط حقُّ التداخل فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما أعطيات الجيش فكانت تصرف مما يُجبى من اموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمّال والاجناد على قدر مرتبتهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال وكان يقال لذلك في صدر الاسلام

العطاء وما زال ذلك جاريًا في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تُعطى اقطاعات تفرق على السلطان وامرائهِ واجنادهِ

وما فتئ عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوتهُ في اكتسابها . فقد قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة اليعقوبية وكان مضطهدًا من هرقل ملك الروم اضطهادًا عظيمًا لمحافظتهِ على خطتهِ الدينية رغمًا عما كان يسومهُ ذلك الملك من الاكراه على تغييرها غير مبالٍ بما كان يتهدَّدهُ من المخاوف والاخطار فشدد هرقل عليهِ النكير واحرمهُ حرية التدين ومنعهُ من السلطة الدينية وتهدَّدهُ بالقتل ففرَّ يطلب ملجأً في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامهُ في زمن الحصار رجلاً كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاءوا وكانت مصر حينئذٍ منقسمة كما تقدَّم الى قسمين دينيين ملكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم هرقل باختيارهِ غير ان الشعب لم يكن يعاملهم الاَّ بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية الاَّ لبنيامين المختار قديمًا منهم . فعند ما بادت سلطة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلاً ورفقًا عرضوا امرهم الى عمرو يلتمسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاهُ عمرو وطيب خاطرهُ واقامهُ في منصبهِ وخلع الذين كانوا مكانهُ فحسب القبط هذا الامر منةً وفضلاً وازدادوا ثقةً وميلاً للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويسمحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل في وسط جيش الاسلام على حين انهُ لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلُّون ويخطبون في الخلاء

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعةً وشكلاً فبناهُ في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعهِ خان استولى عليهِ احد

رجال عمرو عند الفتح فلما عادوا من الاسكندرية طلب اليهِ عمرو ان يجعل منزلهُ هذا مسجداً فرضي وكان النيل يجري بقربهِ ثم انحسر عنهُ بعد ذلك غرباً . واتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام أُقيمت بها جدرانهُ وقد قيل ان القرآن كلهُ كان منقوشاً عليها مذهباً . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يكاد يكون مهجوراً مساحتهُ ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رُمِّم مراراً بحيث لم يبقَ من البناء الاصلي الاَّ شيءٌ زهيد ومن جملة من جدد في بنائهِ السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخر هو مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الاَّ طمعاً بمخبأة أُوعز اليهِ انها مدفونة في بعض اجزائهِ كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن تراهُ خراباً وقد سقطت كل الاعمدة الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنهِ حنفية وشجرة وفي ارض ليوانهِ صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجلس في جامع عمرو زمان ثبين فيهِ قبالة الاراضي (التزامها) وتجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صنقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري يدهُ على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتّاب الخراج بين يدَي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليهِ مبالغ الكوَر والصنقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستجار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضاً وضمنها الى ناحيتهِ فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسهِ واهلهِ ومن ينتدبهُ لذلك ويحمل ما عليهِ من الخراج في ابانهِ على اقساط ويحسب لهُ من مبلغ قبالتهِ وضمانهِ لتلك الاراضي ما ينفقهُ على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ

الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدّد الولاة في طلبهِ مرة وتسامح بهِ مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديدًا فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد وينقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعهُ

والمفتتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد وبيدهم الحل والعقد والظاهر ان عمرًا كان على بيّنةٍ من ذلك وقد جرى عليهِ لانهُ كان يتحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حدّ ان يوقع فيهِ مظنة الخليفة ومما يحكى ان الخليفة استبطأ الخراج من قبل عمرو فكتب اليهِ

"بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو اما بعد فاني فكرت في أمرك والذي انت عليهِ فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عددًا وجلدًا وقوّة في برّ وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكمًا مع شدّة عتوّهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤدّيهِ من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد اكثرت في مكاتبتك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك فاذا انت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ بهِ من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرّبًا كافيًا صحيحًا ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعًا نطعًا ان الامر لعلى غير ما تحدّث بهِ نفسك وقد تركت ان ابتلي ذلك منك في

العام الماضي رجاء ان تنيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انهُ لم يمنعك من ذلك الاّ ان عمّالك عمّال السوء وما توالس عليك وتلقّف اتخذوك كهنًا وعندي باذن الله دواءهُ فيهِ شفاءهُ عما اسألك فيهِ فلا تجزع ابا عبد الله ان يُؤخذ منك الحق وتُعطاهُ فان النهر يخرج الدرّ والحق ألجج ودعني وماعنهُ تلجلج فانهُ قد برح الخفاء والسلام"

فكتب اليهِ عمرو "بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا إله الاّ هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطأني فيهِ من الخراج والذي ذكر فيهِ من عمل الفراعنة قبلي واعجابهِ من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذٍ أوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعنوّهم أرغب في عمارة ارضهم منّا مذ كان الاسلام وذكرت ان النهر يخرج الدرّ فحلبتها حلبًا قطع درّها واكثرت في كتابك وأنّبت وعرّضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيءٍ تخفيهِ على غير خبر فجئت لعمري بالمقطعات المقذّعات ولقد كان لك فيهِ من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله (صلعم) ولمن بعدهُ فكنا نحمد الله مؤدين لاَ مانتنا حافظين لما عظّم الله من حقّ ايّتنا نرى غير ذلك قبيحًا والعمل شينًا فتعرف ذلك لنا وتصدّق فيهِ قبلنا معاذ الله من تلك الطعم وشرّ الشيم والاجتراء على كل مأثم فامضِ عملك فان الله قد نزّهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبقِ فيهِ عرضًا ولم تكرم فيهِ اخًا والله يا ابن الخطّاب لأنا حين يُراد ذلك مني اشد غضبًا لنفسي ولها انزاهًا واكرامًا وما عملتُ من عمل ارى عليهِ فيهِ متعلقًا ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن اشياء كنت بها عالمًا وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقك

ما لا يجهل »

فكتب اليهِ الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك اليَّ بشنيات الطرق وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البيّن ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجّهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيءُ المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليهِ عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطئني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانكث عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني الى ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرًا من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنهُ والسلام »

فكف الخليفة مقتنعًا وقد كان محمولاً على ما أنّبه بهِ ممّن كان يناظر عمرًا على ولاية مصر

« فتح دمياط وتانس »

فمثل هذه المعاملة جعل للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فعهدوا امورهم اليهم الاَّ الهاموك حاكم دمياط وهو من انسباء المقوقس فانهُ امتنع عن التسليم واستعد للحرب فانفذ اليهِ عمرو المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قُتل ابنهُ بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليهِ اصحابهُ فاستشارهم في امرهِ وكان عندهُ حكيم قد حضر الشورى فقال لهُ « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة لهُ وما

استغنى بهِ احد الاَّ هداهُ الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهولاء العرب من بدء امرهم لم تُرَدّ لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلّوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ولسنا باشدّ من جيوش الشام ولا أعزّ وأمنع وان القوم قد أُيّدوا بالنصر والظفر والرأي ان تعقد مع القوم صلحًا تنال بهِ الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجالاً من المقوقس » فلم يعبأ الهاموك بقولهِ وغضب منهُ فقتلهُ وكان لهُ ابن عارف عاقل ولهُ دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلّهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الاَّ وهم يكبّرون على سور البلد فاستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمرًا بذلك ثم خرج شطا بن الهاموك بعد ان أسلم الى البرلس والدميرة واشموم طناح فحشد اهل تلك النواحي وجعلهم مددًا للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أنكل فيهم فحُمل من المعركة ودُفن في مكانهِ المعروف بهِ خارج دمياط يجيون فيهِ ليلة نصف شعبان من كل سنة ولم يكف المسلمون عن تانس حتى فتحوها

« خليج امير المؤمنين »

ومن الاعمال العظيمة التي أُجريت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر في سنة ٢٣ هـ ودعاهُ خليج امير المؤمنين وسبب ذلك ان الناس بالمدنية اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصهُ « من عبدالله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعتَ انت ومن معك ان أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليهِ عمرو « من عبدالله عمرو بن العاص الى امير المؤمنين اما

بعد فيا لبّيك ثم يا لبّيك قد بعثت اليك بعيرٍ اولها عندك وآخرها عندي والسلام » اراد بذلك انهُ ارسل لهُ قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسّع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيرًا بما عليهِ من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمهِ ويحذوا بجلدهِ وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيهِ الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيرهِ . فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليهِ هو وجماعةٌ من اهل مصر فقدموا فانفرد بعمرو جانبًا وقال لهُ « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد القى في روعي لما احببتُ من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها وليس جند من الاجناد ارجى عندي ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى » فقال عمرو « ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انهُ كانت تأتينا سفن فيها تجار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج كان مفتوحًا بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركة التجار فان شئت ان نحفرهُ فننشئ فيهِ سفنًا يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلنا » فقال الخليفة نعم فافعل ولما خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاهُ الذين أتوا معهُ من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت بهِ اصلح الله الامير اتُريد ان نُخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عودهِ الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال لهُ « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسينّ حفرهُ » فاجاب عمرو

« يا امير المؤمنين انهُ قد انسدَّ وتدخل فيهِ نفقات عظيمة » فقال لهُ « اما والذي نفسي بيدهِ اني لاظنُّك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموهُ عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرتهُ وجعلت فيهِ سفنًا » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انهُ متى ما يجد اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفُّوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني ساجعل من ذلك امرًا ألاَّ يحمل في هذا البحر الاَّ رزق اهل المدينة واهل مكة » فافحم عمرو وعاد الى مصر وباشر لساعتهِ بحفر الخليج ومعالجتهِ وجعل فيهِ السفن ودعاهُ « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيهِ الطعام حتى حمل فيهِ بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيَّعهُ الولاة فأُهمل وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

وفي خلال ذلك تجنَّد عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحهُ اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضًا وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفَّان

من سنة ٢٣ ــ ٣٥ هـ او من ٦٤٤ ــ ٦٥٥ م

وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قُتل الامام عمر بن الخطاب بخنجر عبد فارسي يقال لهُ فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبدًا لمغيرة بن شعبة وذلك في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولَّى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يومًا

ونادى قبل وفاتهِ بعبد الرحمن بن عوف فصلَّى في الناس ثم قيل لو

استخلفت يا امير المؤمنين» فقال دعوني اعهد الى النفر الذي توفي رسول الله (صلعم) وهو عنهم راضٍ» ثم دعا عليًا وعثمان والزبير وسعد فقال «انتظروا اخاكم طلحة ثلاثًا فان جاء والّا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راضٍ واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا الى حجرة عايشة باذنها فتشاوروا فيها ثلاثة ايام ولا يأتين اليوم الرابع الّا وعليكم اميرٌ منكم ويحضر عبدالله بن عمر مشيرًا ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروهُ امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومهِ فامضوا امركم. انشدك الله يا علي ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدكَ الله يا سعد ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل اقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصلّ بالناس صهيب». وترى في الشكل الثامن عشر اسم الجلالة واسم الرسول (صلعم) واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ. وفي سنة ٢٥ ازل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولّى عبدالله بن سعد بن ابي سرح اخيهِ من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في امارة عمرو. فلما تولّى امارة مصر جبى خراجها للسنة الاولى ١٤ مليونًا من الدنانير وكان عمرو لا يجبي اكثر من ١٢ مليونًا فقال عثمان لعمرو «يا ابا عبدالله درّت اللقحة باكثر من درها الاول» فاجابهُ عمرو «لقد اضررتم بولدها ذلك ان لم يُمت الفصيل»

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من

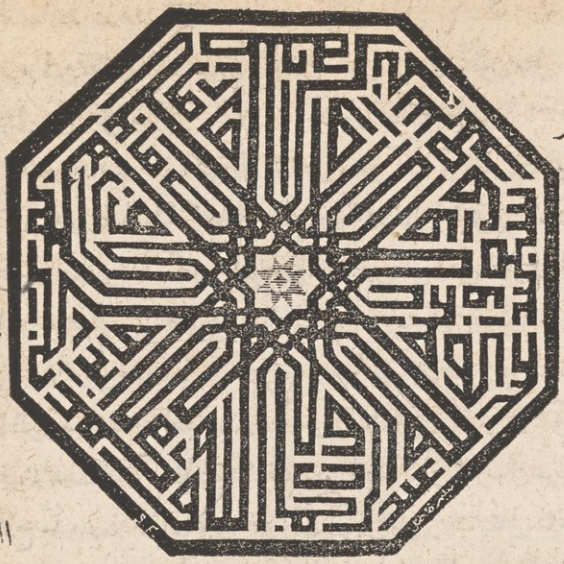

ش ١٨ اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظُم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنّوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكاتبوا مَن كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجوّ خاليًا لم بعد موت الامام عمر الذي كان يبعث كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية وكان على الولاء لا يغفلها ويكثف مرابطها ولا يأمن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصي فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معهُ من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقرّ عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان لهُ معرفةً بالحرب وهيبةً في العدوّ ففعل فنزل

عمرو القسطاط يتأهب لمناهضة الروم وكان حول الاسكندرية سور فحلف عمرو لئن اظفرهُ الله عليهم ليهدمنَّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تُؤتى من كل مكان . فقال خارجة بن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لا ولكن ادعهم حتى يصيروا اليَّ فانهم يصيبون من مرُّوا بهِ فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مرُّوا بهِ فسار اليهم عمرو ولم يتعرَّض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدأت الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئًا وكانت الروم قد تاهبت صنوفًا خلف صنوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليهِ سلاح مُذهب فدعا الى البراز فبرز اليهِ رجلٌ من زبيد يُقال لهُ حومل يكنى ابا مزيج فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان ثم القى الرومي الرمح واخذ السيف فالقى حومل رمحهُ واخذ سيفهُ وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مزيج فيجيبهُ لبَّيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كأن على رؤوسهم الطير فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتملهُ حومل واخترط خنجرًا كان في منطقتهِ فضربهُ بهِ في نحرهِ فسقط ميتًا فوثب اليهِ واخذ سلبهُ ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطَّم فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية وقتلوا منويل الخصي واثخنوا في رجالهِ فاستنجدوا المسلمين فامر عمرو برفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع الذي رفع فيهِ السيف مسجدًا دعاهُ مسجد الرحمة اشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة ثم جمع ما اصاب منهم فجاءهُ اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا قد كنَّا على صلحنا وقد مرَّ علينا هؤلاء اللصوص فاخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك فردَّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوهُ واقاموا عليهِ البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حلَّ

لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان نقاتل عنّا لاننا في ذمّتك ولم ننقض فامّا من نقض فابعدهُ الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبدالله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يستدرُّها » فابى عمرو وتنحّى عن مصر فعاد عليها عبدالله بن سعد

وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبدالله بن سعد افريقيا فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمهِ

وفي سنة ٣٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة الاف دينار كل سنة يؤدّون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يوذنوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم

وفي سنة ٣١ هـ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبدالله بن سعد وحصر رجالها في دنقله حصارًا شديدًا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفهُ وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصلح وخرج الى عبدالله وابدى ضعفًا وتواضعًا فتلقاهُ عبدالله ورفعهُ وقرّبهُ ثم قرّر الصلح معهُ على ثلاثماية وستين راسًا في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضًا

« مقتل عثمان »

وفي سنة ٣٣ هـ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعمالهِ وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاؤا الى عثمان واخبروهُ فلم يجدوا عندهُ علمًا منهُ فقال اشيروا عليَّ وانتم شهود

المؤمنين قالوا تبعث من نثق بهِ الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين ففعل فجاءتهُ الاخبار فكتب الى اهل الامصار «اني قد رفع اليَّ اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد أخذتهم ان يوافوني في كل موسم فمن كان لهُ حقٌّ فليحضر يأخذ بحقهِ مني او من عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين»

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمّال الامصار فقدموا اليهِ في الموسم وفيهم عبدالله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة «ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابهُ سيفتح ولا احبُّ ان يكون لاحد عليَّ حجة في فتحهِ وقد علم الله اني لم آلُ الناس خيرًا فسكّنوا الناس وبيّنوا لهم حقوقهم» ثم قدم المدينة ودعا عليًّا وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلمهم فاظهروا لهُ وجه حجتهِ بالحقوق

وكان عبدالله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومهِ الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليهِ عصبة واخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرّض على عثمان بكل شرّ يقدر عليهِ فاعتزلتهُ شيعة عثمان ونابذوهُ وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ويسر بن ارطاة ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بأمرهم وما صنعهُ ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليهِ جماعة فقلبوا فسطاطهُ وشجوهُ وسبوهُ فركب وعاد راجعًا ولما اقبل عبدالله بن سعد من مكة منعوهُ ان يدخل فانصرف الى عسقلان

وازداد المسلمون تعصبًا على عثمان فتكاتبوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفيةً فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر وخرجوا جميعًا في شوال مظهرين للحجّ فلما أتوا المدينة واجه المصريون عليًّا وهو عند احجار

الزيت فعرضوا اليهِ أمرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعدٍ فتفرّق اهل المدينة ظنًّا منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الاَّ والتكبير في نواحيها وقد أحاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كفَّ يدهُ فغدا عليهم عليٌّ فقال «ما ردكم بعد ذهابكم» قالوا «أخذنا كتابًا مع بريدٍ بقتلنا والكتاب موقّع عليهِ من عثمان» فدخل عليٌّ على عثمان واخبرهُ برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم بريد زجرهم فنادوهُ من كل ناحية «اتّقِ الله يا عثمان وتُب اليهِ» وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوتهُ وقال «انا اوّل من اتّعظ واستغفرُ الله مما فعلت واتوب اليهِ فليأتِ اشرافكم يروني رأيهم فوالله إن ردّني الحقُّ عبدًا لاستنَّ بسنّة العبد ولاذلَّنَّ ذلَّ العبد وما عن الله مذهب الاَّ اليهِ فوالله لاعطينّكم الرضا ولا احتجب عنكم» . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزلهِ فدخل عليهِ عليٌّ ومحمد بن مسلمة وسألوهُ عن اعتراضهِ على ما يقولهُ اهل مصر فحلَفَ ما كتب ولا علم ثم دخل عليهِ المصريون وقالوا لهُ «جئنا لقتلك فردّنا عليٌّ ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كلّهِ فرجعنا ولقينا رسولك ناقلاً كتابًا وفيهِ امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حذيفة) بجلدنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليهِ خاتمك» فحلف عثمان لا كتبَ ولا أمر ولا علمَ . قالوا «فكيف يجترأُ عليك بمثل هذا فقد استخفَّيت الخلع على التقديرين اذ لا يحلُّ ان يولى الامور من ينتهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك» فقال «لا أنزع ما البسنيهِ الله ولكني اتوب وارجع» قالوا «رأيناك تتوب وتعود فلا بدَّ من قتلك» وخرجوا وبقي محصورًا اربعين يومًا مُنع عنهُ الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة قُتل مخنوقًا برمح محمد بن ابي بكر والقرآن في يدهِ فتخضب بالدماء . وهجمت نائلة امرأتهُ لتحميهُ بيدها فاصيبت بضربة قطعت اصابعها . وبقي في بيتهِ ثلاثًا ثم جاء حكيم ابن

حزام وجُبَيْر بن مطعم الى علي فأذن لهما في دفنهِ فخرجا بهِ ومعهما الزبير والحسن وابو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوهُ في حش كوكب بعد ان تولّى الخلافة ١٢ سنة الاَّ ١٢ يومًا

ولما علم اهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون لهُ فيها وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوهُ على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حذيفة خيلاً فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليهِ ابن ابي حذيفة جيشًا آخر فالتقى بهِ في خربتا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصرة لشيعة عثمان وانهزم الجيش واقامت شيعة عثمان في خربتا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ ـ ٤١ هـ او من ٦٥٥ ـ ٦٦١ م

امّا ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي (رض) يبايعونهُ فأبى وقال «اكون لكم وزيرًا خير من ان اكون اميرًا ومن اخترتم رضيتهُ» فالحوا عليهِ قائلين «لا نعلم احق منك ولا نختار غيرك» فبايعوهُ في المسجد يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعهُ طلحة ثم الزبير ثم بايعهُ الناس وبايعتهُ الانصار وتاخر منهم قليلون فخطب خطبتهُ الاولى في الناس بعد حمد الله فقال «وان الله انزل كتابًا هاديًا يبيّن فيهِ الخير والشرّ فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض ادّوها الى الله تعالى يؤدّكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانهِ ويدهِ الاَّ بالحقّ ولا

بحلّ دم امرء مسلم الّا بما يجب بادروا امر العامة وخاصّة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخرهم اتّقوا الله عباد الله في بلادهِ وعبادهِ انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوهُ واذا رأيتم الخير فخذوا بهِ واذا رأيتم الشر فدعوهُ واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض»

ثم رجع الى بيتهِ فدخل عليهِ طلحة والزبير وعدد من اصحابهِ فقالوا يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلّوا بانفسهم فقال « يا اخوناه اني لست اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم خلاطكم يسومونكم ما شاؤا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تُريدون » قالوا لا فقال « فلا والله لا ارى الّا رأياً ترونهُ ابداً الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذ بها ابداً ان الناس من هذا الامر ان حُرّك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتُؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » ثم خرجوا من عندهُ وقد اضمروا لهُ شرّاً

وكان معاوية لما توجّه الى ولايتهِ في الشام اخذ قميص عثمان الملطّخة بالدماء واصابع نائلة امرأتهِ وعلّق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في اذهانهم ان قاتل عثمان انما هو عليّ ويحثّهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد النكير على عليّ فالتفّت عليهِ دعاتهُ رغبة في الانتقام

ومما زاد اعداء الامام عليّ عدداً انهُ لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا على الامصار في ايام عثمان وولّى مكانهم من رأى من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة

وعبدالله بن عباس على اليمن ولما علم بقتل محمد بن ابي حذيفة ولّى مكانهُ قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام عوضًا من معاوية اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيتهُ خيلٌ فقالوا مَن انتَ قال اميرٌ قالوا على اي شيءٍ قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان بعثك غيرهُ فارجع » قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى عليّ . اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي (صلعم) وكان من ذوي الرأي والبأس وكان ضخمًا جسيمًا صغير الرأس طويلاً جدًّا مطاعًا جوادًا كريمًا يُعدُّ من دهاة العرب ولما ولّاهُ على مصر قال لهُ « سِر الى مصر فقد ولّيتُكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقاتك ومن احبيت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جندٌ فان ذلك ارهب لعدوك واعز لوليّك واحسن الى المحسن واشدُد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمنٌ » فقال لهُ قيس « اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الاَّ بجند آتيها بهِ من المدينة لا ادخلها ابدًا فانا ادع ذلك الجند لك تبعثهم في وجوهك » فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ﻫ بسبعة من اصحابهِ فصعد المنبر وامر بكتاب امير المؤمنين فقُرئ على اهل مصر بامارتهِ ويأمرهم ببايعتهِ واعانتهِ على الحق وقال « الحمد لله الذي جاء بالحق واماتَ الباطل وكبت الظالمين ايها الناس انّا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبيّنا فقوموا ايها الناس فبايعوهُ على كتاب الله وسنّة رسولهِ فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر وبعث عليها عمّالهُ الاَّ خربتا وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمهُ يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوهُ الى الطلب بدم عثمان وكان مسلمة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضًا بدم عثمان فارسل اليهِ قيس « ويحك أعليَّ تثب فوالله ما احبّ ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك » فبعث اليهِ

مسلمة « اني كافٍ عنك ما دمت وانت والي مصر »

وكان معاوية لا يزال ساعيًا على عليّ فلما رأى مصر قد استقام امرها خاف ان يُقبل عليٌّ في العراق وقيسٌ في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس « سلام عليك اما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربةَ بسوط او شتيمة رجل او تسيير آخر واستعمال فتىً وقد علمتم ان دمهُ لا يحلُّ لكم فقد ركبتم عظيمًا وجئتم امرًا إدًّا فتُب الى الله يا قيس فانك من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنّا انهُ هو الذي اغرى الناس وحملهم حتى قتلوهُ وانهُ لم يسلم من دمهِ عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على امرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني ما شئت فاني اعطيك واكتب اليّ برأيك » فلما جاءهُ الكتاب احب ان يرافعهُ ولا يبدي لهُ امرهُ ولا يتعجل الى حربهِ فكتب اليهِ « اما بعد فاني لم اقارف شيئًا مما ذكرتهُ وما اطلعت لصاحبي على شيءٍ منهُ وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيهِ قيامًا عشيرتي واما متابعتك فهذا امرٌ لي فيهِ نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليهِ وانا كافٍ عنك وليس يأتيك من قبلي شيءٌ تكرههُ حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى »

فلما قرأ معاوية كتابهُ رآهُ متقاربًا متباعدًا فكتب اليهِ « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرَك تدنو فاعدك سلمًا ولا تتباعد فاعدك حربًا وليس مثلي يصانع الخادع ويخدع للمكايد ومعهُ عدد الرجال واعنّة الخيل والسلام » فلما قرأ قيس الكتاب وراى انهُ لا تفيد معهُ المرافعة والمماطلة عمد الى مكاشفتهِ بما في نفسهِ فكتب اليهِ « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك اياي انسومني الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلةً وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الامر وأقولهم

بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله (صلعم) وسيلة ولد ضالين مضلّين طاغوت من طواغيت ابليس واما قولك اني مالئ عليك مصر خيلاً ورجالاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لذو جدٍّ والسلام» فلما رأى معاوية كتابهُ قنط منهُ وثقل عليهِ مكانهُ ولم تنجع فيهِ حيلهُ فجعل يسعى الى كيدهِ افسادًا بينهُ وبين عليّ فقال لاهل الشام «لا تسبُّوا قيسًا ولا تدعوا الى غزوهِ فانهُ لنا شيعة تا تينا كتبهُ ونصيحتهُ سرًّا الا ترون ما يقع باخوانكم الذين عندهُ من اهل خربتا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم» واتقانا لمكيدتهِ افتعل كتابًا عن قيس اليهِ بالطلب بدم عثمان والدخول معهُ في ذلك وقرأهُ على اهل الشام فبلغ ذلك عليًّا فاعظمهُ واكبرهُ فدعى ابنيهِ وعبدالله بن جعفر واعلمهم بذلك فقال ابن جعفر «يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يُريبك لعزل قيس عن مصر» قال عليّ «اني والله ما اصدق بهذا عنهُ» فقال عبدالله اعزلهُ فان كان هذا حقًّا لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفّهِ عن قتالهم فقال ابن جعفر «ما اخوفني ان يكون ذلك ممالئة منهُ فمرهُ بقتالهم» فكتب اليهِ يأمرهُ بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابهُ اما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاد دناهم ساعدوا عليك عدوّك فاطعني يا امير المؤمنين واكنف عنهم فان الراي تركهم والسلام»

فقرأ عليٌّ الكتاب بحضور ابن جعفر فقال لهُ يا امير المؤمنين ابعث محمد بن ابي بكر على مصر واعزل قيسًا فبعث عليٌّ محمد بن ابي بكر الى مصر فلما وصلها قال لهُ قيس «ما بال امير المؤمنين ما غيّرهُ أدخل احدٌ بيني وبينهُ» قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال قيس والا لله لا اقيم وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى عليّ واخبرهُ

الخبر فعلم انهُ كان يقاسي اموراً عظاماً من المكايدة

اما محمد بن ابي بكر لمَّا قدم مصر على ما تقدم جمع اليهِ سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب أمير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما اختُلف فيهِ من الحقّ وبصرنا واياكم كثيرًا مما كان عميَ عنهُ الجاهلون ألا ان امير المؤمنين ولّاني امركم وعهد اليَّ ما سمعتم وما توفيقي الاَّ بالله عليهِ توكلت واليهِ انيب فان يكن ما ترون من امارتي واعمالي طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانهُ هو الهادي لهُ وان رأيتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوا اليَّ وعاتبوني فيهِ فاني بذلك أسعد وانتم جديرون وفّقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمتهِ »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتفَّ عليهِ قومٌ كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

اما معاوية فكان قد استفحل امرهُ وكثر متشيعوهُ فبايعوهُ على الشام ولم يكن لهُ همٌّ الاَّ مصر وكان يخشى منها لقربها منهُ وكان يعتقد انهُ اذا ظهر عليها مكنتهُ من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها لهُ . فاجتمع بعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وغيرهما من سراة قومهِ وقال لهم « أتدرون لما جمعتكم فاني جمعتكم لامرٍ ليَ مُهِم » فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الرأي رأيتَ في افتتاحها فانَّ فيهِ عزك وعز اصحابك وكبت عدوك وذلّ اهل الشقاق عليك » فقال معاوية « افمَّك يا بن العاص ما افمَّك » وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال عليٍّ على ان لهُ مصر طعمة ما بقيَ حيًّا . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابهِ وقال لهم « لقد أصاب ابو عبدالله فما ترون » فقالوا ما نرى الاَّ ما رأى عمرو قال « فكيف اصنع فان عمرًا لم يفسّر كيف اصنع » فقال عمرو « ارى ان تبعث جيشًا كثيفًا عليهم رجلٌ حازم صابر صارم تأمنهُ وتثق بهِ فيأتي مصر فانهُ سيأتيهِ من كان

على مثل رأينا فيظاهرهُ على عدوّنا فان اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله » قال معاوية « ارى ان نكاتب من بها من شيعتنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ونكاتب من بها من عدوّنا فندعوهم الى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا بغير قتال فذاك الذي اردنا والّا كان حربهم من بعد ذلك . انّك يا ابن العاص بورك لك بالشدة والعجلة وانا بورك ليَ بالتؤدة » فقال عمرو « افعل ما ترى فما أرى أمرنا يصير الّا الى الحرب »

فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالفا عليًّا يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة في سلطانهِ فاجاب مسلمة بن مخلد الانصاري عن نفسهِ وعن ابن حديج ما نصهُ « اما بعد فان الامر الذي بذلنا لهُ أنفسنا واتّبعنا بهِ أمر الله أمرٌ نرجو بهِ ثواب ربنّا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا اما ما ذكرتَ من المواساة في سلطانك فتالله ان ذلك أمر ما لهُ نهضنا ولا اياهُ أردنا فعجّل الينا بخيلك ورجلك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائبين فان يأتنا مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاءهُ الكتاب وهو في فلسطين فدعا اوليك النفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى ان تبعث جندًا فعهد الى عمرو ان يسير في ستة الاف رجل واوصاهُ بالتؤدة وترك العجلة

فسار عمرو فنزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليهِ دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب الى محمد بن ابي بكر كتابًا ونصهُ « اما بعد فتنحَّ عني بدمك يا ابن ابي بكر فاني لا أحبُّ ان يصيبك مني ظفرٌ ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معهُ كتاب معاوية بالمعنى ايضًا . فارسل محمد الكتابين الى عليٍّ واخبرهُ بنزول عمرو بارض مصر وانهُ رأى التثاقل

ممن عندهُ ويستمدُّهُ فكتب اليهِ عليٌّ يأمرهُ ان يضمَّ شيعتهُ اليهِ ويعدهُ انفاذ الجيوش اليهِ ويأمرهُ بالصبر لعدوّهِ وقتالهِ . فقام محمد بن ابي بكر في الناس وندبهم الى الخروج الى عدوّهم فانضم اليهِ ثلاثة آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمدُّهُ فامدَّهُ والتقى الجيشان فظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن ابي بكر فما زال عمرو بجيشهِ حتى أقبل على محمد وكان قد تخلّى عنهُ رجالهُ ففرَّ من وجهِ عمرو يطلب ملجأ فانتهى الى خربة بناحية الطريق فاوى اليها وسار عمرو حتى دخل الفسطاط ثم ارسل معاوية بن حديج في طلب محمد بن ابي بكر فانتهى الى جماعة على قارعة الطريق فسألهم عنهُ فقال احدهم دخلت تلك الخربة فرأيت فيها رجلاً جالساً فقال بن حديج هو هو فامسكوهُ فدخلوا عليهِ فاستخرجوهُ وقد كاد يموت عطشًا واقبلوا بهِ نحو الفسطاط فوثب اخوهُ عبد الرحمن بن ابي بكر الى عمرو وكان في جندهِ وقال «اتقتل اخي صبرًا فابعث الى ابن حديج فانههِ عنهُ» فبعث اليهِ يأمرهُ ان يأتيهِ بهِ فجاؤا بهِ وقد اعياهُ الظمأُ فقال لهم اسقوني ماء فقال لهُ معاوية بن حديج «لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابدًا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والنساق» فقال لهُ محمد «يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اولياءهُ ويظمئ اعداءهُ انت وامثالك اما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا» فقال لهُ ابن حديج «اتدري ما اصنع بك ادخلك جوف حمار ثم احرقهُ عليك بالنار» فقال محمد «ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثلهُ باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو نارًا تلظى كلما خبت زادها الله سعيرًا» . فغضب منهُ وقتلهُ وجعلهُ في جيفة حمار والقاهُ في النار فلما بلغ ذلك عايشة جزعت عليهِ جزعًا شديدًا وقنتت في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم بن محمد ابن ابي بكر

في عيالهم ولم تعد تأكل من ذلك الوقت شواء . هكذا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

اما الامام علي فكان قد اجهد نفسهُ ليجمع مددًا الى محمد فلم يأتهِ من رجالهِ الاَّ نفر قليل وبينما هو يحث الناس على ذلك جاءهُ الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتدَّ غيظهُ وخطب في الناس قائلاً

«الا ان مصر قد افتتحتها اهل الفجور أُولو الجور والظلمة الذين صدُّوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجًا الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبهُ اما والله ان كان كما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الناجر ويحب هدى المؤمن اني والله ما أَلوم نفسي على تقصيرٍ واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لأَنقدم على الأَمر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلنًا وانا ديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امرًا حتى تصير بي الامور الى عواقب المساءة فانتم القوم لا يُدرك بكم الثار ولا تنقض بكم الاوتار دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق وتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست لهُ نية في جهاد العدوّ ولا اكتساب الاجر ثم خرج اليَّ منكم جُنيدٌ متذائبٌ كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافٍّ لكم» ثم نزل

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن ابي طالب وبويع ابنهُ حسن مكانهُ وبقيَ هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخلت سنة ٤١ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان خليفة الشام ومصر الذي لم يحل عن مقصدهِ حتى بلغهُ فنودي بهِ اميرًا للمؤمنين وبويع لخمس بقينَ من ربيع الاول سنة ٤١ هجرية

اما النقود التي ضُربت في عهد الخلفاء الراشدين فكلُّها نحاسية وفي غاية البساطة كما ترى في الشكل ١٩ ليس عليها من الكتابة الاَّ صورة

الشهادة بالحرف الكوفي . ولم تضرب النقود الفضية في الاسلام حتى ايام الخليفة عبد الملك كما سترى

ش ١٩ نقود الخلفاء الراشدين

الدولة الاموية

من سنة ٤١ ـ ١٣٢ هـ او من ٦٦١ ـ ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ ـ ٦٠ هـ او من ٦٦١ ـ ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أُميّة واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية فجعلها معاوية وراثية فانحصرت في اعقابهِ تنفيذاً لمآربهِ وشرع في تولية العمّال على الامصار ولما كانت مصر من أهمّ تلك الامصار عهد أمرها لعمرو بن العاص لما عرف من علوّ همتهِ وحسن سياستهِ وجعلها لهُ طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر فغزاهم وصالحهم ثم انتقدوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو لبدة فغزواها في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو شديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من أفراد الدهر دهاء وحزماً وفصاحة الّا انهُ كان يتلجلج بكلامهِ

ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جداً لانهُ لم يعد يعلم لمن يعهد ولاية مصر بعدهُ . وبعد التردد في الامر لم يرَ بدّاً من تولية احد ابناء عائلتهِ فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاهُ في ذي القعدة من سنة

٤٣ فسار اليها وبعد ان اقام اشهرًا عرض لهُ سفر الى اخيهِ معاوية بدمشق فاستخلف عبدالله بن قيس ابن الحارث وكان في شدَّة وعسف فكرهِ المصريون ولايتهُ وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال

«يا اهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وُليكم من اذا قال فعل فان أبيتم درأكم بيدهِ فان ابيتم درأكم بسيفهِ ثم رجى في الاخير ما ادرك في الاول ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل واينا غدر فلا ذمَّة لهُ عند صاحبهِ» فناداهُ المصريون من جنبات المسجد «سمعًا سمعًا» فناداهم «عدلاً عدلاً» ونزل وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثنى عشر الفًا من اهل الديوان تكون لها رابطةً

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ ﻫ وكانت مدة ولايتهِ سنة كاملة فاقام معاوية عوضًا عنهُ عقبة بن عامر ابن عبس الجهني وجعل لهُ صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئًا فقيهًا مفرضًا شاعرًا لهُ الهجرة والصحبة والسابقة الَّا انهُ لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانهُ مسلمة بن مخلد ابن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامرهُ ان يكتم ذلك ليبينما يخرج عقبة من مصر بحيلة

ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ ﻫ انفذ معاوية امرهُ الى عتبة ان يسير الى رودس بحرًا فقدم مسلمة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهولم يعلم بامارتهِ فلما توجَّه سائرًا استوى مسلمة على سرير إمارتهِ فبلغ ذلك عقبة فقال «أخلعًا وغربةً» وكانت مدة ولايتهِ ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسلمة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواتهُ في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشًا وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصونًا ومعاقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٢ ﻫ في

امارتهِ نزلت الروم البرلس وقُتل يومئذٍ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين . وأمر مسلمة بابتناء منارات المساجد وهو أوّل من أحدث المنار بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ هـ سافر مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة تُوفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنُّهُ ثمان وسبعون سنة ومدة خلافتهِ تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ ــ ٦٤ هـ اومن ٦٨١ ــ ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بويع ابنهُ يزيد فاقرّ مسلمة بن مخلد على مصر فكتب اليهِ بأخذ البيعة فبايعهُ الجند الاّ عبدالله بن عمرو بن العاص فهدّدوهُ بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنَّهُ ابوهُ ما بلغ عمرهُ هذا المنصب لانهُ كان متبعًا هوى نفسهِ متغاضيًا عن واجباتهِ . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير على اقامة الحجة عليهِ وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما ففرّا منها فالتفّ عليهما حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فارسل ابن الزبير في اثرها عبيد الله وعمر بن سعد في عدد من الاجناد فهجما على الحسين وقتلاهُ افظع قتلة واتو برأسهِ الى يزيد فبالغ في اهانتهِ . لكنهُ لم يكد يبلغ مناهُ بقتل الحسين حتى قام عبدالله بن الزبير في مكة مستعظمًا فعلهُ فشدّد عليهِ النكير وجنّد اليهِ منتقمًا للحسين

وكانت مصر اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٣ هـ توفي اميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولاّها ١٥ سنة واربعة اشهر فولّى الخليفة

مكانهُ سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٣ﻫ فتلقاهُ عمر بن محزم الحولاني وقد شقَّ عليهِ تولية من هو من غير بلادهِ عليهِ فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولى علينا احدهم » ثم جعل اهل مصر يعرضون عنهُ ويعارضون في احكامهِ لكنهُ كان حازمًا لم يثنهِ ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامهِ

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشدّدون النكير على يزيد الى ان أجمعوا على خلعهِ رغمًا عن كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ الفًا من رجالهِ عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وأمرهم ان لا يكفّوا عنها الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر وكان ذلك في سنة ٦٣ﻫ

وفي سنة ٦٤ﻫ بويع عبدالله بن الزبير على الخلافة في مكّة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكّة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق البيت (الكعبة) كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءهُ الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاتهُ في حوران من بلاد الشام في ٤ ربيع اول من تلك السنة بعد ان تولّى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الاَّ بضعة ايام وسنُّهُ ٣٩ سنة

(١) البيت والكعبة شيء واحد

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبدالله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ او من ٦٨٤ ـ ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بُويع ابنهُ معاوية وسنُّهُ عشرون سنة ويدعوهُ بعضهم معاوية الثاني تمييزًا لهُ من معاوية بن ابي سفيان جدِّهِ وبعد ٤٥ يومًا من مبايعتهِ توفي ولا ولد لهُ

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف الناس بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل لهُ عن الخلافة من يوم بايعوهُ لما رأى من كثرة احزابهِ وعجزهِ عن مناهضتهِ فزهد في الدنيا رغمًا عن صغر سنهِ وطلب ان يكتب على قبرهِ « الدنيا غرور »

وكان عبدالله بن الزبير رجلاً مؤدبًا فطنًا جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة مواقع حربية وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوهُ الزبير واخوهُ محمد من جيشهِ ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اخناهم عليها شهودًا . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معهُ . ومن اخلاقهِ انهُ كان مثابرًا في اعمالهِ ثابتًا في مقاصدهِ فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليهِ ثم على ابنهِ يزيد ثم على ابن ابنهِ معاوية الثاني حتى ظفر بمرامهِ ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكّة محاطًا بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن

وبايعهُ من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى الحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مرَّ وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهمينها فانفذ اليها عبدالرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعتهِ غير ان سعيد الازدي كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يُقبل على دعوة عبدالله من المصريين الاَّ بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة رغماً عن كثرة دعاتهِ واشياعهِ الاَّ بعد وفاة معاوية بن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمهِ فلم يعد في خشيةٍ من شيءٍ فصرح بخلافتهِ . ثم همَّ الى اخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسلهُ اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعيد الازدي فبايعهُ الناس وفي قلوب بعضهم غلٌّ . اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من العائلة الاموية فعظم ذلك على عبدالله بن الزبير فانفذ اليهِ الضحاك بن قيس في جيش من رجالهِ فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما مواقع كبيرة شفَّت عن انقلاب جيش عبدالله

وكان مروان قد انفذ ابنهُ عبدالعزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد ظفره بجيش بن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمتهُ وحمل بكل جيشهِ على مصر. فلما علم اميرها عبدالرحمن بن عتبة بذلك همَّ الى الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثرهُ باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعهُ عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليهِ واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفر احدهما بالاخر وبينما كان الجيشان

في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجال مروان قاصدًا الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم يرَ بدًّا من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ اجمادى الاولى سنة ٦٥ه فكانت مدة امارة ابن جحدم تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازته الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوهُ في بيتهِ قرب جامع عمرو اما مروان فلم يكن واثقًا بالمصريين واخلاصهم فخشية ان يستغيبوهُ ويعقدوا لعبدالله بن الزبير ولّى عليهم ابنهُ عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يدهُ على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعهُ جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخلع بيعة بن الزبير فقطع اعناقهم وعنق بن هام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعتهِ

فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد مهامَّها الى ابنهِ عبد العزيز وهمَّ بالرحيل فقال لهُ ابنهُ « يا امير المؤمنين كيف المقام في بلد ليس بها احد من بني أبي » فقال لهُ مروان « يا بنيَّ عمّهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم واوقع الى كل رئيس منهم انهُ خاصتك دون غيرهِ يكن لك عينًا على غيرهِ وينقاد قومهُ اليك وقد جعلت معك اخاك بشرًا مؤنسًا وجعلت لك موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا وما عليك يا ابني ان تكون اميرًا باقصى الارض اليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك » ثم اوصاهُ عند خروجهِ من مصر الى الشام قائلاً « اوصيك بتقوى الله في سرِّ امرك وعلانيتهِ فان الله مع الذين انقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذّن يدعو لي فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا واوصيك ان لا تعد الناس موعدًا الا انفذتهُ

لهم وان حملتهُ على الاسنَّة واوصيك ان لا تعجل في شيءٍ من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احدًا عن ذلك لاغنى نبيَّهُ محمدًا (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيهِ . قال الله عزَّ وجل وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٦٥ هـ والحرب لا تزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبدالله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ ـ ٨٦ هـ او من ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة تُوفّي مروان ولهُ من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنهُ عبد الملك فاقرَّ اخاهُ عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيهِ فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعيًا الى تعميم خلافتهِ وفي آخر الامر حاصر عبدالله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ هـ قُتل عبدالله بن الزبير فخلا الجوّ لعبد الملك وكانت وفاتهُ فصلاً نهائيًا لذلك الخصام الذي استمر عشر سنين متواليات ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى وبنى مقياسًا للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناهُ الاسلام في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياسًا قبل ذلك ولا دليل على هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها دارًا وجعل فيها الاعوان وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وفي سنة ٧٧ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيهِ وفي ايامهِ ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية وكانت العرب الى ذلك العهد تتعامل بالدنانير الفارسية ولم تكن ضربت الاَّ القطع النحاسية وترى في الشكل العشرين صورة احد تلك الدنانير ضرب سنة ٧٩ للهجرة

ش ٢٠ دنانير عبد الملك بن مروان

وفي آخر ايام هذا الخليفة تمَّ بناء السراي الجميلة المدعوة الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

وكانة طائفة الكهنة الاقباط معافة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم دينارًا وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٢ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٢ يومًا وكان جوادًا حليمًا حازمًا بشوشًا فتولَّى بعدهُ عبدالله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيهِ على صلاتها وسنُّهُ ٢٩ سنة وطلب اليهِ ابوهُ ان يقتفي آثار عمهِ عبد العزيز بالفطنة والدراية

خلافة الوليد بن عبد الملك

من سنة ٨٦ ــ ٩٦ هـ اومن ٧٠٥ ــ ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنهُ الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقرَّ اخاهُ عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبدالله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لا تزال

الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها انتناش فعزله وولى مكانه بن بربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨ه واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن فحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف

اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكمًا حقًا ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروبًا كثيرة عاد منها ظافرًا منها الحروب الهائلة مع امراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند . كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٢ ربيع اول سنة ٩٠ه اقيم على مصر قرة بن شريك من اهل قنسرين بدلًا من عبد الله بن عبد الملك واحيى قرة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القماش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحتقر اعتقاداتهم ويدخل احيانًا الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ه اعاد قرة بن شريك بامر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ه توفي قرة في الفسطاط فاقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرة سيّء التدبير خبيثًا ظالمًا غشومًا فاسقًا وبعد ثلاثة اشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنة ٤٨ سنة وقد بنى مقياسًا للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ه

ش ٢١ نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

من سنة ٩٦ ـ ٩٩ هـ او من ٧١٤ ـ ٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوهُ سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيهِ في توسيع نطاق مملكتهِ ففي اوّل سنة من خلافتهِ فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاهُ مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصارًا شديدًا

وعند اول خلافتهِ اقرّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها أسامة بن يزيد المشهور بالظلم ولقبهُ بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفهِ ومما جعلهم يزيدون تظلمًا منهُ انهُ لم يكتفِ باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنهُ امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتمًا من حديد في اصبعهِ مختومًا عليهِ اسمهُ يأخذهُ من جابي الخراج اشارة الى خلوّ طرفهِ ومن يخالف ذلك تقطع يدهُ فاذا اصرّ على المخالفة يُقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجبًا . وكان اسامة مع ذلك يُظهر رغبةً شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى اخر يتفقّد الارض وريّها وينتبه خصوصًا لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فامر باغفالهِ واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين النسطاط والجيزة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المارّ في النيل صاعدًا او نازلاً ولا يمر الّا من كان في يدهِ امرٌ مؤذن لهُ

بذلك بعد اداء المبلغ المفروض . ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونوال تذكرة المرور ولكن بكل مشقة نظرًا لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيًا فاختطفهُ تمساح وابتلعهُ وثيابهُ والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبهِ ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى الا ان تبرز تذكرتها فاخبرتهُ ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغاث اذنهُ عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما بين يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجراآت وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام وفيما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على امل ان ينالوا ما يريدونهُ ممن يخلفهُ . وكانت وفاتهُ في ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ وهو يبني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنهُ ٤٥ سنة فبويع ابن عمهِ عمر بن عبد العزيز الملقب باشج الحنص لانهُ لم يكن من اخوتهِ وولدهِ من يصلح للخلافة

خلافة عمر بن عبد العزيز

من سنة ٩٩ ــ ١٠١ هـ او من ٧١٧ ــ ٨٢٠ م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محبًا للعدالة فرفع اليهِ المصريون شكواهم على أسامة فأمر بعزلهِ وتولية ايوب بن شرحبيل وكان هذا ورعًا منزهًا مستقيًا عادلاً فزاد في الاعطيات وعطّل الحانات فانسى المصريين ما كان من استبداد اسامة وغلاظتهِ ثم بعث اليهِ الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيلهِ بالحديد وتسمير يديهِ ورجليهِ باطواق من الخشب وارسالهِ اليهِ

ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انهُ يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليهِ ذلك وكتب اليهِ « ارى يا حيان ان تضع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسولهُ ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » فاجابهُ حيان « اما بعد فان الاسلام قد اضرَّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليهِ عمر « اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطًا فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمدًا (صلعم) هاديًا ولم يبعثهُ جابيًا ولعمري لعمرُ أشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يدهِ » وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و ١٤ يومًا فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موتهِ فبويع يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من سنة ١٠١ ـ ١٠٥ هـ اومن ٧٢٠ ـ ٧٢٤

فاقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليهِ ان يسلم الحكم لبشر بن صفوان الكلبي وبعد يسير امرهُ ان يتوجه الى افريقية واقام

مكانهُ حنظلة بن صفوان وفي ايامهِ امر الخليفة بتكسير التماثيل والأصنام المقامة في مصر منذ القديم فكسر معظمها . وفي سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولّى الامارة محمد بن عبد الملك احد اخوة الخليفة . وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي الخليفة يزيد بن عبد الله في حران فبويع اخوهُ هشام ولم يرَ المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ او من ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م

فلما بويع هشام امر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر واقام عليها الحرّ بن يوسف وفي امارتهِ كان اول انتقاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ هـ فولّى مكانهُ حنص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ هـ استبدل حنص بعبد الملك بن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولّى مكانهُ بامر امير المؤمنين اخوهُ الوليد بن رفاعة وفي ولايتهِ نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها احد منهم فانزلوا في الحوف الشرقي . وفي ايامهِ خرج وهيب اليحصبي شاردًا في سنة ١١٧ هـ من اجل ان الوليد أذن للنصارى في ابتناء كنيسة يومنا بالحمراء وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب . وتوفي الوليد في الفسطاط وهو والٍ اول جمادى الآخرة سنة ١١٧ هـ بعد ان حكم تسع سنين . فتولّى مكانهُ عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفهُ حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة مدة ست سنوات وكان عاتيًا غشومًا رغمًا عن رغبة الخليفة اليهِ ان يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتفِ بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها

على الحيوانات وكان يختم الوصولات المعطاة منهُ بختم عليهِ صورة أسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فانفذ اليهِ في سنة ١٢٤ هـ يعزلهُ من مصر ويأمرهُ ان يتوجه الى افريقيا ففعل فولّى مكانهُ حنص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارتهِ . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنهُ ٥٦ سنة ومدة حكمهِ ١٩ سنة و٧ اشهر و١١ يومًا ومن اعمالهِ التي تستحق الذكر انهُ تغلب على الروم واسر ملك القسطنطينية سنة ١١٢ هـ

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل الثاني والعشرين

ش ٢٢ نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

من سنة ١٢٥ ـ ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس فأمر بصرف حنص عن مصر رغمًا عما عُرف بهِ من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيهِ واقام عوضًا عنهُ عيسى ابن ابي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فآثار بسوء تصرفهِ خواطر المصريين ثانيةً . والخليفة لم يكن احسن سياسةً منهُ لانهُ جمع جميع الصفات التي تحط من

قدر الملوك فاثار عليهِ رعاياهُ ولا سيما اهل الشام فشقّوا عصا الطاعة وطلبوا ان يبدل بيزيد بن الوليد ابن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب ايجابًا وجعل لمن يأتيهِ برأس الوليد بن يزيد ماية الف دينار ثم قُتل الوليد وسنُّهُ ٤٣ سنة ولم يحكم الّا سنة واحدة وشهرين و ٢٠ يومًا

خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من سنة ١٢٦ ـ ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ ـ ٧٤٤ م

فبويع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الاخرة من سنة ١٢٦ هـ الّا ان تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى اطراف العالم الاسلامي حتى تهددت المملكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجا من سجنهِ في عمّان وجمع اليهِ اجنادًا وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة . واهل فلسطين ثاروا على اميرهم وقتلوهُ . ومروان بن محمد الحمار جرّد من ارمينيا مطالبًا بدم الوليد وكان جيشهُ غفيرًا فلما بلغ حرّان خافهُ يزيد فكاتبهُ وعاهدهُ على ان يخلي لهُ ما بين النهرين وارمينيا واذربيجان حقنًا لدم العباد . وبعد ذلك بيسير توفي يزيد بالطاعون وسنُّهُ ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابراهيم بن الوليد أخوهُ من ابيهِ ولم تكن تلك المبايعة مفرحة لهُ لانهُ جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرّد جيشًا من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين ناكرًا المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف

مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاتهِ في حمص وكان مروان يتحل سبباً يخوّل لهُ الهجوم على دمشق فادّعى انهُ جاء لانقاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسألهُ اذا كان يتحد معهُ على خلع الخليفة ابراهيم وتولية احد ابناء الخليفة السابق فأبى محاربتهُ مدةً ففرّ سليمان ورجالهُ الى دمشق فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلا ايديهما على الخزائن ثم اخرجا ابني الوليد من السجن وقطعا عنقيهما بناء على انهما منشأ تلك المتاعب وان بقتلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيهِ بغير الحق لا يصلح للخلافة وطلب خلعهُ وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يدهُ على الاحكام ودعا الى مبايعتهِ فبايعهُ الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانهُ اشترى حياتهُ بهذه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

خلافة مروان بن محمد

من سنة ١٢٧ ـ ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ ـ ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول ابو عبد الملك لقب بهِ يوم ولادة ابنهِ البكر والثاني الجعدي نسبةً الى عمّهِ جعد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً بهِ اكثر مما بغيرهِ واصل تلقيبهِ بهِ انهُ كان ثابتاً في الحروب فلقبوهُ بحمار الوحش ثم أُهملت الكلمة الثانية (لكثرة الاستعمال) فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت لهُ المبايعة سنة ١٢٧ هـ ابدل حنص بن الوليد امير مصر بحسان بن عناهية النجيبي فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليهِ

وقالوا لا نرضى الا بحنص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في دارهِ وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد فاخرجوهُ بعد ١٧ يومًا من توليتهِ واخرجوا معهُ عيسى ابن ابي عطاء صاحب الخراج فولّى مروان على مصر الحنص بن الوليد وهي المرة الثالثة لولايتهِ عليها . وفي سنة ١٢٨ﻫ صرفهُ مروان وولّى مكانهُ الحوثرة بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الآف في اول المحرم وقد اجتمع الجند على منعهِ فابى عليهم حنص فخافوا حوثرة وسألوهُ الامان فأمنهم ونزل ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثرة وولّي مكانهُ المغيرة بن عبيدالله النزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولّي مكانهُ عبد الملك بن موسى بن نصير وكان بن مروان واليًا على الخراج فلما تولّى الامارة امر باتخاذ المنابر في الكوَر ولم تكن قبلهُ وكان ولاة الكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في انحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوتهِ كما علمت فسامها الرضوخ فأبت ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعتهِ وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشهِ الى قنسرين فحاربهُ مروان وقتل من رجالهِ ثلاثين الفًا فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهّز اليهِ مروان وحاصرهُ هناك وكان عبدالله بن معاوية العلوي لا يزال خليفة في الكوفة الى ذلك الحين . وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم ابو العباس الهاشمي وكان اذ ذاك خليفة في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة عبد الرحمن بن مسلم الذي أرسل اليها وكيلاً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنهُ اظهر همةً ودرايةً لا تكونان الاَّ بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليهِ وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى جورجيا ثم الى

الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . اما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهدهُ اهلها فقنط من الفوز فعاد على اعقابهِ الى سوريا فاذا بها مجمعة على عصيانهِ فلم يرَ لهُ ملجأ الاَّ مصر لانها كانت لا تزال الى ذلك الحين معترفة بخلافتهِ

اما ابو العباس فلما استتب لهُ الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمهِ ولاةً اختارهم من ذويهِ ثم بايعهُ اهل الشام ومَن والاهم وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي اقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى ابو العباس تثبيتًا لقدمهِ في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوهُ فامر بالقبض عليهم فاذا بهم ثمانون نفسًا بين نساء ورجال واولاد فأمر بذبحهم معًا بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينجُ من هذه المذبحة الاَّ شاب من العائلة الاموية يقال لهُ عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ففرَّ هاربًا الى الاندلس (اسبانيا) واسس فيها دولة اخرى اموية

اما مروان فجاء الى مصر على نية ان يستبقيها لهُ فارسل عبدالله عمّ ابي العباس اخاهُ صالح بن علي يقتفي اثرهُ وامرهُ ان يقبض عليهِ باي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعهُ ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسمًا من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خرابًا فأمر ابو عون اصحابهُ بالبناء فيهِ فابتنوا وقاموا فيهِ معسكرهم ودعوهُ بالعسكر واتصل بناؤهُ ببناء الفسطاط وبنيت فيهِ بعد ذلك دار الامارة وجامعٌ عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيهِ من بعد ابي عون الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصرهُ

ثم اخذ صالح بن علي في استتباع مروان فادركهُ في قرية ابوصير من

الجيزة وقتلهُ في ٢٧ جمادى الاخرة سنة ١٣٢ﻫ وسنهُ سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل رأسهُ الى ابي العباس السفاح وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهر واحد وهو آخر من ملك من الدولة الاموية

الدولة العباسية الاولى

حكمت من سنة ١٣٢ ـ ٢٥٧ ﻫ او من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ م

خلافة ابي العباس بن محمد

من سنة ١٣٢ ـ ١٣٦ ﻫ او من ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م

بويع الخليفة ابو العباس عبدالله بن محمد الملقب بالسفّاح في ١٢ ربيع اول سنة ١٣٢ ﻫ وهو من سلالة عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فبادر الى اقالة ولاة الامصار الذين كانوا قبل خلافتهِ وابدالهم بولاةٍ من اقاربهِ وذويهِ . فجعل على مصر عمهُ صالح بن علي قاتل مروان فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٢ ﻫ وبعد يسير بعث الى الخليفة وفدًا من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعتهِ وقتل كثيرًا من دعاة بني اميَّة وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بفلنسوة من ارض فلسطين . وفي غرة شعبان سنة ١٣٢ ﻫ ورد اليهِ كتاب امير المؤمنين بامارتهِ على فلسطين وان يستخلف على مصر من اراد فاستخلف اباعون عبد الملك بن يزيد نائبًا عنهُ وسار ومعهُ عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٦ ﻫ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافتهِ بعد ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يومًا

وسنة ٣٢ سنة ونصف وهو اول من اتخذ وزيرًا لان خلفاء بني امية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

من سنة ١٣٦ ـ ١٥٨ ﻫ او من ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوهُ المنصور بن محمد الملقب بابي جعفر واتخذ الهاشمية سريرًا لملكهِ كما فعل سلفهُ . وفي سنة ١٤٠ ﻫ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائبًا فيها . وفي سنة ١٤١ ﻫ عزل ابا عون عن مصر وولّى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولّى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليتهُ امر الخراج فابى فتولاها نوفل بن الفرات ثم رأى بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكليتهم نحو صاحب الخراج فندم وآل الامر الى نفور بينهُ وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ ﻫ صرف محمدًا وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ ﻫ صرفهُ وولّى يزيد بن حاتم المهلبي

فترى انهُ قد تقلب على مصر في مدة لا تتجاوز السبع سنوات ستة امراء الامر الدالُّ على ما فطر عليهِ المنصور من التقلب فانهُ كان لا يثق باحد ولا يقرُّ على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلُّك على ذلك ما كان من امرهِ مع ابن مسلم الذي لهُ الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيهِ ما وصلت الخلافة الى يدهم فانهُ بمجرد ما قيل لهُ ان ابن مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتلهِ . ولشدة هواجسهِ ترك الهاشمية

التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ ﻫ) سريرًا للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين وقد جعلهُ سوء ظنهِ مترددًا لا يستقر على حال. فاوصى بالخلافة لابن اخيهِ عيسى بن موسى ثم ندم فاوصى بها لاخيهِ على ان يكون لعيسى حق بالخلافة بعدهُ ثم تردد بين الامرين ولم يجزم باحدهما

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحوًا من ثماني سنين عمل فيها بامانة ونشاط فلقبهُ بامير مصر وجعل هذا اللقب لمن يخلفهُ من الولاة وفي امارتهِ ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلي بن محمد بن عبدالله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ ﻫ ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد. وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يحج منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من الاضطرابات بأمر بني حسن. وفي سنة ١٤٦ ﻫ ورد كتاب ابي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من اجل ليلة المسجد. وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحوّل اليها الخليفة ابو جعفر المنصور في صفر فلما دخلها امر أن تجتمع اليهِ العلماء والفلاسفة. وفي سنة ١٤٧ ﻫ حج يزيد واستخلف عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطتهِ وبعث جيشًا لغزو الحبشة من اجل خارجيٍّ ظهر هناك فظفر بهِ الجيش وقدم رأسهُ في عدة رؤوس فحملت الى بغداد. وفي سنة ١٤٨ ﻫ ضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو اوّل من فعل ذلك. وفي سنة ١٥٠ ﻫ خرج القبط في سخا فبعث اليهم جيشًا فرجع منهزمًا. وفي سنة ١٥٢ ﻫ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضًا عنهُ عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم في مصر الّا ٣ سنين. وفي سنة ١٥٥ ﻫ

أبدل باخيهِ محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولّى مكانهُ موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغييرات الكثيرة في امارة مصر لم يرتح اهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام وذلك لاعتقاد كل حاكم انهُ عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى الى زرع ما ربما لا يستغلهُ كان يسعى الى ما فيهِ صالحهُ الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انهُ لم يبقَ شيءٌ معاف من الضرائب حتى النعلة وبائعي البقول وقادة الجمال وكل الصناع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعم البلاء واشتد الجوع فاكل الناس الكلاب ولحم الادميين

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجّه لقضاء فروض الحج وكان سنهُ ٦٣ سنة ومدة حكمهِ ٢٢ سنة الاّ ٧ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظر ش ٢٣)

ش ٢٣ نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ ـ ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م

فخلفهُ محمد المهدي ابنهُ وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كابيهِ متقلّباً مترددًا . وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزلهُ واعاد موسى بن علي وفي

سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن لقمان الجحجي وفي سنة ١٦٣ هـ صرف عيسى وولى واضح مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدلهُ بمنصور بن بزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدلهُ يحيى بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوهُ تركيًا وهو من اشد الناس واعظمهم هيبةً واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبةً فمنع من غلق الدروب ليلاً ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع لهُ شيء فعليَّ اداؤهُ » فكان الرجل يدخل الحمَّام فيضع ثيابهُ ويقول يا ابا صالح احرسها فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايتهِ وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها عليهِ يوم الاثنين والخميس بلا اردية وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكرهُ قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولّى سالم ابن سوادة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزلهُ المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس فابتنى دارًا عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحية ابن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذ ودعا الى نفسهِ بالخلافة فتراخى عنهُ ابراهيم ولم يحفل بامرهِ حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزلهُ عزلاً قبيحًا في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولّى موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم وممن كان معهُ ثلثماية الف دينار ثم سيرهُ الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجًا على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكرهَ الجند ذلك ونابذوهُ وثارت قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليهِ فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنهُ اهل مصر باجمعهم

الحجة ومعهُ علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما لهُ فلم يدفع اليهِ شيئاً فقتلهُ وصرف عبدويه وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولّى من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ ﻫ على الصلات فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الاخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم امير المؤمنين عبدالله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ ﻫ فسخط على عيسى وحل لواءهُ وأخذهُ بلباس البياض عقوبةً لهُ وقال لهُ «لم يكن هذا الحدث العظيم الأعن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد» ثم ولّى كيدر الصغدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انهُ كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان يمرّ بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغهُ من تمرّد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراها يتفقد احوالها ويقال انهُ كان يبني لهُ في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقهُ والعساكر حولهُ وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ النسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ ﻫ وما زال يتحرى اصول الفساد ويقتلعها الى ان بارح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون اثناء تجولهِ في مصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناهُ اسامة في الروضة وبناء جامع فيهِ ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان بارح المأمون مصر بلغهُ ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا برضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها

ممن كابد المشقّة والتعب في اصلاحها واسعادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب فلما علم بذلك أنكرهُ ومنع من ارتكابهِ واصدر أوامرهُ الصارمة باعناء الكافة اجمعين والضعناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيهِ ويستولون عليهِ ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمّن ذلك منشور قُرئ على الناس ينبههم فيهِ الى ما جاء في الكتاب العزيز من قولهِ تعالى يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وسنهُ ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافتهِ عشرون سنة وخمسة اشهر و ١٢ يومًا

اما آثار المأمون فاجلُّ آثار الخلفاء لانها تدلُّ على ما بلغهُ العلم وما بلغت اليهِ الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقهِ بالعلم والصناعة يتعاطاهما بنفسهِ ويأخذ بناصرها وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاهُ لم يطّلع العرب على كثير من المؤلفات التي كتبت بالعبرانية او السريانية او اليونانية او اللاتينية فانهُ هو الذي سعى الى نقلها الى اللغة العربية ونشط رعيتهِ لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضلهُ من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عمومًا مديونون لهُ لانهُ حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لحطمتها يد الزمان كما حطمت غيرها مما نسمع بهِ ولم نرهُ . وكان كلفًا بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسهُ منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبهِ وملتهِ لكنهُ استدعى اليهِ من العلماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقرّبهم منهُ ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفًا على مفارقتهم وهم اشدُّ اسفًا منهُ على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالستهِ لما كانوا يتمتعون بهِ من لطفهِ ودعتهِ

دينار على ان يتخلّى عن هدمها فأبى وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتى قالوا انهُ اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليهِ هارون الرشيد وعزلهُ وولّى مكانهُ موسى بن عيسى العلوي في ٦ ربيع اول سنة ١٧١ ﻫ وحالما استلم زمام الامارة أذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هُدِمَت بامر علي ابن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ ﻫ عُزل بعد ان تولّى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولّى مكانهُ مسلمة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ ﻫ عزل مسلمة بن يحيى عن الصلات وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ ﻫ عُزل وتولى مكانهُ داود بن يزيد ابن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ ﻫ عُزل داود بن يزيد وولّي مكانهُ موسى بن عيسى ثانيةً . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنهِ الثاني محمد الملقب بالامين وهو اذ ذاك لم يبلغ الخامسة من العمر واخوهُ المأمون في السادسة وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن امرأة اخرى ليست بذات نسب عال فغضبت زبيدة من حرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبُّها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعدهُ رغمًا عن كونهِ البكر

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ ﻫ عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولّاها في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ ﻫ تولى امارة مصر عبدالله ابن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن الزهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ فخلفهُ اسحق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة اجحفت بهم فخرج عليهِ اهل الحوف فحاربهم فقُتل كثير من اصحابهِ فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث بهِ فنزل الحوف فتلقاهُ

اهلهُ بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كلَّهُ فسر الخليفة مما اتاه هرثمة من النصر فصرف اسحق بن سليمان وولّى مكانهُ هرثمة في ٣ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقية وولّى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلات وارسل معهُ عبدالله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيدالله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تخلّى هذا عن الامارة لموسى بن عيسى وهي المرة الثالثة لامارتهِ . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيدالله بن المهدي ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت امارة مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيهِ بن عفير « ما رأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح »

وفي ١٤ جمادى الاخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولّى الليث بن الفضل البيوردي من اهل بيورد فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاهُ الفضل ابن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانيةً بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جملتها اراضي اهل الحوف فانتقض لهم من القصبة اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجمهروا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة الاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنهُ الجند في ١٢ منهُ وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معهُ على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط

بثمانين رأساً من رؤوس القيسية ولما عاد الى الفسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ ﻫ وطلب اليهِ الجيوش لانهُ لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الاَّ بجيش يبعث بهِ معهُ وكان محنوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محنوظ الى الرشيد يضمن لهُ خراج مصر عن آخرهِ بلا سوط ولا عصا فولاهُ الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها وفي ٢٥ جمادى الاخرة سنة ١٨٧ ﻫ عزل واقيم مقامهُ احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ ﻫ أُبدل بعبدالله بن محمد العباسي الملقب بابن زنيبة . وفي هذه السنة ابدل عبدالله المذكور بحسين بن جميل الخناخ وفي ايامهِ امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليهِ امير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ في أمرهم فنزل بلبيس في شوال سنة ١٩١ ﻫ وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٢ ﻫ وولى مالك بن دلهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليهِ كتاب الرشيد يأمرهُ بالخروج اليهِ فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك ابن دلهم وادخل بينكم وبينهُ في امر خراجكم فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأُخذت ثم دعا بالحديد فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٣ ﻫ أُبدل بمالك بن دلهم وكان على الخراج الخصيب ابن عبد الحميد واليهِ تنسب مدينة منية خصيب

واخيرًا في ٤ صفر سنة ١٩٣ ﻫ عادت امارة مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنهُ ٤٧ سنة مدة حكمهِ ٢٣ سنة وشهر و١٩ يومًا . ولا

حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركهُ في سائر اطوارها فقد كان حازمًا عادلاً تقيًّا باسلاً وديعًا محبًّا للعلم والفضل واهلهما ولدينا من الاحاديث عن كرم اخلاقهِ ما تحدث بهِ العامة والخاصة فنكتفي بانهُ جعل الخلافة علمًا هو مسمّاها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة لانفهم الاّ انهُ حصل في خلافة هارون الرشيد

ومما يحكى عنهُ انهُ كان بينهُ وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء وانهُ اهدى اليهِ اشياء كثيرة من اعمال الشرق ومنها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ﻫ انظر ش ٣٥

ش ٣٥ نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الامين

من سنة ١٩٣ ــ ١٩٨ ﻫ او من ٨٠٩ ــ ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفهُ ابنهُ محمد الامين اما المأمون فكان ابوهُ قبل وفاتهِ قد وهبهُ جميع حللهِ واسلحتهِ الخصوصية وولاهُ خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكمًا مستقلاً عن اخيهِ الامين . فالامين عند استلامهِ زمام الخلافة انكر على اخيهِ وصية ابيهما ولم يسلمهُ شيئًا مما لهُ الحق بهِ ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والامين اشدهما ضغينة فارسل الى الكعبة فاتى بالكتابين اللذين جعلهما

الرشيد هناك ببيعة الامين والمأمون فاحرقها الفضل وجعل ولاية العهد لموسى بن الامين فلم يعد بعد ذلك باب للمصالحة بين الاخوين . وكان الامين محبًّا للهو ومعاقرة الخمرة اما المأمون فكان متيقظًا يترقب الفرص فدعى الى مبايعتهِ في خراسان فالتف حولهُ حزب كبير يدعون الى بيعتهِ لما رأوا فيهِ من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواتهِ ويستنصر دعاتهُ واتحد معهُ هرثمة بن اعين الذي كان اميرًا على مصر قبل ذلك الحين فعظم الأمر على الامين فولّى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ﻫ استعطافًا لابيهِ هرثمة ولكن ذلك لم يجدهِ نفعًا لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٩٥ ﻫ انفذ الامين جيشًا فيهِ اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيهِ فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عمومًا فبايعهُ اهل خراسان وتابعهم كثيرون فلما رأى الامين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجدهِ نفعًا عزلهُ وولى جابر بن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح الجبل المقطم حيث القلعة الان قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دولة بن طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الامين وطمع بالفوز على اخيهِ فجند جندًا آخر مؤلفًا من ٤٠ الفًا لمحاربتهِ وجندًا آخر انفذهُ من جهة اخرى تحت قيادة عبدالله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوهُ اميرًا على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبالِ بتلك الجيوش لكنهُ لم يلتقِ بها فتقدم الى الاهواز من واسط والمدائن

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السري بن الحكم غضبًا للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فاجابوهُ وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الاخرة سنة ١٩٦ ﻫ وقام في

بغداد الحسين بن علي احد سرائها ودعا الناس الى خلع الامين وتولية اخيهِ المأمون فاجابوهُ وبايعوا المأمون في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الامين ووالدتهِ زبيدة واودعهما السجن موثقين . ثم تمكن الامين ببعض الوسائط من تسلُّق كرسي الخلافة ثانيةً فبايعهُ من في بغداد فقط اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها وعقد على مصر لحاتم بن هرثمة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائبًا عنهُ موقتًا

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد وحاصراها نحوًا من سنة فضجر الاهالي وملُّوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها نهاية فلم يروا لها حلاًّ الاَّ بخلع الامين فخلعوهُ للمرة الثانية ففرَّ وبعد قليل قُبض عليهِ وقُتل وجيءَ برأسهِ والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن سنُّ الامين عند موتهِ الاَّ ٢٩ سنة و ٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمهِ اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يومًا وكنَّت بموتهِ الحروب وحقنت الدماء

خلافة عبدالله المأمون

من سنة ١٩٨ ــ ٢١٨ هـ او من ٨١٣ ــ ٨٣٣ م

فبويع المأمون مبايعةً قطعيةً في ٢٥ محرَّم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيهِ الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينهُ نائبًا في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبدالله الخزاعي وبعد اشهر قليلة ابدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولَّى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى

العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنهُ المطلب بن عبدالله سلفهُ وبعد قليل ابدل بالسري بن الحكم . واخذت الراحة من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الاَّ ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم بنبأ جديد

فان سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفُّوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى من سلالة الامام علي فلما علم المأمون بذلك استشار وزيرهُ الفضل بن ربيع في الأمر فنصح اليهِ ان يصرف تلك النازلة بان يوصي بالخلافة بعد وفاتهِ لعلي المذكور بشرط ان يكفوا عن كل ما يوجب الاضطراب . الاَّ ان تلك السياسة لم تفد الاَّ زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فثاروا سنة ٢٠٢ هـ ثورة شنَّت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي اما سطوتهُ فلم تكن لتجاوز سور بغداد لانهُ لم يكن اهلاً للاحكام فخارت قواهُ دون ذلك فعجز الذين اقاموهُ عن استبقائهِ اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ هـ وفرَّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي وكانت وفاتهُ في الفسطاط ولم يبلغ من العمر اكثر من ٥٤ سنة . وتوفي ايضاً السري بن الحكم امير مصر واقيم مقامهُ محمد بن السري بمبايعة الجند لهُ بقطع النظر عن اوامر الخليفة بهذا الشان . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد اقامهُ المأمون هناك حاكماً فقدم ابنهُ عبدالله بن طاهر الى مصر واقام في بلبيس

ونظرًا لما بين مصر ودار الخلافة من المسافة اصبح الناس لا يعبأون بما كان يأتيهم منها من الاوامر وزد على ذلك ان الدولة اصبحت في اتيانه من الضعف لما كان يتهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيتها لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة اوامرها حتى عقدوا لعبدالله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحوًا من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ تحصّن عبدالله بن طاهر في بلبيس فالتفّت عليهِ عصبة من اهلها وبايعوهُ فاستخفل امرهُ فسار الى الفسطاط في ربيع اول من تلك السنة وانزل عبدالله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبدالله بن طاهر ان يقف عند حدّهِ وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاخيهِ المعتصم واعطاهُ خمسماية دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبةً لعبدالله بن طاهر للتعيش ويقال انهُ امر بمثل ذلك ايضًا لابنهِ العباس فيكون جملة ما اخرج من خزينتهِ في يوم واحد مليونًا وخمسماية الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوليد التميمي على الصلات في ١٧ صفر فخرج ومعهُ عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانهُ عيسى الجلودي فحارب اهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكهِ فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منهُ وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكهِ ومعهُ جمع من الاسارى في حر وجهد شديد وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلات فخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٢ ذي

الحجة ومعهُ علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما لهُ فلم يدفع اليهِ شيئًا فقتلهُ وصرف عبدويه وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولّي من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ هـ على الصلات فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الاخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم امير المؤمنين عبدالله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل لواءهُ وأخذهُ بلباس البياض عقوبةً لهُ وقال لهُ «لم يكن هذا الحدث العظيم الّا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد» ثم ولّى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انهُ كان عائدًا من محاربة الروم فرأى ان يمرّ بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقًا عليها لما بلغهُ من تمرّد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراها يتفقد احوالها ويقال انهُ كان يبني لهُ في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقهُ والعساكر حولهُ وكان يقيم في القرية يومًا وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى اصول الفساد ويقتلعها الى ان بارح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصدًا دمشق

ولم ينتر المأمون اثناء تجولهِ في مصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناهُ اسامة في الروضة وبناء جامع فيهِ ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان بارح المأمون مصر بلغهُ ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا برضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها

ممن كابد المشقّة والتعب في اصلاحها واسمادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب فلما علم بذلك أنكرهُ ومنع من ارتكابهِ واصدر أوامرهُ الصارمة باعناء الكافة اجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيهِ ويستولون عليهِ ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمّن ذلك منشور قُرئ على الناس ينبههم فيهِ الى ما جاء في الكتاب العزيز من قولهِ تعالى يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وسنهُ ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافتهِ عشرون سنة وخمسة اشهر و ١٢ يومًا

اما آثار المأمون فاجلُّ آثار الخلفاء لانها تدلُّ على ما بلغهُ العلم وما بلغت اليهِ الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقهِ بالعلم والصناعة يتعاطاهما بنفسهِ ويأخذ بناصرها وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاهُ لم يطّلع العرب على كثير من المؤلفات التي كتبت بالعبرانية او السريانية او اليونانية او اللاتينية فانهُ هو الذي سعى الى نقلها الى اللغة العربية ونشط رعيتهِ لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضلهُ من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عمومًا مديونون لهُ لانهُ حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لحطمتها يد الزمان كما حطمت غيرها مما نسمع بهِ ولم نرهُ . وكان كلفًا بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسهُ منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبهِ وملتهِ لكنهُ استدعى اليهِ من العلماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقرّبهم منهُ ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفًا على مفارقتهم وهم اشدُّ اسفًا منهُ على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالستهِ لما كانوا يتمتعون بهِ من لطفهِ ودعتهِ

وقد نبغ في ايامهِ علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغني وعبدالله بن سهل ومحمد بن موسى ومشاللهِ اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد أقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة وكان عالمًا بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احيانًا في مرصد شمسية بقرب بغداد واحيانًا في المرصد على جبل قسيون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونهُ سهل ابن سابور وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانهُ ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية

ففي خلافة المأمون وأبيهِ بلغت دولة الاسلام مجدًا عظيمًا واتسع نطاق مملكتهم فبلغت حدود الصين شرقًا فاستولوا على الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحبش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اوروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها امواج الاوقيانوس الاتلانتيكي غربًا وامواج المحيط شرقًا والبحر الشمالي شمالاً والاقيانوس الهندي والعربي جنوبًا . الاَّ انها قبل وفاة المأمون جعلت تسير القهقرى فانقسمت على نفسها فانحطت شوكتها وابتدأ ذلك في غربيها فانفصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها تحت دولة اموية جديدة عاصمتها قرطبة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاتهِ) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم بنفسهِ وجعلهُ ارثًا لنسلهِ من بعده بالاستقلال التام عن خلافة بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك فعلت سائر الامارات اقتداء بمن سار امامها فطلبت كل منها استقلالها . اما مصر فقد كانت

مقطعة للمعتصم ولم يبقَ تابعًا لخلافة بغداد سواها وهي لم تبقَ الّا لطمع المعتصم بالخلافة بعد المأمون

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المأمون في سنة ٢١٨ للهجرة وكان ذلك بامر ابنهِ العباس (انظر شكل ٣٦)

ش ٣٦ نقود المأمون

خلافة محمد المعتصم

من سنة ٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ او من ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المأمون خلفهُ اخوهُ محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبهِ فلقب نفسهُ المعتصم بالله

وكان قد اقر امارة مصر لكيدر الذي كان نائبًا عنهُ فيها ثم كتب اليهِ يأمرهُ باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي كيدر وتولى مكانهُ المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانهُ موسى بن ابي العباس الملقب بالشيباني ويلقبهُ اخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استُدعي موسى من مصر فاستخلف مالك الذي يلقبهُ بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٢٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر اشناس وهو آخر من

وُلّي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحمّى في سامرة وفي ١٨ ربيع اول من تلك السنة توفي . ومن الغريب ما لهذا الخليفة من الحظ في الرقم « ٨ » فان بينهُ وبين ابي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنهُ ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمهِ ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثامنة والاربعين من عمرهِ وترك ثمانية اولاد ذكور وثماني اناث وحضر ثماني مواقع حربية واخيرًا وُجد في خزينتهِ عند موتهِ ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انهُ بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي « بالمثمن »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعلهُ كان السبب في ذلك التقهقر لانهُ كان ضعيف السياسة بعيدًا من الفضائل والآداب اميًّا لا يعرف الكتابة لكنهُ كان قوي البدن يحمل ما وزنهُ الف رطل (ليبرا) ويمشي بهِ خطوات وكان مع ذلك شجاعًا شديدًا ومحبًّا على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٢٧)

ش ٢٧ نقود المعتصم بالله

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تترية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بسكانها بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين وبحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظرًا لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والاودية والانهار ما لا يسهل تخطيهِ كانت في مأمنٍ من غزوات العرب وفتوحاتهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالاخرى . الاَّ ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضًا كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فاقضى الامر الى تزاحم هاتين الامتين فتنازعنا فقام الحرب بينهما سجالاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئسار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء ويدعونهم بالمماليك

والمماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالبًا بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئًا فشيئًا حتى استخدموهم في بلاطهم

وقد كان المماليك في بادئ امرهم في ظلمات من الجهل والهمجية وعلى ابعاد من الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم للامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئًا فشيئًا في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدبير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في اعين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاة الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثر انصارهم فاقاموا لهم احزابًا من ابناء البلاد يجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعلهُ

الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة في ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جمالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعلهُ الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيتهِ فابتاع من اولئك المماليك مئات فوق ما كان عندهُ منهم وامر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانتهِ فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيثون فيمن حولهم فكثرت التشكيات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى مبارحتها فاستبدلها بسامرة

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال لهُ «طولون» من قبيلة الطغرغر احدى الاربعة وعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلتهُ مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارى الصغرى فأُسر في احدى المواقع الحربية وجيء بهِ الى ابن اسد الصمامي وكان من عمّال المامون يدفع لهُ جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ للهجرة كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون فالحقهُ بحاشيتهِ وما زال يرقيهِ حتى جعلهُ رئيس حرسهِ ولقبهُ بامير الستر . وهذا المنصب لم يكن ينالهُ الاّ من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانتهِ واخلاصهِ ليكون محافظًا على حياتهِ الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحوًا من عشرين سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة واولاد منهم احمد الذي لُقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرة سنة ٢٢٠ هـ من والدة تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري وقال آخرون انهُ ابن المهلي خادم طولون وان طولون ربّاه صغيرًا والله اعلم

خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م

وقبل ان يترعرع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنهُ هارون ابو جعفر فلقبوهُ بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافتهِ عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار واصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوهُ وكان في نيتهِ اقالة اشناس من امارة مصر لكنهُ لم يكد يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٣٨ هـ فاقام مقامهُ علي بن يحيى الارمني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور للمرة الثانية . وفي سنة ٢٣١ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنهُ ٣٤ سنة ومدة حكمهِ ٥ سنوات و ٩ اشهر و ١٢ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من سنة ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ او من ٨٤٧ ـ ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزيراهُ احمد بن ابي داوود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوهُ بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنهُ لا يجيز لهُ تعاطي الاحكام فعدلوا عنهُ الى جعفر بن المعتصم فبايعوهُ ولقبوهُ بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى كاراتيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى شرجه

وفي سنة ٢٤٢ ه عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدلهُ بابنهِ المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٤٤ ه تولاّها حاتم بن هرثمة . وفي ايامهِ ثارت البجة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصلح فانفذ المتوكل لحربهم محمد بن عبدالله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبدالله كتابًا لفهُ بثوب فاجتمعوا لقراءتهِ فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراص فانزعرت جمال البجة ولم تثبت امام صلصلة الاجراص فركب المسلمون اقفيتهم واثخنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعدهِ ابن اخيهِ وبعث يطلب الهدنة فصالحوهُ على ان يعطيَ بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصولح على اداء الادوات والبقط واشترط عليهِ ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن

وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانيةً) وفي سنة ٢٤٥ ه ابدل هذا باسحق بن يحيى الجبلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعدهُ لابنهِ المنتصر وبعدهُ ابنهُ الثاني المعتز بالله وبعد هذا ابنهُ الثالث المؤيد بالله وجعل مملكتهُ حصصًا فاعطى المنتصر افريقيا وكل المغرب من العريش الى اخر حدود المغرب بما فيهِ مصر واضاف الى ذلك قنسرين وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل الاراضي التي يرويها الدجلة ومكة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وسامرة والكوفة وكل توابعها . واعطى المعتز خراسان وطبرستان والفرس وارمينيا واذربيجان . واعطى المؤيد دمشق وحمص ومرج الاردن وفلسطين . اما المنتصر فلم يقنع بما قسم لهُ وطمع بتوليتهِ الخلافة قبل وفاة ابيهِ فاخذ يسعى الى خلعهِ

وفي سنة ٢٤٦ ه اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي

سنة ٢٤٨ هـ ابدل بعنبسة بن اسحق وفي سنة ٢٤٩ هـ امر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون اخرى في دمياط وتانس وتولى بناءها عنبسة وصرف عليها مبالغ وافرة وقاية من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنوا حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعًا كثيرًا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنبسة ركب اليهم يوم النحر في جيشهِ ونفر كثير من الناس فأخبروهُ ان الروم قد ساروا الى تانس وتحصنوا في اشموم فلم يتبعهم عنبسة فكتب يحيى بن النضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الابيات

اترضى بان يوطأ حريمك عنوة	وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثّب	بتانيس رأى العين منهُ واقربُ
مقيمون بالاشموم يبغون مثلما	اصابوهُ من دمياط والحرب ترتبُ
فما رام من دمياط شبرًا ولا درى	من العجز ما يأتي وما يتجنبُ
فلا تنسنا انا بدارٍ مضيعة	بمصر وان الدين قد كاد يذهبُ

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيهِ في سامرة واخذ يسعى بالدسائس والتواطئ مع المنسدين على ابيهِ واستخلف على مصر يزيد بن عبدالله . وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبدالله الى دمياط مرابطًا ثم رحل فبلغهُ نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم . وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد سقط بزلزلة فاعاد بناءهُ فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد او الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقرًا الى حين فتبعهُ المنتصر وما زال ساعيًا بالمفاسد توصلاً الى بغيتهِ حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضهِ الوخيم فثارت عصبة من الاتراك

المجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تاخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وترك دمشق عائدًا الى سامرة . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنهِ فامر بهِ اليهِ فوبخهُ على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعا الرابع من شوال من السنة المذكورة ذُبح المتوكل على فراشهِ في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موتهِ ٤١ سنة ومدة حكمهِ ١٤ سنة و١٠ اشهر و١٣ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٨)

ش ٣٨ نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ – ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ – ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصب الخلافة قبل ان تفارق اباهُ رجفة الموت فلما استتب لهُ الملك حدثتهُ نفسهُ ان يحرم اخويهِ مما اوصى بهِ ابوهُ لهما على ما مرَّ بك . فحملهما سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقّعا على صك بحرمانهما من الخلافة ومما اوصى لهما بهِ ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤهُ بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء ما فعلتهُ ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن لقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانهُ اصيب بعد توليتهِ بايام بداء اعيى الاطباء وما زال حتى ذهب بحياتهِ وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ ـ ٢٥٢ ﻫ او من ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فيمن يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجمعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على احمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوهُ يوم وفاة المنتصر ولقبوهُ بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبة يريدون استخلاف المعتز بالله الّا انهم كانوا نفرًا يسيرًا فتفرقوا ولم تكن النتيجة الّا القبض على ولدي المعتصم وسجنهما

ومن ذلك الحين اخذ نجم احمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والدهُ سنة ٢٢٩ ﻫ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في ايام الخليفة المتوكل في الثماني سنوات الاول فرأى في احمد اللياقة ليخلف اباهُ على امارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان نقيًّا رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرمًا بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة والعلم فاحبَّهُ جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج احمد ابنتهُ فجاءهُ منها غلام دعاهُ عباسًا

ومن الغريب ان احمد بن طولون شبَّ بين الدسائس والمفاسد ولم يصبُ اليها ولم تحدثهُ نفسهُ يومًا باتباعها بل كان يمجُّها وينفر منها اما آدابهُ ومعارفهُ فكانت تتسع يوميًّا بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغلهِ لا يترك فرصة في توسيع دائرة علمهِ فكان يسيرُ من وقت الى آخر الى ترسوس في آسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفهِ بالعلم كلفًا

بالعلماء . فالتمس من عبيد الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذنًا بالتوجه الى ترسوس لملازمة دروسهِ فاذن لهُ مع استبقاء مركزهِ ولقبهِ ومرتباتهِ كالعادة فسار اليها ثم دعتهُ والدتهُ ان يأتي اليها فجاء اليها في سامرة في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابهِ من قتل المتوكل وتولية المنتصر

وحدث بينما كان عائدًا من ترسوس هذه المرة وسنُّهُ ١٩ سنة ان بعض اهل البادية هجموا على الركب الذي كان هو برفقتهِ يريدون سلبهُ وفيهِ ما يساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم احمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقرى صفري الايدي . فلما بلغ الركب سامرة اخبروا الخليفة بما كان من بسالة ابن طولون فنفحهُ بجائزة الف دينار وانزلهُ منزلة الامراء ووهبهُ احدى جواريهِ واسمها ميَّة وهي التي ولدت لهُ ابنهُ الثاني « خمارويه » سنة ٢٥٠ هـ وهي اول سني ظهور نجمهِ

وفي اثناء ذلك ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين . وتفصيل ذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عددًا وقوة منذ ايام المعتصم لتقلبهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازمَّة الدولة يديرونها كيف شاءوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاءوا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الاَّ التداخل في عزل وتولية الخلفاء فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا الى استبدالهِ فيستجدون احزابهم وينفذون مآربهم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الاخر وجعلوا يسعون الى خلعهِ فخلعوهُ سنة ٢٥٢ هـ بعد ان تولى امرها ثلاث سنوات و ٨ اشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ ﻫ او من ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمّهِ المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محرومًا من حقوق الخلافة منذ قتل ابيهِ وسنُّهُ اذ ذاك ٨ اسنة وبضعة اشهر وكان بعد ان فرَّ من سجن سامرة مع اخيهِ المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود. فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فحمَلوا قيود المعتز وبايعوهُ يوم الجمعة في ٤ المحرم سنة ٢٥٢ ﻫ وجاءوا الى المستعين واجبروهُ على ان يتنازل فنقلوهُ الى قلعةٍ وجعلوا عليهِ حرسًا ثم ارسلوهُ الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقُتل في الطريق. ويقال ان الحاجب سعيد هو الذي قتلهُ بناءً على اوامر سرّية من المعتز بالله وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيدهِ غير ان الجمهور مجمع على تبرئتهِ من هذه التهمة الفظيعة

والأظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجبارهِ على الاستقالة امروا بابعادهِ الى واسط ولم يريدوا ان يصحبهُ الاَّ من لا يرتاب احد في امانتهِ واخلاصهِ فلم يجدوا انسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسبًا ثقة الطرفين فعهدوا اليهِ تلك المهمة فقام بها حق القيام ثم ان الاحزاب في سامرة رغمًا عن فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز أوجسوا شرًّا من بقاء الاول في قيد الحياة فاوعزوا الى الثاني ان خلافتهُ لا ترسخ الاَّ بقتل المستعين. فكتبت فتيحة ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقهِ الى واسط تحثُّهُ على قتل المستعين وتعدهُ بولاية واسط مكافأة لهُ فرفض ذلك احمد بنفس أبيَّة فارسلت حاجبًا يدعى سعيدًا وبيدهِ اوامر

الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار بهِ في الصحراء تبعًا للاوامر السرية التي كانت معهُ وذبحهُ في فسطاطهِ وعاد برأسهِ الى المعتز ورمى بهِ الارض بين اقدامهِ

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فاذا بالجثة بغير رأس فعلم الدسيسة وتكدّر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بموت البريء مقتولاً ثم همَّ الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرة حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائهِ على مصر وسوريا ما مفادهُ « وُعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فأبيت محافظة على القَسَم الذي قسمتهُ وما زلت في تقوى الله وقد كافأني من فضلهِ بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر اثناء جميع هذه الحوادث ينتابها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبدالله الذي كان استخلفهُ المنتصر على مصر اصبح عليها اميرًا عند ما صار المنتصر خليفة وبقي يزيد قائمًا باعباء مصلحتهِ طول مدة خلافة المستعين بالله اما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزلهُ في ٢ ربيع اول سنة ٢٥٢ هـ وولّى مزاحم بن خاقان من اعيان الاتراك الذين ساعدوهُ في حصولهِ على الخلافة . ومن اعمالهِ انهُ اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولّى الشرطة أرجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز واخذ أهل الجامع بتمام الصفوف ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخّر المسجد وامر اهل الحلق بالتحوُّل الى القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يُستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر أن تصلّى التراويح في

رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلّونها سنّا الى رمضان سنة ٣٥٣ ﻫ ومنع من التثويب وامر بالآذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان يُغلس بصلاة الصبح ونهى ان يشق ثوب على ميت او يسوّد وجهٌ او يحلق شعر او تصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيهِ . وفي ٥ محرم سنة ٣٥٤ ﻫ توفي مزاحم فتولى ابنهُ احمد بن مزاحم وفي تلك السنة استقال هذا فعيّن المعتز مكانهُ باكباك احد كبار الاتراك . وكان هؤلاء يتولّون الامارات اسمًا بلا رسم لانهم لم يكونوا يبارحون مجلس الخليفة اما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها . وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احيانًا فقد يكون منهم نائب في الفسطاط وآخر في اسكندرية وآخر في الصعيد الخ وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظرًا لما كان لاحمد بن طولون من السمعة الحسنة انتخبهُ باكباك المتقدم ذكرهُ وجعلهُ قائدًا للقوة العسكرية في الفسطاط اما الادارة المالية او الخراج فعهدها الى احمد بن المدبّر ودعاهُ مفتش الخراج

وابن المدبّر هذا لم يكن من التدبير على شيءٍ بل كان عاتيًا غشومًا فزاد الضرائب وشدد الوطأة خصوصًا على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتّاب فابتدع في مصر بدعًا صارت مستمرة من بعدهِ لا تنقض فاحاط بالنطرون وحجر عليهِ بعد ما كان مباحًا لجميع الناس وقرّر على الكلاء الذي ترعاهُ البهائم مالاً سماهُ المراعي وقرر على ما يطعمهُ الله من البحر مالاً سماهُ المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي اما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانهةً من الاراضي التي تزرع حبوبًا ونخلاً وعنبًا وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرف الريف واما الهلالي فعلى نوعين سماها بالمرافق والمعاون وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل ما ابتدعهُ ابن المدبر كما تقدم . فكره

الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد بهِ وقد كان عالمًا بذلك فجعل في حاشيتهِ الخاصة نحوًا من مائة غلام هنديٍّ ممتازين بالقوة والشجاعة كانوا يرافقونهُ الى حيث توجَّه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد بن المدبر بحاشيتهِ للقائهِ تزلفًا منهُ واهدى اليهِ هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معهُ شفير الخادم غلام فتيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي بن المدبر مائة غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يدي بهِ في حافتي مجلسهِ اذا جلس فاذا ركب ركبوا بين يديهِ فيصير لهُ بهم هيبة عظيمة في صدور الناس فلما بعث ابن المدبر بهديتهِ الى ابن طولون ردَّها عليهِ فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همتهُ لا يؤمن على طرف من الاطراف فخافهُ وكره مقامهُ بمصر معهُ وسار الى شفير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول لهُ « قد كنت اعزَّك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز ان يغتنم مالك كثَّرهُ الله فرددناها توفيرًا عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر لما بلغتهُ الرسالة « هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يردّ الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم » ولم يجد بدًّا من ان يبعثهم اليهِ فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيهِ الى الخليفة يغري بهِ ويحرض على عزلهِ فبلغ ذلك ابن طولون فكتم ما في نفسهِ ولم يبدهِ

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة

الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاوعزوا الى المعتز وسنُّهُ اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الاَّ ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فاودعوهُ سجنًا مظلمًا وقطعوا عنهُ الغذاء فمات جوعًا بعد ستة ايام فاقاموا عوضًا عنهُ ابن عمِّهِ المهتدي بالله بن الواثق وسنُّهُ ٣٧ سنة

خلافة المهتدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من سنة ٢٥٥ ـ ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م

وفي ايام المهتدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدوٌّ آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يدهُ على البلاد التي حولهُ وقتل كل من كان يحاول مقاومتهُ فانفذ اليهِ احمد فرقة من جيشهِ فحاربها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك انتها نجدة اتحدت معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففرَّ المذكور في البرية ملتجئًا الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معهُ من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنهُ على الاعمال واستبدَّ بها فبعث ابن المدبر بسعاية وخمسين الف دينار حملاً من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابهِ وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انهُ يريد مصر

وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهتدي في سامرة وبويع المعتمد على الله وسنُّهُ ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعهُ الجميع الاَّ ابن شيخ فانهُ لم يدعُ لهُ ولم يبايعهُ لا هو ولا اصحابهُ فبعث اليهِ بتقليد ارمينيا فوق ما

معهُ من بلاد الشام وفسح لهُ في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذٍ للمعتمد وبايعهُ ثم كتب الخليفة سرًّا الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ وان يزيد في عدتهِ وكتب لابن المدبران يطلق لهُ من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهز كل ما يحتاج اليهِ وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوهُ الى طاعة الخليفة وردّ ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فسار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفًا اخاهُ موسى بن طولون على مصر وبينما هو في الطريق ورد اليهِ كتاب الخليفة يأمرهُ الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان واتى عوضًا عنهُ لمحاربة ابن شيخ أماجور التركي فلقيهُ اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنهُ فحاربهم أماجور فانهزموا منهُ وقتل قائدهم واستولى أماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بأرمينيا ونقلد أماجور اعمال الشام كلّها وهدأت الاحوال

اما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن السراي التي كان يسكنها اسلافهُ من ولاة الاحكام ولم تكن هذه السراي داخل سور الفسطاط بل كانت في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايات الجميلة وكان كافيًا لسكنى روساء الجيوش وولاة الامور اما في ايام ابن طولون فضاق ذرعًا عن سعة مهماتهِ وعبيدهِ وتحفهِ فاخذ يسعى الى ايجاد محل آخر وافٍ بالمقصود مع قربهِ من الفسطاط فصعد الى المقطَّم ونظر الى ما حولهُ فرأى بين العسكر والمقطَّم بقعة من من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الَّا بعض المدافن للنصارى واليهود فاختارها للبناء فامر بحرث المدافن وهدمها واختط في موضعها بناء عظيمًا دعاهُ القصر ومحلاً آخر بالقرب منهُ دعاهُ الميدان وتقدم الى اصحابهِ وغلمانهِ واتباعهِ ان يختطوا لانفسهم حولهُ فاختطُّوا

وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة النسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت اسواقها فقيل سوق العيارين وسوق الفاميين وهكذا البقالين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع المذكورة مدينة كبيرة اعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منهُ ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبلاتهُ وكراعهُ وعظم صيتهُ فبلغ ذلك أماجور والي الشام فاخذتهُ غائلة الحسد وخشي من مد سلطة ابن طولون اليهِ فاخذ يسعى الى خلعهِ فكتب الى الخليفة المعتمد على الله ما نصهُ « ان قوات ومهمات ابن طولون اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم تخضعهُ الاَّ بعد شق الانفس وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيتهُ وقويت سطوتهُ بالرجال والمال وصار يخشى منهُ والامر لامير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر منتش الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبهِ من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سرّهِ شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالاً الى سامرة ويستخلف مكانهُ من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر همَّ الى القيام بهِ وهو لا يدري ما وراء الاكمة فجاء من ذوبهِ مَن اطلعهُ على معنى هذا الاستدعاء الى سامرة فلما علم بدخيلة الامر جهز احمد الواسطي كاتب سرّهِ وصديقهُ وارسلهُ مكانهُ الى سامرة بالهدايا الفاخرة الى الوزير فاستجلب

خاطرهُ فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر امرًا آخر بزيد مدة مأمورية ابن طولون في مصر ويصرح لهُ بنقل عائلتهِ جميعها اليها وقد كانت الى ذلك اليوم في سامرة . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حُكم على باكباك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون قائدًا للقوة العسكرية بقطع الرأس لجناية ارتكبها وعُين مكانهُ برقوق حمو احمد بن طولون وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهرهِ النيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليهِ فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سلمها لعيسى المذكور واقرَّهُ عليها . فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد ابن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولّى احمد مكانهُ واليًا عامًّا على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ ـ ٢٩٢ هـ او من ٨٧٠ ـ ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ ـ ٢٧١ هـ او من ٨٧٠ ـ ٨٨٤ م

وكان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقير الخادم وكان الوزير قد ارسل اليهِ جميع التحاريز الواردة منهما بحقهِ وبعد يسير توفي شقير خوفًا وهمَّ ابن طولون الى عزل ابن المدبر لكنهُ عرف بعد ذلك ان

اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنهُ . اما ابن المدبر فكان قد ملَّ من مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيدهِ فطلب الى اخيهِ ان ينقلهُ الى وكالة خراج سوريا حالاً ففعل وقبل تركهِ مصر اجتهد حتى اعاد صلات المودة مع ابن طولون وتوطيدًا لها ازوج ابنتهُ لخومارويه بن احمد بن طولون ووهبهُ معها جميع الاملاك التي كانت لهُ في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابهُ لست اطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليهِ فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيدهِ فالغى الخراج الهلالي الذي وضعهُ ابن المدبر وقبل الغائهِ حسب مقدارهُ فبلغ مائة الف دينار سنويًا فاحب ان يستشير بشأنهِ فتشاور مع عبدالله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتيًا ذا طمع في الدنيا . فقال إن امَّنني الامير تكلمت بما عندي فقال لهُ قد أمَّنك الله عزَّ وجل فقال «ايها الامير ان الدنيا والآخرة ضرَّتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف اعمالهُ ويبطل سعيهُ وافعال الأمير ايَّدهُ الله الخير وتوكَّلهُ توكل الزهَّاد وليس مثلهُ من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائمًا طول العمر لما كان شيء عندنا اكثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنهُ وصار في يدهِ تضييع ولعل الذي حماه من نفسهِ يكون سعادة لمن يأتي من بعدهِ فيعود ذلك توسعة لغيرهِ بما حرمهُ هو ويجتمع للامير ايدهُ الله بما قد عزم على اسقاطهِ من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين في هذه السنة لانها سنة ظماء توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفرًا عظيمًا فيضاف الى مال الهلالي فيضبط بهِ الامير ايدهُ الله امر دنياه وهذه طريقة امور الدنيا واحكام امور الرياسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايدهُ الله اليهِ من امر غير هذا فهو منفسد لدنياه وهذا

رايي والامير ايدهُ الله على ما عساه يراهُ» فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبهُ كلامهُ فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامهِ رجلاً من اخوانهِ الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما اشار عليك من استشرتهُ في امر الارتتاق والفسخ برأي تحمد عاقبتهُ فلا تقبلهُ ومن ترك شيئاً لله عزَّ وجل عوضهُ الله عنهُ فامضِ ما كنت عزمت عليهِ » . فلما اصبح انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائهِ . ثم دعا ابن دسومة واخبرهُ بما كان فقال لهُ « قد اشار عليك رجلان الواحد حيٌّ في اليقظة والآخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانتهِ اوثق» فقال لهُ « دعنا من هذا فقد قضي الامر ولست قائلاً منك ما تقول»

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانهِ فسقط الغلام في الرمل فاذا بنتق فتح فتقدم احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيهِ من المال ما كان مقدارهُ مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبرهُ وكتب بهِ الى العراق احمد يخبر بهِ المعتمد ويستأذنهُ فيما يصرفهُ فيهِ من وجوه البر وغيرها فاذن لهُ فبنى منهُ مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منهُ في الفقراء

واول جامع شادهُ ابن طولون جامع التنُّور ابتناهُ على قمة جبل المقطَّم في مكان كان يدعى تنُّور فرعون يقال انهُ سمي كذلك لانهُ على مرتفع فكانوا يضرمون فيهِ النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيهِ فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاهُ جامع التنُّور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عنصة

وابتنى سقاية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر بن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية آبارًا مسقوفة بالبناء العقد واحواضًا تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنتهِ ابي ايوب والقاضي بقّال في جزيرة الروضة فرأى المقياس محتاجًا الى اصلاح فأمر باصلاحهِ اصلاحًا متقنًا انفق عليهِ عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياسًا آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبقَ منها الى ايام المقريزي الّا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنهِ البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسماية قدم

وفي ذلك الوقت امر ابن طولون ببناء المستشفى في العسكر وقد كانت الفسطاط قبلهُ مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنايات الاخرى اطيانًا واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضًا دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسهِ لزيارة المستشفى وتنقد سير الاطباء فيهِ وعيادة المرضى والمجاذيب واتفق ذات يوم ان احد المجانين في المستشفى همّ الى قتلهِ ولولا القضاء لذهب بحياتهِ ولم يكن شيء من ذلك ليثني عزمهُ عن العيادة . وبنى في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار مصاريف بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المقطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنايات رغمًا عن جميع التقلبات السياسية التي كان يخشى ان تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

قلنا ان ابراهيم ابن الصوفي فرَّ من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليهِ جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فسار لمحاربة ابي عبد الرحمن العمري وكان معتدياً على حدود نوبيا وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاهُ ابن ابي الغيث مغضياً عن ابي عبد الرحمن وحاربهُ ففر من وجههِ وسار من طريق عيذاب الى مكة حيث قُبض عليهِ وأُرسل الى احمد بن طولون فالقاهُ في السجن مدة ثم صرفهُ مؤذناً لهُ بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاهُ الله

اما ابو عبد الرحمن العمري فاستفحل امرهُ واقام الاستحكامات في نوبيا فشق ذلك على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليهِ جيشاً اخر تحت قيادة شبه البيكي الى اصوان فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن منشغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك نوبيا والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ ابو عبد الرحمن بتكاثر الاعداء عليهِ فجعل رجالهُ فرقتين وحارب الفئتين وتغلَّب على شبه واعادهُ على اعقابهِ صفر اليدين الى الفسطاط فلم يصادف من ابن طولون الاَّ احتقاراً وانتهاراً

وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان حاملين برأس ابي عبد الرحمن العمري فرمياهُ بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عمَّا اتى بهما اليهِ وما حملهما على قتل سيدهما فاجابا ان لا غرض لهما الاَّ الحصول على رضا امير القطر المصري فقال لهما احمد «ان ما ارتكبتموهُ تستوجبون عليهِ عقاب الله وعقابي» وامر بقتلهما وغسل رأس ابي عبد الرحمن ودفنهِ بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدين لم يقتلا سيدهما بايديهما وانما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسوَّلت لهما النفس ان

يقطعا رأسهُ ويحملاهُ الى ابن طولون فينالان جائزة عظيمة وما علما ان الشهامة وكرم الاخلاق تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليهِ عصبةٌ من الاتباع فجاهر بالعصيان ضد ابن طولون فارسل اليهِ حملة فغلبها فانجدها ابن طولون فغلبتهُ وفرَّ ابو نوعة الى الواحات واضطر اخيرًا الى التسليم رغمًا عنهُ

وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعهُ اهالي برقة جميعهم فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤًا وقال لهُ نجِّ المدينة من العصاة فتكن عليها واليًا فحاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فجعلهُ ابن طولون واليًا على برقة ومتعلقاتها

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليهِ منها وهي محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انهُ من سلالة علي بن ابي طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرها واستفحل امرهُ فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاهُ ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة المهتدي بالله قد بعثهُ اليها منفيًّا فقدم سنة ٢٥٧ هـ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعدهِ لابنهِ المفوَّض وبعدهُ للموفق وجعل غربي الممالك الاسلامية للمفوَّض وشرقيها للموفق وكتب بينهما بذلك كتابًا ارتهن فيهِ ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليهِ الشروط

وكان الموفق يحسد اخاهُ المعتمد على الخلافة ولا يراهُ اهلًا لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعدهِ لابنهِ ثم للموفق بعدهُ شق ذلك عليهِ وزاد في حقدهُ وكان المعتمد متشاغلًا بملاذ نفسهِ من الصيد واللعب والتفرُّد بجواريهِ فضاعت الامور وفسد تدبير الاحوال وفاز كلّ من كان متقلدًا

عملاً بما نقلدهُ

وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوّض والموفق انهُ ما يحدث في عمل كل واحد منهما من حدث تكون النفقة عليهِ من مال خراج قسمهِ . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى ابن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمهِ من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالكعبة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليهِ محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناهضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين بهِ في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوّض لانها من الممالك الغربية الاّ ان الموفق شكا في كتابهِ الى ابن طولون شدة حاجتهِ الى المال بسبب ما هو في سبيلهِ وبعث الكتاب مع تحرير خادم المتوكل ليقبض منهُ المال

فما هو الاّ ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليهِ يأمرهُ فيهِ بحمل المال اليهِ على رسمهِ مع ما جرى الرسم بحملهِ مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليهِ ايضاً كتاباً سرياً يقول فيهِ « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصياً على اخبارك وانهُ قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منهُ واحمل المال الينا وعجل انفاذهُ »

وكان تحرير الخادم لما قدم الى مصر انزلهُ احمد بن طولون معهُ في دارهِ بالميدان فمنعهُ من الركوب والخروج من الدار التي انزلهُ بها حتى

سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى اخذ جميع ما كان معهُ من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معهُ الى الموفق ألف ألف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحملهِ من مصر وأخرج معهُ العدول وسار بنفسهِ صحبتهُ حتى بلغ بهِ العريش وكان قد ارسل الى أماجور متولي الشام فقدم عليهِ بالعريش فاسلمهُ خادم الموفق والمال واشهد عليهِ بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من تحرير فاذا هي الى جماعة من قوادهِ باستمالتهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبتهِ

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعهُ المال كتب اليهِ كتابًا ثانيًا يستقل فيهِ المال ويقول «ان الحساب يوجب اضعاف ما حملت» وبسط لسانهُ بالقول والتمس ممَّن معهُ مَن يخرج الى مصر ويتقلَّدها عوضًا عن ابن طولون فلم يجد احدًا عوضهُ لما كان من دعة ابن طولون وملاطفتهِ وجوه الدولة

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال «وأيّ حساب بيني وبينهُ او حال توجب مكاتبتي بهذا او غيرهِ» وكتب اليهِ بعد البسملة. «وصل كتاب الامير أيَّدهُ الله تعالى وفهمتهُ وكان أسعدهُ الله حقيقًا بحسن التخيُّر لمثلي وتصييرهِ اياي عمدتهُ التي يعتمد عليها وسيفهُ الذي يصول بهِ وسنانهُ الذي يتقي الاعداء بحدّهِ لاني دائب في ذلك وجعلتهُ وكدي واحتملتُ الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلات والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة وذبًّا عنها وحسمًا لاطماع المتشوقين لها والمتخرفين عنها . ومن كانت هذه سبيلهُ في الموالاة ومنهجهُ في المناصحة فهو حريٌّ ان يعرف لهُ حقَّهُ ويوفر من الاعظام قدرهُ ومن كل حالٍ جليلة حظهُ ومنزلتهُ فعوملتُ بضدّ ذلك من المطالبة بجمل ما امر بهِ والجفاء في المخاطبة

بغير حال توجب ذلك ثم اكفّ على الطاعة جملاً والزم في المناصحة ثمنًا وعهدي بمن استدعى ما استدعاهُ الامير من طاعتهِ ان يستدعيهُ بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا ان يكلف ويحمل من الطاعة مؤنةً وثقلاً واني لا اعرف السبب الذي يوجب الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير ايّدهُ الله تعالى ولا ثمّ معاملة تقتضي معاملةً او تحدث منافرة لان العمل الذي انا بسبيلهِ لغيرهِ والمكاتبة في امورهِ الى من سواهُ ولا انا من قبلهِ . فانهُ والامير جعفر المفوّض ايّدهُ الله تعالى قد اقتسما الاعمال وصار لكلّ واحد منهما قسم قد انفرد بهِ دون صاحبهِ واُخذت عليهِ البيعة فيهِ انهُ من نقض عهدهُ او اخفر ذمتهُ ولم يفِ لصاحبهِ بما أكّد على نفسهِ فالأُمة بريئة منهُ ومن بيعتهِ وفي حل وسعة من خلعهِ . والذي عاملني بهِ الامير من محاولة صرفي مرّة واسقاط رسمي اخرى وما يأتيهِ ويسومنيهِ ناقض لشرطهِ منسد لعهدهِ . وقد التمس اولياؤي واكثروا الطلب في اسقاط اسمهِ وازالة رسمهِ فاثرت الابقاء وان لم يؤثرهُ واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورأيت الاحتمال والكظم اشبه بذوي المعرفة والفهم فصبّرت نفسي على احرّ من الجمر وامرّ من الصبر وعلى ما لا يتّسع بهِ الصدر . والامير ايّدهُ الله تعالى أولى من اعانني على ما اوثرهُ من لزوم عهدهِ وأتوخّاهُ من تاكيد عقدهِ بحسن العشرة والانصاف وكفّ الاذى والمضرّة وان لا يضطرني الى ما يعلم الله عزّ وجل كرهي لهُ ان اجعل ما قد اعددتهُ لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التي قد ضرّست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفًا الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انهُ احقّ بهذا الامر وأولى من الامير . ولو أمنوني على انفسهم فضلاً عن ان يعثروا مني على ميل او قيام بنصرتهم لاشتدت شوكتهم ولصعب على السلطان معاركتهم . والامير يعلم ان بازائهِ منهم واحدًا قد كبر عليهِ وفضّ كلّ جيش انهضهُ اليهِ على انهُ لا ناصر لهُ

الّا لفيف البصرة واوباش عامتها فكيف من يجد ركنًا منيعًا وناصرًا مطيعًا وما مثل الامير في اصالة رأيهِ يصرف مائة الف عنان عدّة لهُ فيجعلها عليهِ بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير اعتاب او رجوع الى ما هو اشبه بهِ واولى والّا رجوتُ من الله عزّ وجل كناية امرهِ وحسم مادّة شرّه واجراءنا في الحياطة على اجمل عادتهِ عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظهُ غيظًا شديدًا فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة واشد اهلها بأسًا واقدامًا فتقدم اليهِ في صرف احمد ابن طولون عن مصر وتقليدها أماجور فامتثل وكتب الى أماجور كتاب التقليد وانفذهُ اليهِ فلما وصل اليهِ الكتاب توقف عن ارسالهِ الى احمد بن طولون لعجزهِ عن مناهضتهِ . ثم خرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدّرًا انهُ يدور عمل المنوّض ليحمل الاموال منهُ ولما علم بتوقف أماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل الاموال وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف أماجور عليها فسار الى الرقّة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقلقهُ ليس لانهُ يقصر عن مناهضة موسى ابن بغا لكن لتحمّلهِ هتك الدولة وان يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربهُ وكسر جيوشهُ الّا انهُ لم يجد بدًّا من المحاربة ليدفع عن نفسهِ ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ الّا من جهة النيل فاراد لكبر همتهِ وتدبّرهِ ان يبني حصنًا على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) يكون معقلًا لحرمهِ وذخائرهِ وخاصتهِ ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكرهُ في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سدّ وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجيء اليهِ من مراكب طرسوس وغيرها من البحر

الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفًا مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذبّ عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض بمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

واقام موسى بن بغا بالرقة عشرة اشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوه بارزاقهم مطالبة شديدة بحيث استتر منهم كاتبه عبيدالله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علّة في صفر سنة ٢٦٤ هـ

هذا واحمد بن طولون يجدّ في بناء الحصن على الجزيرة وقد التزم قوّادهُ وثقاتهِ امر الحصن وفرّقهُ عليهم قطعًا فقام كلّ واحد بما لزمهُ من ذلك وكدّ نفسهُ فيهِ وكان يتعاهدهم بنفسهِ في كل يوم وهو في غفلة عما صنعهُ الله تعالى لهُ من الكفاية والغنى عمّا يعانيهِ . ومن كثرة ما بذل في العمل قدّر ان كل طوبة منهُ وقفت عليهِ بدرهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدّق بمال كثير شكرًا لله تعالى على ما منّ بهِ عليهِ من صيانتهِ عما يقبح فيهِ عنهُ الاحدوثة وما رأى الناس شيئًا كان اعظم من عظيم الجد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع لهُ في الاسحار حتى فرغوا منهُ فانهم كانوا يخرجون اليهِ من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخا بهِ من بذل المال فلما انقطع البناء لم يرَ احد من الصناع التي كانت فيهِ مع كثرتها كانما هي نار صُبّ عليها ماء فطفئت لوقتها ووهب للصناع مالاً جزيلاً وترك لهم جميع ما كان سلفًا معهم وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهبًا وقال سعيد بن القاضي من ابيات يشان ذلك

وان جئتَ رأس الجسر فانظر تأمُّلاً الى الحصن او فاعبر اليهِ على الجسرِ
ترى اثرًا لم يبقَ من يستطيعهُ من الناس في بدو البلاد ولا حضرِ
ماثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيهِ الى الفخرِ

اما الموفق فلما تفرق جيشهُ لم يعد يرى بدًّا من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاء وقتيًّا

وكثر اتباع احمد بن طولون ورجال حاشيتهِ وجندهُ حتى ضاق جامع العسكر ذرعًا عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليهِ ان يبتني لهم جامعًا آخر اكثر اتساعًا فاستجاب التماسهم على ان يبتنيهُ على جبل يشكر وكان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكليم ناجى ربَّهُ عليهِ مرارًا وانهُ اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة . وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمهُ على ثلثماية عمود من الرخام فقيل لهُ ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليهِ وانهُ اذا اصرَّ على عزمهِ لا يترك للمسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعهُ وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم انهُ من ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء قد اودع السجن لتهمة توجهت نحوهُ بغير الحق فلما بلغهُ ما كان من عزم ابن طولون وترددهِ كتب اليهِ من السجن انهُ قادر على اتمام مشروعهِ وانهُ لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلهما عمودي القبلة . فاستحضرهُ امامهُ وقد طال شعرهُ حتى نزل على وجههِ وطلب اليهِ ان يشرح لهُ عن كيفية ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنهِ فاعجب ابن طولون كثيرًا وامر باطلاقهِ وخلع عليهِ وجعل تحت امرهِ ماية الف دينار وقال لهُ انفق وما احتجت اليهِ بعد ذلك اطلقناهُ لك وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير

ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورغبتي من ذلك انهُ اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفتهِ فبيَّضهُ وعلق فيهِ القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على طول افاريزهِ آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهرًا الى هذا اليوم وفرش فيهِ الحصر وحمل اليهِ صناديق المصاحف ونقل اليهِ القرَّاء والفقهاء ويقال انهُ بناهُ على مثال جامع مكة وقال آخرون بل على مثال جامع سامرة وانهُ هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسهِ وجعلها منفصلة عنهُ برواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن ثانٍ خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الاَّ ان الناظر اليها لا يسعهُ الاَّ التعجب من عظمتها ويقال ان قبالة المنارة المذكورة الباب الكبير وجعل للجامع ٢٢ شباكًا . وجعل بجوار الجامع بناء دعاهُ دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جدارهِ القبلي بجوار المحراب . والمنبر مزين بالستائر وفيهِ المساند الجميلة والطنافس الثمينة فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا راح الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءهُ ويغير ثيابهُ وفي موضعها الان سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يرهُ خرابًا مهجورًا وقد استعملتهُ الحكومة مرارًا منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطرهِ فسدُّوها وقد هُدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضاة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقيًا وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلّى احمد ابن طولون وذرّيتهِ

وقد اقتضى لبناء هذا الجامع سنتان فانتهى في شهر رمضان سنة ٢٦٤هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيهِ ولكن المسلمين لم يكونوا يدخلونهُ خيفةَ ان

يكون مبنيًّا من دراهم لم تكتسب بالطريق الحق والعدل فاقسم لهم انهُ لم ينفق عليهِ درهًا من الدراهم التي وجدها اتفاقًا فصدقوهُ فاحتفل بتكريسهِ في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليهِ الجماهير من المسلمين . وتذكارًا لذلك الاحتفال كتبوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم حفرًا . وقال المقريزي انهم كانوا يحرقون اقراص الند اثناء الصلاة فيعبق الجامع بدخانهِ والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين اقام محمد بن ربيع مدرسة عمومية في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولادهُ وجميع حاشيتهِ لا يتركون الجامع الاَّ بعد ان يتم محمد تدريسهُ ويعطي الدروس اللازمة . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث وممن كان يحضر عليهِ ابناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلامذة كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التكريس عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فمكث مدة طويلة في الجامع يُصلّي الى الله ويشكرهُ على ما اولاهُ من النعم بتفهيم جميع مشروعاتهِ ووهب الجامع عشرة الاف دينار وخصص لهُ مدفوعات معلومة تدفع لهُ من مالهِ ما بقي حيًّا . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنهِ حوضًا وفسقية للوضوء ثم بنى اجزخانة يحضر فيها بأمرهِ كل يوم جمعة طبيب يطبّب الفقراء مجانًا لا سيما الذين يأتون للصلاة وحسبت نفقات البناء فبلغت ماية وعشرين الف دينار فضلاً عما اوقف لهُ . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرهما كنزًا ثالثًا من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جعلهُ يضرب الدينار الاحمدي المشهور بنقاوتهِ والمفضّل على سائر انواع الذهب القديم للتذهيب بهِ

وفي اثناء بناء الجامع توفي أماجور الذي كان حاكمًا في سوريا

فخلفهُ ابنهُ علي فاستغنم احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والموفق منشغل عنهُ بمحاربة الزنوج فاظهر انهُ عازم على محاربة الروم جهادًا في سبيل الدين وجمع جيشًا جرارًا فيهِ قسم كبير من المتطوعين فكتب الى ابن أماجور يستنصرهُ في تلك الحرب وان يبايعهُ على سوريا بدعوى ان الخليفة اقطعهُ اياها فاجاب مطيعًا

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ بارح احمد بن طولون مصر مستخلفًا ابنهُ عباسًا وسنهُ اذ ذاك ٢٢ سنة وعهد تدبير الاحكام الى وزيرهِ احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش ابن طولون في فلسطين اتاهُ محمد حاكم الرملة مسلمًا خاضعًا فاقرَّهُ في منصبهِ ولما بلغ دمشق ترحب بهِ علي بن أماجور وأمر بان يخطب باسمهِ فاقرَّهُ في مركزهِ ايضًا وهكذا فعل ايضًا في حمص وعليها عيسى فاقرَّهُ عليها ثم وضع يدهُ على حلب وحماه وكانتا تحت حكومة انطاكية وحاكمها يدعى سيما الطويل فحرر اليهِ احمد بن طولون يطلب مبايعتهُ فوعدهُ ولكنهُ لم يفِ فاعاد الطلب فوعد ايضًا ولما تكرر منهُ الوعد والاخلاف تقدم احمد بجيشهِ الى اسكندرونة ثم هاجم انطاكية من جهة باب البحر فلم يفز لانهُ كان منيعًا فهاجمها ثانية وثالثة ولا فائدة وما زال حتى كاد يهاجمهُ اليأس فاتاهُ بعض اهالي المدينة ينبئونهُ بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انهُ سهل المأخذ فسار احمد بجيشهِ وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الاَّ والمتاريس في يدهِ . واما سيما فدافع دفاعًا حسنًا حتى قتل وجيء برأسهِ الى احمد بن طولون فشقَّ عليهِ قتلهُ لانهُ كان صديقًا لهُ واما المدينة فذهبت فريسة النتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت الغوغاء ووضع احمد يدهُ على باياس وادنة وترسوس . وبينما كان يهمُّ بالتقدم في فتوحاتهِ الى ما وراء ذلك جاءهُ من انباء مصر أن ابنهُ عباسًا الذي استخلفهُ في مصر قد شقَّ عصا الطاعة ومد يدهُ الى الخزائن والاحكام واستبد فيهما فلم يرد احمد

الرجوع الى مصر قبل اتمام اعمالهِ في سوريا فسار الى محاربة محمد حاكم رقّة ثم اخيهِ موسى ولم يرجع الى مصر الاّ في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح كل سوريا وبعض اسيا الصغرى واستخلف في رقّة لؤلؤ الذي كان حاكماً على مصر وحلب وحمص وقنسرين

اما عباس فبعد ان نبذ طاعة والدهِ انقياداً لذوي الاغراض شعر بخطائهِ وخاف سوء العقبى فجمع اليهِ الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٤٠٠ الف دينار وفرّ بمن معهُ الى الجيزة على ضفة النيل الغربية وساق معهُ احمد الواسطي وزير والدهِ مغلولاً ولكنهُ خشي ان لا يكون مكانهُ هناك أميناً فعهد حكومتهُ فيهِ الى اخيهِ ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فلما وصل احمد بن طولون الى الفسطاط ونزل العسكر ورأى من أمر ابنهِ ما رأى احب استجلابهِ بالحسنى فحرر اليهِ تحاريز لطينة كلها حنوٌ ونصح وارسلها مع بكار بن قتيبة فعاد بلا نتيجة كل ذلك بدسيسة من التف حولهُ وهم الذين اغروهُ على كل ما فعل ولكنهم مع ذلك ومع كونهم لم يكونوا يشعرون بالسلطة الابوية كانوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فاوعزوا الى عباس ان يعن في داخلية افريقيا ففي سنة ٢٦٧ هـ جمع اليهِ رجال دعوتهِ وسار في داخلية البلاد ساعياً جهدهُ في استجلاب مشائخ القبائل اليهِ فلم يفز الاّ مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم امير قيروان ليبايعهُ على افريقيا مدعياً ان الخليفة امر بذلك وكان سعيهُ مع هذا باطلاً ايضاً . ثم هاجم قلعة لبدة ففتحت لهُ ابوابها فدخلها واتباعهُ ذابحين ناهبين فاستاء الاهالي فحرروا الى الياس بن المنصور فوعدهم بالمساعدة

وفي اثناء ذلك سار ابراهيم امير القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لمهاجمة عباس فهاجمهُ وبقيت الموقعة الى الليل وكان عباس مشهوراً في

ذلك العهد بالشجاعة والحماسة وكان شاعرًا فصيحًا ينشد الاشعار الحماسية اثناء المحاربة ومما انشدهُ قولهُ

لله درّي اذا أعدو على فرسي ... الى الهياج ونار الحرب تستعرُ
وفي يدي صارم افري الرؤوس بهِ ... في حدّهِ الموت لا يبقي ولا يذرُ
ان كنتِ سائلة عني وعن خبري ... فها انا الليث والصمصامة الذكرُ
من آلِ طولون اصلي ان سألتِ فما ... فوق لمفتخر بالجود مفتخرُ
لو كنتِ شاهدة كرّي بلبدة اذ ... بالسيف اضربُ والهامات تبتذرُ
اذًا لعاينت مني ما تبادرهُ ... عني الاحاديث والانباء والخبرُ

وفي الصباح التالي وصل الياس ومعهُ ١٢ الفًا من قبيلة العبابدة مددًا لابراهيم فضمهُ الى جيشهِ واستأنف الحرب مع عباس وخسر عباس في هذه الموقعة اكثر ضباط جيشهِ واشجع جنودهِ وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي اتى بها من مصر اما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباهُ فانفطر لهُ قلبهُ رغمًا عن سابق عصيانهِ ومعاداتهِ . وفي اواخر سنة ٢٦٧ ﻫ انفذ احمد جيوشًا الى برقة وبعد بضعة ايام اتى بنفسهِ الى الاسكندرية في جيش كبير قيل انهُ كان مؤلفًا من مائة الف رجل فاتاهُ احمد الواسطي وكان قد تخلص من عباس فجهزهُ ابن طولون بجيش وارسلهُ الى برقة يهاجم من فيها من العصاة فهاجم وقتل العدد الاعظم منهم اما عباس فقبض عليهِ حيًّا وجاء بهِ الى ابيهِ وكان ذلك في منتصف سنة ٢٦٨ ﻫ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعهُ ابنهُ العباس ولما بلغ الفسطاط حجز عليهِ في سرايتهِ

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم وعباس معهم فأمرهُ ابوهُ ان يقطع ايدي هولاء المفسدين وارجلهم بيدهِ ففعل ثم التفت اليهِ ووبّخهُ بكلام نتفتت لهُ الحجارة ثم امر بان يُضرب مائة جلدة قال ذلك وقلبهُ يقطر دمًا ثم اعادهُ الى بيت تحت الحجز وامر

بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

وما كادت مصر تتخلّص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشدّ وطأة وأصعب مراساً . فان ما كان بين احمد ابن طولون والموفق من الضغائن كان لا يزال كامناً الى ذلك العهد وما اصاب الخزينة من السلب وما تكبدهُ ابن طولون على اثر ذلك من النفقات في الحروب قد حملهُ على الاقتصاد في النفقات والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض من كانوا يقتربون منهُ استنزافاً لذات يدهِ وفيهم لؤلؤ الذي كان منغمساً بانعامهِ وقد ولاّهُ بلاداً واسعة فاضمر لهُ شرّاً منقاداً الى ذلك بايعاز كاتبهِ محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبّهُ فامسك لؤلؤ عن دفع الجزية الى ابن طولون على ان يدفعها الى الموفق ويبايعهُ على ما تحت حكمهِ فطار الموفق فرحاً اما الضباط الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب النفور فاعلموهُ بغدرهِ فادرك جميع العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنهُ اتخذ الحزم والتأنّي نبراساً فحرر الى لؤلؤ يستدعيهِ الى طاعتهِ بعبارات لطيفة فأبى واستنكر

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فتراءى لهُ ان العاقبة محمودة فكتب الى المعتمد سرّاً يعلمهُ انهُ في خشية من خيانةٍ ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوهُ الى مصر قائلاً «ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوّهِ (يعني بهِ الموفق) واعادة السلطان ليدهِ» وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ ونقدم الى دمشق وابنهُ عباس بمعيتهِ مستخلفاً على مصر ابنهُ الثاني المدعو خمارويه مجاهراً انهُ انما قدم لأمرين وهما انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانهُ كان قد انضمّ الى الموفق على محاربة الزنوج

وثارت في اثناء ذلك فرقة من الجند كان قد ارسلها احمد الى سليسيا

وعصت قائدها خالا فتمكن هذا من الفرار بحياتهِ الى دمشق فاغتنم سكان طرسوس هذه الفرصة لخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمهِ فجهز اليهم اقتصاصًا منهم ثم ورد اليهِ كتاب من المعتمد اوقفهُ عن عزمهِ . وسبب ذلك ان الخليفة المعتمد أدرك بعدئذٍ ان ليس في يدهِ من الخلافة الاَّ الاسم وان اخاهُ الموفق اضرَّ بنفوذهِ ضررًا بليغًا فلما جاءهُ تحرير ابن طولون قبلهُ بكل سرور واجابهُ متشكرًا منهُ ومتشكيًا من تصرف اخيهِ والقى اليهِ ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمتهِ وان يلاقيهُ في رقة فانفذ اليها ابن طولون جيشًا لانتظارهِ لان المعتمد احب ان يغتنم فرصة اشتغال اخيهِ بالحرب مع الزنوج للقدوم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيتهِ للصيد وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ اسحق بن كنداجيق حاكم الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليهِ وزير الموفق بما كان واوعز اليهِ ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة بكل اكرام واحترام وشيعهُ الى آخر حدود البلاد التي هي تحت حكم ابن طولون وهناك ابعد بعض رجال الخليفة بحيلة ودس في الباقين سم الحسد ايقاعًا بابن طولون وطلب اليهم ان يأتوا اليهِ على انفراد ليتشاوروا في شأن ابن طولون قبل ان يتغول في يدهِ فادخلهم الى خيمتهِ وهناك قبض عليهم واَغلَّهم واحدًا واحدًا ثم توجه في اثر الخليفة فلاقاهُ وهو غير عالم بما كان فجعل يكلمهُ بلسان الثعلب فاقنعهُ ان لا يسعى لتغيير حدود مملكتهِ بل يبقيها كما تركها اباؤهُ وان يعهد امرها لاخيهِ افضل من ان يعهدها لرجل غريب وعلى ذلك رجع المعتمد وغير المغلولين من رجالهِ الى سامرة . فعلم الموفق بذلك فسرَّ لكنهُ خشي ان يعود اخوهُ مرة ثانية الى قصدهِ الاول فارسل اليهِ من يراقب حركاتهِ ووهب اسحق جميع البلاد التي هي تحت حكم ابن طولون فاصبح حكمهُ ممتدًا من بغداد الى اطراف افريقيا واهداهُ سيفين ولقبهُ بذي السيفين اشارة الى تسلطهِ على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظهُ فجمع اليهِ من كان في دمشق من قضاة بلادهِ وعلمائها واشرافها واعلمهم ان الموفق قد هتك حرمة الاخوَّة نحو اخيهِ وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد اصبح في حالة يرثى لها يقضي نهارهُ بالاسف والكدر الشديدين وما زال ينهض هممهم ويحرّك عواطفهم حتى قرروا ان يذكر الخطيب بعد ان يتم صلاة الجمعة امام الجمهور حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظهُ ويكبت اعداءهُ وزادوا على ذلك ان الموفق عاصٍ على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهادهُ على الامة فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار فقال ان تحارب الخليفة تخالف ما قررتموهُ لانهُ تحرر بان يكون الموفق وارثًا للخلافة قطعيًّا فاجابهُ ابن طولون ان الخليفة لم يكن حرًّا بما فعل والقى بكارًا في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على تلك الاقرارات . وانتهى الامر باقرار الجميع على ما سبق ذكرهُ وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير ايام الصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك سعى الى اخيهِ المعتمد ان يحرم ابن طولون وما انفكَّ حتى اجابهُ الى طلبهِ فصرح بحرمان ابن طولون في جميع جوامع العراق وان يُلعن على المنابر بعبارة ونصها «اللَّهمَّ العنهُ لعنًا يفلُّ حدَّهُ ويتعس جدَّهُ واجعلهُ مثلاً للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين» فصرح ابن طولون بحرمان الموفق في جميع بلادهِ وارسل جيشًا للاستيلاء على مكة فعلم حاكمها هارون فانفذ الى الموفق الخبر فارسل اليهِ مددًا تحت قيادة جعفر فحاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مايتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بحرمان ابن طولون في جامع مكة

الاَّ ان هذا جميعهُ لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمهِ في اجراآت اخرى فانهُ سار الى سليسيا لاخماد الثورة ومقاصة المعتدين فمرَّ اثناء

المسير على دمشق وبنى قبة مرتفعة على مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزيّنها بالقناديل وجعل فيها من يتلو القرآن الشريف ثم قدم ادنة لمقاصة بزماز حاكمها لامتناعهِ عن مبايعتهِ وكان بزماز قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى محاصرتهِ بفرقة من الجند فحوّل بزماز نهر سدنُس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياههُ وساعدها البرد القارص فاهلكا معظم العساكر فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام الى فرصة اخرى فنهض لنجدة جهات اخرى كان يتهددها اليونان فسار بفرقة من رجالهِ الى باياس فانطاكية حيث كان ينتظرهُ القضاء المُبرَم وذلك انهُ شرب فيها كمية وافرة من لبن الجاموس دفعة فاضرّت بصحتهِ فانذرهُ الطبيب الذي كان برفقتهِ واسمهُ سعيد ثيوفيل وكان مسيحيًّا فاهمل انذارهُ وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضهُ كثيرًا فترك عبدالله بن الفتاح حاكمًا في حلب واسرع عائدًا الى مصر محمولاً على الاذرع في هودج الّا ان الضعف لم يسمح لهُ بالاستمرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم سافر الى الفسطاط في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطرة فنادى اليهِ اطباء المدينة وتهددهم بالقتل اذا لم يبذلوا الجهد في شفائهِ

فحدث في مصر من القلاقل ما اشغل ابن طولون عن الاهتمام بصحتهِ كما يجب وذلك ان احد العلويين واسمهُ احمد بن عبدالله لما بلغهُ ما فيهِ احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليهِ فرقة من رجال الصعيد محمولة بالاغواء فانفذ اليها احمد فرقة من رجالهِ ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنوج طويلاً فاز بهم ولكنهُ ملّ الحرب ومال الى المسالمة وكأن شعائرهُ العدوانية نحو ابن طولون قد اصبحت على طول الزمن آخذة في الخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود

ولم تكن سطوة ابن طولون اقل اعتبارًا في عين الموفق من ذي قبل والظاهر ان المرض اضعف منهُ حاسة الانتقام من الموفق فمال الى انهاء الثلاثة التي كان الموفق اشد رغبة في انهائها . فعهد الموفق الى سعيد بن مخلّد وجماعة من ذويهِ ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونهُ انها صادرة منهم على غير علم الموفق يبينون لهُ ان ما حصل من الخصام انما كان من عواقب العجلة في الحكم وسوء التفاهم وان يتفقوا معهُ على المصالحة ففعلوا كما امرهم فلما اطلع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من نتائج الموفق مكتوبة بخط من هي بامضائهم على ان ذلك لم يمنع من قبولهِ بالمصالحة فاجاب موافقًا على نسيان كل ما سبق حصولهُ من سوء التفاهم واعدًا باعادة الصلات الودية مشترطًا على الموفق ان يصرح جهارًا بتنازلهِ عن كل حاسات الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون قد استطلع ضميرهُ فاجابهُ بدون تردد انهُ نادم على ما فرط منهُ في الماضي وعامل على استئصال جراثيم الحقد وانهُ يرغب الى صديقهِ الجديد ان يقبل تلك المصالحة رسميًا فقبل . اما المعتمد فسرَّ جدًّا لما دار بينهما وحرر رسالة بخط يدهِ الى ابن طولون يحمد سعيهُ ويطلب اليهِ ان يستمر مسالمًا لاخيهِ الموفق واخبرهُ انهُ قد ابطل الحرمان الذي كان قد صرح بهِ ضدهُ وبعث الرسالة مع حسن بن عطاف فلم تبلغ مصر الاَّ بعد وفاة ابن طولون لان صحبهُ كانت تتأخر يومًا فيوم وكان الالم المعدي المتسبب عن افراطهِ من شرب لبن الجاموس يشتد عليهِ مصحوبًا بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق كل ذلك اسهال ذهب بكل ما بقي من قواهُ

فلما استحس احمد بقرب الاجل استغاث بصلوات شعبهِ على اختلاف معتقداتهم فاجتمع الاسلام بقرآنهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى الجبل المقطم حيث اقاموا فروض الدعاء الى الله تعالى ان يشفي لهم ملكهم وكان من جملة من حضر هذا الاحتفال معلمو المدارس وتلامذتها

اما جوامع المدينة فكانت في الوقت عينهِ غاصة بالجماهير يقرأون القرآن الشريف كل ذلك والحسنات تفرق في الناس بكميات وافرة فانتفع الناس في موتهِ كما انتفعوا في حياتهِ . ولما تأكد قرب الساعة صلّى قائلاً « ايها الاله العظيم ارحم عبدك وعلمهُ قيمة نفسهِ لانهُ لم يعرف لها قيمة وانصفهُ برحمتك » واخذ بعد ذلك بتكرار سورة الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاتهِ بقليل اخرج بكارًا من السجن لكنهُ لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الاَّ اياماً قليلة وتوفي ودفن في الفسطاط ولا يزال مقامهُ مكرمًا . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ (موافق ١١ مايو سنة ٨٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم في تربة على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتمد خبر وفاة ابن طولون حزن حزنًا شديدًا ورثاهُ بقصيدةٍ تدل على ان المعتمد كان شاعرًا اكثر مما كان حاكمًا . وكانت مدة حكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل بسيرة حياتهِ يرى ان فخرهُ لم يكن الاَّ بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيهِ الهمة وتحملهُ على توسيع نطاق مملكتهِ وقد ترك ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعددًا وافرًا من الاسلحة والامتعة و٧ الاف عبد تحت السلاح و٢٤ الف عبد بغير سلاح وعددًا عظيمًا من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان محصولات مصر بلغت في ايامهِماية مليون دينار سنويًا وقال آخرون انها لم تبلغ اكثر من عشر هذا القدر وهو الارجح وقد كان شجاعًا نشيطًا حليمًا شفوقًا

ومن امثال شفقتهِ انهُ ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطئ النيل صيادًا عليهِ خلق لا يواريهِ منهُ شيء ومعهُ صبي لهُ في مثل حالهِ وقد القى شبكتهُ في البحر فلما رآه رق لحالهِ وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين دينارًا » فدفعها اليهِ ولحق ابن طولون فسار

احمد ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتًا والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانهِ قتلهُ واخذ الدنانير منهُ فوقف بنفسهِ عليهِ وسأل الصبي عن ابيهِ فقال لهُ هذا الغلام «واشار الى نسيم الخادم» دفع الى ابي شيئًا فلم يزل يقلّبهُ حتى وقع ميتًا فقال فتّشهُ يا نسيم فنزل وفتّشهُ فوجد الدنانير معهُ بحالها فحرّض الصبي ان يأخذها فأبى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخهُ وامرهم ان يشتروا للصبي دارًا بخمسماية دينار تكون لها غلة وان تحبس عليهِ وكتب اسمهُ في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اباهُ لان الغنى يحتاج الى تدريج والّا قتل صاحبهُ . هذا كان يجب ان يدفع اليهِ دينار بعد دينار حتى تاتيهُ هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينهِ . واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر في المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقتبل فيهِ التظلمات وينصف اصحابها . وكان نقيًّا يحترم الشعائر الدينية كثيرًا فكان لهُ في قصرهِ حجرة جعل فيها ١٢ رجلاً سمّاهم بالمكبرين يبيت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوبًا يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقرأون القرآن تطريبًا بالحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذّنون اوقات الاذان . ومن صفاتهِ الحميدة حبهُ لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة فكان ينفق في سبيل ذلك الفي دينار شهريًّا سوى ما يطرأ عليهِ من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم وسوى مطابخهِ التي اقيمت في كل يوم للصدقات في دارهِ وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الاخران مما على القدر وكانت تعمل في دارهِ وينادى من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكرهُ ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرهُ

ذلك ويحمد الله على نعمتهِ . ولقد قال لهُ مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متولّيًا توزيع الصدقات «ايد الله الامير انّا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا الكف المخضوبة نقشًا والمعصم الرائع فيهِ الحديدة والكف فيها الخاتم» فقال «يا هذا من مدّ يدهُ اليك فاعطهِ فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانهُ في كتابهِ فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف احذر ان تردّ يدًا امتدت اليك» . وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاتهِ ثلاثين ولدًا ١٧ ذكورًا و ١٣ اناثًا مع انهُ لم يكن سنُّهُ عند وفاتهِ اكثر من خمسين سنة . وقد اوصى قبل وفاتهِ ان تكون الاحكام ثابتة لبنيهِ من بعدهِ ليكون لهُ من نسلهِ دولة تخلد لهُ ذكرًا الّا ان هذه الدولة لم تمكث بعدهُ الّا مدة ٣٢ سنة فقط . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ﻫ عليها اسمهُ واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)

ش ٣٩ نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

حكم خمارويه بن احمد

من سنة ٢٧١ ــ ٢٨٣ﻫ او من ٨٨٤ ــ ٨٩٥م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنهُ خمارويه حالًا في مكانهِ في شهر ذي القعدة من سنة ٢٧٠ﻫ وسنُّهُ ٢٠ سنة ولقب بابي الجيش فسرّ الناس من توليتهِ . واما عباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهتهُ الامة لما كان من عقوقهِ . وقد قال بعضهم ان اباهُ ناداهُ قبل وفاتهِ وسامحهُ عما كان أتى بهِ

واوصى ان يكون على سوريا تحت امارة اخيهِ خمارويه لكنهُ ما لبث ان اقيم اخوهُ على الاحكام حتى ذهبت حياتهُ بامرهِ . ولم يشأ خمارويه ان يجعل مركز حكومتهِ في الفسطاط كما فعل ابوهُ فاقامها في منتصف القطائع التي كان قد بناها ابوهُ مقرًّا لرجالهِ

واول شيء اجراهُ خمارويه كان موجبًا لتملكهِ قلوب الرعية لما كان فيهِ من النزاهة ونصرة الحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريرك ميخائيل وهذا كان قد عزل الاسقف سكا لسوء سيرتهِ وتعاليمهِ فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمرًا شرًّا فسعى الى احمد بن طولون فسادًا مدعيًا ان البطريرك كثير الثروة على حين انهُ لا يحتاج الى المال وكان احمد اذ ذاك يتأهب للذهاب الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريرك المذكور وقال لهُ « ان من كان في مركزك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من حاجيات الطعام واللباس وقد علمتُ انك ذو ثروة عظيمة والبلاد في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع كل ما لديك الى خزينة الحكومة » فحاول البطريرك رفع تلك التهمة عنهُ فذهب اجتهادهُ عبثًا فالقي في السجن ومعهُ احد شمامستهِ المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا وابراهيم ابنا موسى كاتب سر احمد بن طولون على عاتقهما ان يُطلق البطريرك بشرط ان يدفع مبلغًا معينًا يجمعهُ من المسيحيين الذين هم تحت رعايتهِ . فكتب على نفسهِ صكًا بمبلغ ٣٠ الف دينار يدفعهُ على دفعتين لكنهُ لم يدفع الدفعة الاولى الاَّ بعد العناء العظيم والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما كان مضروبًا على ابناء الكنيسة لم يكن وافيًا بالمطلوب فاصبح البطريرك في حالة اليأس منزويًا في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبلغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعهِ فنُسب اليهِ الاستبداد وهو براء منهُ ولما آن وقت الدفع لم يكن

قادرًا عليهِ فقيد ثانيةً الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خمارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيلهُ ويبرئ ذمتهُ مما كان باقيًا عليهِ ففعل وكان لذلك وقع عظيم ولا سيما عند طائفة المسيحيين

ثم اخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئًا مما كان على ايام ابيهِ فابقى الرتب والوظائف على حالها فبقيت قيادة جيش سوريا في يد ابي عبدالله وقيادة ما بقي من الجيوش في يد سعيد الايسر ولكي يتأكد تحصين سوريا ارسل اليها مراكب حربية تجول في سواحلها . ولما اطمأنَّ بالهُ من قبيل الخارجية عكف على الداخلية فاقبل على قصر ابيهِ وزاد فيهِ واخذ الميدان فجعلهُ كأنَّهُ بستانًا وزرع فيهِ انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاسًا مذهبًا وجعل بين النحاس واجساد نخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبَّر وغرس فيهِ من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا لهُ شجر المشمش باللوز واشباه ذلك وبنى في البستان برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافر ليقوم مقام الاقناص وسرح فيهِ من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وجعل فيهِ اوكارًا تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في دارهِ مجلسًا في رواقهِ سماهُ بيت الذهب طلى حيطانهُ كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانهِ صورًا بارزة من خشب معمول على صورتهِ وصور حظاياهُ والمغنيات اللاتي تغنّينهُ بما عليهن من اللباس بالوانهِ وجعل عليهنَّ من الحلي مثل ما اعتدن لبسهُ وجعل بين يدي هذا البيت فسقية ملأها ذئبقًا وسبب ذلك انهُ شكا الى طبيبهِ كثرة السهر فاشار اليهِ بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعًا طولاً في ٥٠ عرضًا

وملأها من الزئبق وجعل في اركان البركة سككًا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير في حلق من الفضة وعمل فراشًا من ادم يُحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شدّهُ ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليهِ ولم يُعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل مثل هذه البركة . وبنى ايضًا بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيرًا ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في دارهِ من البستان وغيرهِ ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميدانًا آخر اكبر من ميدان ابيهِ . وبنى ايضًا في دارهِ دارًا للسباع عمل فيها بيوتًا بآزاج كل بيت يسع سبعًا ولبوتهُ وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياسًا يقومون بما تحتاج اليهِ من الطعام والشراب والتنظيف . وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال لهُ زريق قد انس بخمارويه وصار مطلقًا في الدار لا يؤذي احدًا ويقام لهُ بوظيفتهِ من الغذاء في كل يوم فاذا نُصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديهِ يلتقط ما يرميهِ اليهِ من فضلاتها فاذا نام جاء زريق ليحرسهُ فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير واذا كان على الارض فبجانبهِ لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضًا اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفردًا وعمل للنمور دارًا مفردة ومثل ذلك للفهود وللفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجيزة . وكان لهُ ايضًا بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامهِ تسعماية الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس

الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان لهُ معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاهُ وكان ذلك بايعاز ابي عبدالله قائد جنود سوريا ثم خاف ابو عبدالله ان يعود خمارويه الى الانتقام منهُ اذ يندم على قتل اخيهِ فعكف الى المكيدة فكاتب الموفق يقول لهُ «ان هذا الشاب خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الاَّ انها وسيلة للتمتع بالملاهي والملذات» وكتب اليهِ غير ذلك مما شوَّق الموفق الى الاستيلاء على مصر. واخذت العداوة من ذلك الحين تنمو بينهما. وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت موقعة عظيمة بين احمد بن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين بما كان بين والديهما من العداوة

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لما كان في قلبهِ من البغض لخمارويه ما كان اتى دمشق فاستولى عليها لان ابا عبدالله سلمهُ اياها بدون حرب فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشهُ قاصدًا استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعهُ سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فسار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكرهِ وكثرة من معهُ من الجموع فهمَّ بالعود فلم يمكنهُ من معهُ من اصحاب خمارويه الذين صاروا معهُ. وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداجيق وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراهُ ليصل اليهما ففسدت نياتهما معهُ ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليهِ الطواحين فملكهُ فنسبت الواقعة اليهِ ثم وصل المعتضد وقد عبي اصحابهُ وكذلك ايضًا فعل خمارويه وجعل لهُ كمينًا عليهم سعيد الايسر فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مثلهُ قبلهُ ولَّى منهزمًا في نفر من الاحداث الذين لا علم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فنزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم

من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهزم ولم يلوِ على شيء فوصل الى دمشق ولم يفتح لهُ اهلها بابها فمضى منهزمًا حتى بلغ ترسوس وبقي العسكران يضطربان بالسيوف وليس لواحد منهما امير فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاهُ ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تنفق فيكم. ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال وسيرت البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير انهُ اكثر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبلهُ فقال لاصحابهِ ان هؤلاء اضيافكم فاكرموهم ثم احضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فلهُ الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناهُ وسيرناهُ. فمنهم من اقام ومنهم من سار مكرمًا وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه لهُ. وهذه الموقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق

وبعد ذلك عادت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الثلاثين

ش ٣٠ نقود عليها اسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق واوصى بولاية العهد لابنهِ المعتضد بعد المفوض ابن اخيهِ وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنهِ المفوض وجعلها للمعتضد. وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٢٣ سنة فبويع ابن اخيهِ المعتضد بالله فاغتنم خمارويه فرصة لتوطيد العلائق بينهُ وبين الخليفة الجديد فانفذ حسين بن عبدالله

المعروف بابن القصار وفدًا الى بغداد ناقلاً معهُ الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستدفع لهُ جزية سنوية قدرها مائتا الف دينار وانها ستدفع ايضًا عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار فاجابهُ الخليفة بتثبيتهِ في حكومتهِ لمدة ٣٠ سنة على جميع الاراضي والمدن التي كانت تحت امارتهِ او امارة ابيهِ وارسل اليهِ ايضًا السيف والبردة المختصتين بهذه المصلحة فدفع خمارويه الدفعة الاولى تمامًا اما ما بعدها فكانت تقل شيئًا فشيئًا وتتأخر رويدًا رويدًا لكنهُ لم يكن يغفل عن توطيد علاقات المودة بينهُ وبين الخليفة فارسل اليهِ وفدًا آخر يعرض عليهِ ازواج ابنتهِ المسماة قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزواج لهُ وحصل الزفاف على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت برفقتها عمتها العباسة ابنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر لهُ السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سطوتهُ فامر طغج بن جف الذي كان اقامهُ حاكمًا على دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر ترسوس الى اراضي اليونان ففعل وحارب اليونان واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بعقد زفاف قطر الندى سوّدت بموت خمارويه مقتولاً في دمشق وذلك انهُ نُمي اليهِ ان بعض نسائهِ كنَّ يتخابرن مع بعض كبراء خدامهِ مخابرة حبية سرية الى ان تمكنوا مما ارادوهُ فشق ذلك على خمارويه فاخذ في تحقيق الامر وتأكيد الجرم على فاعلهِ ومقاصتهِ بما تقتضيهِ العدالة الصارمة فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نسائهِ على قتلهِ لينجو الجميع من شرّهِ فقتلوهُ على فراشهِ في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتلهِ غير ذلك . وبعد موتهِ الفي القبض على نحو من عشرين من الخدم الذين

وقعت عليهم الشبهة وبعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقلت جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيهِ احمد وكانت مدة حكمهِ ١٢ سنة و١٨ يومًا وكان من احسن الناس خطًّا. وحال موتهِ بويع ابنهُ جيش الملقب بابي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشدهُ

حكم جيش بن خمارويه

من سنة ٢٨٢ ـ ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ ـ ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ هـ أبى طغج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلادهِ وبعد يسير ثارت الجيوش في مصر عليهِ بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبيًّا لم يبلغ رشدهُ وكانوا يقولون انهُ لا يعرف شيئًا من امور الاحكام وكان اذا ابدل مامورًا بآخر قالوا قد اختار من هو في سنّهِ اوعلى شاكلتهِ. وبعد تسعة اشهر من حكمهِ ثار عليهِ الجميع وقتلوهُ ونهبوا سرايتهُ واحرقوا المدينة

حكم هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ ـ ٢٩٢ هـ او من ٨٩٦ ـ ٩٠٤ م

واقام رؤساء الثورة اخاهُ هارون مكانهُ وقيل ان المعتضد ثبتهُ على مصر لانهُ وعدهُ بجزية مقدارها مليون من الدنانير. وفي السنة المذكورة توفي لؤلؤ الذي كان سعى فسادًا بين احمد بن طولون والموفق سعيًا آل الى حرب بين الفريقين. وكان لؤلؤ كما تقدم معنا قد ضمَّ جيشهُ الى جيش الموفق في محاربة الزنوج الّا انهُ لم يأتِ ذلك الضم بفائدة تذكر ولما وصل

احمد بن طولون الى سوريا لم يمكنهُ القبض على لؤلؤ نفسهِ فقبض على ما كان لهُ في دمشق من الممتلكات والحريم وفيهنَّ نساؤهُ واولادهُ وحظاياهُ وباعهم عبيدًا في سوق الفسطاط فلما بلغ ذلك لؤلؤًا حزن جدًّا واخذ منهُ الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليهِ ان يعطيهُ جيشًا ليغزو بهِ على مصر يمتلكها وينتقم من ابن طولون وكان الموفق قد عقد صلحًا مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤًا سلبًا فوعدهُ بنوال مرغوبهِ وكرر الوعد مرارًا وكان الموفق قد فعل ذلك على نية ان يحفظهُ عندهُ لعلهُ يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسلهُ اليهِ هديةً ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيرًا جردهُ من سائر ممتلكاتهِ وطردهُ من خدمتهِ فاتى مصر حيث بيعت نساؤهُ واولادهُ وبقي هناك الى ان مات شرَّ مونة

وفي سنة ٢٨٤ هـ اي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة لاوامرهِ ويحتقرون مشوراتهِ شيئًا فشيئًا الى ان صاروا في استعداد كلي لنبذ الطاعة والمجاهرة بالعصيان ورئيس هذه الثورة طغج بن جف حاكم سوريا . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد ما كان من انقسام بلاد هارون وكره الرعايا لهُ فرأى ان يغتنم تلك الفرصة لاسترجاع تلك البلاد التي كانت في بادئ الامر تحت سلطة اسلافهِ فتقدم نحو مدينة اميده فبايعهُ حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان حكمهُ بها مستقلًّا ثم تقدم الى قنسرين وتملَّكها

فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل ولهُ من رعاياه اعداء الدَّاء فكاتب المعتضد مصرحًا انهُ مستعد لتسليمهِ جميع البلاد التي هي قريبة من العصيان عليهِ وحرَّر ايضًا الى حكام قنسرين والعواصن جميعها ان يعتبروا سلطة الخليفة المعتضد عليهم فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يدهُ على تلك الاماكن فبايعهُ اهلها

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تتهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا . ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ وكيفية ظهورها ان رجلاً يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزياديين وكان يغالي في التشيع فاظهر لهُ يحيى انهُ رسول المهدي وانهُ خرج الى شيعتهِ في البلاد يدعوهم الى امرهِ وان ظهورهُ قد قرب فوجَّه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي فاجابوهُ وانهم خارجون معهُ اذا ظهر امرهُ . ووجهَ الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوهُ وكان فيمن اجابهُ ابو سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعهُ كتاب يزعم انهُ من المهدي الى شيعتهِ ونصهُ « قد عرَّفني رسولي ابن المهدي مسارعتكم الى امري فليدفع اليهِ كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين» ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعهُ كتاب مفادهُ ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليهِ الخمس وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً يزعم انها من المهدي وانهُ ظاهر فيكونون على اهبَّة . وصار ينتشر امر هؤلاء ويتعاظم عددهم حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستخل امرهم حتى حاربوا طغج حاكم دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات سوريا وهاجموا القرامطة وشتتوهم بعد ان قتلوا شيخهم يحيى

وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على منصب الخلافة العباسية الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفهُ في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى سوريا تحت قيادة محمد بن سليمان فتملكها حالاً وكانت لهُ مباءة ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ العاصمة (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجالهُ ينقصون يوماً فيوماً مما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء اثر كل وقعة . ولم يكن هناك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسهِ كان مرسحاً

تتلاعب فيهِ الدسائس ويغمو فيهِ الخصام بين رجالهِ واشتد القتال بينهم يومًا فركب هارون جواده واخذ في ردّهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتًا في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمهُ شيبان هو الذي قتلهُ

حكم شيبان بن احمد

من سنة ٢٩٢ ـ ٢٩٢ هـ او من ٩٠٤ ـ ٩٠٤ م

وفي يوم موتهِ اقيم عمُّهُ شيبان مكانهُ الّا انهُ لم يهنأ بالحكم لان الشعب رفضهُ بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فامّنهم ثم حركوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل العباسة فلقيهُ طفج في اناس من القواد كثير بن فساروا بهِ الى الفسطاط واقبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما رأى شيبان اصرارهم على ذلك ولم يعد لديهِ احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوهُ . اما شيبان فلم يكن يأمن من سكناه في مدينة اقام فيها مغتصبها منهُ ففرّ من المعسكر ليلاً فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليهِ فلم يظفر بهِ وقال اخرون انهُ لم يفرّ ولكنهُ قتل جزاء قتلهِ هارون بعد عشرة ايام من قتلهِ . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة الفى محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابهُ الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا وهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انسانًا

واخرجوا قوادهم ولم يبقَ في مصر منهم احد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الاثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الايام ثم سيق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذُبحوا بين يديهِ كما تذبح الشياه وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثتهم الشعراء والكتباء . وقد عثرت على عدة قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثون بها هذه الدولة ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل بن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحق الجفر ومحمد بن طسويه وغيرهم . فمما قالهُ سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مرَّ بعضها قولهُ

جرى دمعهُ ما بين سحرٍ الى نحرِ
ولم يجرِ حتى اسلمتهُ يـد الصبرِ
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسى
يبيت على جمر ويضحى على جمرِ
تتابعُ احداث يضيعنَ صبرهُ
وغدر من الايـام والدهر ذو غدرِ
أصاب على رغم الأُنوف وجدعها
ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهرِ
وفقد بني طولون في كل موطن
امرٌّ على الاسلام فقدًا من القطرِ
وكان ابو العباس احمد ماجدًا
جميل المحيا لا يبيت على وترِ
كان ليالي الدهر كانت لحسنها
واشراقها في عصرهِ ليلـة القدرِ

يدلُّ على فضل ابن طولون همّةٌ
محلّقة بين السماكين والغفرِ
فان كنت تبغي شاهدًا ذا عدالة
يخبّر عنهُ بالجليّ من الامرِ
فبالجبل الغربي خطة يشكر
لهُ مسجد يغني عن المنطق الهذرِ
وثُور فرعون الذي فوق قلّة
على جبل عالٍ على شاهق وعرِ
بنى مسجدًا فيهِ بروق بناؤهُ
ويهدى بهِ في الليل ان ضلّ من يسري
وعين معين الشرب عين زكية
وعين اجاج للرواة وللطهرِ
بناهُ لو ان الجن جاءت بمثلهِ
لقيل لقد جاءت بمستفظع نكرِ
ولا تنسَ مارستانهُ واتساعهُ
وتوسعة الارزاق للحول والشهرِ
وان جئت رأس الجسر فانظر تاملاً
الى الحصن او فاعبر اليهِ على الجسرِ
ترى اثرًا لم يبقَ من يستطيعهُ
من الناس في بدو البلاد ولا حضرِ
وقام ابو الجيش ابنهُ بعد موتهِ
كما قام ليث الغاب في الاسل السمرِ
اتتهُ المنايا وهو في امن دارهِ
فاصبح مسلوبًا من النهي والامرِ

وورّث هارون ابنهُ تاج ملكهِ
كذاك ابو الاشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبلهُ في محلهِ
ولكن جيشًا كان مستقصر العمر
فقام بامر الملك هارون مدة
على كظظ من ضيق باعٍ ومن حصرِ
وما زال حتى زال والدهر كاشح
عقاربهُ من كل ناحية تسري
فمن يبكِ شيئًا ضاع من بعد اهلهِ
لفقدهم فليبكِ حزنًا على مصر
ليبكِ بني طولون اذ بان عصرهم
فبوركَ من دهرٍ وبورك من عصر

اما القرامطة فاغتنموا فرصة غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليهِ في سوريا فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفًا في مصر حامينها وجيش الخليفة الآن الامور لم تكن قد سكنت تمامًا فثار ابن قلندج وضمّ اليهِ عصبة سببت اضطراب الراحة مدة فاستدركها ابن كيغلغ حاكم سوريا فترك دمشق ومعهُ كل جيش الخليفة الذي كان تحت قيادتهِ وجاء لاخماد ثورة مصر فاغتنم القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فنهبوها ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقيهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة لهُ بهذا التاريخ

الدولة العباسية الثانية

من سنة ٢٩٢ ـ ٣٢٢ هـ او من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من سنة ٢٩٢ ـ ٢٩٥ هـ او من ٩٠٥ ـ ٩٠٨ م

فعاد المكتفي خليفة على مصر فاقام عليها عيسى النوشري وبعد ٣ سنوات توفّي المكتفي يوم الاثنين في ١٤ ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ وسنُّهُ ٣١ سنة و ٣ اشهر بعد أن حكم مدة ٦ سنوات و ٧ اشهر و ٢٢ يومًا

خلافة المقتدر بن المعتضد

من سنة ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ او من ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوهُ جعفر المقتدر بالله وسنُّهُ اذ ذاك ١٣ سنة . وهذا لم يحدث في الامارات تغييرًا يذكر فاقرَّ عيسى النوشري على مصر على انهُ اضطر بعد مدة ان يتخلّى عنها لمحمد بن الخليج وهذا لم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فاقيل واقيم مقامهُ زكا الرومي ابو حسن الاعور فتولى مصر خمس سنوات وتوفي في ربيع اول سنة ٣٠٧ هـ فاعيد

تكين ثانيةً وبعد ايام قليلة توفي تكين تاركًا ولدًا يدعى محمدًا وهذا وضع يدهُ على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقُتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ ﻫ وسنهُ ٤٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهرًا و ١٦ يومًا

ش ٢١ نقود المقتدر بالله

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد المقتدر بالله سنة ٣١٦ ﻫ (انظر شكل ٢١)

خلافة القاهر بن المعتضد

من سنة ٣٢٠ ــ ٣٢٢ ﻫ او من ٩٣٢ ــ ٩٣٤ م

فبويع اخوهُ القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاصص محمد بن تكين على جسارتهِ فولّى على مصر ابا بكر محمد بن طغج ومن هذا نشأت دولة حكمت على مصر وسوريا مدة من الزمن

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان محمد ابو بكر ابن طغج في ذلك الحين حاكمًا في دمشق واصلهُ من اولاد ملوك فرغانة وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليهِ من فرغانة جماعة كثيرة ووصفوا لهُ جف (والد محمد ابي بكر) وغيرهُ بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليهِ بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع نسر من رأى وقطائع جف لا تزال الى الآن معروفة هناك . فاقام بها وجاءتهُ الاولاد وتوفي جف في بغداد في

الليلة التي قتل فيها المتوكل وكانت ليلة الاربعاء في ٤ شوال سنة ٢٤٧ هـ وخرج اولادهُ الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش واتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهذا اذ ذاك مقيم بديار مصر فاستخدمهُ على ديار مصر ثم انحاز طغج الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج فلم يزل معهُ الى ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنهِ خمارويه وبين اسحق بن كنداج ونظر ابو الجيش خمارويه الى طغج بن جف في جملة اصحاب اسحق فاعجب بهِ واخذهُ من اسحق وقدمهُ على جميع من معهُ وقلدهُ دمشق وطبرية ولم يزل معهُ الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغج الى الخليفة المكتفي بالله فخلع عليهِ وعرف لهُ ذلك وكان وزير الخليفة يومئذٍ العباس بن الحسن فسام طغج ان يجري بالتزلف لهُ مجرى غيرهِ فكبرت نفس طغج عن ذلك فاغرى بهِ الملك المكتفي فقبض عليهِ وحبسهُ وابنهُ ابا بكر محمد بن طغج المذكور فتوفي في السجن وبقي ولدهُ ابو بكر معهُ محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليهِ ولم يزل يراسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بثار ابيهِ هو واخوهُ عبيدالله في الوقت الذي قتلهُ فيهِ حسين بن احمد بن حمدان . ثم خرج ابو بكر واخوهُ عبيدالله في سنة ٢٩٦ هـ وهرب عبيدالله الى ابن ابي الساج وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً في البادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانهِ ومما كبر بهِ اسمهُ سريتهُ في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم وذلك سنة ٣٠٦ هـ وهو حينئذٍ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتلهُ واسر من اسرهُ وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تُعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت منهُ فانفذ اليهِ خلعاً وزادهُ في رزقهِ ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارقهُ بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليهِ

بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ هـ فوردت كتب المقتدر اليهِ بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاه القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ هـ لكنهُ لم يذهب الى مصر لاستلام مركزهِ المشار اليهِ ولم يلقّب بهِ الا مدة شهر فقط ثم عين الخليفة مكانهُ احمد بن كيغلغ سنة ٣٢١ هـ . وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بلغ صداها القطر المصري

خلافة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ ـ ٣٢٣ هـ او من ٩٣٤ ـ ٩٣٤ م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وسنة ايام وفي اليوم الثاني بويع ابن اخيهِ الراضي بالله ابن المقتدر وحال توليتهِ الخلافة عزل ابن كيغلغ عن مصر وولّى مكانهُ محمد بن طغج فقدم لاستلام امارة مصر فامتنع ابن كيغلغ من تسليمهِ وتخاصما حتى استخدما السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغج وفر احمد بن كيغلغ بمن معهُ من ذويهِ الى برقة ومنها الى قيروان

وكانت قيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن الدولة العباسية تدعى الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين الذين هم من قبيلة كتامة بالقرب من مدينة فاس في الطرف الغربي لافريقيا ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ هـ في الجهات الغربية من افريقيا في احزاب من الاغالبة والادريسيين الذين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني أمية في الاندلس .

وفي سنة ٢٨٠ هـ وضع زعيم الفاطميين ابو محمد عبيدالله يدهُ على قيروان.
وفي سنة ٢٩٦ هـ رأى من نفسهِ القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيدالله المهدي وكان من آخر الائمة العلويين الذي يدعي انهُ منهم وانهُ احق من سواه بالخلافة. فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدّعي الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في قيروان. فلما سمع عبيدالله زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليهِ من الثروة والخصب تاقت نفسهُ اليها واخذ يسعى للاستيلاء عليها

وبعد ظهور خلافتهِ بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها. فعلم الخليفة المقتدر بالله ما نواهُ المهدي فجهز جيشًا كافيًا لدفع هذه الرزية عن مصر فحصلت بين الفريقين مواقع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية فعاد الفاطميون على اعقابهم وتبعهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر. فرأى عبيدالله بعد هذا الانكسار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنهُ رأى ايضًا ان استحكاماتهِ غير كافية فاسس مدينة اخرى دعاها المهدية نسبة اليهِ على نية ان تكون عاصمة وقتية لبعد فتوح مصر فيجعل عاصمتها عاصمتهُ لانهُ كان مصمّمًا على افتتاحها. الّا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيدالله ولا لخلفهِ الاول ولا الثاني. وفي سنة ٣٢٢ هـ توفّي عبيدالله المهدي في رقادة وسنهُ ٦٤ سنة بعد ان تولّى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولّى ابنهُ ابو القاسم محمد الملقب بالقايم بامرالله وكان اكثر تشوقًا للافتتاح من ابيهِ.

وفي ايام ابي القاسم جاء احمد بن كيغلغ مطرودًا من مصر يطلب ملجأ عندهُ وجعل يحثهُ على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القايم ان في افتتاحها عظمة وفخرًا فجهز اليها فعلم محمد بن طغج ذلك فحصن الحدود

الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية لكن ذلك لم يمنع من نزول المقدور لان الفاطميين بعد ان مكنوا قدمهم في الاسكندرية تقدموا بجيوشهم حتى بلغوا الفسطاط واحتلوا قسمًا كبيرًا من الصعيد. ثم رأى القائم بامر الله ان جندهُ لا يقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليهِ افتتاحها

اما الدولة العباسية فكانت على وشك الانحلال لان امارتها اخذت تستقل عنها شيئًا فشيئًا . فاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون وضعوا ايديهم على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنو بويه على الفرس ولم يبقَ للعباسيين الاَّ بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ ـ ٣٥٨ ﻫ او من ٩٣٤ ـ ٩٦٨ م

حكم محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ ـ ٣٣٤ ﻫ او من ٩٣٤ ـ ٩٤٦ م

فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على ما تقدم طلب نصيبهُ من تلك القسمة فصرح باستقلالهِ في مصر سنة ٣٢٤ ﻫ فاضطر الخليفة الى تثبيتهِ رغمًا عنهُ وملكهُ فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيدهِ وفي ٣٢٧ ﻫ لقبهُ بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانا وهو من اولادهم ومنادهنه اللفظة

في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانا لقبوهُ بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان والشام هرقل واليمن تبع والحبشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا كانت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد ابن رائق حكمدار فلسطين وكان مستقلاً بالحكم عنهُ فلاح لهُ ان يغزو سوريا وكان عليها الامير بدر من قِبل محمد الاخشيد فحاربهُ فهرب بدر فنهض محمد الاخشيد لانجادهِ مستخلفاً في مصر اخاهُ الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت هناك . فتداخل بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي احسن وتصالحا فعاد محمد الاخشيد الى الفسطاط وما بلغها حتى أُنبئ ان محمد بن رائق بارح دمشق وفي نيتهِ مهاجمة مصر فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليهِ فعاد بجيشهِ الى سوريا فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت موقعة شفت عن انكسار جيش محمد بن رائق وانهزامهِ الى دمشق فوضع محمد الاخشيد يدهُ على الرملة واسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق . وفي هذه الموقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق رغماً عما كان بينهُ وبين الاخشيد من العدوان الاَّ انهُ انفذ اليهِ ابنهُ مزاحم ناقلاً علامة الأمان ليقدّم احترامات ابيهِ ويعزي الاخشيد على فقد اخيهِ . فلما بلغ هذا النائب محمد الاخشيد اكرم مثواهُ وخلع عليهِ وعقد معهُ معاهدة من مقتضاها ان يتخلّى هو عن دمشق وان يدفع لهُ ابن رائق مقابلة لذلك جزية سنوية مقدارها مائة الف واربعون دينار وان تكون البلاد من الرملة الى الى حدود مصر للاخشيد . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدات عاد بجيشهِ الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله ولم يكن سنُّهُ اكثر من ٣٢ سنة ومدة حكمهِ ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويع اخوهُ ابو اسحق ابراهيم الملقب بالمتقي لله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ ﻫ كما ترى في شكل ٣٢

ش ٣٢ نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ ﻫ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر ثم انصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قُتل بسيف الحمدانيين فاغتنم الفرصة لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينهُ وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل سوريا مسرعًا ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ ﻫ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قولهِ فاوصى بالحكم من بعدهِ لابنهِ ابي القاسم محمود الملقب بابي هور

وفي سنة ٣٣٢ ﻫ حصل شغب في بغداد وسببهُ ان لقب امير الامراء الذي كان يهبهُ الخليفة لكبار الاتراك اصبح في عينهم اشرف من لقب الخلافة . فلما نالهُ احدهم المدعو طوزون جعل يقاوم الخليفة في احكامهِ حتى حملهُ على ترك بغداد والمهاجرة الى الموصل فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من امراء بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشًا قويًا وسارا وبرفقتهما الخليفة الى بغداد فهاجموا طوزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل فخلع الخليفة على كلٍّ من الاميرين الحمدانيين خلعة الشرف وهذا غاية ما كان للخلفاء ان يهبوهُ في ذلك العهد . ثم سار الخليفة من الموصل الى رقة فلاقاهُ كتاب طوزون يدعوهُ الى العود الى بغداد . فلما رأى الخليفة ان نصراءهُ من بني حمدان عجزوا عن نجدتهِ لاح

لهُ قبول ما دعاهُ اليهِ طوزون وقبل ان يهم الى ذلك جاءهُ محمد الاخشيد من مصر يدعوهُ اليها مباءً لهُ فرفض فالحَّ عليهِ الاخشيد متعهدًا ان يقوم بكل ما يلزم الخليفة من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد ويلقي نفسهُ بين ايدي طوزون فتردد الخليفة بين الامرين . فلما رأى طوزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصرهُ عليهِ فجاءهُ بنفسهِ وترامى على اقدامهِ والحَّ عليهِ ان يتوجه معهُ الى بغداد مدعيًا انهُ لا يعرف احدًا غيرهُ خليفة على المسلمين فسار معهُ ولم يكد يبلغ تلك العاصمة حتى خلعهُ طوزون في ٣٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و ١١ شهرًا وولّى مكانهُ ابنهُ ابا القاسم عبدالله تحت لقب المستكفي بالله وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و٤ اشهر ويومين . فبويع مكانهُ الفضل بن المقتدر تحت لقب المطيع لله وبقي هذا على دست الخلافة نحوًا من ٢٠ سنة لكنهُ كان آخر من كانت لهُ السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في شكل ٣٣

ش ٣٣ نقود الخليفة المطيع لله

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميالاً الى مطاوعة طوزون في السفر الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المونسي من قبل محمد الاخشيد فحاربهُ فاستولى عليها ثم سار متعقبًا ابراهيم الأُوكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبهُ بين سرمين والمعرَّة واستولى على دمشق التي كانت الى ذلك العهد تحت حكم محمد الاخشيد فارسل محمد الاخشيد في الحال كافورًا الى

سوريا وكان من مواليهِ وكان لهُ فيهِ الثقة التامة وارسل معهُ جيشاً كبيراً . وكان كافور عبدا اسود خصيا مثقوب الشفة السفلى بطيئاً قبيح القدمين معتل البدن جلب الى مصر وعمرهُ عشر سنين فما فوقها في سنة ٣٢١٠ه فباعهُ الذي جلبهُ لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع فباعهُ لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسلهُ بهدية يوماً الى الاميرابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذٍ احد قواد تكين امير مصر فاخذ كافوراً ورد الهدية فترقّى عندهُ بالخدم حتى صار من اخص خدمهِ . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى سار لملاقاتهِ فالتقى الجيشان وكان ذلك يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فاستغنم كافور فرصة غيابهم وهجم على معسكرهم وسلب كل مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعهُ كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فتبعهُ كافور وكان سيف الدولة في انتظارهِ هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينهُ وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبورهِ بجيشهِ فاغتنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية سابحة في الماء وهجم عليهم فاخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفر كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى وصل المعرة فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية تحت قيادة الاخشيد فهالهُ الامر ولكنهُ لم يشأ الهرب فعمد على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس فارسل خزائنهُ وعبيدهُ وحرمهُ الى ما بين النهرين وتقدم بجيشهِ لمقابلة الاخشيد فالتقى بهِ في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشهُ الى فرقتين وجعل الرماحة الى الامام وسار هو وعشرة آلاف رجل من نخبة الرجال الى الوراء فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشتتها اما فرقة الخليفة فكانت راسخة القدم

فلم يقدر سيف الدولة على تشتيتها تمامًا لكنهُ استولى على بعض متاعها فافترق الجيشان ولم تنتهِ الغلبة لاحدهما وسار سيف الدولة الى موبج فعبر بحيرتها قاصدًا ما بين النهرين فمرض في رقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك لا يفصل الجيشين الا نهر الفرات وبقيا عدة ايام بدون حرب . ثم عقدا صلحًا على شروط من مقتضاها ان حمص وحلب وما بين النهرين تكون لسيف الدولة وان جميع الاراضي من حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد وحفروا خندقًا بين جوشنا ولبوه حدًّا فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها فواصل طبيعية . وتأبيدًا لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلادهِ الّا ان المعاهدة المذكورة لم تلبث حتى نقضت بما حصل بين الاخشيد وبني حمدان من المواقع التي آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وسنهُ ستون سنة ومدة حكمهِ ١١ سنة و٣ اشهر ويومين ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازًا بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكًا حازمًا شجاعًا متأنيًا كثير التيقظ في حروبهِ ومصالح دولتهِ حسن التدبير مكرمًا للجند شديد القوى لا يكاد يجرّ غيرهُ قوسهُ وكان لهُ ثمانية آلاف مملوك يحرسهُ في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمتهِ الخدم اذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين ولم يكن ينام ليلتين متواليتين في مكان واحد فلم يكن احد عالمًا بمكان نومهِ . على ان المورخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكتهِ على اختلاف الازمان الّا انهم يقولون انهُ كان يملك كما ملكت الدولة الطولونية في زمانها اي على مصر وفلسطين وسوريا وبين النهرين الى الفرات وقسم كبير من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جورهِ فكان اذا جرد حملة واحتاج لمعاونة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم او كنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد

المورخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يردُّ لهم ما يأخذهُ في سبيل الاعانة ومما يبرئُ ساحة الاخشيد انهُ ظفر بخبأة في الآثار القديمة اصاب فيها كثيرًا من المواد الثمينة التي تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في احتياج الى سلب مال الاهلين

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٢٣ هـ كما ترى في الشكل ٣٤

ش ٣٤ نقود محمد الاخشيد

حكم انوجور بن الاخشيد

من سنة ٣٣٤ ـ ٣٤٩ هـ او من ٩٤٦ ـ ٩٦١ م

وتولّى بعد محمد الاخشيد ابنهُ ابو القسم محمد الملقب بانوجور وكان صغير السن ليس من السياسة على شيء فعهد تدبير الاحكام الى كافور وزير ابيهِ . فاخذ كافور يتصرف نحو ابي القسم تصرفًا امينًا نشيطًا مستقيمًا يستوجب عليهِ المدح الجزيل فعزل ابا بكر محمد جابي الخراج لتعدد التشكيات وثبوتها عليهِ واقام مقامهُ رجلاً من ماردين يقال لهُ محمد كان عفيفًا مستقيمًا . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنهِ الى مصر فاغتنم الفرصة وقدم دمشق واستولى عليها فعلم كافور بذلك فاسرع حالاً بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادمًا من دمشق لملاقاتهِ والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى رقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اغار ملك نوبيا على املاك مصر في بلادهِ حتى اتى اصوان فاوقع فيها السلب والنهب فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد ابن عبدالله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت الى البحر الاحمر فنزلت على سواحلهِ ومنها الى ما وراء نوبيا لتسد على النوبيين السبيل فتضائق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) بيد المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وُولِّي مكانهُ اخوهُ علي الملقب بابي الحسن

حكم ابي الحسن علي بن الاخشيد

من سنة ٣٤٩ ـ ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ ـ ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن على مصر خمس سنوات وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيهِ انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم لري الاراضي وفي السنة التالية كان اقل ارتفاعاً ثم نزل بغتةً والاراضي لم ترتوِ فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعدهُ ٩ سنوات رافقهُ اضطراب داخلي آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم يونانيو القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوقورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فتملكوا حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فحاربوهُ . فتجند وليم الاوقازلي حكمدار دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوقورس بمجيء هذا المدد فاختار الانسحاب

حكم كافور الاخشيدي

من سنة ٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ ـ ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفّي ابو الحسن علي فخلَفَهُ كافور وتلقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع لله ان يثبتهُ في مصر ففعل وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعهِ والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها

وبقي كافور في منصبهِ هذا مدة سنتين و٤ اشهر وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مدّ سلطتهم رويدًا رويدًا الى جميع الصعيد. وتوفّي كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ ودفن في القرافة الصغرى وقبتهُ مشهورة هناك

حكم ابي الفوارس بن علي

من سنة ٣٥٧ ـ ٣٦٣ هـ او من ٩٦٨ ـ ٩٧٣ م

فخلف كافور احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احد عشرة سنة فلم يثبتهُ الخليفة في الحكم. اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسين الاخشيدي الّا انهُ ما لبث ان استتبَّ لهُ المقام حتى جاءهُ القرامطة واخذوا البلاد من يدهِ ففر الى مصر قاصدًا اغنيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن

كل الممالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين افراد العائلة الحاكمة ملّوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين الذين كانوا قد تملكوا قسمًا عظيمًا من مصر فلبّوا الدعوة ففرّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و٢٤ يومًا

الدولة الفاطمية

من سنة ٣٦٢ ــ ٥٦٧ هـ او من ٩٧٣ ــ ١١٧١ م

خلافة المعز بن المنصور

من سنة ٣٦٢ ــ ٣٦٥ هـ او من ٩٧٣ ــ ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد ابي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القايم بامر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على امارات افريقيا والغرب ومالطا وسردينيا وسيسيليا واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتئ هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحها اكثر من مرة ولم يفز حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور اغتنم الفرصة وتقدم في البلاد المصرية . فلما تولّى كافور هذه المديار بنفسه توقف المعزّ قليلًا وعند نهاية حكم كافور جرد جيشًا ارسله تحت قيادة جوهر

وهو مملوك رومي ربّاه المعزّ لدين الله ابو تميم معد وكنّاه بابي الحسن

وعظم محلهُ عندهُ . وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيّرهُ قائدًا للجيوش وبعثهُ في صفر منها في جيش فسار الى تاهرت واوقع في عدة اقوام وافتتح مدنًا وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئًا فرحل الى سلجماسة ومنها الى ان بلغ البحر المحيط واصطاد منهُ سمكًا جعلهُ في قلة ماء وبعث بهِ الى مولاهُ المعزّ واعلمهُ انهُ قد استولى على كل ما مر بهِ من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والحّ عليها بالقتال حتى استولى عليها عنوة . ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنهُ وبعد صيتهُ . ولما قوي عزم المعزّ على تسيير الجيوش لاخذ مصر وتهيّأ امرها فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعهُ ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديهِ اكثر من الف صندوق من المال وكان المعزُّ يخرج اليهِ كل يوم ويخلو بهِ ويتداول معهُ سرًّا واطلق يدهُ في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حملهُ معهُ ويُحكى ان المعز خرج يومًا فقام جوهر بين يديهِ وقد اجتمع الجيش فالتفت المعزّ الى المشائخ الذين وجههم مع جوهر وقال والله لو خرج جوهر هذا وحدهُ لفتح مصر ولتدخلنّ مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمّى القاهرة تقهر الدنيا . وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وامر اولادهُ واخوتهُ الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عمالهِ يامرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجّلوا مشاة في خدمتهِ . فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجلهِ ومشيهِ في ركابهِ بخمسين الف دينار ذهبًا فابى جوهر الاّ ان يمشي في ركابهِ ورد المال فمشى . ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعهُ اهلها . ومما قالهُ محمد بن هاني بهذا الشأن قولهُ

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمعُ ... وقد راعني يومٌ من الحشر اروعُ
غداة كان الافق سدّ بمثلهِ ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ

فلم ادرِ اذ ودّعت كيف اودع ولم ادرِ اذ شيعت كيف اشيعُ

ومنها قولهُ

اذا حل في ارضٍ بناها مدائنًا وان سار عن ارضٍ غدت وهي بلقعُ
تحل بيوت العز حيث محلهُ وجم العطايا والرواق المرفعُ
رحلتَ الى الفسطاط اول رحلةٍ بايمن فال بالذي أنتَ تجمعُ
فان يكُ في مصر ظماءٌ لموردٍ فقد جاءهم نيلٌ سوى النيل يهرعُ

فسار جوهر نحو الصعيد واسرع جنوبًا ليرد هجمات ملك نوبيا الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركهُ جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهلها واستعبد من بقي حيًا وعاد الى بلادهِ اما جوهر فكان قد تملك الصعيد جميعهُ

ولما توفّي كافور ووقع الخلاف بين احمد ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فأتاهُ الاهالي والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى منادٍ فنزل الناس كلهم الاَّ الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليهِ واحدًا واحدًا والوزير عن شمالهِ والشريف عن يمينهِ ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد فدخلوا من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد ودخل جوهر بعد العصر وطبولهُ وبنودهُ بين يديهِ وعليهِ ثوب ديباج مثقل وتحتهُ فرس اصفر ونزل في ما هو موضع القاهرة اليوم ثم نزل الى الفسطاط بمن معهُ وخطب في جامع عمرو باسم المعزّ لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعهُ الناس وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون اقل مقاومة فحرر لمولاهُ المعزّ بما اتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزاد عقيب الخطبة « اللهم صلِّ على محمد المصطفى وعلى عليّ المرتضى وعلى فاطمة

البتول وعلي الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا اللّهم وصلِّ على الايمة الطاهرين اباء المؤمنين » . وفي ايامهِ صار يذكر بالاذان حي على خير العمل . ثم ارسل جوهر الى سوريا احد اركان حربهِ المدعو جعفر ليتعقب الحسين

وكانت الخلافة العباسية لا تزال في يد المطيع لله الذي لم تكن حكومتهُ الّا تقهقرًا مستمرًا وانحطاطًا متتابعًا . فان الدولة العربية التي كانت في القرون الثلاثة الهجرية الاولى شمسًا باهرة باعثةً اشعتها على القسم المعمور من الارض امست في ايام المطيع وقد ذهب بهاؤها كانهُ قد عراها كسوف فاستقلت اماراتها وعلى كل منهـا اميرٌ مسلم لكنهُ غير عربي فلم تعد تصح تسميتها بعد ذلك بالدولة العربية بل الدولة الاسلامية وكان امراء بني بويه قد اغتصبوا الخلفاء العباسيين جميع املاكهم في اسيا من جهة بلاد فارس . والمطيع وان كان مقيمًا في بغداد الّا انهُ لم يكن لهُ نفوذ فيها وقد هجرهُ وزيرهُ واقام لهُ بنو بويه وزيرًا من غرضهم تنفيذًا لمآربهم . وغاية ما بقي للمطيع من السلطة في الدولة الاسلامية انما هو تثبيت الولاة متى اقيموا على ولاياتهم لا توليتهم . فكانت الاندلس قد اصبحت في حوزة الدولة الاموية الغربية واسيا العليا في حوزة بني سامان والبصرة وواسط والاهواز والفرس في حوزة بني بويه . والموصل وديار بكر في حوزة بني حمدان . وسوريا العليا وارمينيا كان بعضها في حوزة القرامطة والبعض الآخر تابعًا لمصر التي كانت الى ذلك العهد في حوزة الدولة الاخشيدية تحت رعاية الخلفاء العباسيين وعلى وشك الانتقال الى الدولة الفاطمية

فلم يألُ القائد جوهر جهدًا في تثبيت قدم هذه الدولـة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقهِ صلاتها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ تداخل بها الفساد وساد فيها الخصام الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت

غلّتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الأمن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ثلاثة آلاف واربعماية الف دينار

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزّها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنّة عمومية في ملوك الشرق اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم ولعلهم كانوا يريدون بذلك تخليد ذكرهم . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكرهِ وذكر مولاهُ فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين على كيفية يناخر بها بغداد عاصمة العباسيين

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاختط بقعة من الارض حيث أناخ جمالهُ يوم جاء لفتح الفسطاط فانهُ نزل الى شماليها فيما مكانهُ اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وخان الخليلي وبين القصرين وما جاورهما من الاماكن التي بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين الفسطاط وعين شمس (المطرية) ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الاَّ بساتين قليلة منها بستان الاخشيد الكافوري شرقي الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيهِ بئرٌ لا يزال باقيًا يعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميهِ العامة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فأمر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلها لاقامة المعزّ عند قدومهِ الى مصر ولا يزال من اثرهما الى الآن محل المحكمة الشرعية المعروف

بيت القاضي يتصل اليوم من شارع النحاسين

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بُني حولها السور وفيهِ الابواب ولم يزل بعض آثارها باقيًا الى هذا العهد. فبعث جوهر الى مولاهُ المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوهُ وسار قادمًا الى عاصمتهِ الجديدة مستخلفًا على افريقيا وزيرهُ يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى سيسيليا فصرف فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب ومنها الى الاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخولهُ اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبهُ يعقوب بن يوسف بن كلّس. وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش فدخل المعزّ من الباب الملاصق ولم يبقَ لهُ اثر الآن فتيامنَ الناس بهِ وهجروا الباب الآخر حتى جرى على الالسنة ان من مرَّ بهِ لا تقضى لهُ حاجة

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصرهُ بالقاهرة وعند دخولهِ خرَّ ساجدًا ثم صلّى ركعتين وصلّى بصلاتهِ كل من دخل معهُ واستقرَّ في قصرهِ باولادهِ وحشمهِ وخواص عبيدهِ والقصر يومئذٍ بهجةٌ وكلُّهُ تُحفٌ ومثمنات وبعد ذلك باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلتهُ للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائمًا بين يديهِ يقدم الناس قومًا بعد قوم. وبعد وصولهِ بيسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجدادهُ الذين استحضرهم معهُ بتوابيت من بلاد المغرب وصارت بعد ذلك مدفنًا يدفن فيهِ الخلفاء واولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث الخان الخليلي الآن. فلما انشأ الامير جهاركس الخليلي خانهُ اخرج ما شاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهوديًا من بغداد ثم جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدي واسلم طمعًا بالترقي فاحبّهُ كافور ورقّاهُ . واشترك مع يعقوب في امر الخراج عساوج بن الحسن وكتب المعزّ لهما سجلًّا بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الالتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبّلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حدٍ يفوق التصديق

ثم ابتنى جوهر جامعًا دعاهُ الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الّا جامع ابن طولون واكثرها اتساعًا ولذلك لُقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الآتي ذكرهُ مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الآفاق وقد كانت نبراس العلم ونادي العلماء من سائر المشرق ولا تزال في مثل ذلك الى هذه الغاية . وكانت تُعلَّم فيها كل العلوم العربية كاللغة والفقه والمنطق والطب والفلك والرياضيات والتاريخ وكانت تأتيها التلامذة من الاقطار البعيدة كالمغرب وسوريا والعراق والهند وغيرها وكانت تتكاثف الطلبة فيها حتى تُعد بالآلاف ومعدّل ذلك العدد اثنا عشر الفًا . والفقراء منهم يأكلون ويشربون ويلبسون على نفقة الجامع

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغيّر فيهِ كثير من الملوك والامراء الذين تولّوا امر مصر بعد المعزّ وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايتباي والغوري من سلاطين المماليك والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك

وعبد الرحمن كخيا المذكور جدّد فيهِ اشياء كثيرة وجعل فيهِ مدفنًا لهُ دُفن فيهِ . واخيرًا سعيد باشا ابن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيهِ الآن شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة لهُ وحرمان الآخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابهِ لفاطمة ابنة النبي (صلعم) وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواهُ على انهُ قلّما كان يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنهُ انهُ لما كان قادمًا الى القاهرة وخرج الناس للقائهِ اجتمع بهِ اناس من الاشراف وفيهم عبدالله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعزّ وقال لهُ « الى مَن ينتسب مولانا » فقال لهُ « سنعقد مجلسًا نجمعكم فيهِ ونسرد عليكم نسبنا » ولما استقرّ المعزّ في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبقَ معتبر » فسلّ نصف سيفهِ وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهبًا كثيرًا وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعًا سمعنا واطعنا

ولم يسكن المعزّ لدين الله قصرهُ طويلًا لانهُ توفي بعد ثلاث سنوات من حكمهِ بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنُّهُ ٤٥ سنة ومدة حكمهِ جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلًا حازمًا اديبًا حسن النظر محبًّا للنجامة شاعرًا وينسب اليهِ من الشعر قولهُ

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر في الهواجر

ويُنسب اليهِ ايضًا

اطلع الحسن من جبينك شمسًا فوق ورد في وجنتيك اظلّا

وكأن الجمال خاف على الور دِ جنافاً فمدّ بالشعر ظلاّ

وترى في الشكل الخامس والثلاثين صورة نقود المعزّ مضروبة بعد دخولهِ القاهرة بسنة واحدة

ش ٣٥ نقود المعزّ لدين الله

خلافة العزيز بن المعز

من سنة ٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ او من ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م

فلما توفي المعزّ بويع ابنهُ نزار بن معد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوهُ بعضهم العزيز بدين الله ومولدهُ المهدية في افريقيا . واتسعت المملكة في ايامهِ حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعتهِ الاّ ٢١ سنة فترك ازمّة الجند لجوهر . وفوّض ليعقوب بن يوسف النظر في سائر الامور وجعلهُ وزيرًا لهُ في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضى الاوامر باسمهِ . واهداهُ كثيرًا من الغلمان والاموال فرتّب يعقوب الدواوين فجعل ديوانًا للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كلٍّ منها كتّابًا ورؤساء كتّاب . وكان يجلس في مجلسهِ الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصّص لكلٍّ منهم الارزاق والّف كتبًا في الفقه والقرآءات وكان يجلس في كل يوم جمعة يقرأ مصنفاتهِ على الناس بنفسهِ وكان لهُ مجلس في دارهِ للنظر في رفاع المرافعين والمتظلمين ويوقّع بيدهِ في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسهِ . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وكان العزيز بالله قد تزوّج امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيرًا فاكتسبت نفوذًا عليهِ فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكرامًا بها حتى اتخذ طبيبهُ الخاص منهم وجعل اخويها في مصاف البطاركة الواحد في الاسكندرية والآخر في القدس الشريف

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشرابي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال لهُ الفتكين ابو منصور التركي الشرابي غلام معزّ الدولة احمد بن بويه ترقى في الخدم حتى غلب في بغداد على عزّ الدولة مختار بن معزّ الدولة وكان فيهِ شجاعة وثبات في الحرب . فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيهِ هفتكين الّا ان اصحابهُ انهزموا عنهُ وصار في طائفة قليلة فسار بمن معهُ من الاتراك وهم نحو الاربعماية الى ان قرب من حوشية احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منهُ مهابة . وما زال ينتقل من محل الى آخر ويجمع اليهِ الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل

فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليهِ جيشًا تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فنزلها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعةٌ وتأخر عدة . اما هفتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتاخّر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فسار الى دمشق ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سورًا وحفر خندقًا عظيمًا وجعل لهُ ابوابًا

فتجمع هفتكين برجالهِ لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع

اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختلَّ امر هفتكين وهمَّ بالفرار ثم انهُ استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعهُ احد وذلك انهُ رأى اموالهُ قد قلَّت وهلك كثير مما كان في عسكرهِ حتى صار اكثر عسكرهِ رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابهُ هفتكين وقد عظم فرحهُ فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجدَّ في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوهُ اليها فسار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح مدة ١٧ شهرًا ففرَّ جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئًا كثيرًا . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهر . اما جوهر فلما طال حصارهُ راسل هفتكين يطلب اليهِ تقرير الصلح على مال يحملهُ اليهِ وان يخرج من تحت سيفهِ فعلق هفتكين سيفهُ على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معهُ من تحتهِ وساروا الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير فساروا معهُ وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فسار الى لقاء العزيز ومعهُ عدة من رجالهِ فالتقى الجيشان فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا هفتكين فاذا هو قد فرَّ على فرس بمفردهِ فقبض عليهِ احد العرب وجاء بهِ الى العزيز وعمامتهُ في عنقهِ فامر بهِ فطيف بهِ على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونهُ ويهزُّون لحيتهُ . ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمهُ ومن معهُ واحسن اليهِ غاية الاحسان وانزلهُ في دارٍ وواصلهُ بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله ونطوفي اليهِ بما غمرني من فضلهِ واحسانهِ . فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمهِ حيدرة « يا عم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع

والعقار وان يكون ذلك كلهُ من عندي » وما زال هفتكين يرتقي في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٣ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمَّهُ (وكان لا يزال حيًّا) لانهُ كان يلاحظ بينهما مناظرة في التقرب من الخليفة فاعتقلهُ مدة ثم اطلقهُ

وفي ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بلبيس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وسنُّهُ ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافتهِ ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع اباتهِ . وكان العزيز كريمًا شجاعًا حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصهب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريبًا من الناس لا يؤثر سفك الدماء محبًّا للصيد ولا سيما صيد السباع وكان اديبًا فاضلاً

ومما يحكي ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيرهُ وكاتب سرّهِ فرفعا الشكوى اليهِ وطلبا عقاب الشاعر فاطلع على القصيدة فرأى فيها هجوًا بهِ ايضًا فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال الاهانة شاركوني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيرًا اثبت اسمهُ على الطرز وقرن اسمهُ باسمهِ واول من لبس منهم الخفَّين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح واول من اقام طعامًا في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان واول من اتخذ الحمير لركوبهِ اياها . ومن آثارهِ انهُ اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمَّهُ

ش ٣٦ صورة نقود العزيز بالله

وترى في الشكل ٣٦ صورة نقود العزيز بالله ضربت في القاهرة سنة ٣٧٦ هـ

خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ ـ ٤١١ هـ او من ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفهُ ابنهُ المنصور ابو علي فبويع ولقب بالحاكم بامر الله ولكنا سنرى انهُ لم يحكم الاَّ خلافًا لامر الله . وكان سنهُ عند مبايعتهِ احد عشرة سنة فكان الوصي عليهِ الوزير ارجوان فاغتنم ارجوان الفرصة وتمتع بالنفوذ الكلي حتى تجاوز الحد

وكانت مدة حكم الحاكم نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها انهُ من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وحصل بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والقي في السجن وهرب اتباعهُ ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبهُ جملاً واركب من ورائهِ قردًا وطوَّفهُ المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على راسهِ الى ان مات اشر موتة

واقام الحاكم في القاهرة مكتبة دعاها دار العلم او دار الحكمة جلس فيها الفقهاء والعلماء وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس اليها فكانوا بين ناسخ ومطالع فكانت تغص بالجماهير من جميع انواع طلبة العلم بين منجمين ونحويين وفقهاء وغيرهم وكانت تلك الدار مزخرفة بالستائر والنقوش والفرش الثمين واستجلب لها الكتب الثمينة من الاقطار وجعل فيها ما يحتاج اليهِ من الحبر والاقلام والورق اشبه بما هو في ايامنا المكتبة الخديوية . وكان الحاكم يدعو اليهِ العلماء والاطباء والفقهاء كل فئة على حدة للمناظرة بين يديهِ فانهُ كان يرى في ذلك لذة عظيمة .

وفي سنة ٣٩١ هـ امر الحاكم الناس بان يقدوا القناديل في سائر

البلد على جميع الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة في الليل يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبهِ امر حاشيتهُ ان لا تمشي بقربهِ وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احدًا مني فكانت تقترب الناس منهُ وتحدق بهِ وتكثر من الدعاء لهُ

وبعد يسير اصيب الحاكم بتغيير في عقلهِ لم يفارقهُ حتى فارقتهُ الحياة . وظهر في اثناء ذلك متمذهب يدعى درار ونبعهُ جماعة عرفوا بالدرارية . ثم توفي الزعيم وخلفهُ احد تلامذتهِ المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحاج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ واختهِ والاب وبناتهِ والام وابنائها وجاءوا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن الشريف

فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة ابيهِ وجدهِ . وكان يصعد كل صباح منفردًا الى الجبل المقطّم حيث ادّعى انهُ يناجي الجلالة كما كان يفعل موسى . وبعد ان كان اشدّ نصير للديانة الاسلامية نادى جهارًا بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة وسعى الى ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فحبطت مساعيهِ فاحتقرتهُ الرعية ولم تعد تعبأ بمدعياتهِ فعاد الى نصرة الاسلام فاضطهد النصارى واليهود والزمهم ان يجعلوا على ثيابهم علامة تميزهم من المسلمين وامرهم بشد الزنار ولبس الغيار وان يحمل اليهودي اذا دخل الحمام جرسًا والمسيحي يحمل على صدرهِ صليبًا من الخشب كبير طولهُ ذراع في مثلهِ ووزنهُ خمسة

ارطال وان يكون مكشوفًا ليراهُ الناس ومنعهم من ركوب الخيل وان يكون ركوبهم البغال او الحمير بسروج الخشب والسبور السود وان لا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا عبدًا ولا امة وتتبَّع آثارهم في ذلك فاسلم منهم عدة وهدم الكنائس واخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع وكتب بذلك الى الاعمال فهدمت ما بها ثم امر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها . ونهى عن اكل الملوخيا والجرجير وذبح الابقار السليمة من العاهة . ومنع الناس ان لا يخرجوا بعد الغروب في الطرقات وان لا يظهر احد بها لبيع او شراء فخلت الطرق من المارة وامر بكسر اواني الخمور فاريقت من سائر الاماكن واشتد خوف الناس وقويت الشناعات وزاد الاضطراب

ومنع من بيع الزبيب والقى منهُ في النيل شيئًا كثيرًا ومنع من حملهِ وقطع كروم الجيزة كلها . ونهى عن لعب الشطرنج وكان يفاصص من يخالف اوامرهُ مفاصة عارية من كل رفق

ثم عاد فاذن للنصارى واليهود ان يعودوا الى تعاليمهم القديمة وان يعلموها جهارًا . ثم اخرب كنيسة القيامة القائمة على الجلجلة في اورشليم ثم عاد فبناها على نفقتهِ الخاصة . اصدر امرًا بسب السلف وامر الناس ان ينقشوا ذلك ويكتبوهُ بالالوان في سائر المواضع ثم اصدر امرًا بضد ذلك واظهر تأسفهُ لما صدر منهُ من مثل هذه الجسارة . واصدر امرًا ما لهُ ان لا يخرج النساء في الطرقات فلم ترَ امرأة في طريق البتة وغلقت حماماتهنَّ وامر الاساكنة ان لا يصنعوا لهنَّ احذية البتة وان بائعي المأكولات يبيعوهنَّ ما يلزمهنَّ منها بطريقة لا يرى احدها الآخر فيها وهي ان يضع البائع المواد المباعة في مغرفة ذات يد طويلة يدخلها الى البيت من كوة فتأخذ الامرأة ما فيها وتضع عوضًا عنهُ الدراهم المتفق عليها . وتمادى الحاكم بالادعاء حتى ادعى الالوهية وفتح سجلًا يكتب فيها اسماء

الذين يسلمون له بذلك فكان عدد من كتبوا اسماءهم نحوًا من ١٧ الفًا من اهل القاهرة ولم يفعلوا ذلك الاَّ فرارًا من العقاب . واحب الحاكم ان يشهر يوم تأليهه فعلق النار بالمدينة فاحترق بعضها ونهبت عساكرهُ البعض الآخر . فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومتهُ فكان كل منهم يكظم غيظهُ وهو يسمع باذنهِ رنَّة السهم في قلبهِ

ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكلٍّ منها من نهاية فعلمت اخت الحاكم وقائد جيشهِ ان الحاكم امر بقتلها فعمدا على اغتيالهِ قبل ان يغتالها فاخذا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١٠١ﻫ قتلاه على الجبل المقطم وبعد موتهِ تولَّت مكانهُ اختهُ موقتًا ثم نادت بابنهِ علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله ورينًا لهُ فاستلم زمام الاحكام فبايعوهُ وبقيت الاحكام في يدهِ ١٧ سنة . ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسهُ بواسطة وزيرهِ يعقوب ابن كلس فاتمَّ الحاكم بناءهُ وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعاهُ جامع باب الفتوح لجاورتهِ لهُ وجعل فيهِ المفروشات الثمينة والاواني الفضية والذهبية وكان هذا الجامع عند بنائهِ خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار فابتنى باب الفتوح حيث هو اليوم فاصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضهُ بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ﻫ في ايام ركن الدين بيبرس الجاشنكير فامر بترميمهِ وجعل فيهِ دروسًا اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الايمة الاربعة ودرسًا لاقراء الحديث وجعل فيهِ مكتبة نفيسة وصهاريج للماء واماكن اخرى . ثم جُدِّد هذا الجامع وبُلِّط جميعهُ في ايام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦٠ﻫ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس ويقال ان الشيخ المشار اليهِ وجد في الجامع حجرًا مكتوبًا عليهِ هذه الابيات لغزًا في الحجر المكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمهِ وكتمتهُ كيما افوز بوصلهِ
مال لهُ جذر تساوى في الهجا طرفاهُ بضرب بعضهُ في مثلهِ
فبصير ذاك المال الّا انهُ في النصف منهُ نصاب احرف كلهِ
واذا نطقت بربعهِ متكلمًا من بعد اولهِ نطقت بكلهِ
لا نقط فيهِ اذا تكامل عدهُ فبصير منقوطًا بجملة شكلهِ

وجامع الحاكم الآن قد تداعت اركانهُ واقيم مؤخرًا في صحنهِ متحف للآثار العربية تحت ادارة نظارة الاوقاف فيهِ كثير من الآثار العربية من ادوات الجوامع وغيرها

وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في ايام الحاكم بامر الله (انظر شكل ٤٧)

ش ٤٧ نقود الحاكم بامر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ ـ ٤٢٧ هـ او من ١٠٢١ ـ ١٠٣٦ م

وفي ايام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١ هـ خلفًا للطائع واقيم مقامهُ في بغداد القائم بامر الله وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان فبويع ابنهُ معد ابي تميم خليفة مكانهُ ولقب بالمستنصر بالله

وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ هـ انظر ش ٤٨

ش ٤٨ نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ ـ ٤٨٧ ﻫ او من ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م

ولم يكن سنّ المستنصر عند مبايعتهِ اكثر من سبع سنوات وكانت امّهُ جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمهُ ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأت ابنها في هذا المنصب اتت بسيدها الاصلي وولّتهُ الاستشارة وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٣٩ ﻫ عقد هدنة مع امبراطور اليونان وكان لا ينفك قبل ذلك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب ثم تبعها جميع سوريا اما بعد الهدنة فساد الامن الى ان اتت سنة ٤٣٤ ﻫ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل ادعى انهُ الخليفة الحاكم عاد منفصًا وانهُ جاء لاستلام منصبهِ الاول وقد ساعد هذا الرجل على دعوتهِ ما كان بينهُ وبين الحاكم من المشابهة فتبعهُ عدد من الاهالي وصارت لهُ عصبة اجتمعت امام سراي المستنصر منادية بصوت واحد (هوذا الحاكم) الّا انها لم تكن قوية الى حد ان تستدعي استعداد الحكومة وبعد يسير انفضح كذب هذا الرجل اذ عرف اصلهُ فاذا هو رجل من شعب يقال لهم سكين وقد جاء للخديعة فهجرَ اتباعهُ وقُبض عليهِ وقتل

ثم سعت ام الخليفة فسادًا في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت الادارة السياسية من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنهُ الى صدقة الفلاحي وهذا قتل سلفهُ سنة ٤٤٠ ﻫ فحكم عليهِ بالقتل فابدل بحسين الجرجاري وفي شوال سنة ٤٤١ ﻫ قبض عليهِ وارسل منفيًا الى سوريا واقيم مقامهُ ابو الفضل بن مسعود والقاضي يازوري وقد حاز هذا الاخير

على رضا المستنصر فقربهُ منهُ بحيث انهُ كان يعطيهِ الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما معًا

وفي اثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاهُ الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ هـ فحاول الاستقلال بها فانفذ اليهِ الخليفة جيشًا تحت قيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسرهُ فاسترجعهُ وارسل عوضًا عنهُ الاميرين طرف ورفيق وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصارهِ على جيشها بعقد الصلح. فانفذ ابنهُ وزوجتهُ ليعقدا صلحًا مع المستنصر وكانت زوجتهُ بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها بالتنازل عن حلب لزوجها

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان اميرًا يدعى معز بن باديس تظاهر بالعصيان في افريقيا لمكاتبات عدوانية حصلت بينهُ وبين الوزير اليازوري فابطل ذكر المستنصر في الخطبة واستعاض عنهُ باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله ولم يكن لدى المستنصر جيشٌ كافٍ برسلهُ لاخماد هذه الثورة لاشتغالهِ باضطرابات داخلية آلت الى سفك الدماء بين قبيلتين من العرب وهما بني زاجح وبني رياح فرأى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لابادة الآخر فاجتهد حتى اصلح بين القبيلتين ثم حركهما للهجوم على المعز بن باديس على ان يجعل لهم في مقابل ذلك قسمًا من الارض ملكًا خاصًا بهم لا يشاركهم فيهِ احد فقبلوا فوعدهم ببرقة وطرابلس الغرب

فاستعدَّ المعز بن باديس لملاقاة العربان فحشد جيشًا مؤلفًا من ٣٠ الف فارس ولم يكن العربان اكثر من ٢ الاف مقاتل فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم مونس ان يجالدوا في

القتال فاجابوه «ابن نطعن هؤلاء القوم المكسوّين بالخود والدروع» فقال «في عيونهم» ومن ذلك الحين لقب مونس هذا بابي العيون وعادت رجالهُ وقد ثارت فيهم الحمية العربية وما زالوا حتى انتصروا على المعزّ في تلك الوقعة ثم بقيت الحرب سجالاً بين الفريقين مدة ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهولاء

اما المستنصر في مصر فرأى الخارجية في شاغل عنهُ فعمد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبنى فيهِ في السنة التالية منبرًا من الخشب الثمين قائمًا على عمد من خشب الصندل واقام فيهِ منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مبلغًا من خزينتهِ الخاصة

وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدة وكلاهما ابنتا الخليفة المعزّ لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك وطالما كان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما فماتوا ولم يروهُ فكان غنيمة باردة للخليفة المستنصر

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبآن مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشورًا عموميًا الى سائر العالم الاسلامي بان ادعاء الخلفاء الفاطميين باتصالهم بعلي لا صحة لهُ . والثاني ان امير اليمن علي ابن محمد الصليحي امر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليهِ هدايا فسرَّ الخليفة المستنصر لهذين الخبرين الذين يوازن احدهما الآخر ولم يبدِ حراكًا لاضطراب داخليتهِ على اثر جوع عظيم نتج عن عدم وفاء النيل تلك السنة فاشتد القحط وكان قد احتكر الحنطة وكان يبتاع منها كل سنة بمبلغ مائة الف دينار ويحفظها في خزائنهِ ليبيعها عند الحاجة بالاثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة

بقيمتها من الخشب او الحديد او ما شاكل . ففي سنة ٤٤٦ هـ لم يفِ النيل ولم يكن في خزائن الحنطة الّا ما يكفي للخليفة واهل حاشيتهِ قوتًا ضروريًا فقلّت الحنطة وغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير واخذ الجوع يتزايد وتبعهُ الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة وهي الحرب . وسببها ان الخليفة المستنصر لما اشتد الجوع في بلادهِ ارسل الى القسطنطينية يستنجد امبراطورها بالحنطة فرضي الامبراطور ان يرسل لهُ اربع مائة الف اردب ولكنهُ مات قبل ارسالها . فلما تولت الامبراطورة ولية العهد اوقفت ارسال الحنطة على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرضَ فلم ترسل الحنطة فاستشاط غضبًا وامر بالجهاد الديني فانتدب ناصر الدولة الى اللاذقية وانطاكية لمحاربتهما فقُبض عليهِ وتفرق جيشهُ فتعاظم لذلك غيظ المستنصر واشتد انتقامهُ فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الدولة اليونانية ومصر

ومما زاد المصريين رعبًا نجمٌ ذو ذنب طويل ظهر في افق مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ٤٤٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يألُ جهدًا في تدبير الامور بكل حكمة ورزانة فخفف المصائب واستجلب القوت الى البلاد رويدًا رويدًا . على ان سلطة المستنصر كانت لا تزال تزداد في الخارج يومًا فيوم حتى ان الامير ارسلان البساسيري قائد جيوش الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنهُ رفض الطاعة لخليفتهِ ورفع في بغداد العلم الفاطمي الابيض ودعا للمستنصر على منابرها سنة ٤٥٠ هـ وفعل مثل ذلك اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الشهيرة واضطر القائم بامر الله ان يوقع على صكٍّ من مقتضاه ان الحق بالخلافة انما هو بجملتهِ للخلفاء الفاطميين

فانتشر نفوذ المستنصر الدبني لغاية خراسان وشرقي بلاد فارس فرأى السلطان طغرلبك الذي كان حاكماً هناك ان انتشار الطائفة العلوية في بلادهِ يضرُّ بهِ فجعل لها حدًّا هناك وسار بجيشهِ الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبهِ واعاد العلم العباسي والخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ

وكان المستنصر قد ارسل الى ارسلان مددًا من العدة والرجال وخمسمائة الف دينار ومؤنًا وزخائر وثيابًا وخيلاً ولكن لما علم باعادة تنصيب الخليفة خشي منهُ ولم يعد يمدُّهُ واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقدمهِ ولولا ذلك لانتشرت سطوة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليهِ الدولة العباسية في عزها . وحصل في اثناء ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان مدينة حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة وكان عرضة لهجوم عرب بني كلاب الذين اقلقوا راحتهُ وطمعوا بذات يدهِ فلم يرَ طريقةً للتخلص منهم الاَّ بالالتجاء الى المستنصر فكتب اليهِ انهُ لم يعد قادرًا على البقاء في حلب على هذه الحال ولذلك يطلب ان يرد هذه المدينة الى الخليفة وان يأخذ بدلاً منها بلدًا لا يكون للعربان يدٌ اليها . فقبل المستنصر بذلك واعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حلب مكين الدولة احد قوادهِ فحصنها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ . ثم سافر معزّ الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت لهُ . وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليمًا وكان الشعب سعيدًا في ايامهِ فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الاَّ ان بني كلاب لم ينفكوا عن سلب راحتهِ تحت قيادة الامير محمود ابن اخ اميرهم الاول وكان قد عنَّف عمهُ لتسليمهِ للخليفة باراضي قبيلتهم واحتسب نفسهُ سعيدًا لاتخاذهِ هذه القيادة بنفسهِ فجاء مدينة حلب وغزاها فقتل حاميتها ودخلها فسلمت لهُ في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٣ هـ

اما مكين فكان محاصرًا في الحصن فارسل الى مصر يطلب النجدة فسار اليهِ ناصر الدولة بجيش جرار وكان قد اطلق من انطاكية فلما علم العرب بقدومهِ اخلوا المدينة فدخلها بسلام ولا معارض ولكن في اليوم التالي الاربعاء آخر يوم من رجب عاد العرب الى حلب وفتحوها واسروا ناصر الدولة ففُتحت هذه المدينة في مدة ثلاثة ايام ثلاث مرات

وبعد ان دخل الامير محمود حلب اخلى سبيل ناصر الدولة وصرح لهُ بالذهاب الى مصر وارسل معهُ هدايا فاخرة . فلما وصل مصر رأى الخليفة ان يكافئهُ على عدم نجاحهِ فولاهُ دمشق . وفي سنة ٤٥٥ هـ ابدل ببدر الجمالي وهو ارمني المولد لكنهُ كان مملوكًا عند جمال الدولة ومنهُ لقبهُ وقد تقلب في عدة مناصب وكان يظهر منهُ ما يدل على انهُ ثابت حازم . ولم تمضِ على سوريا مدة تحت ولايتهِ حتى ساد فيها الامن لان الخليفة سمح للامير محمود ان يتولّى حلب ولقبهُ بامير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة . اما مصر فكانت اقل طمانينة من غيرها لان الوزير يازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهادًا شديدًا ويسومهم اشد العذاب ظلمًا واعتسافًا واسرًا واغتصابًا وكان يثير ضدهم الاحزاب في المدبريات والفى القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضيًا بذلك فامر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشقّ ذلك على الوزير فامر بقتل جميع الكنائس المسيحية في القطر المصري من يعقوبية وملكية فثار مسيحيو القطر فاستدرك الخليفة الامر بالقبض على الوزير المستبد ونفيهِ الى تانس وبعد قليل اعدمهُ الحياة وذلك سنة ٤٥٣ هـ

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث اذ رافقها تغيرات فلكية منها الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيبًا استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام بحيث كان يمكن مشاهدة النجوم عيانًا وقد التجأت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولّى الخليفة مكان يازوري ابا الفرج البابلي

و بعد نحو شهرين ابدل بعبدالله بن يحيى ثم بغيره ثم بغيره حتى تقلب على وزارة مصر نحو من ٣٥ وزيرًا في مدة ١٢ سنة ولم تكن تزيدها هذه التقلبات الاَّ تعقيدًا . كل ذلك والتشكيات ترد الى الخليفة تترى من رجال الدولة والرعايا فاحتار في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فاستدعى الى حضرته رجالاً من جميع الرتب وكلهم مليًّا وجعل يستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر لهُ شيء مما كان يسمعهُ . ثم ازداد نفوذ السوقة على رجال الدولة فكانوا اذا اجمعوا على امر انفذوهُ ولو كان مناقضًا للاوامر العالية فازداد الخليفة اضطرابًا وكانت ترد لهُ التقارير متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يصرفون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من التشكيات . فاشتد النفور من جانب الاهالي في الامارات حتى هاجر بعضهم البيوت فازدادت الفوضى وكثر اللغط الى حد يفوق التصديق

وكان المستنصر بحنال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهرًا للحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج وايابهم منهُ وتدعى الآن بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الخمرة عوضًا من الماء ثم يعودون الى القاهرة . ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعهُ الحجاج في المكان المعهود افرط احد الاتراك بالشرب فسكر فجرد سيفهُ على احد العساكر السود من حرس الخليفة فهجم رفاقهُ على التركي وقتلوهُ فاغتاظ الاتراك وتجمهروا بكثرة واتوا الى المستنصر قائلين « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة وان كان من غير رضى امير المؤمنين فلا نرضى بذلك » فاجاب الخليفة ان ما حصل انما حصل بغير رضاه فانقضَّ الاتراك على السودانيين وكانوا كثارًا لان ام الخليفة كانت سودانية وكانت تحب الاستكثار من مواطنيها فكانت تبتاعهم من كل الجهات حتى ملأت سراياها منهم وكان منهم في اسواق

القاهرة الوف يتألف منهم زمرة قوية . فتخاصم الفريقان طويلاً وبعد هرق دماء كثيرين انتهى الامر بان يعقدوا بينهما صلحاً على ان يكون القاتل تحت اوامر الاتراك ثم عادوا الى القاهرة . الاّ ان الضغينة كانت تتزايد من الجانبين يوماً فيوم . ولم ينفكوا عن الخصام من وقت الى آخر وكان السودانيون تبعاً لاوامر الوزير يتعاطون مصالحهم تحت الحجز في قشلاقهم اما الاتراك فما فتئوا يستجلبون اليهم عصباً من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً اقاموا عليهم ناصر الدولة الذي تقدم معنا انهُ لم ينجح في حملتهِ على سوريا وكان قد عُزِل من منصبهِ في دمشق واضمر للخليفة ووزرائهِ شراً وكان في القاهرة ينتظر سنوح الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلةً لتنفيذ مآربهِ . ثم علم السودانيون انهم غير كفء لمقاومة تلك العصبة فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهلهِ فاشتد ازرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين الف مقاتل فاحتشدوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الاتراك في كوم شريك على الشاطئ الغربي لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا المركز بعدئذٍ في الحملة الفرنساوية حيث غُلِبت المماليك) . فلم يكن الاتراك الاّ عشرة الآف وقد كمنوا لاعدائهم حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطئ فالقوا بعضهم في الماء وذبحوا بعضاً آخر وفرّ الباقون وقد قال بعض المؤرخين ان جملة من قتل وغرق منهم بلغت ثلاثين الفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً لحزب السودانيين مواطنيها فشق عليها امر انكسارهم فغضبت على الاتراك وحقدت عليهم ولا سيما لانهم قتلوا احد اصدقائها المخلصين المدعو ابو سعيد فانتذت الى السودانيين مدداً امكنهم معهُ المدافعة نوعاً فحصلت مواقع دموية في اماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العلى والسفلى . وكانت التشكيات العديدة لا تزال ترد الى الخليفة في امور مختلفة وجوابهُ الوحيد عليها قولهُ « ان ما

حصل انما حصل بدون علمي فما انا مسئول عنهُ » . وبعد طول الخصام وتكرار المواقع ضعف الفريقان فضعفت فيهم حاسة الانتقام فعادوا الى السكينة الّا ان القلوب لا تزال على غلّ تنتظر فرصة للانتقام . وكان عدد الاتراك يزداد كلّ يوم وقد اصبحت بيدهم اهمُّ اعمال الحكومة فاقلقوا الخليفة بالحاحاتهم المتكررة طلبًا لزيادة مرتباتهم . اما هو فكانت قد نفدت ثروتهُ عبثًا فرأى انهُ غير قادر على اشباع مطامعهم وقد اصبح رقًّا لاولئك الارقاء الذين قد ربوا في كنفهِ ولم يألفوا الّا لحماية شخصهِ . وكانت والدة المستنصر تزيد في الطين بلة وتاتيهِ كل يوم بنبإ جديد وتطلب اليهِ امورًا ما انزل الله بها من سلطان وتصر على ان لا يحاول رفض احدها فضاق المستنصر ذرعًا حتى اضطر في سنة ٤٥٧ ﻫ الى الفرار على قدميهِ منفردًا نحو جامع عمرو متظاهرًا بتخلية الاحكام والانزواء في هذا المعبد لعبادة الله تعالى الّا ان ارباب دولتهِ لما علموا بمكانهِ حملوهُ على العدول عن هذا القصد فعاد قانطًا من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ ﻫ قويت شوكة الاتراك وزاد طمعهم في المستنصر واصرُّوا على طلب الزيادة في مرتباتهم وضاقت احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقلّ مال الخليفة واستضعف جانبهُ فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج اليهم الاتراك في مقدمتهم ناصر الدولة فاقتتلا عدة مرار ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امرهُ وقوي جاشهُ وكبرت نفسهُ واستخف بالخليفة واحتقرهُ

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثر عددهم حتى بلغ نحوًا من ١٥ الف مقاتل فاستولوا على الصعيد ثم حاولوا النزول نحو القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فثار الذين في الفسطاط بدسيسة والدة المستنصر فاستشاط ناصر الدولة

غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر اما لهُ واما عليهِ فجمع عصبتهُ وحارب السودانيين وظهر عليهم واثخن في قتلهم واسرهم في الفسطاط ثم سار الى الصعيد فحاربهم وشتتهم ثم عاد الى مصر السفلى فاخرجهم منها وخصوصاً من الاسكندرية واقام فيها من يثق بهِ ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل كل من وصلت اليهِ اخبارهُ ثم دخلت سنة ٤٦٠ هـ والمستنصر عبثاً يحاول اعادة نفوذهِ فاستشار كثيرين من ذوي شوراه فلم يجدهِ احدهم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يعتبرون فيهِ اللياقة لهذا المنصب

وفي اثناء ذلك اغتنم بدر الجمالي فرصة فاستقل بسوريا وكانت الصعيد لا تزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لم تكن تخضع الاَّ لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائهِ على اسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت اوامرهِ واما اوامر المستنصر فكانت بالكاد تجري على حاشيتهِ . وقد استخفل الاتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة الف دينار بعد ما كان ٢٨ الفاً

هذه حالة المستنصر في داخل مصر اما خارجها فلم يكن الحال اصلح لان الصالحي امير اليمن الذي كان قد بايع الفاطميين قتلهُ احد قوَّادهِ ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين وكانت الفتن لا تنفك قائمة على الحدود بين حكام الاقسام ومن يعتدي عليهم من الخوارج فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيقدم حكام الاقسام الى القاهرة منهزمين . وفي خنام الاضطرابات جاهر اليونانيون بالحرب . ومما زاد الطين بلَّة ان المستنصر لسوء تصرفهِ افسد العلاقات بينهُ وبين الامير محمود متولي حلب الذي قد تقدم انهُ حصل على رضائهِ ونال منهُ اشرف الالقاب . فلما طلب اليونانيون الحرب كتب اليهِ المستنصر ان يساعدهُ بكمية من النقود لمحاربة اليونان وصرف الاتراك من بلاده فاجاب محمود بقولهِ

«اما النقود فلا وجود لها عندي لاني قد اقترضت مبلغًا كبيرًا لاعادة حلب الى يدي واصحاب المال يطالبونني . اما اليونان فقد عقدت معهم صلحًا فاقرضوني مالاً لسد احتياجاتي واخذوا ابني رهنًا عليها فلا يمكني معاداتهم . اما الاتراك فهم قوم اقوى مني كثيرًا فاذا حاولت طردهم طردوني» . فاستشاط المستنصر غضبًا لهذا الجواب وحرر الى بدر الجمالي حاكم سوريا يعهد اليهِ الاقتصاص من امير حلب العاصي فلم يصدّق بدر الجمالي ان جاءهُ هذا البلاغ فجند الى حلب واقام عليها حربًا

وفي اثناء ذلك خرج ناصر الدولة من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاقى منهم هذه المرة مقاومة لم يسبق لهُ مقاساة مثلها لانهُ حاربهم مرارًا وكانوا يغلبونهُ في كل مرة فكتب الى الخليفة من الجيزة يشتكي اليهِ امر السودانيين ويلقي كل التبعة على والدة الخليفة بانها المهيجة لهم وانها تمدهم بالعدة والمال سرًّا بمعرفة ابنها . فاجاب الخليفة انهُ لا يعلم شيئًا عن امّهِ وانما يتكلم عن نفسهِ ويقسم انهُ لم يتداخل في هذا الامر لا اولاً ولا آخرًا فتشدد ناصر الدولة ورجالهُ وضمّوا اليهم مددًا وعادوا لمهاجمة اعدائهم مهاجمة اليأس ففازوا بهم واثخنوا فيهم فالذي لم يقتل لم يرَ سبيلاً للنجاة الا في الفرار فتبعثروا وتلاشت من ذلك الحين قوّتهم

ولم يكن نصر ناصر الدولة الاّ حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة ونقمة لضعفهِ فاصبح لا ينظر اليهِ الاّ نظر الاحتقار وقد اسقط اعتبارهُ ونفوذهُ بين رجالهِ الاتراك فلم يعودوا يكترثوا باوامرهِ ولا بشخصهِ واصبح صعلوكهم يقول على الخليفة بكل سوء وتجهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك ولم يكن يأمن على حياتهِ ولا يرتاح في اكلهِ ولا شربهِ ولا نومهِ حتى ولا في صلاتهِ ومثل ذلك ناب الوزراء فتنازلوا عن الوزارة وكانت مطاليب الاتراك مجرد تحكّم لانهم كانوا قد نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم . فضلاً عن ان المال نفد فبعثوا

يطالبونهُ بالمال فاعتذر اليهم بعجزهِ عما طلبوهُ فلم يعذروهُ وقالوا بع ذخائرك فلم يجد بدًّا من اجابتهم واخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي كان يجمعها الفاطميون منذ تأسيس دولتهم وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الاثمان ويأخذون ذلك في واجباتهم واقتسموها بينهم حسب ما تراءى لهم لا فرق في كونهِ حقًّا او تعديًا . وقد شاهد الخليفة ووزير ماليتهِ المزاد قائمًا على امتعتهم بدون قياس وهم لا يبدون حراكًا وقد بالغ المؤرخون في مقدار تلك الامتعة الثمينة الى ما يفوق التصديق . ولما نهبوا السراي على ما تقدم كفّوا عن طلب زيادة المعاش بعد ان علموا انهُ لا يملك شيئًا لكنهم دخلوا مقبرة اجدادهِ واخرجوا منها كل ما وجدوهُ بها من التحف ثم عمدوا الى المكتبة الملوكية وكان فيها نحو عشرين الف مجلد خطّي فاقتسموها بينهم الاَّ قسمًا كبيرًا منها كان يخص ابن المخترق حاكم الاسكندرية فارسل يطلبهُ اليهِ فأُرسل لهُ فلما بلغوا بالكتب ابيار سطا عليهم بعض العربان من قبيلة لواتة فنهبوها واحرقوا قسمًا منها بعد ان اخذوا جلودها ليصطنعوا منها احذيةً لهم وتركوا القسم الباقي اكداسًا على الرمال وساروا ولم تمضِ مدة حتى غطتها الرمال فاصبحت تلًّا عظيمًا يعرف بتل الكتب وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتفِ ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد على ان يحط من نفوذهِ الديني ويقيم خليفة غيرهُ ولم يكن ذلك ممكنًا ما لم يأتِ بحجة تخجل المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق بينما كان خارجًا مرة من بيت الوزير ان لاقاهُ رجل وطعنهُ بخنجر فهمَّ اليهِ ناصر الدولة وخنقهُ حالاً لان جرحهُ لم يكن بليغًا ورأى بعدئذٍ انها فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر هو الذي اغرى هذا الرجل على قتلهِ وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يليق للقبض على ازمَّة الخلافة وكان ناصر الدولة قد اتفق مع ابي طاهر حي دارا احد الاشراف وكان مطرودًا من سوريا بامر بدر الجمالي وقد اتى

القاهرة وجمع اليهِ عصابة يشد بها ازرهُ وكان معروفًا بالتقوى والتدين . فوعدهُ ناصر الدولة ان يولّيهُ الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يتعهد بقتل بدر الجمالي حاكم سوريا قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك ولكن ناصر الدولة خاف من قدومهِ الى مصر . فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من بدو سوريا وبعد ان اخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للنفقات الابتدائية سافر الثلاثة الى سوريا والتف عليهم هناك عدد وافر من الاحزاب اما بدر الجمالي فكان ساهرًا على حكومتهِ فلم يلبث المؤامرون ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قُبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل حي داراً سلخًا

اما ناصر الدولة فلم ينفك ساعيًا الى مرادهِ واصبحت القوة العسكرية قسمين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض الخليفة . فلم يرَ الخليفة بدًّا من اتباع خطة الدفاع بالقوة فكتب الى ناصر الدولة ينذرهُ وينصح اليهِ بما نصهُ « لما تقربت منا وطلبت حمايتنا حميناك واوسعناك هبات وخيرات فكافيتنا بالعقوق ومازادك حلمنا الاَّ فحةً فالقيت عصا الشقاق في جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمارنا فالآن اخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الامان التام ونؤذن لك بان تحمل معك من ثروتك ما شئت الى حيث شئت وان لم تذعن الى امرنا هذا اوقعنا بك عقابًا صارمًا » . فاجابهُ ناصر الدولة ساخرًا ومحتقرًا فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبهِ وبينهم دكوز وهو من الداعداء ناصر الدولة (مع انهُ حموهُ) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطلب اليهم مبايعتهُ ثانيةً فبايعوهُ . فرأى ناصر الدولة عدد رجالهِ قليلاً فبارح القاهرة الى الجيزة فاغتنم حزب الخليفة فرصة غيابهِ فنهبوا بيتهُ وبيوت جميع من معهُ وقتلوا كثيرين من اتباعهِ ثم ركب المستنصر جوادهُ ولبس درعهُ وتبعتهُ الموسيقى العسكرية واحاطت بهِ الاعلام فمر من تحتها جميع من في

القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من ضباط ناصر الدولة وسار الموكب حتى اتى فيما بين القاهرة والفسطاط فنودي بالنصر للخليفة المستنصر . اما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجالهِ ونفاد مالهِ فرَّ الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى عائلتهِ واولادهِ ان يقدموا اليهِ ثم عمل على بثّ مبادبهِ في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل البدوية فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعة القائم بامر الله العباسي

اما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن مثل تلك القلاقل لان الجوع كان قد تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ لكن معظمهُ كان في سنة ٤٦٣ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافيًا لري الاراضي ثم جاءت بعد ذلك القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك انشغال الحكومة عن الزراعة باصلاح سياستها الداخلية فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جدًّا فبلغ ثمن الاردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكلب ٥ دنانير ومع هذه الاثمان لم يكن ثمَّ شيء من الطعام ورافق هذه الغلاء وباء شديد مكث سبع سنين فلم يوجد من يزرع وشمل الخوف من في العسكرية وكانت ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برًّا وبحرًا الاَّ بالخفارة الكثيرة . ولما استفحل امر الجوع جاء المستنصر الى محافظ القاهرة وانذرهُ مقسمًا براسهِ انهُ اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة يقطع عنقهُ وكان الوالي عارفًا بوجود مخابئ كبيرة من الحنطة ولكنهُ لم يكن يعلم مقرَّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام وألبسهم ملابس الاغنياء واوقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انهُ لم يرَ سبيلاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء وقال انهُ لن ينفك عن قتل مثل هولاء حتى يشبع الناس فخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد عقد النية على حصر جميع حبوب مصر السفلى وقطع واردانها الى القاهرة وجهاتها واغتنم هذه الفرصة للقدوم الى القاهرة ومحاصرتها بعد ان أحرق كل ما مرَّ بهِ من القرى والمدن فاضطرَّ الخليفة بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعهِ . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد فحةً وطمعاً فعاد الى مطالبهِ مدعياً ان لهُ على الخليفة مرتبات متاخرة وبالغ في احتقارهِ الى ما تنفر النفس من سماعهِ . فيحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في سراية خربة جالساً على حصير بال لم يكن في تلك السراي من الفرش غيرهُ وقد اصبح لا حاشية عندهُ الاَّ ثلاثة عبيد نصف عراة فطلب الرسول دفع المتأخرات فالتفت اليهِ الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان اجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير فليأخذ اذن هذا الحصير وهولاء العبيد وهذه الاثواب التي لا تكاد تستر عورتي ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبرهُ فتأثر من هذا القول واحمرَّ خجلاً وتنازل عن طلبهِ وخصص للمستنصر مرتباً شهرياً (ويُقال يومياً) مقدارهُ مائة دينار ينفقهُ في حاجات بيتهِ

وفي سنة ٤٦٥ هـ نصالح ناصر الدولة مع حميهِ دكوز الا ان هذا لم يزل في ريبة من مقاصد صهرهِ فعمد الى ايقاع الأذى بهِ فدخل عليهِ يوماً في بيتهِ وطعنهُ بالخنجر فقتلهُ وقتل اخاهُ فخر العرب واخذ راسيهما والقى بهما بين رجلي الخليفة . على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شر ووقع في آخر لان دكوز لم يكن اقل معاكسة لهُ من صهره فالتجأ الى الاستنصار ببدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكرهُ فكتب اليهِ سرًّا ان يأتي بجيشهِ الى مصر وهو يوليهِ عليها فقبل بدر الجمالي مشترطاً التصريح لهُ ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من السوريين

فسافر بدر الجمالي من سوريا في عصبة من رجال قد اختبر شجاعتهم

واما نهم من مدة طويلة وسار في البر حتى اتى عكا فسار منها بحرًا وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل ذلك الفصل لانهُ بارح عكا في اول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر احدٌ بهِ ونزل بين تانس ودمياط فاستقبلهُ سليمان كبير اهل البحيرة وساروا جميعًا نحو القاهرة فنزلوا في قليوب وطلبوا من الخليفة ان يقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليهِ واعتقلهُ في خزانة البنود فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعا في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن عند الامراء علم من استدعائهِ فما منهم الا من اضافهُ فلما انقضت نوبهم في ضيافتهِ استدعاهم الى وليمة اعدها لهم في منزلهِ وبيّت مع اصحابهِ ان القوم اذا أجنّهم الليل فانهم لا بدَّ يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يُقتل هناك ووكل بكل واحد واحدًا من اصحابهِ وانعم عليهِ بجميع ما يتركهُ ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليهِ وظلوا نهارهم عندهُ وباتوا مطمئنّين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابهُ على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديهِ فقويت شوكتهُ وعظم امرهُ وخلع عليهِ المستنصر بالطيلسان المنوّر وقلدهُ وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يدهِ وزيد في القابهِ لقب امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين . وتتبّع المفسدين فلم يبقَ منهم احد حتى قتلهُ وقتل من أمائل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتة واستصفى اموالهم وازاح المفسدين وافنام بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيرًا ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنهِ الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائهِ في ربيع الاول سنة ٤٧٩هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وافنى اكثرهم بالقتل وغنم

من الاموال ما لا يعرف قدرهُ كثرة فصلح بهِ حال الاقليم بعد فساده وكان يسعى جهدهُ في سعادة الاهالي لينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة واباح الارض للزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت احوال الفلاحين واستغنوا في ايامهِ وسهل سبل التجارة فاحضر التجار الى مصر لكثرة عدلهِ بعد انتزاحهم منها في ايام الشدة وامر باقامة البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة بقرب المقياس وكان المقياس في احتياج الى الاصلاح فاصلحهُ اصلاحًا يصح ان يقال فيهِ انهُ بناهُ ثانيةً وبنى دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعدهُ من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وسكنها السلطان الملك الصالح ولدهُ ثم ارصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد ان صرفت خمس سنوات تحت حماية الخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانهُ الغطاء الابيض [1] منقوشًا عليهِ اسم المستنصر بالله ولقبهُ . وبقيت مصر بعد ذلك مدة عشرين سنة ولم يحدث فيها ما يهم التاريخ ذكرهُ واقلُ الامم ذكرًا في التاريخ اسعدها

اما سوريا فان الامير انسز احد الامراء التركمانيين اغتنم فرصة غياب بدر الجمالي امير الجيوش عنها فقدم اليها غازيًا فاستولى على بيت المقدس وطبريَّة وما بعدها حتى دمشق ثم قدم الى مصر في عشرين الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة وكانت الجيوش المصرية منشغلة في اطفاء

[1] اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم يرَ بدر الجمالي بدًا من مصالحة اتسز التركماني على مبلغ مائة وخمسين الف دينار يدفعها لهُ بعد انسحابهِ من مصر فنظرًا لفروغ جيب اتسز قبل بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من خمسين يومًا تمكن امير الجيوش اثناءها من استدعاء جيوشهِ من الصعيد واستجلاب قسمٍ من كبار العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة أتسز وبعض رجال التركمان الذي اتوا معهُ . فلما صارت الجيوش المصرية على مقربة من القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت الى الحج كتابًا ونصهُ «ان الجهاد في سبيل الله اعظم ثوابًا عند الله من زيارة الحرمين فانضموا الى جيوشنا» فاطاعوهُ ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجالهِ جمعهم وهجم على أتسز ذات صباح بغتةً واحكم في رجالهِ السيف فانهزموا بعد ان خسروا عددًا وافرًا منهم فتبعهم العربان والمصريون الى مسافة بعيدة ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيهِ نحوًا من عشرة الآف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان على اثر تلك الموقعة جميع الاراضي التي افتتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة المستنصر . ومات اتسز في دمشق اشقى موتة

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف اوامرهُ او يقف في سبيل مقاصده في اصلاح البلاد . وكان سور القاهرة قد تهدم بعضهُ فشرع في ترميمهِ وتقويتهِ فزاد فيهِ الزيادات التي فيما بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير وفيما بين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن وزاد عند باب النصر ايضًا جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة وبنى باب زويلة وعلّى ابراجهُ ولم يعمل لهُ باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليهِ العساكر في وقت الحصار

ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير وكان احدها في ايام المقريزي لا يزال موجودًا قرب قبو الخرنفش . وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصبة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ ﻫ احصى امير الجيوش الاراضي المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فرأى ان الخراج الذي كان يُستخرج منها قبله لا يزيد عن مليونين وثمانماية دينار اما في ايامه فتجاوز ثلاثة ملايين وماية الف دينار وما ذلك الّا لاعتنائه الخصوصي بالزراعة وتنشيط التجارة وكانتا زاهرتين في ايامه . وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ ﻫ فتوفي في القاهرة وسنّه ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكمًا مطلقًا وكان محترمًا ومهابًا من الجميع وفي يده ازمّة الاحكام يديرها بكل حكمة ودراية وثبات فتكاثرت ثروة البلاد وخصبها الى حد لم تبلغه قبلاً وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء . وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الّا خالقها منها نحو عشرين الف من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الّا انه عمّر البلاد واصلحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها . ولا يزال امير الجيوش معدودًا لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨

من الشهر نفسهِ وسنهُ ٦٧ سنة وخمسة اشهر صرف منها ستين سنة في منصب الخلافة الاَّ انهُ لم يكن اهلاً لادارة الاحكام لضعفهِ وقصر حجتهِ وتصديقهِ كلما يقال لهُ مهما كانت حقيقتهُ فلم يكن لقب الخلافة لهُ الاَّ اسماً لغير مسمًّى . وعلى طول مدة خلافتهِ لم يحدث فيها خلا تلك الضيقات العظيمة ولم تكن مصر وحدها التي قاست العذاب تحت حمايتهِ فان سيسيليا التي كانت اغنى اراضي الفاطميين تربة وكانت قبلاً تحت حكم الاغالبة نظرًا لبعدها من كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة وكان الولاة الذي يرسلون اليها لا ينفكون عن محاولة الاستقلال . ففي ايام الخليفة المعزّ لدين الله كان على هذه الجزيرة والٍ يقال لهُ احمد رأى منهُ الخليفة ميلاً عن الطاعة فنفاهُ الى افريقيا واقام مقامهُ بايس وبعدهُ غيرهُ وساروا كلهم على خطة واحدة فكانت القلاقل وانقسم اهالي الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من يغزوهم من المسيحيين وزد على ذلك ان المسيحيين المقيمين في الجزيرة نظرًا لما كانوا يُعاملون بهِ من الاستبداد كانوا يودون النجاة من نير المسلمين فجعلوا يكاتبون ابناء ملتهم من الدول الاخرى وكان كل هذا في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من المملكة الاسلامية

وكيفية ذلك ان اسلام هذه الجزيرة كانوا على حزبين متضادين يرأس احدهما ابن تمامة فتحاربا فانهزم ابن تمامة برجالهِ والتجاء الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنساويين منذ سنة ٢٧٣ هـ فاستبشر الفرنساويون بقدومهِ فاكرموا وفادتهُ وامدُّوهُ بالعدة والرجال اما الحزب الآخر فكان قد استمد المعزّ بن باديس فامدهم بفرقة من افريقيا فكانت بين الحزبين موقعة احتدمت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال المعزّ بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنساوية تحت قيادة القمس روجر الاول من الجهة الاخرى وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهزام من كان في الجزيرة من المسلمين فدخلها روجر

وقد نفذ سهمهُ على يد ابن تمامة فاخذ يسعى الى تمكين قدمهِ فبايعهُ اهلها سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت سيسيليا في حوزة روجر الى ان مات فخلفهُ ابنهُ ولقب روجر الثاني في سنة ٤٩٥ هـ فتتبع خطوات ابيهِ في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامهِ تقدمًا عظيمًا لم تبلغهُ في سائر ازمانها فنست الازمان التي مضت عليها وهي غارقة في التقلباب والنحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فكانوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية والسياسية والدينية

وترى في الشكل التاسع والثلاثين صور النقود التي ضربت على عهد ملوك سيسيليا الاقدمين في باليرم عاصمة ايطاليا اذ ذاك

ش ٣٩ نقود ملوك سيسيليا القدماء مضروبة في باليرم

وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرين من بني العباس وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيرهُ الباسل امير الجيوش كما تقدم وكانت وفاتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال ٤٠ و٤١ و٤٢ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت

في القاهرة سنة ٤٣٨ هـ والثانية في صور سنة ٤٤٢ هـ والثالثة ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موتهِ عن النظر في

ش ٤٠ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٣٨ هـ

مستقبل المملكة فاوصى بتدبيرها لولدهِ الثاني شاهين شاه (لان الاول كان عاصيًا كما تقدم) فانهُ كان فاضلاً حكيمًا وكان قبل وفاة ابيهِ لا ينفك عن ملاصقتهِ والاكتساب

ش ٤١ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٤٣ هـ

من سيرتهِ فتدرب على يدهِ وكان يساعدهُ في ارائهِ فرأى فيهِ ابوهُ رجلاً يليق بادارة الاحكام واستلام زمام الامور . ولما تولّى شاهين شاه

ش ٤٢ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ هـ

الوزارة لنسب بالافضل وبجميع الالقاب والامتيازات التي كانت لابيهِ امير الجيوش

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ او من ١٠٩٤ ـ ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنهِ الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقّبهُ بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل اولاد المستنصر فجاءا اليهِ فاذا اخوهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا لذلك وشق عليهم فامرهم الافضل بتقبيل الارض وقال لهم « قبلوا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعوه فهو الذي نصّ عليهِ الامام المستنصر قبل وفاتهِ بالخلافة من بعدهِ » فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم ان اباهُ قد اوصى لهُ بالخلافة وقال نزار لو قُطعت ما بايعت من هو اصغر مني

وخطُّ والدي عندي باني وليُّ عهدهِ وانا احضرهُ وخرج مسرعًا ليحضر الخط فمضى لا يدري بهِ احد وتوجه الى الاسكندرية فلما ابطأ مجيئهُ بعث الافضل اليهِ ليحضر بالخط فلم يعلم لهُ خبرًا فانزعج لذلك انزعاجًا عظيمًا . وكان الافضل حاقدًا على نزار لاسباب منها انهُ دخل يومًا من باب وهو راكب فصاح بهِ نزار انزل يا ارمني الجنس فحقدها عليهِ وصار كل منهما يكره الآخر فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانهُ كان رجلاً كبيرًا ولهُ حاشية واعوان فعمد على مبايعة اخيهِ احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوَّفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوهُ على الاعراض عنهُ وكان من جملتهم محمود بن مصال فبعث الى نزار واعلمهُ بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيهِ احمد وادارتهِ لم عنهُ ثم كان استدعاء الافضل لهُ ولاخيهِ لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيهِ لهُ بالخلافة سار من القصر متنكرًا ومعهُ ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد مماليك امير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليهِ ليلاً واعلماهُ بما كان من الافضل وترامیا عليهِ ووعدهُ نزار بان يجعلهُ وزيرًا مكان الافضل فقبلهما اتم قبول وبايع نزارًا واحضر اهل الثغر لمبايعتهِ فبايعوهُ ونعتهُ بالمصطفى لدين الله فبلغ ذلك الافضل فاخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكرهِ وسار الى الاسكندرية فبرز اليهِ نزار وافتكين وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معهُ منهزمًا الى القاهرة فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب واشتد نزار وعظم واستولى على بلاد الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانيةً لمحاربتهِ ودسَّ الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم وسار قاصدًا الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصارًا شديدًا والح في مقاتلتها . فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال مالهُ وفرَّ في

البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعهُ فبعث نزار وافتكين اليهِ يطلبان الامان فامّنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة فاما نزار فانهُ قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بُنيا عليهِ فمات بينهما واما افتكين فقتلهُ الافضل بعد قدومهِ

فعاد النظام الى البلاد فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخلت في حوزة دولة جديدة أُقيمت على أثر الدولة العباسية نعني بها دولة الأُرتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان السلجوقيين خرجوا من بلاد التتر قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التفوا في غربيها بقبائل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قسبين وساقوهم الى حدود سوريا . فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نوال رزقهم فاستخدموا قوتّي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة السلجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم امامها فتقهقروا الى غربي سوريا وانتشروا فيها وفي فلسطين . فامير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتُق ابن اكسك استولى على اورشليم فاسّس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي أُرتُق تاركًا ولدين الغازي وسقمان فحكما معًا في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والسلجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار امير الجيوش الافضل لتخليص بيت المقدس

من الارتقيين فطلب التسليم فابوا فضربها بالمنجنيق فهدم بعضها فسلمت وفرّ الارتقيون الى شرقي سوريا فسار سقمان الى الرها واقام لنفسهِ حكومة فيها وضمّ اليهِ ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها. تلك ايام التعصبات الدينية العمياء التي يخجل التاريخ من ذكرها فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت من الراحة فان ذلك التعصب قد ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الاّ اهلاك العباد المقصود انقاذهم فمن نجا من السيف لم ينجُ من الاستعباد واننا لنمسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع الذي يسوّد القلوب ويشوّه وجه الانسانية فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات. فقد تقدم انها كانت منقسمة فيما بينها ثم قام اهل اوروبا جميعاً وجاهروا بمحاربتها جهاداً في سبيل الدين على ما يزعمون وكانوا يحتشدون في القسطنطينية بامر الامبراطور الكسيمون الاول وكان السلجوقيون يتقدمون في اسيا يفتتحون البلد بعد البلد الآخر حتى بلغوا الاناضول فاصبحوا يتهددون المسلمين في مصر كما يتهددون النصارى في القسطنطينية وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية الاّ ذلك البوغاز وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعهُ المسيحيون واضحاً في كنيسة القديسة صوفيا على الجانب الآخر. ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وكان عددها عظيماً فقابلها السلطان قليج ارسلان السلجوقي ابن سليمان مؤسس الدولة السلجوقية فحاربوه وارجعوهُ وجيشهُ الى الوراء واستولوا على مدينة نيسي ثم انطاكية وعند ذلك جاء المسلمين مددٌ مؤلف من كتبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص ومع

كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هولاء من اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يعد امامهم ما يوقفهم عن التقدم فاستولوا على المعرة بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشرت جيوش النصارى في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالامواج المتلاطمة فلاقتها جيوش مصر هناك وكانت بيت المقدس تحت حكم الخليفة المستعلي الفاطمي منذ استخلصها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يومًا ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (١٤ يوليو (تموز) سنة ١٠٩٩ م) في مذبحة استمرت اسبوعًا فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى وقيل انهُ قتل في تلك المعركة نحو من سبعين الف نفس واغتنم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر

فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت تخشى ان يصيبها مثل ذلك فجنّد امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جيشًا جرارًا تحت قيادة سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فحاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما رأى الصليبيون انفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقًا نحو ما بين النهرين فالتقت فرقة منهم بكمشتين امير ملاطية وسيواس فكسرها الآان ذلك لم يوقفهم عن مرادهم فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى السروج ومن الجهة الاخرى حتى استولوا على ارصوف وقيصرية

ومرّت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ هـ في مثل هذه المناوشات وفي يوم الثلاثا ١٧ صفر سنة ٤٩٥ هـ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين ولهُ ولدٌ اسمهُ المنصور لم يبلغ السادسة من عمرهِ فشاهين شاه الذي كان وصيًا على المستعلي كان وصيًا على ابنهِ ايضًا وكان قد عُهد اليهِ ان يلقبهُ عند مبايعتهِ بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الآمر بن المستعلي

من سنة ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ ـ ١١٣٠ م

وكان الصليبيون اثناء ذلك لا يزالون في فتوحاتهم في سوريا مغتنمين فرصة انقسام القوات الاسلامية . وقد كان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يدًا واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جاءوا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبيين لم يضيعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرطوس وحمص وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها برًّا وبحرًا . وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويُلقَّب بالجيوشي لانهُ كان من اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملَّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها وفرَّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر

ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضًا الامير خلف بن ملاعب من قبيلة بني كلاب وكان واليًا على حمص واخرجهُ منها تتاش حاكم دمشق زورًا سنة ٤٨٥ هـ فاتى الى مصر عارضًا نفسهُ لخدامة الخلفاء الفاطميين بعد ان طاف جميع انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع احوالها شأن المحب لمعرفة حقائق الاشياء فوصل مصر والخلينة باحتياج الى خدامتهِ وذلك ان ابامه غربي سوريا كان قد تملكها السلطان رضوان فخر الدولة السلجوقي واقام عليها واليًا من قبلهِ فحرر هذا الوالي لامير الجيوش سرًّا انهُ مستعد لتسليم المدينة لايّ من يكون مرسلاً من خلينة مصر . فتقدم الامير خلف لهذه المهمة فقبل فسار الى ابامه وتملكها للحال الاَّ انهُ لم ترسخ قدمهُ فيها حتى

نبذ الطاعة واوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع لما كانت عليهِ سوريا اذ ذاك من القلاقل الجسيمة فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء على تلك الحال فحرروا الى والي حلب يطلبون حمايته فحماهم فسلموا لهُ المدينة وقتلوا خلفًا وبعض افراد عائلتهِ . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ واول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي اثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصرًا لطرابلس الشام واميرها توجه الى بغداد يستمد الخليفة المقتدر والسلطان ملك شاه السجلوقي فلم يمدَّاهُ بشيء فاحتمى اهلها بخليفة مصر فحماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد اوليائهِ وتملكها باسم الخليفة الآمر وارسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ (٣ يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا قسمًا من اهلها واستعبدوا القسم الاخر فسببوا بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببهُ الحرب . في مدة سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس عاصمة لملكهم . اما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث ملتزمة جانب الحيادة الاَّ المدافعة عند مسّ الحاجة وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين كل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . واقام الافضل ايضًا مرصدًا عظيمًا كلَّفهُ مشقة ليست يسيرة وجعل مركز ذلك المرصد على ارتفاع في جوار المقطَّم كان يعرف قديمًا بالجرف ثم لما اقيم فيهِ المرصد صار يعرف بالرصد

على ان هذه الهمة والنشاط والغيرة التي كان يبذلها الافضل امير

الجيوش في سبيل صالح البلاد ووقايتها لم تكن تحرّك من الخليفة الآمر باحكام الله ساكنًا فقد كان منغمسًا بالملاهي لا يسمع بغانية جميلة الا استدعاها وكان لهُ شغف خصوصي بالجواري البدويات . ومن اقاصيصهِ انهُ بلغهُ ان في الصعيد جارية من اكمل العرب واظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انهُ تزيّا بزيّ بداة الاعراب وصار يجول في الاحياء الى ان انتهى الى حيّها وبات هناك في ضائقة وتحيل حتى عاينها فما ملك صبرهُ ورجع الى مقر ملكهِ وسرير خلافتهِ فارسل الى اهلها يخطبها فاجابوهُ الى ذلك وزوجوهُ بها فلما صارت الى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت عليهِ واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج وكان على شاطئ النيل بشكل غريب . الاّ ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمٍّ لها ربيت معهُ يعرف بابن مياح فكتبت اليهِ وهي في قصر الخليفة الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكي ... ما لك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيّي مرءًا مطلقًا ... نائلاً ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر مؤصد ... لا ارى الاّ حبيسًا ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

(فاجابها)

بنت عمي والتي غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتنكا
بحتِ بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفع منها المشتكى
ما لك الامر اليهِ يشتكى ... هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبديًا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر فقال لولا انهُ اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيهِ وزوجتها بهِ

وفي اواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهلها واحرق جميع جوامعها وهمَّ الى مصر فداهمهُ مرض حملهُ على العود حالاً فعاد قاصداً بيت المقدس فمات قبل ان ادرك العريش فنزعوا احشاءهُ ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط ارض رملية واقاموا على قبرهِ حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا هذه باسم رمال بردويل اما جثتهُ فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجت مصر من فتوح عظيم وبقي الصليبيون سبع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لانشغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صلحاً موذنين للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حملهُ من المتاع . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر فخاف خليفتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليهِ الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وبالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في انحاء المشرق وضع يدهُ على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى بهِ الامر فاقام حكومتهُ بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً منيعة ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتكهِ بحياتهم فانهُ كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجالهِ الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ سعى امير الباطنيين الى قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليهِ بعض دهاتهِ فقتلوهُ في ٣ ذي القعدة من السنة المذكورة وهو متوجه الى

زيارة معشوقتهِ البدوية وكان سنهُ ٣٥ سنة وحكمهُ ٢٠ سنة تقريبًا

وترى في شكل ٤٣ صورة نقود الآمر باحكام الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ ﻫ (انظر شكل ٤٣)

ش ٤٣ نقود الآمر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

من سنة ٥٢٤ ـ ٥٤٤ ﻫ او من سنة ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمهِ عبد المجيد ابن القاسم بن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلُقّب عبد المجيد بنائب الملك بينما يرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حسّادهُ فقتلوهُ . فاستوزر وزيرًا آخر اختبر فيهِ الدراية والحكمة واسمهُ بهرام لكنهُ لم يلبث يسيرًا حتى قتل في اواخر سنة ٥٤٣ ﻫ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يقوم باعباء الوزارة بنفسهِ

وفي خلال ذلك لم يكن في مملكة مصر اضطراب الاّ فيما يتعلق بمشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تلبث ان ارتاحت نوعًا من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجرًا بين مطرقتين فعدوُّهم في الشرق الصليبيون واما في الغرب فملك سيسيليا روجر الثاني . فقد تقدم انهُ تولّى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون

قد علموا بذهابها من ايديهم فلم يأسفوا عليها لبعدها عن مركز حكومتهم . الّا ان روجر المذكور لم يقنع بما نالهُ فحملتهُ مطامعهُ ان يجرد عمارة مؤلفة من مائتين وخمسين شراعًا و يتقدم نحو افريقيا فتقدم في سنة ٥٣٩ ﻫ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ ﻫ وضع يدهُ على طرابلس الغرب وفي سنة ٥٤٣ ﻫ على المهدية مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهلها لجوع منقع استولى عليهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصدًا الاسكندرية . فوقعت مصر في حيص بيص وقد اصبح هذا العدو في عينيها اشدّ وطأة من الصليبيين لانشغالهم عن مصر اذ ذاك بما كان يتهددهم بهِ زنكي وابنهُ محمود الملقب بالملك العادل نور الدين . وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ ﻫ بعلّة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل لهُ موسى النصراني طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبع معادن عليهِ الكواكب السبع وكان من خاصتهِ ان الانسان اذا ضربهُ خرج الريح من مخرجهِ ولهذه الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سنُّ الحافظ عند موتهِ ثمانين سنة ومدة حكمهِ ١٩ سنة و٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائهِ مكتفيًا بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديهِ من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الامراء على اماراتهم شأن الدول عند قريب انحلال ملكها الّا ان تغيير الوزراء جعل فيهِ بعض الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٤٤ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ ﻫ وهي السنة التي توفي فيها

ش ٤٤ نقود الحافظ لدين الله

خلافة الظافر بن الحافظ

من سنة ٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ او من ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م

واستخلف الحافظ ابنهُ اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بامر الله لكنهُ لم يكن مستحقًّا لذلك الاسم وكان سنُّهُ ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيهِ سنًّا وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في سرايتهِ الآيلة الى خراب مملكتهِ بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهدد جنود سيسيليا من جهة الغرب والصليبيين من الشرق فكان كل منهما يقترب رويدًا رويدًا من قاعدة المملكة الفاطمية وكان الظافر مشعرًا بقرب سقوط خلافتهِ وبسقوطها تسقط الدولة الفاطمية ولا يبدي حراكًا

وفي السنة الرابعة من حكمهِ وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من املاك الفاطميين ونظرًا لموقعها على الحدود القصوى لمملكتهم ولكثرة تعرضها لهجمات الصليبيين كان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونها من وقت الى آخر بهمات الدفاع وفي بداية خلافة الظافر توفي وزيرهُ ووقع الخلاف بين ذوي شوراه فانشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتنم الصليبيون هذه الفرصة الثمينة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مصحوبًا بخبر آخر اشدّ وطأة منهُ وهو ان العمارة السيسيلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تأنس في منتصف بحيرة المنزلة ونهبت الفرما الّا انها لم تتقدم اكثر من ذلك فاخذت ما امكنها حملهُ من الغنائم وعادت الى حيث اتت

ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمهُ معًا وسبب

موته انهُ كان غارقًا في الشهوات الوحشية مشتغلاً عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيرهِ العباس فاوعز الى ابنهِ نصر ان يقتلهُ وينجي البلاد من شرهِ ويتخلص مما كان يقول الناس في عرضهما من معاشرتهِ اياهُ فاستدعاهُ الى دار ابيهِ سرًّا بحيث لم يعلم بهِ احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتلهُ بها واخفى قتلهُ في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فاتى نصر الى ابيهِ العباس واخبرهُ بذلك من ليلتهِ . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادتهِ في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيتهِ وطلب الاجتماع بهِ ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتلهِ بعد فانهُ خرج من عندهم في خفية وما علم احد بخروجهِ فدخل الخدم الى موضعهِ ليستاذنوا للعباس فلم يجدوهُ فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل انهُ لم يبت هنا فتطلبوهُ في جميع مظانّهِ في القصر فلم يقعوا لهُ على خبر فتحققوا قتلهُ فاخرج عباس اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما انتما قتلتما امامنا وما نعرف حالهُ الاَّ منكما فاصرًّا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسهِ وابنهِ التهمة .

وترى في شكل ٤٥ صورة نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٤٥ نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من سنة ٥٤٩ ـ ٥٥٦ هـ او من ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م

فاستدعى العباس الفائز بن الظافر ونقد بر عمرهِ خمس سنوات وقيل سنتان فحملهُ على كتفهِ ووقف في صحن الدار وامر ان تدخل الامراء

فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عمّاهُ اباهُ وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا باجمعهم سمعنا واطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموهُ الفائز وسيروهُ الى امهِ وقد اختلّ من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبقَ على يدهِ يدٌ واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنهِ فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بارض النجف من العراق في جماعة من النقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ لهُ الامام انهُ سيتولّى مصر بناء على رؤيا رآها في منامهِ فسار من ساعتهِ الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليهِ كتبوا الى طلائع وسألوهُ الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليهِ أطلع من حولهُ من الاجناد عليهِ وتحدث معهم في المعنى فاجابوا الى الخروج معهُ واستمال جمعاً من العرب وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحدهُ فخرج عباس في ساعتهِ من القاهرة وخرج معهُ ولدهُ نصر ومعهما شيءٌ من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة وذلك في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . اما الصالح بن رزيك فانهُ دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكرهُ . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتلهِ وسألهُ عن الموضع

الذي دفن فيهِ فعرَّفهُ بهِ وقلع البلاطة التي كانت عليهِ واخرج الظافر ومن معهُ من المقتولين فحُملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبَّر احوالهُ . واما عباس فان اخت الظافر كانت افرنج عسقلان بشانهِ وشرطت لهم مالاً جزيلاً اذا امسكوهُ فخرجوا عليهِ وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا مالهُ وولدهُ وانهزم بعض اصحابهِ الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسيَّرت الافرنج نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطهُ لهم من المال فاخذوا نصراً وضربوهُ بالسياط ومثلوا بهِ وصلبوهُ بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوهُ يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ واحرقوهُ

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الاَّ مدة ست سنوات وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي وكانت مصر قد انحطت في ايامهِ الى مهاوي الضعف حتى انهُ كان يدفع مبلغاً وافراً من النقود ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ ـ ٥٦٧ هـ اومن ١١٦٠ ـ ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفهُ فقدم السراي فقدموا لهُ شيخاً من العائلة الفاطمية لم يكن ثمَّ احقّ منهُ للخلافة فهمَّ الى مبايعتهِ فجاء احد اصدقائهِ وهمس في اذنهِ قائلاً « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانهُ لم يسلم نفسهُ لخليفة سنُّهُ اكثر من خمس سنوات » فرنَّت هذه العبارة في اذن الوزير فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى

عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغًا رشدهُ فبايعهُ ولقبهُ بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم ازوجهُ ابنتهُ ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر لهُ ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعبادًا من سلفهِ ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب سلطان ففتحت اعين الاعداء عليهِ وفي جملتهم عمَّة الخليفة فعزمت على قتلهِ فارسلت اولاد الراعي فكمنوا لهُ في دهاليز القصر وضربوهُ حتى سقط على الارض على وجههِ وحمل جريحًا لا يعي الى دارهِ فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعًا كريمًا جوادًا فاضلاً محبًّا لاهل الادب جيد الشعر وفيهِ عقلٌ وسياسةٌ وتدبيرٌ وكان مهابًا في شكلهِ عظيمًا في سطوتهِ وغناه وكان محافظًا على الصلوات وفرائضها ونوافلها شديد المغالات في التشيع صنف كتابًا سماه الاعتماد في الرد على اهل العناد جمع لهُ الفقهاء وناظرهم عليهِ وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك ولهُ شعر كثير يشتمل على مجلدين في كل فن فمنهُ في اعتقادهِ

يا امة سلكت ضلالاً بينًا ... حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى آن المعاصي لم يكن ... الاَّ بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم ... منع الشريعة ان تقام حدودها
حاشا وكلاَّ ان يكون الهنا ... ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

ولم يمت الصالح الاَّ بعد ان انتقم من عمة الخليفة باذن من الخليفة نفسهِ لانهُ لم يكن يعتبرها ثم استوزر ابنهُ محيي الدين رزيك ولقبهُ بالملك العادل وكنيتهُ ابو شجاع وهذا استخلف شاور

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انهُ علم بوجود مشهد الحسين (رض) في عسقلان وكان امير الجيوش اثناء حروبهِ في سوريا قد

ظفر بمدفن رأس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى عليهِ مشهدًا فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليهِ من هجمة الافرنج فعزم على نقلهِ الى مصر فابتنى لهُ جامعًا مخصوصًا خارج باب زويلة دعاهُ جامع الصالح نسبةً اليهِ ولا يزال هناك بعض انقاضهِ على نية ان يجعل فيهِ المشهد فلما فرغ من بنائهِ لم يمكنهُ الخليفة من ذلك بدعوى انهُ لا يليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة وابى الّا ان يجعلهُ في بعض اجزاء قصرهِ المدعو قصر الزمرد فاقام لهُ مشهدًا هناك . ثم في سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فاعيد بناؤهُ مرارًا واخيرًا اقيم في جوارهِ جامع حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الماضي للميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤهُ برمتهِ في ايام الخديوي السابق ولم يبق من البناء القديم الّا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على ما نشاهدهُ الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة في القاهرة

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد انشأ في وزارتهِ امراء يقال لهم البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبهِ اياها فجمع رفقتهُ وتخوف شاور وجمع اليهِ رجالهُ فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور فلما كان بعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجهُ من القاهرة وقتل ولدهُ الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولخشي فانهُ كان رفيقًا لهُ في تلك النكبة واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرتهُ فانهُ كان فارس عصره وكان كاتبًا جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريمًا لا يضع

كرمهُ الاَّ في سمعة ترفعهُ او مواراة تنفعهُ الا انهُ كان اذنا مستحيلاً على اصحابهِ فاذا ظن في احد شرًّا جعل الشك يقينًا وعجل بالعقوبة . فبلغهُ بعد حين ان ارفاقهُ البرقية يسعون على خلعهِ واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادتهِ من التعجيل ارسل اليهم وكانوا نحوًا من سبعين اميرًا سوى اتباعهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صبرًا فذهبت لذلك رجال الدولة واختلت احوالها وضعفت بذهاب اكابرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

وفي اثناء ذلك قصد الافرنج بلاد مصر فخرج اليهم همام اخو ضرغام وحاربهم فغلبوهُ ونزلوا على حصن بلبيس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عودًا رديئًا فما هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقرَّرة في كل سنة وهو ٣٣ الف دينار ثم جاء الخبر بقدوم شاور ومعهُ اسد الدين شيركويه بن شادي وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من اشهر قبائل الاكراد من مدينة دوين من اعمال اذربيجان وكان شيركويه هذا واخوهُ نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين في سوريا منذ مدة طويلة واظهرا من اللياقة ما جعل لهُ فيهما الثقة التامة فلما سار شاور الى دمشق استنجد باتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يدهِ فنور الدين لم يرد اضاعة فرصة كهذه تجعل لهُ يدًا بامور مصر فارسل معهُ اسد الدين شيركويه في كثير من الغز وسار معهما يوسف ابن اخيهِ نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن لابيهِ رضى بسفرهِ في هذه الاخطار على صغر سنهِ ومنعهُ الاتابك ايضًا الاَّ انهُ ابى الاَّ الرحيل طوعًا لهوى النفس في حب العلى والمجد ولعل التقادير ساقتهُ الى مصر ليكون سلطانًا عليها تمتد سلطتهُ الى اقصى الممالك الاسلامية وهذا المولد قد صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكرهِ السلطان صلاح الدين الايوبي اما مولدهُ فقلعة اكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار

الاتابك نور الدين بنفسهِ مشيعًا جيوشهُ حتى حدود مصر وقصدهُ من ذلك ايهام الصليبيين الذين في طريقهِ انهُ آتٍ لمحاربتهم فانحصروا في مدنهم ومرَّ جيشهُ بامان ولا معارض حتى مصر

فلما علم ضرغام بقدوم شاور ومن معهُ ومطاليب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر اول يوم من جمادى الاخرة فسار الى بلبيس وكانت لهُ وقعة مع شاور انهزم فيها . وصار الى شاور واصحابهِ جميع ما كان مع عساكر همام واسروا عدة ونزل شاور بمن معهُ الى التاج (قليوب) ظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الاخرة فجمع ضرغام الناس وضم اليهِ الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج مدة ايام ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليهِ عسكر ضرغام وحاربهُ فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر القديمة واقام بها اياماً . فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فكرههُ الناس واستعجزوهُ ومالوا مع شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم لهُ . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في اللولوة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينهُ وبين اصحاب ضرغام وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوهُ انهم عون لهُ فانحل امر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملتهِ وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ما شاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليهِ احد وانفك عنهُ الناس فسار الى باب الذهب من ابواب

القصر ومعهُ ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليهِ من الطاق وتضرع اليهِ واقسم عليهِ بآبائهِ فلم يجبهُ احد واستمر واقفًا الى العصر والناس تخلُّ عنهُ حتى بقي في نحو ٣٠ فارسًا فوردت عليهِ رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وانجُ بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور فمر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليهِ ولعنوهُ وتخطفوا من معهُ وادركهُ القوم فاردوهُ عن فرسهِ قريبًا من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا رأسهُ في غاية جمادى الاخرة وفرَّ منهم اخوهُ الى جهة المطرية فادركهُ الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوهُ الآخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارتهُ ٩ اشهر وكان من أجلّ اعيان الامراء واشجع فرسانهم واجودهم لعبًا بالكرة واشدهم رميًا بالسهام وكان لهُ مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة ولما جيء برأسهِ الى شاور رفع على قناه وطيف بهِ فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفًا بحرُّ بجدّهِ جيد الرقابِ
كانك رائد البلوى والاَّ بشير بالمنية والمصابِ

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع للاتابك نور الدين ثلث محصولاتها مقابلة لما بذلهُ في اعادتهِ اليها . الاَّ ان الاتابك لم يكن هذا حد مطامعهِ في مصر فقد كان لهُ بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاور لانهُ قصدهُ مستصرخًا والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانهُ كان يبلغهُ انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك . ولما اقيم شاور على مصر اقيم بينهُ وبين نور الدين اتفاق سرّي بشان تسليم مصر . الا ان الشيطان وسوس لشاور انهُ قادر على دفع جيوش نور الدين فينال

السلطة لنفسهِ فكتب الى شيركويه ان يسير الى سوريا وكان معسكرًا بجوار القاهرة فاجابهُ الى طلبهِ بعد ان اطلق فرقة من جيوشهِ استولت على بلبيس وباقي الحوف الشرقي فلما علم بذلك شاور عمد الى معاهدة الصليبيين على اخراج جنود شيركويه واوعز اليهم ان اخراج هذه الجيوش الاسلامية من مصر يفيدهم اكثر مما يفيدهُ ويلغهم اثناء ذلك ان نور الدين قادم من الشام في جيش جرار الى مصر امدادًا لشيركويه فخاف الصليبيون ولم يعاهدوا شاور مكتفين بالمحافظة على مراكزهم . الاَّ انهم طلبوا الى شيركويه ان يخلي بلبيس ويسترجع ما سوريهِ ويتوجه الى سوريا ولم يكن عالمًا بقدوم نور الدين وجيشهِ فقبل فاخلى بلبيس وسار الى سوريا فالتقى بنور الدين في حربهِ مع الصليبيين فاتحد معهُ وحاربا وانتصرا الاَّ ان انتصارهما لم يقلل شيئًا من رغبة شيركويه في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يحثُّ نور الدين على ذلك . وقال بعض المؤرخين ان شيركويه استنجد خليفة بغداد ايضًا واغراهُ على مغالبة الخلفاء الفاطميين فوافقهُ وحشد الجيوش لهذه الغاية . فعلم شاور وزير مصر وتاكد لديهِ انهُ اذا كان لا يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد الاتابكة على ان الصليبيين من الجهة الاخرى لا ينفكون ليلهم ونهارهم ساعين الى افتتاحها وقد قطعوا السبيل على جيوش نور الدين في سيرها الى مصر فساروا بجيش عظيم حتى لم يبقَ صليبي الاَّ سار في ذلك الجيش لكي يقطعوا السبيل على نور الدين . اما نور الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هـ وكان الصليبيون قد ساروا تحت قيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا على غزة فالعريش ثم الى بلبيس . اما جيش شيركويه فكان قد تجاوز بلبيس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهددها

فخاف شاور من قدوم ذينك الجيشين وكل منهما يحاول الفوز

لنفسهِ فتفضَّل ان يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال شيركويه الذي كان على بعد ١٢ ميلاً من تلك العاصمة . فرأى شيركويه ان جيشهُ بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليهِ الهجوم على هذه المدينة فقطع النيل الى البر الغربي وعسكر هناك وبنى لهُ استحكامات تقيهِ من العدو . فدخل الصليبيون القاهرة لكنهم لم يوافقوا شاور على ما اراد الاَّ بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعهُ لاموري قائد تلك الحملة فعيَّن معتمدين من قبلهِ لعقد المعاهدة بذلك فانهوها على ما ارادهُ الصليبيون فقبضوا منهُ مبلغ مائتي الف دينار نقدًا على وعد ان يقبضوا مثلهُ بعد مدة يسيرة

وفي اثناء ذلك تقدم شيركويه ليلاً وعسكر في الجيزة فاراد الملك اموري مهاجمتهُ على جسر يصنعهُ من القوارب فجعل شيركويه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامهِ فبقي الجيشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يومًا تمكن اثناءها شيركويه من تملك الضفة الغربية للنيل اما الصليبيون فقطعوا الى البر الغربي عند راس الذلتا فارتحل شيركويه بجيشهِ نحو مصر العليا فتبعتهُ الجيوش الصليبية بعد ان جعلوا حاميات في جميع حصون القاهرة حتى سراي الخليفة . اما شيركويه فوقف في جيشهِ عند مضيق يدعى البابين ينتظر قدوم الصليبيين والمصريين بقدم ثابتة وكانوا قد تجمهروا اكثارًا فلما رأتهم الجيوش السورية ارتاعت لكثرتهم لكنها حاربتهم يومًا كاملاً حتى فازت عليهم فعاد الصليبيون الى القاهرة فاقام شيركويه حامية في مصر العليا وسار لاخضاع مصر السفلى وفتح الاسكندرية

وحصلت بينهُ وبين الصليبيين والمصريين مواقع كثيرة لم يكن الظفر فيها مقطوعًا لاحد الجانبين واستولى شيركويه على الاسكندرية واقام عليها ابن اخيهِ يوسف صلاح الدين ثم رأى الصليبيون في سوريا ان رفقاءهم في مصر على جانب من القوة فجاؤا اليهم يطلبون اقتسام الغنيمة

ومساعدتهم عند الحاجة . فلما رأى شيركويه تكاثر العدو وانهُ لم يعد في طاقتهِ مقاومتهُ بما كان معهُ من الرجال بعد ان قطعت عنهُ سبل الاستمداد من سوريا وافقهم على المصالحة ومفادها ان ينسحب الصليبيون والسوريون معًا بسلام وترجع الاسكندرية الى شاور . فقبل الفريقان بهذه المعاهدة وعاد شيركويه وابن اخيهِ يوسف الى دمشق اما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة واصروا على ان يدفع لهم شاور مبلغ مائة الف دينار ومتى انسحبوا يتركون في القاهرة حامية من رجالهم فقبل شاور بذلك فخرج الصليبيون وهو لا يصدق انهم فعلوا . اما حامية الصليبيين في القاهرة فما انفكوا يحاولون الاستيلاء على مصر رغمًا عن تلك المعاهدة فحرروا الى ملكهم اموري في اورشليم ان يمدهم بجيش لاستلام زمام الامور قبل ان يتصل ذلك بجنود سوريا فسارت جيوشهُ ودخلوا مصر بغتة فوصلوا الى بلبيس بعشرة ايام واخذوها بعد حصار ثلاثة ايام فنهبوها وذبحوا من كان فيها . فبلغ ذلك شاور فتحيرَّ في امرهِ وتردد هنيهة في ماذا يفعل واي الجانبين يأخذ واخيرًا اقر على استنجاد نور الدين فكتب اليهِ بذلك فاحب نور ان يتخذ قيادة تلك الحملة بنفسهِ لكنهُ خشي من اغتيال بلاده اثناء غيابهِ فارسلها تحت قيادة شيركويه

وكان اموري معسكرًا امام القاهرة ولم يرد فتحها لانهُ لم يأتِ اليها الاَّ تخويفًا لشاور لعلهُ يشتري انسحابهُ بكمية من النقود لانهُ لم يكن يرى افتتاح مصر والاستيلاء عليها بعد ما اقام من المعاهدات مع شيركويه اما اهل القاهرة فلما رأوا ما فعل الصليبيون ببلبيس بعد افتتاحها من النهب والقتل اقسموا على الدفاع عن بلادهم لآخر نسمة من حياتهم وبناء على تصميمهم هذا امر شاور ان تحرق الفسطاط كلها لكي لا يبقى فيها ملجأ يعسكر فيهِ الصليبيون فأُحرقت ثم عمدوا الى النيل فقطعوا السبيل على ما ربما يأتي من المدد لعدوهم

وفي اثناء ذلك جاءت الانباء باقتراب شيركويه وجيشهِ فاخذ شاور بمطاولة الصليبيين واشغالهم بالمخابرة معهم لغير طائل فاقام عليهم الحجة بانهُ صديقهم ولم يكن ينبغي ان يجردوا عليهِ سلاحًا وان قدومهم على هذه الصورة لا يأمن معهُ من قدوم نور الدين وجيشهِ ثم عرض على أموري مبلغًا من النقود ليأخذهُ وينسحب بجيشهِ الى سوريا . اما الصليبيون فلم يكونوا يحلمون الاَّ بغزو هذه المدينة العظيمة ونهب ما فيها من الغنائم اما اموري فكان مشهورًا بالطمع فلم يكن يفتكر الاَّ بالمبلغ الكبير الذي عرض عليهِ . فوافق شاور بشرط ان يكون ذلك المبلغ مليونًا من الدنانير يدفع قسمًا منهُ فورًا والقسم الآخر بعد أجل مسمًّى فدفع لهُ مائة الف دينار ووعدهُ بدفع الباقي في وقت آخر فانسحب الصليبيون من امام القاهرة راجعين الى سوريا

وبينما كان شاور يخابر الصليبيين بامر المعاهدة كان الخليفة غارقًا في المعاهدات السرّية مع الاتابك نور الدين فعرض عليهِ ثلث خراج مصر اذا كان ينجيهِ من شاور وانهُ يولي شيركويه مكانهُ . فاسرع شيركويه الى مصر فالتقى بالصليبيين في بلبيس فحاربهم واخرجهم منها ومن كل ارض مصر . ثم تقدم الى القاهرة فدخلها في ربيع ثاني سنة ٥٦٤ هـ باحتفال عظيم وسار تواً الى مقرّ الخليفة العاضد فترحب بهِ وخلع عليهِ واكرم مثواهُ بالهدايا الفاخرة لهُ ولسائر جندهِ فاستاء شاور من هذه المودة بين شيركويه والعاضد لكنهُ رأى الجيوش السورية قريبة منهُ فاخفى ما في ضميرهِ خوفًا من الوقوع في شراعمالهِ فاخذ يتظاهر بحبهِ لزيارة شيركويه ثم نوى على دعوتهِ لوليمةٍ يعدُّ لهُ فيها معدات الهلاك فعلم يوسف صلاح الدين وبعض كبار جيش السوريين بذلك فنووا عليهِ ما نواهُ على اميرهم وجعلوا يترقبون خطواتهِ فبينما كان قادمًا الى معسكر السوريين لزيارة احاطوا بهِ وقبضوا عليهِ واوثقوهُ بالحديد فاتصل ذلك بشيركويه فشق عليهِ فطلب الى رجالهِ

ان لا يوقعوا به شرًّا اما الخليفة العاضد فبعث يطلب رأسهُ فأُرسلوهُ لهُ حالاً وسطوا على سرايتهِ فنهبوها

فسرَّ الخليفة العاضد جدًّا لنجاتهِ من ذلك الوزير الذي جعلهُ باستبدادهِ وسوء تدبيرهِ رقًّا بل اذلَّ من الرق وولَّى شيركوه مكانهُ ولقبهُ بالملك المنصور . فاستلم شيركوه زمام هذه المصلحة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ ولم يقم لهُ مقاوم وسكن في سراي الوزير الاعظم وفرق العطايا في جيوشهِ التي رافقتهُ الى مصر وشدد على النصارى وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوابة التي تسمى بالعزبة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحيًّا الى اسد الدين بقولهِ

يا اسد الدين ومن عدلهُ يحفظ فينا سنَّة المصطفى
كفى غيارًا شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعهُ بطلبتو ولا مكنهُ من ارخاء الذوابة وعندما ايس من ذلك أسلم ولم تطل مدة وزارة شيركوه فعاجلتهُ المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبهِ الاَّ شهرين وخمسة ايام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وكانت تتواتر عليهِ التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياتهِ . وكان شيركوه يعتبر نفسهُ نائبًا لنور الدين في مصر وانهُ قائم بمنصب الوزارة باسمهِ وبعد وفاتهِ احب العاضد ان يبين ممنونيتهُ وحبهُ لهُ فولَّى مكانهُ ابن اخيهِ يوسف صلاح الدين ولقبهُ بالملك الناصر وكان لا يزال شابًّا ولعل الخليفة اصبح يفضل الوزراء الصغيري السن ظنًّا منهُ انهم لا يقوون على اكتساب ثقة الجند فلا يخشى من استبدادهم . وما علم ان هذا الشاب اليانع سيكون اشد نفوذًا واعظم تاثيرًا في الجند والاهالي من سائر سلفائهِ فقد كان صلاح الدين ليِّن العريكة قريب من الناس فصيح الخطاب

ولما تولّى الوزارة ابت الجيوش السورية الرضوخ له لصغر سنهِ فاخذهم باللين فاستجلب خواطرهم فاجمعوا على ولائهِ والضرب بسيفهِ فعظم نفوذهُ وكثرت نصراؤهُ فشاغل الحسيد مؤتمن الخلافة جوهر الخصي وحدثتهُ نفسهُ بخلع صلاح الدين ووافقهُ كثير من الامراء المصريين والجند واتفق رأيهم ان يبعثوا الى الافرنج ببلاد الساحل يستدعونهم الى القاهرة حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ثاروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع الافرنج على اخراجهِ من مصر. فسيروا رجلاً الى الافرنج وجعلوا كتبهم معهُ في نعلٍ فسار الرجل الى البير البيضاء قريباً من بلبيس فاذا ببعض اصحاب صلاح الدين هناك فانكر امر الرجل من اجل انهُ جعل النعلين في يدهِ ورآها وليس فيهما اثر المشي والرجل رث الهيئة فارتاب واخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب ببطنهما فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا الذي كتبها من اليهود الكتاب فامر بقتلهِ فاعتصم الاسلام واسلم وحدثهُ الخبر فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة فخاف على نفسهِ ولزم القصر وامتنع من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الخصي انهُ قد اهمل امرهُ وشرع يخرج من القصر وكانت لهُ منظرة بناها بناحية الخرقانية في بستان فخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فانهض اليهِ عدة هجموا عليهِ وقتلوهُ في يوم الاربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ واحتزوا رأسهُ واتوا بهِ الى صلاح الدين فاشتهر ذلك في القاهرة واشيع فغضب العسكر المصري وثاروا باجمعهم وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامة حتى صاروا ما ينيف عن خمسين الفاً وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة فخر الدين طوران شاه اخو صلاح الدين وصرخ في العساكر الغز وركب صلاح الدين وقد اجتمع اليهِ طوائف من اهلهِ واقاربهِ وجميع الغز ورتبهم ووقفت الطائفة الريحانية

والطائفة الجيوشية والطائفة الفرنجية وغيرهم من الطوائف السودانية ومن انضم اليهم بين القصرين فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق الاَّ هزيمة صلاح الدين واصحابهِ وعند ذلك امر طوران شاه بالحملة على السودان فقتل فيها احد مقدميهم فانكف بأسهم قليلاً وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الزهومة وقتل حينئذٍ عدة من امراء المصريين وكثير ممن عداهم

وكان العاضد في هذه الوقعة يشرف من المنظرة فلما رأى اهلُ القصر كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكنوهم عن القتال وكادوا ينهزمون فامر حينئذٍ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطييب قارورة النفط وصوبوا بها على المنظرة التي فيها العاضد فخاف العاضد على نفسهِ وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عالٍ «امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم» فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم اقفيتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جار في الدولة يجري عليهم فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً ومروا الى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكاناً أُحرق عليهم وقُتلوا فيهِ الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلوق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك فايقنوا انهم قد أُخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم

السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبقَ منهم الاَّ الشريد وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهرًا والذي كان سببًا في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضًا جوهر الملقب بمؤتمن الخلافة

فلما انتهت هذه الواقعة واستتصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولَّى اخاهُ طوران شاه قوص واصوان وعيذاب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد وجعل البلاد المذكورة له اقطاعًا فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبى وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابهِ . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه وخطب لنفسهِ بعد الخلينة العباسي

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سببًا لاضطراب الصليبيين اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا ليمنع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريرك صور فريدريك مع يوحنا اسقف عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة مؤلفة من مائة وخمسين شراعًا ملآنة من الذخائر والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برًّا وبحرًا الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما ساروا حتى اتوا دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك اموري فظن انهُ يقدر على

اخذ دمياط بالهجوم الآنه رأى منها مقاومة ودفاعًا الزماهُ على اقامة الحصار فاقامهُ ولم يكن اكثر فائدة لهُ من الهجوم لان عدة اهل دمياط كانت عظيمة ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعدادهم وطال امد الحصار حتى نفدت مؤنة الصليبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم حاجزٌ اقامهُ المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكّن بمتاريس دمياط والطرف الاخر ببرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامدادات لحامية دمياط من القاهرة بكل سهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثًا فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق فيما بين الفرنساويين منهم وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين الذين اتوا بالمدد من الاستانة واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغًا عظيمًا فكانوا يتخاصمون على كسرة ويمضغون اقفان الخيل . ومما زاد تعاستهم تكاثر الامطار والزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كانهم في طوفان عظيم وحصل من تكاثر الاعصار نوءٌ في النيل اسرع جريهُ فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكنًا لوقوعها بين قوتين متضادين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة اخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فاحرقت ما بقي منها

فلما رأى الصليبيون ذلك لم يروا بدًّا من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليدين بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين قد اعدَّ في القاهرة جيوشًا ليسير بها مددًا الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليهِ ذلك ووبخ الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد الى القاهرة

وفي السنة التالية سار في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة الذين ضافوهُ السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم اموري وهو في

عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى وموقعهُ على قمة جبل وعر على ٤ اميال من غزة اتخذهُ الصليبيون حصنًا. فاسرع الملك اموري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدومهِ فسار لملاقاتهِ فلاقاهُ في منتصف الطريق وحاربهُ وغلبهُ ونزل على غزة فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذًا بالثار فتركوا في غزة حامية كافيةً وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة . ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج قد احتلوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعهُ عصبة من رجالهِ الاقوياء وحمل معهُ مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة ركّب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع اول من السنة المذكورة برًّا وبحرًا وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الافرنج وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاتهِ وقواهم بما يحتاجون اليهِ من سلاح وغيرهِ وعاد الى القاهرة

وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الاَّ اسمًا لغير مسمًّى ولم يعد لديهِ الاَّ السلطة الدينية فلاح لنور الدين ان الاسلام في غنىً عن هذه السلطة التي لا معنى لها الاَّ زيادة الروساء وتكثير الاحزاب فارسل الى صلاح الدين يطلب اليهِ ابطال الخطبة للعاضد لدين الله وان يخطبوا عوضًا عنهُ للمستضيء بامر الله الخليفة الثالث والثلاثين من بني العباس في بغداد . فاجابهُ صلاح الدين يعتذر عن عدم امكانهِ انفاذ هذا الامر فورًا مخافة ان يثير في مصر حزب العلويين الذين يدعي الفاطميون بانتسابهم اليهم وهم عديدون ثم دعا اليهِ امراءه واوعز اليهم ان لديهِ امرًا عظيم الاهمية يريد مخابرتهم بشأنهِ فاجتمعوا اليهِ فاخبرهم بما ارسل اليهِ نور الدين فقال بعضهم انهُ امر خطير وتنفيذهُ يُعدُّ وقاحة عظمى ووافق البعض الآخر على اجرائهِ ولكن لم يتجرأ احد على مباشرة الامر بنفسهِ فبهت

صلاح الدين هنيهة فنهض امير فارسي يدعى امير عالم وحرض على وجوب اتباع امر نور الدين واخذ على عاتقهِ ان يباشر العمل بنفسهِ

ففي الجمعة الاولى من محرم سنة ٥٦٧ هـ توجه امير عالم الى اكبر جوامع القاهرة وصعد المنبر وخطب في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء بامر الله العباسي فلم يعارضهُ احد من الفاطميين ولا من العباسيين . فلما علم صلاح الدين بذلك أمر أن يعاد ذلك في الجمعة القادمة في جميع جوامع القاهرة والفسطاط فقبل الجميع ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وسبع سنين . ثم همَّ الى القبض على العاضد واشياعهِ واستفتى الفقهاء في قتلهِ فافتوهُ بجواز ذلك لما كان عليهِ العاضد واتباعهُ من انحلال العقيدة وكثرة الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك

اما الخليفة العاضد فاصيب بسبب الاهانة التي لحقت بهِ بمرض شديد ثم حجز عليهِ في احدى غرف القصر الداخلية . كل ذلك ولم يتجرأ احد من ذويهِ ان ينوه بكلمة تتعلق بهِ ولا ان يخاطبهُ . وبعد ايام قليلة توفي العاضد في تلك الحسرة الاثنين في ١١ محرم سنة ٥٦٧ هـ ولكن وفاتهُ انقذت صلاح الدين من قلاقل كثيرة كان يخشى عليهِ منها لو بقي الخليفة حيًّا . ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين هو الذي قتل العاضد بيدهِ الَّا ان الجمهور على خلاف ذلك على اننا لا يسعنا الَّا لومهُ لتطرفهِ في احتقار الخليفة وتجريدهِ اياهُ من ذات يدهِ ومن متاعهِ وقد بالغ بذلك حتى انهُ علم بجوادٍ كريم كان يركبهُ الخليفة لترويح النفس في حديقتهِ فطلبهُ منهُ فلم يسع الخليفة الَّا اعطاؤُهُ اياهُ والتوقف عن الرياضة التي لم يعد لديهِ سواها من جميع ثروة الخلفاء . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغاليًا في سب الصحابة واذا رأى سنيًّا استحل دمهُ . وترى في الشكل السادس والاربعين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية

ايام احتياجها للمال وقلة الذهب والفضة وحالما تولى صلاح الدين الغاها وضرب نقودهُ المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليهِ

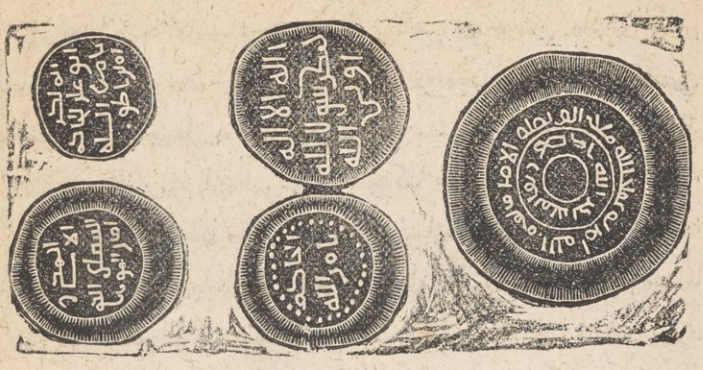

ش ٤٦ نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ ـ ٦٤٨ ﻫ او من ١١٧١ ـ ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ ـ ٥٨٩ ﻫ او من ١١٧١ ـ ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يدهُ على السراي (القصر) وكان قد عهد الى خصي لهُ يدعى بهاء الدين الملقّب بقراقوش وكان من ثقاتهِ ان يخفي جميع التحف التي كانت قد جمعت . ثم القى القبض على جميع من بقي من العائلة الفاطمية وهم الامير داود بن العاضد ولي العهد

وينعت بالحامد لله واخواهُ ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنهُ ابو القاسم وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر ابن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من السراي . اما مماليك العاضد وعبيدهُ فباع بعضها وفرّق البعض الآخر في ارباب دولتهِ . وهكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الفاطميين بانيّ القاهرة فقد غادروها وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير (السراي) الذى وضعهُ جوهر عند ما اناخ في موضع القاهرة ومنها القصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة . ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باماكن مختلفة من القاهرة وقلما بقي من تلك الآثار على حالهِ ولكن هناك اثرًا عظيمًا لا يمحوهُ كرور الايام نعني بها القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال ما لا حاجة لذكرهِ هنا . ويقال ان صلاح الدين جمع في خزائنهِ من مجوهراتهم ما يفوق الحصر . ويقال ايضًا انهُ وجد بين هذه الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا

ثم اسرع صلاح الدين الى اعلام اتابك نور الدين بتنفيذ ما امرهُ بهِ وموت الخليفة فاتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتها منفردًا بالخلافة على سائر المشرق فخلع على اتابك نور الدين وبعث اليهِ سيفين اشارة الى توليتهِ على سورية ومصر وخلع ايضًا على صلاح الدين وبعث اليهِ بالغطاء الاسود العباسي يجعلهُ على المنبر الشريف . وبعد ان كانت القاهرة احدى

عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد

فلما رأى نور الدين نفسهُ متسلطًا على سورية كلها تقريبًا وعلى قسم من جزيرة العرب وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين وضع يدهُ ايضًا على مصر . اما صلاح الدين فكان في نيتهِ الاستقلال بمصر منذ اول توليتهِ فيها وكان بينهُ وبين نور الدين مكاتبات سرية مآلها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الروحية محافظة وقتية ريثما يتأتى لهُ الاستقلال . اما اتباع الخلفاء الفاطميين فلم يكونوا يستطيعون اقل المقاومة جهارية عند التصريح بمبايعة خليفة بغداد والخطبة لهُ لان حزبهم كان ضعيفًا لكنهم كانوا يجتمعون سرًّا ويقولون بحرمان خليفة بغداد من هذه الحقوق ثم اقاموا خليفة منهم يخلف العاضد لدين الله وكان لهم زعيم يقال لهُ عمارة بن علي الملقب باليمني لان اصلهُ من اليمن الاَّ انهُ نظرًا لانقطاعهِ الكلي الى نظم الشعر واشتغالهِ بهِ عما يدعوهُ اليهِ الحزب الفاطمي لم يحصل على النفوذ الذي يكفل نجاح مشروعهِ ثم احصى عدد اتباعهِ وقدر قدرتهم فاذا بهم يقصرون عن مناهضة صلاح الدين قصورًا كبيرًا فخاف ان تعود العائدة عليهِ فسار الى صلاح الدين وبيَّن لهُ خضوعهُ التام للاوامر العالية وعاد الى غرفتهِ مقتنعًا بلذة المطالعة والنظم على ان صلاح الدين لم تهزهُ احزاب الفاطميين ولم يعبأ بها البتة لانهُ كان واثقًا بقواتهِ وقوات نور الدين وكفاءتها لايقاف كل هذه الاحزاب عند حدها على انهُ لم يكن يغفل عن السعي الى كل ما يحط من قوتها ويضعف نفوذها ويؤيد نفوذ العباسيين . وكان صلاح الدين مع تظاهرهِ في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعيًا الى اتمام مقاصدهِ التي كانت لا تزال تحت طي الخفاء فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنهُ من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضهُ بذلك فاستحسَّ نور الدين فبعث اليهِ على اثر وفاة العاضد بستقدمهُ وفرقة من رجالهِ

مظهرًا استنجادهُ في حربهِ مع الصليبيين عند الكرك وانما قصدهُ الحقيقي ان يخرجهُ من مصر ويبقيهُ عندهُ تحت ملاحظتهِ فيأمن من غائلتهِ . فادرك صلاح الدين مقصدهُ الحقيقي لكنهُ لم يستصوب مخالفة اوامرهِ لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيهِ فكتب اليهِ انهُ اذعانًا لامرهِ قد بارح القاهرة في فرقةٍ من الجند لملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها احدًا فانتظر فلم يقدموا ثم ورد اليهِ كتاب من صلاح الدين يخبرهُ انهُ بارح القاهرة بجندهِ الى الكرك فعرض لهُ في الطريق ما الجأهُ الى العود حالاً الى مصر . فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فاقرَّ على المسير بنفسهِ الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنهُ قبل ذهابهِ بعث الى صلاح الدين يتهددهُ بالعزل اذا لم يبادر الى ما أُمر بهِ فاستدعى صلاح الدين رجال عائلتهِ وفيهم ابوهُ نجم الدين ايوب وخالهُ شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينهُ وبين نور الدين وما بلغهُ من عزمهِ على المجيء اليهِ واستشارهم فلم يجبهُ احد بكلمة فنهض تقي الدين عمر وبن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال «ان الرأي اذا جاءنا نور الدين قاتلناهُ ومنعناهُ عن البلاد» ووافقهُ غيرهُ من اهلهم . فشتمهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشتم تقي الدين واقعدهُ وقال لصلاح الدين «ها انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من يحبك ويخلص لك اكثر منا» قال لا فقال «اعلم يا يوسف اننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكث الاَّ ان نقتل بين يديهِ ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا . وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحدهُ لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد لهُ ونحن مماليكهُ ونوَّابهُ فيها فان اراد سمعنا واطعنا والرأي ان تكتب كتابًا مع نجاب تقول فيهِ بلغني انك تريد الحركة الى هذه

البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجابًا يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك وما ههنا من يمنع »

ثم قام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال لهُ « باي عقل فعلت هذا اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعهِ ومحاربتهِ جعلنا أهم الوجوه اليهِ وحينئذٍ لا نقوى عليهِ واما الآن اذا بلغهُ ما جرى وما اظهرنا من الطاعة لهُ تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلتهُ انا عليها حتى امنعهُ او أُقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار بهِ ايوبُ

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما نصهُ ابوهُ سكن روعهُ وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاتهِ فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتيهِ بها بزمن قريب واما الصليبيون فكانوا يتألفون عصبًا ويتقدمون في سوريا يفتتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الاَّ عدوَّان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامهِ فكان يغتنم فرصة انشغال نور الدين بالمحاربة في ما بين النهرين ويسير الى غزو سوريا وحالما يعلم بقدومهِ اليها يعود الى مصر حالاً فآل ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهمَّ نور الدين الى حشد الجيوش وتسييرها الى مصر لا خراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى من هجوم الصليبيين عليها . وبينما كان نور الدين على اهبة الرحيل فاجأتهُ المنية بالتهاب البلعوم فمات في دمشق في ٨ رمضان سنة ٥٦٩ هـ وسنُّهُ ستون سنة ومدة حكمهِ ٢٩ سنة وكان شجاعًا باسلاً وفاضلاً بارًّا وكان محبوبًا معتبرًا من المسلمين والمسيحيين من اعدائهِ وكانت مملكتهُ شاملةً جميع سوريا الشرقية وقسم من سوريا الغربية ومصر والموصل

وديار الجزيرة . وكانت ملوك ديار بكر قد سلمت لهُ اليمن بجملتها فانتقلت هذه المملكة بعد موتهِ الى ابنهِ الملك الصالح اسماعيل وكان بالغًا من العمر احد عشرة سنةً فقط فأُقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائبًا لهُ في تدبير المملكة . فاستخف الناس بهِ لصغر سنهِ حتى همَّ افراد عائلتهِ الى تنزيلهِ لكنهم لم ينجحوا وحاول الملك أُموري غزوهُ فعاد خائبًا اما الامراء الذين كانوا على الامارات التابعة لمملكتهِ فحاول كلٌّ منهم الاستقلال بذاتهِ فاحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستنجدهُ فاوقفهُ اولئك الامراء وفي خلال ذلك ورد اليهم والى نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان لهُ وارسل نقودًا مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبهُ للامراء قولهُ «لو علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا اشك انهُ كان يعهدها اليهِ وهي اجمل واخصب ولاياتهِ واعلموا ايضًا انهُ لو لم يفاجئهُ القضاء لاقامني وصيًّا على ابنهِ وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفًا بالافضال العظيمة التي حمَّلنيها ابوهُ اما انتم فسأُعاملكم بمقتضى تصرف كل واحدٍ منكم فاني اعتبركم قومًا تلقون القلاقل والفتن في البلاد» وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبهِ بقليل واخرج منها سيف الدين الغازي ابن اخي نور الدين وكان قد وضع يدهُ عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع الى استرجاع الاماكن التي كان قد استقلَّ بها بعض الامراء الصغار من عائلة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافًا منهم بسلطة الملك الصالح فاسترجع منهم حمص وحماه وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعلبك والرها الاَّ ان هذه الفتوحات لم تجدِ الملك الصالح نفعًا لانها دخلت في سلطة صلاح الدين ولم يعطِ منها شيئًا للملك الصالح فاستنكف منهُ وخافهُ ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت

في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرجهُ الى شرقي البلاد السورية وكان الملك الصالح قد استنجد ابن عمهِ سيف الدين الغازي وكان قد ولاهُ الموصل فأمدَّهُ فاتَّحدَ الجيشان وهاجموا صلاح الدين قرب حماه في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ ﻫ فتغلب عليهم وسلب منهم كلَّ امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسهِ

فرأى صلاح الدين اذ ذاك من قوَّاتهِ والاحوال المحيطة بهِ ما يؤهّلهُ لبلوغ ما طالما كان يتمناهُ من الاستقلال بالملك فصرَّح بسلطانهِ في مصر وسوريا وكان كذلك فاصبح الصليبيون اعداءهُ رأسًا اما هم فاغتنموا فرصة انشغالهِ في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض فحاربهم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يقوَ عليهم . فبلغ ذلك صلاح الدين وكان قد استقدم جندًا مصريًا فانفذ بعضهم فارجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحاتهِ فحارب سيف الدين الغازي وفاز بهِ واستولى على بوزاع ومنبج وعيراز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلهما بيدهِ وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقتلاهُ وختم صلاح الدين فتوحاتهِ العظيمة بمعاهدة عقدها مع سيف الدين الغازي والملك الصالح من مقتضاها استبقاء جميع البلاد التي فتحها تحت سلطتهِ وان لا يكون للملك الصالح ادنى تداخل فيها

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرَّم سنة ٥٧٢ ﻫ بعد ان استخلف اخاهُ طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيرهِ الى الشام قد استخلف على مصر موقتًا وزيره الامير بهاء الدين الاسدي وهو خصيٌّ فارسيٌّ قد تقدَّم ذكرهُ فعهد اليهِ تدبير الاحكام وامرهُ ان يُقيمَ البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها فانفذ بهاء الدين ما عهد اليهِ بغيرةٍ ونشاط وكانت الجسور المقامة لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد أُهمل شأنها منذ تولى

الخلفاء الفاطميون فكان اذا فاض طغت مياههُ على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فمهد الطرق واحتفر الترع واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء وانشأ طريقاً تمتد طولاً على ضفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة لا يزال بعضها باقياً الى الان

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكنٌ الاَّ القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلها منزلاً لضباط الحكومة وقواد الجيوش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطَّم على سفحهِ قلعةً منيعةً لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطهِ وكان في ذلك المكان بناءٌ قديم من عمل الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمهُ واقام القلعة على انقاضهِ واتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناءٌ آخر اعزّ موقعاً من القلعة وهي التي لم تزل باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة . وجعل بهاء الدين في القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقاً جداً يسع كلما تحتاج اليهِ الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمهِ فالبئر يدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انهُ سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتهُ الى يوسف صلاح الدين الذي امر باحتفارهِ والمظنون ان هذا البئر كان محفوراً من ايام قدماء المصريين ثم طمر بالرمال فاعاد صلاح الدين حفره . وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين . وابتنى هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الحاصلات التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا

بمخازن يوسف وقد ظن بعض المتفرجين انها من بناء فرعون في ايام يوسف الصديق . وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدأ بعمارته السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذٍ على وزارة العاضد ثم عهد الى بهاء الدين اتمامهُ فعمل لهُ رسمًا عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الّا انهُ استعظم بناءهُ بهذا الاتساع فجعلهُ محيطًا بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعهِ هذا ان يهدم جوامع وبيوتًا وقبورًا كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال متشيعًا للدولة الفاطمية فاتّهموهُ بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم بالاستبداد والعسف وينسبون اليهِ احكامًا عجيبة في ولايتهِ حتى ان الاسعد ابن مماتي لهُ كتاب لطيف سماهُ الغاشوش في احكام قراقوش وفيهِ اشياء يبعد وقوع مثلها منهُ والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمدًا في احوال المملكة عليهِ ولولا وثوقهُ بمعرفتهِ وكفاءتهِ ما فوضها اليهِ وكان رجلاً مسعودًا وصاحب همة عالية

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيهِ القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعلهُ على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة

الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوّة تحت القلعة والى الآن آثار الجدار ظاهرة للمتأمل فيها هو آخر السور الى جهة القلعة وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٣٩٤٠٢ من الاذرع الهاشمية . وقلعة المقس المذكورة كانت برجًا مطلًّا على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ ﻫ وجعل في مكان البرج المذكور جنينة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقًا جعلهُ من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعدهُ وجعل خارج هذا الخندق سورًا آخر بابراج مبني بالحجارة الّا ان هذا السور الثاني هدم جميعهُ والخندق ردم الّا في بعض الاماكن

وفي سنة ٥٧٣ ﻫ عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين موقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الّا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم لما حصل بين رؤسائهم من الانشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ ﻫ توفي شمس الدولة طوران شاه في ثغر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلتهُ اختهُ ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنتهُ في مدرستها التي انشأتها بظاهر دمشق فهناك قبرهُ وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه صاحب حمص وكانت قد تزوجتهُ بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ ﻫ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فلاح لهذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل بهِ ايضًا ان امراء الموصل تآمروا عليهِ سرًّا مع الصليبيين فاسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها ورقّة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحرّان ثم اتى فعسكر

امام الموصل ولم يبقَ غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ وردّ سلمت سنة ٥٨١ هـ وأُصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عزّ الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل. وسائر البلاد التي أُرجعت للاتابك الملك الصالح وان يعترف ملك الموصل بتبعيتهِ لصلاح الدين وبتقديمهِ العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية وقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيرًا ما يحاولون لقاء عدوّهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرُّكًا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديهِ من الجند على اتم نظام وحط رحالهُ عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزولهُ هناك يقدمون اليهِ وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلهم فسار صلاح في جريدة من جيشهِ الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الاّ ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل بطبريّة فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة العدو فالتقى بهِ على سطح جبل طبريّة الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الافرنج الاّ فرقة منها تحصّنت في تل يقال لهُ تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش الى ان الجأهم الامر للقتال يأسًا فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون وكان في جملة المأسورين الملك جنري واخوهُ البرنس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهم من القواد والامراء فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديهِ

فاحضروا وفيهم الملك جفري فامر لهُ بشربة من جلاب وثلج فشربها وكان في غاية الظمأ ثم اعطى البرنس ارباط اخاهُ فشرب وقال السلطان للترجمان قل للملك انت الذي سقيتهُ اما انا فما سقيتهُ وكان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من اسرهُ أمن فقصد السلطان بقولهِ هذا ان الملك جفري قد امن اما اخوهُ فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديهِ على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سلمية لغير داع فسبق من السلطان قسم انهُ اذا ظفر بهذا الامير قتلهُ . فبعد ان شربا ارسلها للمائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان فاخذ بيدهِ سيفًا وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً ها انا انتصر لمحمد ثم عرض عليهِ الاسلام فابى فضربهُ بالسيف فحل كتافهُ وتمم قتلهُ من حضر ورميت جثتهُ على باب الخيمة فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبهِ . فكلمهُ السلطان وطيَّب خاطره وقال لهُ لم تجرِ العادة ان يقتل الملوكُ الملوكَ اما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الانبياء

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قلعتها ثم رحل طالبًا عكا فبلغها يوم الاربعا غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانقذ من كان فيها من اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشهُ فرقًا في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحينا وقيسارية وصفورية والناصرة . وسار هو يطلب تبنين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعًا ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزولهِ ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الاخرة وسارت سرية من رجالهِ الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمتها . ثم حوَّل شكيمة فتوحاتهِ جنوبًا قاصدًا عسقلان فمرَّ على

مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتلها قتالاً شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجالهِ من استلم غزّة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد في المسير اليهِ فجمع اليهِ جندهُ وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ فنزل في الجانب الغربي وكان مشحوناً من الخيالة فانتقل الى الجانب الشمالي في ٣٠ منهُ وهناك نصب المنجنيق وضيق على البلد بالزحف والقتال حتى اخذ النقب في سورها مما يلي وادي جهنم فلما رأى الافرنج ما كاد يقع بهم طلبوا المخابرة فحصلت وانتهت بتسليم المدينة فسلمت في ٢٧ رجب وكانت ليلة المعراج وكان يوم فرح وافتخار لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اناهُ الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشّر ويحرض واما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح او مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش الاسلام وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني وممن انشد في هذا الشان عبد الرحمن بن بدر فقال قصيدة مطلعها

هذا الذي كانت الايام تنتظرُ فليوفِ لله اقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئهُ بالفتح

ولما استلم المسلمون بيت المقدس نكسوا الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان عظيم الحجم . وكانت قاعدة الصلح ان يؤدي الافرنج عن كل رجل منهم فدية عشرين دينار وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل ذكر صغير او انثى ديناراً واحداً فمن احضر فديتهُ نجا بنفسهِ والاّ اخذ اسيراً فلما جمعت الاموال فرقها السلطان على الامراء والرجال

والفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليهِ . وبعد فتح بيت المقدس سار لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحضار الآت القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها برًّا واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بحرًا ثم ارسل من حاصر هونين فسلّمت اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين فاسروا منهُ خمس قطع وقتلوا كثيرًا من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدرهُ وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الامطار واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليهِ بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال فساروا وحملوا من الآت القتال ما امكن واحرقوا ما بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم للراحة وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان منيعًا فاخذوهُ بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام . ثم بلغهُ ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصدًا اتمام فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليهِ رجالٌ من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى فاخذها في يوم واحد الاَّ قلعتيها على انهما اضطرتا اخيرًا للتسليم ثم رحل من اللاذقية الى صهيون فنزل عليها في ٢ جمادى الاخرة فصالحهُ اهلها على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين ثم سيرَّ من رجالهِ من استولى على عدة قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعة ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذٍ الى قلعة برزنة الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصلح فصالحهم ثم توجه الى حلب في ضيافة ابنهِ الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيهِ فبات في حماه ليلة واحدة ثم سار على طريق بعلبك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان بريد صفد فحاربها واستولى عليها بالامان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً ثم نزل في الغور واقام بالمخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع اخيهِ العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيهِ لانهُ كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨ ذي الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منهُ ينظر في امورها فاخذها من اخيهِ العادل وعوضهُ عنها الكرك ثم مرَّ على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين قراقوش والياً وامرهُ بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اريون وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول واقام اياماً يباشر قتالهُ كل يوم والعساكر تتواصل اليهِ فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسهِ وطلب الامان ووعد انهُ يسلم المكان بشرط ان يعطى لهُ موضع يسكنهُ في دمشق لانهُ بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاع تقوم بهِ وباهلهِ وشروطاً غير هذه فاجابهُ الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصلهُ الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها جمعاً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفد زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قالهُ صاحب الشقيف كان خديعة فسيرهُ صلاح الدين مهانًا الى دمشق . ثم ظهر لهُ ان الافرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٢ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتةً ليغوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجدات من الانحاء

وكان عند الافرنج مقدار الفي فارس و ٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في غاية رجب فضاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستمر السابلة بالنجدة فتمكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينهُ وبين الافرنج مناوشات في عدة ايام ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طمان

وما زال الحال كذلك والافرنج يتشددون بما كان يأتيهم من المدد بحرًا الى ان قووا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليهِ جدًا ثم بلغهُ ان الافرنج سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فاتى السلطان الرملة وتشاور مع ذوي شوراه في امر عسقلان وهل الصواب خرابها ام بقاؤها فاتفقت اراؤهم ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسهِ لخرابها خوفًا من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع بخرابها بكل نشاط رغمًا عن ارادتهِ لانهُ قال « لأن افقد ولدي جميعهم احب الي من ان اهدم منها حجرًا ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيهِ مصلحة للمسلمين فما الحيلة » وهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرها حزانى تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواشيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الخراب قائمًا اتى من الملك العادل خبر مفادهُ ان الافرنج تحدثوا معهُ بامر الصلح طالبين جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضجر الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليهِ ياذنهُ في ذلك وفوض الامر الى رأيهِ واصرَّ على حريق عسقلان ففوض ذلك الى احد اولادهِ الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قلعة منيعة فامر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين

وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخابرات يطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور وكان يومًا مشهورًا سرَّت بهِ الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يغدون الى بيت المقدس من كل صوب وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها وسار اخوهُ الملك العادل الى الكرك وابنهُ الملك الظاهر الى حلب وابنهُ الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يُقطع الناس ويعطيهم دستورًا ويتأهب للمسير الى الديار المصرية وكان في عزمهِ السفر للحج لكنهُ عدل عنهُ

ولما سار ملك الافرنج الى بلادهِ رأى السلطان ان يعود لتنفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولادهُ الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشمر واولادهُ الصغار وكان يحب تلك المدينة ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصدًا البلاد الفراتية فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمهُ الى مصر وعرضت لهُ امور اخرى وعزمات غير ما تقدم

على ان المنيَّة على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمتهُ على فراشهِ وبين اولادهِ واخوانهِ ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان للملاقاة الحج فعاد الى منزلهِ كسلاً ثم غشيتهُ حمّى صفراوية ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفًا وما زال المرض يتزايد يومًا فيوم الى ان توفاهُ الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موتهِ يومًا لم يصب الاسلام بمثلهِ منذ فقد الخلفاء الراشدين (رض) وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم . وكان سنهُ عند وفاتهِ ٥٧ سنة ومدة حكمهِ ٢٤ سنة في

مصر و١٩ سنة في سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوهُ في الدار التي كان متمرضًا فيها وكانت بينهم شقيقة النقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص . ويقول بعض المؤرخين ان صلاح الدين لم يترك في خزينتهِ الخصوصية الاَّ دينارًا واحدًا و٤٧ درهمًا من الفضة ولم يجدوا في جميع صناديقهِ اثرًا للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمهِ لانهُ اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آلهِ وذويهِ

ومن آثارهِ في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد اعيدت الى مصر اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس فلما تولَّى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جدًّا تبلغ مائة الف دينار سنويًا الاَّ انها كانت مضروبة على جميع انواع الاطعمة والالبسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها وعلى الحوانيت والاخشاب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقمشة الى غير ذلك جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فسامحهم بما كان عليهم وكان بالغًا قدرًا عظيمًا جدًّا من الدنانير والغلال

وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ثم دعي الربع كلهُ باسمها فصار هناك درب الموسكي وخط الموسكي . ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والافرنج اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لمبيع الادوات الافرنجية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو عليهِ الآن وهو اغنى شوارع القاهرة

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكورًا وانثى واحدة اسمها مونسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذٍ بالملك الكامل . فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولادهُ واخوتهُ واولادهم مملكتهُ فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولادهِ اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبهِ مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولُقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حرّان وتل باشر وعيراز والمنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولّى مصر

ومن هولاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية اما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الاَّ انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة فسيف الدين ابو بكر المقّلب بالملك العادل ابن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكمًا في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور ابن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميرًا على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضًا كان ملقبًا بملك الرها . وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر ابيهِ سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوهُ توغتغن حاكمًا فيها تحت اسم الملك المعز

وترى في الاشكال ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ صور النقود التي

ش ٤٧ نقود صلاح الدين ضربت في دمشق سنة ٥٨٢

ش ٤٨ نقود صلاح الدين ضربت سنة ٥٨٤

ضربت في ايام السلطان صلاح الدين على احد وجهيها اسمهُ وعلى الوجه الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي لذلك العهـد فالصورة الاولى نقود ذهبية ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ هـ والثالثة مثل ذلك

ش ٤٩ نقود صلاح الدين

سلطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ ـ ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبهُ وبعد يسير نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة للانتقام منهُ لقهرهِ اياهم فلما لم يستطيعوا ذلك في حياتهِ قاموا على خلفائهِ واجمعوا على محاربتهم فاتحد الايوبيون في بادئ الرأي دفعًا لمناهضيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انتهادًا للمطامع واصغاء لذوي المفاسد فاصبحوا بما بينهم في شاغل عن دفع مهاجميهم

ففي سنة ٥٩٢ هـ رأى الملك العادل حاكم الكرك والشوبك ان حصتهُ قليلة ومنصبهُ حقير بالنسبة لغيرهِ من العائلة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلا ذلك بسهولة . ففرّ

الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله وكان كلاهما شاعرين ماجدين . فكتب الافضل الى الامام الناصر

مولاي ان ابا بكر وصاحبهُ عثمان قد غصبا بالسيف حقَّ علي
وهو الذي كان قد ولاهُ والدهُ عليهما فاستقام الامر حين ولي
فخالفاهُ وحلاَّ عقد بيعتهِ والامر بينهما والنصُّ فيهِ جلي

فاجابهُ الامام الناصر بقولهِ

وفي كتابك يا ابن يوسف معلنًا بالودِّ يخبر ان اصلك طاهرُ
غصبا عليًّا حقهُ اذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصرُ
فابشر فان غدًا عليهِ حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصرُ

الاَّ ان الملك العادل لم يلبث ان بكَّتهُ ضميرهُ فاعاد الملك الى ابن اخيهِ الافضل وتنازل ايضًا عن حصتهِ الاصلية . الاَّ ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرَّم سنة ٥٩٥ هـ وكان ملكًا مباركًا كثير الخير واسع الكرم محسنًا الى الناس معتقدًا في ارباب الخير والصلاح ولكنهُ كان ضعيف المبادي سهل الانقياد قليل التروي وكان لهُ عشراء من ذوي الخفة فاشاروا عليهِ يومًا ان يهدم اهرام الجيزة فأمر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو اقلُّها اعتبارًا ويعرف بالهرم الاحمر وجعل اولئك العملة تحت ملاحظة بعض امراء مجلسهِ فعسكروا بجوار الاهرام وجمعوا اليهم عددًا كبيرًا من الفعلة الفلاحين من القرى المجاورة وجعلوا لهم مرتبات فاحشة وما زالوا على ذلك نحو ثمانية اشهر فقدروا مقدار العمل فرأوا انهم لم يهدموا في اليوم الواحد الاَّ حجرًا واحدًا او حجرين وانَّ الاستمرار على هذا العمل ضرب من العبث وقد دخلت فيهِ نفقات كبيرة فعدلوا عنهُ سنة ٥٩٣ هـ وقد شوهوا وجه الهرم تشويهًا ولم يهدموا منهُ الاَّ قسمًا صغيرًا جعل في الهرم خرقًا لا يزال ظاهرًا فيهِ الى هذا اليوم

ثم ارتأى الملك العزيز مشروعًا آخر جاء بنتيجة افيح من تلك وذلك ان ايام الفيضان في مصر ولا سيما في القاهرة تعدُّ من ايام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولا سيما خليج مصر فانهُ يجري مخترقًا المدينة فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للنزهة في مجاري المياه ليلاً ونهارًا يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العوائد فلم يقدر لان الناس لم يرضوا الاَّ التمتع بما وهبهم الطبيعة من داعيات السرور فامر الملك العزيز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعًا كليًّا واستخدم لتنفيذ امرهِ هذا طرقًا وحشية فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان ثم عاجلت المنيَّة الملك العزيز فقطعت جهينة قول كل خطيب

ومما اتاهُ الملك العزيز في سلطنتهِ من المظالم انهُ اعاد اليها المكوس الظالمة التي كان قد الغاها ابوهُ وزاد في شناعتها وزادت في ايامهِ المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر واباحة اولي الامر والنهي لهُ وتفاحش الامر فيهِ الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصرهُ واقيمت في حارة المحمودية طاحون لطحن حشيش المزر وافردت برسمهِ وحميت بيوت المزر واقيمت عليها الضرائب الكثيرة فمنها ما انتهى امرهُ في كل يوم الى ستة عشر دينارًا . وحملت اواني الخمر على رؤوس الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الحبوب لوقوف زيادة النيل جزاء لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما ياكلون وكثر ضجيجهم وشكواهم فجعل الملك العزيز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتيات عائلتهِ وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة الى ان جاءت المنية منصفة الظالم من المظلوم . وسبب موتهِ انهُ توجه الى الفيوم فطرد فرسهُ وراء صيد فتقنطر بهِ فاصابتهُ

الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ ﻫ

وترى في الشكل الخمسين صورة النقود النحاسية التي ضربت في عهد الملك العزيز ابن صلاح الدين

ش ٥٠ نقود الملك العزيز بن صلاح الدين

سلطنة الملك المنصور بن العزيز

من سنة ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ﻫ او من ١١٩٨ ـ ١٢٠٠ م

وخلف العزيز ابنهُ ناصر الدين محمد وسنهُ ثماني سنوات فلقبوهُ بالملك المنصور ثم استقدموا عمهُ الملك الافضل من سوريا ليكون وصيًّا على ملكهم الجديد فقبل وجاء القاهرة ونودي بهِ اتابكًا اي وصيًّا على ابن اخيهِ الَّا انهُ لم يتمتع بهذه المصلحة لان عمَّهُ الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبيَّن حقوقهُ بالتوصية بناء على انهُ جدُّ الصبي الحاكم وعمُّ وصيِّهِ. فحاول الافضل مقاومتهُ فلم ينجح فحاصر في سرايتهِ في القاهرة ثم فرَّ راجعًا الى حكومتهِ في دمشق مكتفيًا بما قُسم لهُ

وترى في شكل ٥١ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزيز

ش ٥١ نقود المنصور بن العزيز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من سنة ٥٩٦ ـ ٦١٥ هـ او من ١٢٠٠ ـ ١٢١٨ م

ولما خلا الجو للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهرًا . وتولّى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا بنفسهِ وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانهِ وفي جملتهم ابن اخيهِ الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصًا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد . وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل ابنهُ ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم اضيفت اليهِ حران وكان الاشرف رجلاً محبوبًا من الناس مسعودًا مؤيدًا في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصلت بينهُ وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر لهُ

وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنموا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الاّ بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين فحاربهم فعادوا على اعقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحوًا من شهر فجاءهُ مخبر يخبرهُ بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور وكان ذلك سنة ٦٠٠ هـ . وكانت تتهدد مصر

زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب لهذين الخبرين المخيفين فاسرع لملاقاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن مدينة يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين فانسحب الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الاَّ ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها من الاراضي . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبارح مصر في جيش للمدافعة عن حماه فحصلت بينهُ وبينهم مواقع دموية كثيرة وبينما هم في ذلك اخبر المخبرون بقدوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا الثالث وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقيم فيها حصنًا فطردوهُ منها فرجع الى سهل صفر . فقطع الصليبيون جميع المخابرات مع مصر حتى جاؤا على نهاية المذابح الصليبية في سوريا فحولوا اعنتهم الى مصر فجاؤا اليها بحرًا وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ وهم نحو ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقًا واقاموا عليهِ سورًا وشرعوا في قتال برج دمياط فانهُ كان برجًا منيعًا في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل وكان البرُّ الذي نزل عليهِ الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصارًا منيعًا من البحر والبرّ والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوهُ تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحونًا بالمقاتلين

تأتي اليهِ المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجًا خشبيًا نصبوهُ على مركبين موسوقين قيودًا وانزلوا اليهِ اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجهزوا من البرج والسور واخذوا يرمي السهام والحراب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين فلعبت النار بهِ فخاف الذين فيهِ ثم انطفأت حالاً ونشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين . فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباهُ الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معهُ في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الافرنج وامر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معهُ من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكرهُ الى دمياط لتمنع الافرنج من السور والقتال مستمر اربعة اشهر والعادل يسيّر العساكر من البلاد الشامية شيئًا بعد شيء حتى تكاملت عندهُ واشتد خوفهُ من نزول الفرنج على دمياط فرحل من مرج الصفر الى عالفين فنزل بهِ المرض ومات في جمادى الاخرة فكتم الملك المعظم عيسى موتهُ وحملهُ في محفة وجعل عندهُ خادمًا وطبيبًا راكبًا الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحملهُ الى الخادم فيشربهُ ويوهم الناس ان السلطان شربهُ الى ان دخلوا بهِ الى قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات فاعلن بموتهِ وتسلم ابنهُ الملك المعظم جميع ما كان معهُ ودفنهُ بالقلعة ثم نقلهُ الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٥٢ و٥٣ و٥٤ صور النقود التي ضربت في عهد الملك العادل

ش ٥٢ نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

ابن ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله من الجهة الأخرى

ش ٥٣ نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

والثالثة لا يظهر عليها الّا اسم الملك العادل فقط

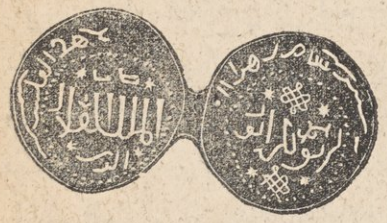

ش ٥٤ نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ أو من ١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيهِ وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون فالحُّوا في القتال ولا سيما عند ماعلموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرًا عظيمًا في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديدًا الى ان قطعوهُ وكان قد انفق عليهِ وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار

وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتنقد الاحوال واعمال الحيلة في مكايدة الاعداء فامر ان تفرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من سلوكهم فيهِ فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيهِ قديمًا فحفروهُ وعمقوا حفرهُ واجروا فيهِ الماء

الى البحر الملح واصعدوا مراكبهم فيهِ الى بورة على ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوهُ من هناك فلما صاروا في البورة قاتلوهُ في الماء وزحفوا اليهِ مرارًا فلم يظفروا منهُ بطائل ولم يتغير على اهل دمياط شيءٌ لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر وكانت العربان تخطف الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفًا من غاراتهم فقوي طمع العرب في الافرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارًا ويأخذون الخيم بمن فيها فكمن لهم الافرنج عدة كمناء وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والح الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون . كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ينادي باخوتهِ مددًا ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من مجيب

وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة تحت قيادة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجالهِ على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطانًا بعد ابيهِ وكان ذلك باتفاق مع اخيهِ الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيص بيص واوجس خيفة من مركزهِ ولم يرَ من ينجدهُ فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه والحقوا بالكامل ولم يقفوا الى اخذ شيءٍ من خيامهم وزخائرهم واموالهم واسلحتهم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوهُ من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئًا لا يحيط بهِ الوصف . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخلهُ همٌّ عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانهُ لم

يعد يثق بنفسهِ ولا بمن حولهُ . اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدَّد الصليبيون عليها الحصار برًّا وبحرًا وكانت تلك السنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذًا عظيمًا . ففيما هم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد ابيهِ العادل فلما علم بما حصل لجيوش ابيهِ بعد وفاتهِ اتى في عدة من رجال الشام فاطلعهُ الكامل على صورة الحال سرًّا وأسرَّ اليهِ ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يومًا على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاهُ فخرج اليهِ فقال لهُ اريد ان اتحدث معك سرًّا في خلوة وسار معهُ وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغلهُ بالحديث ويخرج معهُ من شيء الى شيء حتى ابعدهُ عن المعسكر ثم قال لهُ « يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا » ثم اعطاهُ شيئًا من النفقة وقال لاولئك المجردين تسلموهُ حتى تخرجوهُ من الرمل فلم يسعهُ الاَّ امتثال الامر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال . ثم عاد المعظم الى اخيهِ الكامل وعرفهُ صورة ما جرى ثم جهز اخاهُ الملك الفائز المذكور الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاخراجهِ من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الامراء المواقفين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهًا لا طوعًا

وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيتهِ ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم فتقوى سلطتهم فأمر بهدم اسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئًا يستحق الاعتبار . هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقًا وبنوا عليهِ سورًا

واهل دمياط يقاتلونهم اشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات . والملك الكامل كان لا يزال في اشمون ناظرًا الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي اخيرًا ان ييأس اهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب احد الجاندارية المدعو شمائل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى اهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمئنهم ويعود وبقي على ذلك مدة فحظي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله واليًا على القاهرة واليهِ تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة . وفي اثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهادًا شديدًا وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من اجلها فيتخذونها حصنًا لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة وجعلوها بعد ذلك جامعًا ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما هو فوق الحد فبلغت البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحيل مختلفة مثل ان يأتوا بحمل ويشقوا جوفهُ ويملأوهُ فراخًا وفاكهة وبقلاً وغير ذلك ثم يخيطون عليهِ ويرمونهُ في النيل فيسير منحدرًا مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليهِ واخذوهُ واقتاتوا على ما في جوفهِ . وكان الافرنج احيانًا يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعًا وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الاَّ بعض القمح والشعير

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهرًا و ٢٢ يومًا فدخلوها

واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تنصاعد عن جثث الموتى ما يُلحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرَّة فكان يموت الابن جوعًا وليس من يسعى الى دفنهِ فيبقى في مكانهِ فيلحقهُ الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط ليمنع الافرنج من المسير الى داخلية القطر بحرًا وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثُّوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا بحرًا . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكرهِ في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين بالمنصورة اشارة الى انتصارهِ على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثُّهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين . اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف فارس فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضًا فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم لا يقع عليهِ حصر وانزل السلطان على ناحية شارمساح الف فارس في الآف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر

الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر

وفي اثناء ذلك اتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عندهُ بالمنصورة في ١٢ جمادى الاخرة وتتابع مجيءُ الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو اربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست شواني واسروا منهم الفين ونيف فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فحاربهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلادهِ فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الاَّ الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكًا خاصًا لهُ نالهما بالارث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردُّوا لهُ دمياط وينسحبوا من القطر المصري

فاصرَّ الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضًا لما سبَّبهُ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرًّا من وراء معسكر الافرنج وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعهِ فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقيًا بينهم وبين دمياط الاَّ طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضاقت عليهم الارض

وانفق مجيءُ مرمَّة عظيمة مددًا للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها فاتصل

ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعهِ ولا يطلبون لذلك مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ ﻫ بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الافرنج ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى الملك الكامل ابنهُ الملك الصالح وكان سنُّهُ ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الافرنج الى دمياط وسلموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا أنفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الافرنج فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الافرنج مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معهُ الى ابيهِ فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوتهِ وعساكرهِ وكان ليوم دخولهِ اليها احتفال عظيم

ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصرهِ فيها وبين يديهِ اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهلهِ وخواصهِ وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنُّون فامر الملك الاشرف جاريتهُ فغنَّت على عودها

ولما طغى فرعون عكا وقومهُ وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتى نحوهم موسى وفي يدهِ العصا فاغرقهم في اليمِّ بعضاً على بعضِ

فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها وقال لجاريتهِ غنّي انتِ فاخذت العود وغنَّت

ايا اهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجدَّدا
اعبَّاد عيسى ان عيسى وحزبهُ وموسى جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة اولها (ابى الوجد الاَّ ان ابيت مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لكل من الجاريتين بجائزة

ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزّة وكان من جملة الجلساء وقال

هنيئًا فان السعد جاء مخلّدا وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلهُ الخلق فتحًا لنا بدا مبينًا وانعامًا وعزًّا مؤبدا
تهلّل وجه الارض بعد قطوبهِ وأصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضمُ باهلهِ الطغاة واضحى بالمراكب مزبدا
اقام لهذا الدين من سلَّ عزمهُ صقيلاً كما سلَّ الحسام المهندا
فلم ينجُ الاَّ كل شلوٍ مجدّل ثوى منهم او من تراهُ مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعًا عقيرتهُ في الخافقين ومنشدا
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبهُ وموسى جميعًا ينصران محمّدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد السلطان الى مقرّ ملكهِ في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى وكان منهم من لهُ من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الافرنج على دمياط الى ان اقلعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و ١٩ يومًا منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يومًا

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهّر البلاد منهم حتى لم يعد لديهِ من ينازعهُ في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتنمًا فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنهُ من الاغتيال باخويهِ الذين لولاهما لم تقم لهُ قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيهِ الملك المعظم واستخراج دمشق من يدهِ فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل بهِ خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنهِ الملك الناصر صلاح الدين داود

مكانهُ فاستبشر الملك الكامل ووضع يدهُ على الشوبك وبيت المقدس وغيرها مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمهُ الاشرف وكان متسلطًا على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءهُ حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنهُ ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توًّا من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخاصمًا انتهى بموت الملك الاشرف فخلا الجو للملك الكامل واصبح الوارث لكلا الملكين فاتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥ هـ ودفن في قلعتها . وكان محبًّا للعظمة والافتخار متمسكًا بالسنَّة النبوية محبًّا للعلماء حسن الاعتقاد معاشرًا الارباب الفضائل حازمًا في امورهِ لا يضع الشيء الاَّ في موضعهِ من غير اسراف ولا اقتار وكان يبيت عندهُ كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم ولما تولَّى سلطنة مصر خفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة

وترى في الشكلين ٥٥ و٥٦ صور النقود التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى الآخر اسم الامام المستنصر

ش ٥٥ نقود الملك الكامل وعليها اسم المستنصر بالله الخليفة السادس والثلاثين من بني العباس فالأولى نقود ذهبية ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ هـ والثانية نحاسية ضربت في حلب

ش ٥٦ نقود الملك الكامل

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ ـ ٦٣٧ هـ اومن ١٢٣٨ ـ ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنهُ سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفهُ ابوهُ على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا الاميريونس الملقب بالملك الجواد اميرًا على سوريا تابعًا لمملكة مصر الَّا ان امارتهُ هذه لم تطل لانهُ اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميرًا على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فاتى الملك الصالح الى سوريا وسار الاميريونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاخلاص الملك من اخيهِ فتنبَّأ الملك العادل بذلك واوجس خيفةً فسار بجيوشهِ الى بلبيس ليوقف سير اخيهِ اذا حاول المجيء الى مصر فلما وصل بلبيس نزل فيها وما اصبح الَّا وهو في قبضة امرائهِ مقيَّدًا وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خلعوهُ واستقدموا اخاهُ الملك الصالح وبايعوهُ على مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مالئة الجو فانتهت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها نحو سنتين

سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ اومن ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمهِ فيها فامر في السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوهُ

على خلع اخيهِ وبايعوهُ مكانهُ وقتلهم جميعًا وولّى مكانهم من اختبر امانتهم نحوهُ . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارتهِ وحظر عليهِ القدوم الى مصر فاغتاظ لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوهُ من اجل ثروتهِ راجين التقرب بواسطتهِ من اسماعيل امير دمشق وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم ولما تم التحالف المذكور احتلّ الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتمون بمحاربة مصر

وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيزخان من شرقي اسيا اثناء فتوحاتهِ هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحًا وعاهدوهم على محاربة الافرنج وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتجنّد الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الافرنج عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية فانهزم الافرنج فتتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئًا كثيرًا من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مددًا وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرها وحارب محاربات اخرى شغلتهُ من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشغلت عن خضوع دمشق اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسهِ لقيادة جندها فتاجأهُ مرض ثقيل وهو تورُّم في مأبضهِ تكوَّن منهُ ناصور فتح وعسر برؤهُ وانضاف اليهِ قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءهُ منبئ يخبرهُ بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت

اليهم النجدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكأني بهولاء الافرنج قد تخيلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش الاسلام بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فاقرّوا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة يرأسها ملك فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها منتخبون من اشد رجال اوروبا الا ان التعصب غشي ابصارهم فجاؤا يتحملون المشاق والاسفار لمحاربة ابناء جلدتهم واهراق دماء العباد انتصاراً لمن هو في غنى عن نصرتهم

فلما علم الملك الصالح بقدوم الافرنج وهو فيما تقدم من المرض لم يسعهُ الا مبارحة دمشق فسار في محفّة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧ هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ما جرى في ايام ابيهِ وجهز اسطولاً من صناعة مصر وجعل فيهِ سائر ما يحتاج اليهِ الجند وسيرهُ شيئاً فشيئاً وضم الى جندهِ كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه المدينة الى الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً ونصهُ

« اما بعد فانهُ لم يخفَ عليك اني امين الامة العيسوية كما انهُ لا يخفى عليّ انك امين الامة المحمدية وغير خافٍ عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونهُ الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وانا قد ابديت لك ما فيهِ الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي

الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلاً اليك وقاتلك في اعزّ البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة اليّ وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قُرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتدّ بهِ المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواتهُ على سيدنا محمد رسول الله وآلهِ وصحبهِ اجمعين . اما بعد فانهُ وصل كتابك وانت تهدّد فيهِ بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فنحن ارباب السيوف وما قتل منا فردٌ الاّ جددناهُ ولا بغى علينا باغٍ الاّ دمّرناهُ ولو رأت عينك ايها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وخربنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعضّ على انامِلك بالندم ولا بد ان تزلّ بك القدم في يوم اوّلهُ لنا وآخرهُ عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيهِ على اوّل سورة النحل أتى امر الله فلا تستعجلوهُ وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمنّ نبأهُ بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي لهُ مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام»

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير فخر الدين لغير داع فتبعتهُ بني كنانة وخرجوا من المدينة فتبعهم الاهالي في الليل على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بأمان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن

والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لا تُعوَّض . فاستشاط الملك الصالح غيظًا لذلك وجمع اليهِ بني كنانة وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الّا بعد ان رأينا الامير فخر الدين فارًّا ومن ورائهِ رجالهُ فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنهِ

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الّا انهُ لم يعش بعد ذلك كثيرًا فتوفاهُ الله في ١٤ شعبان وسنُّهُ اربعون سنة وكان رجلاً مهيبًا قليل التكلم يهابهُ من يجلس في مجلسهِ وكان عندهُ عدد من المماليك لم يسبقهُ احد قبلهُ ولم يوصِ قبل موتهِ بمن يأخذ السلطان بعدهُ ولم يكن لهُ من البنين الّا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركهُ في سوريا . وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدرّ وهي والدة غياث الدين فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصي جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيرًا ما عهد اليها ادارة الاحكام اثناء غيابهِ عنها في حملاتهِ الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتمت امر موتهِ ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلةً « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعدهُ ابنهُ الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عيَّن الامير فخر الدين اتابكًا لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بخنم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حيًّا لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الافرنج فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها

محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقًا اليها غير النيل . فاتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سريّة من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة وكان الامير فخر الدين في الحمّام فانتهُ الاخبار بهجوم الافرنج على المحلة فانبغت ونادى في رجالهِ وخرج للدفاع فادركهُ بعضهم فقتلهُ وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعًا شديدًا وانتهت الموقعة وقد اعيى الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادمًا من سوريا فاشتد عزم المسلمين بهِ وهاجموا النصارى في البرّ والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركبًا . فلما راى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيهِ وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفد زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٣ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم واثخنوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفًا واسروا الملك لويس التاسع وكثيرًا من ضباطهِ وكبار جيشهِ وكانوا قبل ان قُبض عليهم قد فرُّوا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز للمصريين اشهروا امر وفاة الملك الصالح ومبايعة

الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعتهِ وانتصارهِ معًا . ثم عزل كل من كان في يدهِ ازمَّة الحكومة من المصريين وولَّى مكانهم رجالاً ممن جاؤا معهُ من بين النهرين لانهُ كان اشدَّ ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيرًا . وفي غاية محرم ثار عليهِ المماليك وهموا الى قتلهِ وفي جملتهم مملوك يدعى بيبرس ففرَّ الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامهُ للحصار في فرسكور فاحرقوا البرج فالقى بنفسهِ الى النيل لعلهُ يجد قاربًا بركبهُ فينجو بحياتهِ فادركهُ المماليك وقطعوهُ اربًا اربًا

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من العائلة الايوبية وبموتهِ انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

تم الجزء الاول

فهرس الجزء الاول من تاريخ مصر الحديث

المقدمة

صفحة

فاتحة الكتاب ١
اقسام تاريخ مصر العام ٩
مصادر تاريخ مصر القديم ١٢
حل الكتابة الهيروغليفية ١٣
جغرافية مصر القديمة ١٦
ديانة المصريين القدماء ٢٠

تاريخ مصر القديم

الدولة الملكية القديمة من عائلة ١ ـ ١٠ ٢٦
« « الوسطى « « ١١ ـ ١٧ ٣٤
« « الاخيرة « « ١٨ ـ ٣١ ٤٤
« اليونانية « « ٣٢ ـ ٣٣ ٧٣
« الرومانية وهي العائلة ٣٤ ٨١

تاريخ مصر الحديث

مصادر تاريخ مصر الحديث ٨٥
جغرافية مصر الحديثة ٨٩

دولة الخلفاء الراشدين

خلافة عمر بن الخطاب ٩٣
« عثمان بن عفان ١٢٣
« علي بن ابي طالب ١٣٠

الدولة الاموية

صفحة

خلافة معاوية بن ابي سفيان ١٤٠
« يزيد بن معاوية ١٤٣
« معاوية بن يزيد ١٤٤
« خلافة عبد الملك بن مروان ١٤٧
« الوليد بن عبد الملك ١٤٨
« سيمان بن عبد الملك ١٥٠
« عمر بن عبد العزيز ١٥١
« يزيد بن عبد الملك ١٥٣
« هشام بن عبد الملك ١٥٣
« الوليد بن يزيد ١٥٤
« يزيد بن الوليد ١٥٥
« ابراهيم بن الوليد ١٥٥
« مروان بن محمد ١٥٦

الدولة العباسية

خلافة ابي العباس بن محمد ١٥٩
« المنصور بن محمد ١٦٠
« محمد المهدي ١٦٣
« موسى الهادي ١٦٥
« هارون الرشيد ١٦٥
« محمد الامين ١٦٩
« عبدالله المأمون ١٧١
« محمد المعتصم ١٧٧

صفحة

خلافة الواثق بن المعتصم ١٨١
« المتوكل بن المعتصم ١٨١
« المنتصر بن المتوكل ١٨٤
« المستعين بن محمد ١٨٥
« المعتز بن المتوكل ١٨٧
« المهتدي بن الواثق ١٩١
« المعتمد بن المتوكل ١٩١

الدولة الطولونية

حكم احمد بن طولون ١٩٤
« خمارويه بن احمد ٢١٨
« جيش ثم هارون ابني خمارويه ٢٢٥
« شيبان بن احمد ٢٢٨

الدولة العباسية الثانية

خلافة المكتفي ثم المقتدر ابني المعتضد ٢٣٢
« القاهر بن المعتضد ٢٣٣
« الراضي بن المقتدر ٢٣٥

الدولة الاخشيدية

حكم محمد الاخشيد ٢٣٧
« انوجور بن الاخشيد ٢٤٣
« ابي الحسن علي بن الاخشيد ٢٤٤
« كافور الاخشيدي ٢٤٥
« ابي الفوارس بن علي ٢٤٥

الدولة الفاطمية

صفحة

خلافة المعزّ بن المنصور ٣٤٦
« العزيز بن المعزّ ٣٥٤
« الحاكم بامر الله ٣٥٨
« خلافة الظاهر بن الحاكم [illegible]
« المستنصر بن الظاهر ٣٦٣
« المستعلي بن المستنصر ٣٨٤
« الآمر بن المستعلي ٣٨٩
« الحافظ بن محمد ٣٩٣
« الظافر بن الحافظ ٣٩٥
« الفائز بن الظافر ٣٩٦
« العاضد بن يوسف ٣٩٨

الدولة الايوبية

سلطنة صلاح الدين يوسف ٤١٥
« الملك العزيز بن يوسف ٤٣٤
« « المنصور بن العزيز ٤٣٧
« « العادل بن ايوب ٤٣٨
« « الكامل بن العادل ٤٤١
« « العادل بن الكامل ٤٥٠
« « الصالح بن الكامل ٤٥٠
« « المعظم بن الصالح ٤٥٥

اصلاح خطا . صفحة ٩٠ سطر ٢١ اسكندرية صوابها والاسكندرية ورشيد

كتاب

تاريخ مصر الحديث

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الثاني ٧٠٢

طبع بالرخصة الرسمية (نمرة ٦٣)

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

طُبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٠٦ هجرية او ١٨٨٩ مسيحية

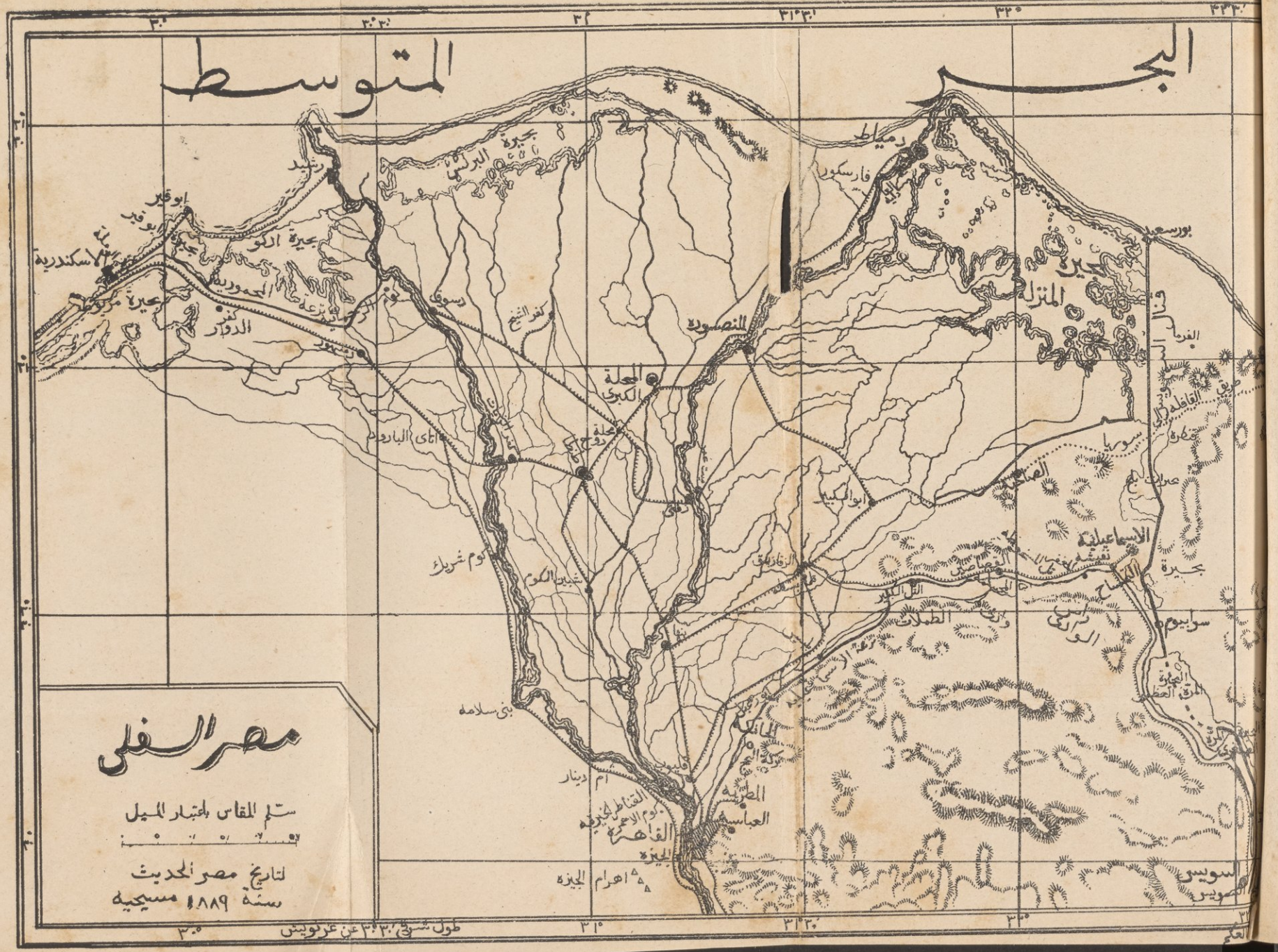
البحر المتوسط
مصر السفلى
سلم المقاس باعتبار الميل
لتاريخ مصر الحديث
سنة ١٨٨٩ مسيحيه
الاسكندرية
ابوقير
رشيد
بحيرة البرلس
دمياط
فارسكور
بورسعيد
بحيرة المنزلة
المحمودية
كفر الدوار
دسوق
كفر الشيخ
المنصورة
المحلة الكبرى
اتاى البارود
كوم شريك
شبين الكوم
بنى سلامه
ام دينار
قليوب
القاهرة
الجيزة
اهرام الجيزه
المطرية
العباسية
الزقازيق
ابو الكبير
الصالحية
الاسماعيلية
بحيرة التمساح
سرابيوم
السويس
طول شرقى ٣٠° ٣٠' عن غرنويش

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ او من ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ أمرهم في السلطنة

منشأ المماليك في قنجاق من شمالي اسيا وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة بانوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القسبينية والقوقاسية فتشتتت قبائلهم وتفرقوا في القارة فالخوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك اما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقرًا يقيمون فيهِ فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لا يستقرُّون على حال . وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتنم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنيةً وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يذبحونهم فاكثرَ امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقَّاء البيض ودعوهم بالمماليك . فالملك الصالح كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولتهِ وخاصة بطانتهِ والمحيطين بدهليزهِ ودعاهم بالحلقة اشارة الى انهُ لا يبرح محاطًا بهم كيفما توجه وكانت مماليك الملك الصالح صنوفًا يميِّز كلٌّ منها بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم او اسلحتهم فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور وكانوا يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنهُ قلاقل في سائر المملكة المصرية

وقد كانوا بالواقع ميّالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعِدد وكانت اهمّ مصالح الدولة في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقرًّا لهم حتى اذا ضاقت ذرعًا عن الاحاطة بهم ابتنوا بامر الملك الصالح قصورًا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس وقد زادها مركزها الطبيعي مناعةً وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعهِ بالبحر لعظم اتساعهِ فسمّي هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزًا لها من دولة اخرى ستأتي بعدها وتدعى بدولة المماليك الشراكسة

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يومًا فيوم الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولّي الملك مكانهُ . فلما تولى الملك المعظم وكان على ما كان عليهِ من الاستبداد انفت نفوسهم من اعمالهِ فسعوا بما سعوا الى ان قتلوهُ على ما تقدم . وكان الملك لويس التاسع والذين معهُ لا يزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليهِ الملك المعظم قبل قتلهِ . ولما لعبت النار بالبرج فرّ الملك لويس ومن معهُ ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقلعوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاهُ للملك لويس وطلب اليهِ ان يكافئهُ على قتل عدوّه . وقال بعض المؤرخين ولا اراهُ في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طلبوا الى لويس المذكور ان يتولّى زمام الاحكام مكانهُ فرفض

سلطنة شجرة الدرّ

سنة ٦٤٨ هـ او ١١٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكانت كل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدرّ ام الملك المعظم (وعلى قول بعضهم مربيته) بعد ان رأت ما حلّ بابنها تاركة الحنو الوالدي جانبًا وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك اعزّ جانبًا من الجميع. ونظرًا لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع. وكيفية ذلك انها تواطأت مع ايبك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذًا وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح ويقال انه من قتلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطئ من مبايعة جميع الاعيان لها ولُقبت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر وكانت توقع بما مثاله «والدة خليل» ونقشت اسمها على النقود بما هو «المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين» وعيّنت عزّ الدين اتابكًا عندها. ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفض الضرائب الّا ان جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه الملكة فكتب اليهم ما مفاده «اذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة اقدمُ اليكم فاقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ما قاله النبي (صلعم) عليهنّ» فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة

(١) خاب قوم تولى امرهم امرأة (حديث)

شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من كان في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميمس وعجلون فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقته والجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت

سلطنة ايبك الجاشنكير

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولُقب بالملك المعزّ الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبهِ . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عُرفا بالمعزّيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحيين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون

سلطنة الملك الاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ او من ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م

فاجبروا ايبك ان يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبية لم يبلغ الثامنة من العمر وكان في اليمن واسمهُ موسى مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن فبايعهُ في ٥ جمادى الاولى وبايعهُ الناس ولقبوهُ بالملك الاشرف ونعين عز الدين اتابكًا لهُ غير ان ازمّة الاحكام ما برحت في يدهِ ولم يكن الاشرف الاَّ اسمًا بلا رسم ومن الغريب تألُّف هذه السلطة المزدوجة من احد سلالة العائلة الايوبية واحد مماليكها والاغرب من ذلك ان يُخطب لهما معًا

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للأخذ بثار الملك المعظم فدعى اليهِ اقرباءهُ امراء العائلة الايوبية للتعاضد على ذلك وتأكيدًا لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيد لهُ مقابلةً لذلك بيت المقدس فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهبًا لعقد المعاهدة وانفذ الى المماليك في مصر مندوبًا يطلب اليهم التعويض على نكث المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين وكان من صالحهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطالبهُ واطلقوا عددًا كبيرًا من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين لتجديد المعاهدة فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الآتي ذكرها وهي

اولاً . ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانيًا . ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد أُجبروا على الاسلام

ثالثًا . التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوهُ فوقها فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل أُرسل الى فرنسا وتبرعوا ان يعيدوا اليهِ بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل امر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ فرقةً من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا ثم تشدد السوريون وعادوا بمدد كبير تحت قيادة شمس الدين لولو حاكم مملكة دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسهِ فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسة وتقاتلا فانكسر المصريون اولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما

جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجالهِ فقتلاهُ وشتّتا رجالهُ فاشتدَّ ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة قليلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر السلطان الى الفرار بنفسهِ فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهاليها ظنًّا منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوهُ وخطبوا لهُ . الّا ان الائمّة لم يوافقوا على تلك المبايعة شخصيًّا على انهم لم يخجلوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جدًّا وابطلوا مبايعة ناصر الدين اما هذا لما رأى امر انكسارهِ على ما تقدم لم يعد يمكنهُ اعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة واورشليم وقد ربح من الجهة الثانية ما كان يرومهُ من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفًا من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت آثارها ولم يبقَ منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك فبلغت جمالًا فائقًا وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميتهُ للتجارة وقد بالغ المقريزي في وصفها لانها كانت في ايامهِ (في القرن التاسع للهجرة) ازهى واعمر مما هي الآن فنظم في مدحها قصيدة ٣٢ بيتًا اقتطفت منها هذه الابيات

سقى عهد دمياط وحيّاهُ من عهدِ ... فقد زادني ذكراهُ وجدًا على وجدِ
وبشنينها الريّان يحكي متيمًا ... تبدّل من وصل الاحبّة بالصدِّ
فقام على رجليهِ في الدمع غارقًا ... يراعي نجومَ الليل من وحشة الفقدِ

وظلّ على الاقدام تحسب انهُ لطول انتظارٍ من حبيبٍ على وعدِ
كأن التقاء النيل بالبحر اذ غدا مليكان سارا في المحافل من جندِ
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا ولا طعن الاّ بالمثقّفة المللِ

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهرهُ من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبهُ احزابهُ بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شرًّا من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرتهُ في الملك فاخذ يسعى للتخلص منهُ وكان الفارس زعيمًا لحزبٍ من المماليك الصالحيين وكانوا يطلبون لهُ المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقّى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكًا اما الفارس اقطاي فقتلهُ ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشي الوقوع في شرّ اعمالهِ فامر بقفل ابواب القلعة وابواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمضِ برهة حتى جاء الامراء الصالحيون برأسهم بيبرس وتجمهروا على ابواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاي ظنًّا منهم انهُ كان مأسورًا فرمي اليهم برأسهِ من على السور فلما علموا بقتلهِ ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار قاصدين باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم وأُودعوا السجن

فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاهُ في سجن مظلم فمات فيهِ تعيسًا بعد ان حكم سنة وشهرًا

ش ٥٧ نقود الملك الاشرف

وترى في الشكل السابع والخمسين صورة النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن يوسف وعليها اسمهُ واسم الامام المستعصم بالله العباسي . والاشرف آخر من ملك

في مصر من الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في دمشق وحلب وحمص وميافرقين الاّ ان هولاء لم تمض عليهم عشر سنين حتى انقرضوا ولم يبقَ منهم الاّ فرع واحد في حماه بقي حاكمًا فيها قرنًا بعد انقراض جميع الدولة وكانت سلطتهُ ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسلهِ ابو الفدا المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ ﻫ . وقد نسي كثيرون منا ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها العظيمة ولكنا لم ننسَ ابا الفدا لانهُ ترك لنا ذكرًا لا يمحى بتاليفهِ المشهور

واستوزر ايبك شخصًا من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اظهر الاسلام من ايام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة وكان طبيبًا للسلطان الايوبي الخامس مشهورًا بالطب والسياسة فلما صار وزيرًا قرر على التجار وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوسًا وضمانات سموها حقوقًا ومعاملات وهو اول قبطي وُلّي الوزارة

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونهُ الملك حسب الجو قد خلا لهُ وما درى ان شجرة الدرّ لا تزال واقفة لهُ بالمرصاد بعد ان صارت لهُ زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصدهِ ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمهِ باستقلالها من مهام الملك على انهُ لم يستطع احتمال هذا التقيُّد والسلطان في يدهِ فجعل يبحث عن طريقة تنقذهُ من هذه القيود مع علمهِ ان مكايد النساء اشد وطأةً من ملاقاة ابطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو منها نسلاً فاقتنى عليها سراري اخريات فولدت لهُ احداهنّ ولدًا دعاهُ نور الدين علي ثم بلغها انهُ ساع الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها فاشتعلت حسدًا لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت ان تحل محلها من العظمة فاقرّت على الكيد بهِ

فبينما كان ماراً في ٢٢ ربيع اول سنة ٦٥٥ هـ في الدهليز السرّي الى دار الحريم وثب عليهِ خمسة خصيان بيض كانوا قد كمنوا لهُ هناك وخنقوهُ بعمامتهِ وكان ذلك بدسيسة شجرة الدرّ فاشاعت انهُ مات مصروعًا وكان ايبك ظلومًا غشومًا سفاكًا للدماء

ولم تجسر شجرة الدرّ تعاطي الاحكام بنفسها خوفًا من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وهما جمال الدين عضوغدي وعزّ الدين الحلبي وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالي . فلما علم اصحابهُ من المماليك بما حلّ بهِ اضمروا على الانتقام وكان سن ابنهِ نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوهُ ولقبوهُ بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحدى عشر شهرًا شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليهِ بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصًا للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ ــ ٦٥٧ هـ او من ١٢٥٧ ــ ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيهِ وعهد بها الى نساء بيتهِ فاماتوها ضربًا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة .

فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدرّ وايبك كما رأيت فجوزي كل منهما بما فعل لانهما قتلا الملك المعظم

اما نور الدين علي فلم يحكم الاَّ مدة قصيرة تحت مناظرة وصيِّهِ شرف الدين هبة الله المتقدم ذكرهُ . ولم يلبث حتى استبدلهُ بسيف الدين قطوز مع لقب اتابك اي وصي الملك ونائبهُ ولما تولَّى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليهِ المماليك الصالحيين من سوريا وعقد معهم مجلساً اقروا فيهِ على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظراً لصغر سنهِ واذاعوا ذلك فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطوز

سلطنة المظفر سيف الدين قطوز

من سنة ٦٥٧ ــ ٦٥٨ هـ او من ١٢٥٩ ــ ١٢٦٠ م

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفهِ فهو ابن مودود شاه ابن اخ ملك خراسان فتح التتر بلادهُ فتشتتت عائلتهُ ولما تولَّى سلطنة مصر لُقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتلهِ فحاول العلاَّمة شرف الدين المدافعة عنهُ فصلبهُ على باب القلعة

ثم لاح لهُ ان دمياط بعد ان دكَّت اسوارها لم يعد ثمَّ ما يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من المجارين فمضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوها فيهِ حتى ضاق وتعذر سير المراكب منهُ الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيهِ فتنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تتري ناقلاً منشوراً من هولاكو

ملك المغول حفيد جنكيزخان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية والشرقية وكان هولاكو قد غزا العراقين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وفتح بغداد عنوة سنة ٦٥٦ هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله وبقتلهِ سقطت الدولة العباسية وبعد هذه الفتوحات نزل هولاكو الى سوريا ففتح دمشق وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشورًا ونصهُ « من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق اعظم الخانات هولاكو خان فاتح الفتوحات الغريبة صاحب الجيوش العديدة الى اهل مصر. فيا اهل مصر لا تخاطروا بانفسكم في محاربتي لانكم ان فعلتم اذًا انتم مخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل »

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التتري وما هو عليهِ من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشهُ كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانشة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليهِ قبائل العربان وفرّق فيهم وفي سائر جيشهِ نحوًا من ستماية الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاهُ تصفيع الاملاك وزكاتها واحدث على كل انسان دينارًا يوخذ منهُ واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينارًا سنويًا. ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيهِ منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة فعاد تاركًا في سوريا نحوًا من عشرة الاف من نخبة فرسانهِ تحت قيادة نسيبهِ ونائبهِ كتبوغا لمحاربة قطوز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما موقعة كبيرة شنّت عن هلاك كتبوغا وكل رجالهِ والقبض على ابنهِ. وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثمن

ما نهبهُ هولاكو من اغنى المدن اثناء فتوحاتهِ . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافرًا ولم تتم سعادتهُ لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتلهُ بعض رجالهِ الذين كانوا يترقبون فرصة لقتلهِ فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ ﻫ بعد ان حكم ١١ شهرًا و١٢ يومًا

وتفصيل ذلك انهُ بينما كان عائدًا بجيشهِ الى القاهرة مرَّ من امامهِ ارنب برّي وكان مولعًا بالصيد فسار على اثرهِ في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحدهُ ولا صيد معهُ فتقدم لملاقاتهِ احد امرائهِ المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منهُ همَّ الى يدهِ كانهُ يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديهِ وطعنهُ بالاخرى في قلبهِ فسقط صريعًا يخبط الارض فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معهُ على هذه الفعلة فرفعوا جثة سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خَلَف فخشي ذوو الفقيدان تبلغ الموسى لحاهم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع السواد الاعظم من الجيش فسار اليهِ قتلة قطوز واخبروهُ بما فعلوا فقال لهم «من منكم ضربهُ الضربة الاولى» فاجاب بيبرس انا هو فقال لهُ احكم اذًا مكانهُ

فبويع بيبرس للحال ولُقّب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدلهُ بالملك الظاهر واضاف اليهِ ابا الفتوح وكان يلقب ايضًا بالعلائي وبالبندقداري نسبة الى سيدهِ الذي كان يدعى علاء الدين بندقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

من سنة ٦٥٨ ــ ٦٧٦ ﻫ اومن ١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م

ولما تم لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة وجعل بهاء الدين وزيرًا

وبيلي بك وهو من اعز اصدقائهِ من المماليك خزندارًا واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأنعم وضمهم اليهِ واطلق من في السجون جميعًا بغير استثناء واكثر من العطايا لرجالهِ وابطل كثيرًا من الضرائب التي كان قد ضربها سلفهُ كتصقيع الاملاك وتقويمها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك واعلن امرهُ هذا على لسان الخطباء في المنابر

على انهُ مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لا سيما السوريون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنقر حاكم حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر تحت قيادة هولاكو فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاخماد الثورة فحارب التتر وتغلب عليهم في ٣ مواقع متوالية فقنط الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها اشر الانتقام وما زال حتى اخضع سائر بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية

وفي سنة ٦٦٠ هـ قدم اليهِ من بقي من الدولة العباسية منهزمين من وجه التتر بعد ان وقعت بغداد في يدهم فالتجأوا اليهِ وفي جملتهم ابن الخليفة الظاهر بامر الله الذي ذبحهُ التتر فاكرم وفادتهُ ولم يبخسهُ شيئًا من حقوق الخلافة بل اقامهُ خليفة في القاهرة ولقبهُ بالمستنصر بالله فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقرّ الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الاّ من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالائمة . وقد رافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عمّ سائر القطر فتشاءم الناس بحلولهم . اما بيبرس فلم يألُ جهدًا في استجلاب الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانقذ بلادهُ من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جندًا كبيرًا لاخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر

فلاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الاَّ خمسة اشهر وعشرين يومًا فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله . ثم أُلجئ بيبرس الى تجريدة اخرى انتقامًا من فخر الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليهِ سلطنة مصر كان قد ترك امرأتهُ عند فخر الدين وقاية لها مما كان يقاسيهِ من الاسفار والعذاب وعهد اليهِ رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولَّى امور مصر فثار فيهِ حب الانتقام فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فخر الدين احتيالاً وسلمهُ الى امرأتهِ فقتلتهُ على مثل ما قُتلت عليهِ شجرة الدرّ فامست الكرك بغير رئيس فسلَّمت وصارت جزءًا من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشًا كبيرًا لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين وما زالت الحرب بينهما سجالاً مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وفيما هو محاصر عكا الجئ الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وتهددوا سائر سوريا فاغتنم حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدوًّا لان هولاكو كان قد مات وتشتتت جيوشهُ فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال لهُ هيتون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحاتهِ الى الاناضول فهاجمهُ ربكا خان بن هولاكو وولي عهده فاعاده على اعقابهِ فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح اهلها . ثم رجع الى عاصمتهِ بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

وقضى بيبرس سنة ٦٥٦ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم

داخليتهُ فابطل ضمان المزر وجهاتهِ وامر باراقة الخمور وابطال المنكرات ونعنية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطئ بجميع اقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين

ليس لابليس عندنا ارب غير بلاد الامير مأواهُ
حرفتهُ الخمر والحشيش معًا حرمتا ماؤهُ ومرعاهُ

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوهُ من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعًا قُرئ في المنابر. وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر البازانهٔ يشرب المسكر فشنقهُ تحت قلعة الجبل. ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في ابطال جميع هذه المنكرات الّا لعلمهِ يقينًا ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي سنة ٦٦٢ هـ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل اثنين وخميس وكان ينظر في امر المتظلمين بنفسهِ فاذا كان لاحد مظلمة يأتي رأسًا ويشكوها للسلطان وهو يأمر بالحال بصرفها بوجه الحق

وفي سنة ٦٦٦ هـ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وصافيتا ومرقية وايباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم احب بطريقهِ الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنهِ بركة خان فمر بحلب فطرد التتر منها ثم زار قبر ابراهيم في حبرون وسار لزيارة بيت المقدس ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحتهُ الجهادية والدينية معًا

وقد كانت طريق الحج من مصر الى مكة المشرفة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل الفساط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون فيهِ الى جدة ساحل مكة وهكذا بعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضًا وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسلك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة المشرفة وكساها وعمل لها منتاحًا فصارت طريق الحج برًّا من ذلك الحين اما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ﻫ ومن ذلك الحين قلَّت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ ﻫ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين وكان هولاكو قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم

وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا بيرا فتجند اليهم بيبرس وسارت معهُ فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفي فالتقى الجيشان عند بيرا واشتدت الحرب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على بيرا . ثم ساروا الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة . ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا لهُ القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالاً بعودهِ ظافرًا وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

ثم ان اباكا خان بن هولاكو خان قدم سوريا وحاصر بيرا ثانية فلاقاهُ الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وارجعهُ على اعقابهِ فسرَّ بيبرس من بسالتهِ واتخذ ابنتهُ زوجة لابنهِ ليكون ابنهُ في المستقبل آمنًا

في حمى حميهِ . فأمنت سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغتيالاً فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ لافتتاح نوبيا ففتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا . وفي هذه السنة حارب بيبرس برقة وافتتحها وعاد التتر على اثر هذه الفتوحات لافتتاح سوريا العليا فسار بيبرس الى حمص يريد دفعهم بنفسهِ فاتفق خسوف القمر خسوفاً تاماً فتشاءم بعض الذين يصدقون الخرافات وقالوا ان ذلك دليل على موت امير كبير وكان بيبرس يعتقد مثل اعتقادهم فلاح لهُ ان هذا التشاؤم يصح عليهِ ولكنهُ قال بنفسهِ « يجب عليَّ قبل موتي ان اميت من اخشى ان يتولى الحكم بعدي ممن ليسوا على دعواي » فلم يجد الا الامير داود ناصر الدين بن طوران شاه آخر سلالة الايوبيين فامر باحضاره ولما حضر اعطاه كاساً فيهِ سمٌّ وامرهُ ان يشرب فشرب بعضهُ واعطى الكأس لبيبرس فملأهُ وشرب هو ايضاً فسقطا معاً قتيلي الخرافات قبحها الله ما اضعف حجنها وما اشد وطأتها

وكانت وفاة الملك الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ بعد ان حكم ١٧ سنة وشهرين وعشرة ايام . وكان ملكاً جليلاً عجولاً كثير المصادرات لرعيتهِ ودواوينهِ طويل القامة ملمح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد برقة خان وقد ملك بعدهُ وسلامش وهذا ملك بعدهُ ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعاً . ومما فتح الله على يدهِ من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراص والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وباناس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول وصار الى يدهِ ما كان في يد المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر

وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرصافة ومصياف والقلعة والكرك والشوبك وفتح بلاد النوبة وبرقة . ومن اعماله المأثورة انهُ عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمّر قناطر شبرامنت بالجيزة وسوّر الاسكندرية ومنار رشيد وردم فم بحر دمياط ووعر طريقهُ وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصيبة وبعلبك والصلت وصرخد وعجلون وبصرى وشيرز وحمص وعمّر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعلهُ الفرنساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر جعلتهُ الحكومة مخازن للاقوات . وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشرهُ بنفسهِ وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدّد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليهِ الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثارهِ في القاهرة ايضاً قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج الى قلعة الجبل ولا بد للمتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من ان يقطعها هذا اذا لم يمر عند فم الخليج فانهُ اذ ذاك يمرُّ بجانب منشأها . وهي تنتهي من طرفها الغربي بالسبع سقايات بجانب فم الخليج . والسبع سقايات بناء قديم فيهِ سبع دواليب (سواقي) لرفع المياه من النيل وتحويلهِ الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيهِ الى قلعة الجبل وجعل عليها سباعاً من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة بعضها مهدوم وبعضها باقٍ وفي الحالين لا فائدة منها لانها لا تستخدم لشيء . وكان محبّاً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاهُ ميدان القبق ويقال لهُ ايضاً الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر وبنى فيهِ مصطبة

سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية. وكان يحثُّ الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي امير ولا مملوك الاَّ وهذا شغلهُ وما برح من بعدهِ اولادهُ ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون ان يسلب الاهالي درهمًا واحدًا فوق ما اعتادوا دفعهُ من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائهِ كانت تساعدهُ كثيرًا في النفقات

ش ٥٨ نقود الملك الظاهر بيبرس

هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت لهُ اثرًا يبقى ذكرهُ دهورًا طوالاً

وترى في الشكل الثامن والخمسين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها صورة اسد

سلطنة برقة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ ـ ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنهِ البكر محمد ناصر الدين برقة خان . ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع فيهم العدو فارسلوا جثتهُ سرًّا الى دمشق واشاعوا هناك انهُ مريض فنقلوهُ الى القاهرة في هودج ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنهُ البكر برقة خان ولقبوهُ بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي (ببلي بك) اتابكًا وكان بلباي في الاصل مملوكًا ابتاعهُ بيبرس بثمن بخس الاَّ انهُ ارتقى في خدمتهِ حتى صار امين خزائنهِ . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان يكون وصيًّا على ابنهِ في مهام السلطنة وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انهُ القى اليهِ كل مهام الدولة فسعُدت مصر في بادئ الرأي الاَّ انها ما لبثت حتى تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد واثقًا باحد من امرائهِ ليعهد اليهِ مهام الامة لانهُ كان يظن انهم هم الذين سعوا الى قتل وصيّهِ ولكنهُ لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختيارهُ على اق سنقر فاتح نوبيا فولاهُ الاتابكية وبعد يسير خنقهُ في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءًا لكنهم شغلوا عنهُ بثورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنقر الملقب بالاشقر كان واليًا على دمشق تحت رعاية برقة خان فادعى الملك لنفسهِ فبايعهُ اهلها ولقبوهُ بالملك الكامل فاسرع برقة خان الى دمشق ونزل بجيشهِ في القصر الابلق الذي كان قد بناهُ ابوهُ وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها

دسيسة من امرائهِ . فلما علم هولاء بانكشاف امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم برقة خان فامتنعوا عليهِ وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروهُ فيها وشددوا عليهِ الحصار فسلم فانحط اعتبارهُ عندهم وهموا بقتلهِ فمنعهم الخليفة الحاكم بامر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعهِ فخلعوهُ في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوهُ الى قلعة الكرك منفيًا وحبسوهُ فيها ثم عادوا الى قتلهِ فانفذوا اليهِ من يقتلهِ ثم بلغهم انهُ سقط عن جوادهِ ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ ـ ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٩ ـ ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاهُ بدر الدين سلامش وسنُّهُ سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوهُ بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصيًّا عليهِ ولم يكن همٌّ هذا الوصي الاَّ خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مرادهِ فبعثهُ الى قلعة الكرك منفيًا واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعهُ الناس ولقبوهُ بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م

ولما استوى قلاون على كرسي السلطنة استوزر فخر الدين وكان كاتب سرهِ الخصوصي وبعث الامير طرطباي الى دمشق لاخماد ثورة

اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاهُ الملك الكامل ودافع دفاعًا حسنًا ولكنهُ الجئ في سنة ٦٨٠ ﻫ الى التسليم فقبضوا عليهِ وجاؤا بهِ الى القاهرة واودعوهُ سجنًا مظلمًا وولّوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ ﻫ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيهِ منجو تيمور فحاربهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجو تيمور وفرّ اباكه خان الى حمدان فاسمهُ اخوهُ الثالث تيكودار اوغلان وتولى الحكم بعدهُ ثم اعتنق الاسلام ولُقّب باحمد خان وكان اسلامهُ وسيلة لحقن الدماء لانهُ تخابر مع قلاون مخابرة سلمية وتعاهدا على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعيًا حتى بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانهُ . فكانت مصر في خلال ذلك مطمئنة في خارجيتها فنشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد المماليك فانهم نبذوا الطاعة فغضب السلطان غضبًا اعمى بصرهُ حتى لم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعصا واحدة واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متواليـة حتى غصّت الاسواق بجثثهم رجالاً ونساء واولادًا . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظهِ ويبينون لهُ وجه عسفهِ فانتبه لما جاءهُ من الاستبداد الفاحش فندم ندمًا لا مزيد عليهِ وتكفيرًا لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن اجل ذلك ايضًا بنى ابنهُ الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيمارستان . وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم . ففي سنة ٦٨٣ ﻫ امر قلاون ان يغير المماليك ملابسهم فمنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيرهِ كما تقتضيهِ حالة رجال الحرب . ثم سار الى حصن مرقد فحاصرهُ ٢٢ يومًا فسلّم . وفي سنة ٦٨٤ ﻫ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانهُ كان يحاول

الاستقلال عن مصر فقادهُ الى القاهرة واودعهُ سجنًا مظلمًا مكث فيهِ الى ما بعد وفاة قلاون

ولما اطمأن بالهُ في داخليتهِ عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمنًا طويلاً . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنهِ علي ولقبهُ بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذلك الحين في تدريبهِ على الاحكام وادارتها على نية ان يستخلفهُ عليها اذا طرأ عليهِ ما يستدعي غيابهُ عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديرهُ لان عليًّا أُصيب بحمّى شديدة ذهبت بحياتهِ سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاون حزنًا شديدًا وكثرت هواجسهُ حتى كره الاحكام ثم رأى ان يجرّد حملة لافتتاح طرابلس الشام تسليةً لهُ عن هواجسهُ وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها وأخربها ثم أعاد بناءها وجعل عليها حامية

ولما عاد الى القاهرة جاءهُ وفد من قبل ملك اراغون الفونس عقدوا معهُ معاهدة في ١٢ ربيع اول . غير ان كل ذلك لم يكن ليشغلهُ عن احزانهِ وما زال كئيبًا حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازتهِ احتفالاً حضرهُ جمعٌ غفير من جهادية وملكية وشيعوهُ الى البيمارستان حيث واروهُ التراب ولا يزال مقامهُ هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمهِ ١١ سنة و٣ اشهر و٦ ايام

ومن آثارهِ الباقية الى هذا اليوم جامعهُ الشهير ومقامهُ وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهدهُ المارُّ في شارع النحاسين شمالاً بعد ان يتجاوز خان الخليل ولا تزال هذه الابنية رغمًا عن تكرار السنين قويمة العماد تتجلّى فيها العظمة والقوة الاّ البيمارستان فانهُ اصبح اقرب الى الاثر من العين . وقد زرتُ مقام هذا السلطان فرأيت فيهِ كما رأيت في غيره من مثلهِ جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون

الشفاء وهم يأتون غالبًا في ايام السبوت ولهم في ذلك اساليب مختلفة فرأيت بعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصليًا متضرعًا وآخر يأتي بشيء من الليمون الحامض يمرح به جدار المحراب او ما يقاربهُ ثم يلحسهُ بلسانهِ طلبًا للشفاء ورأيت آخرين يفعلون غير ذلك

ومن اعمالهِ ميدانهُ الذي عرف بالميدان السلطاني جعلهُ في موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط وكان يتردد اليهِ كثيرًا . ولا يمرُّ عليهِ من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع فتضرر من علوّها وقال لمن حولهُ اني عند ما اركب الى الميدان وأمرُّ بهذه القناطر يألم ظهري من علوها واشاع بعضهم انهُ اراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبلهُ ليبقى الفخر لهُ فامر بهدمها جميعها وبنائها ثانيةً فبُنيت ولكن السباع لم توضع عليها فعندما رأى السلطان ذلك امر باعادتها فاعيدت السباع الى اماكنها . ومما يحكى عنهُ انهُ كان يجعل في بناياتهِ اماكن مخصوصة يضع فيها الحبوب طعامًا لطيور السماء

وقد كان قلاون سببًا لاخراج السلطنة من يد نسلهِ كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثارهِ من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحوًا من ١٢ الفًا جعل منهم بطانتهُ وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

وترى في شكل ٥٩ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حلب

ش ٥٩ نقود الملك المنصور قلاون

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩ ـ ٦٩٢ هـ او من ١٢٩٠ ـ ١٢٩٢ م

وتولّى بعدهُ على سلطنة مصر ابنهُ البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر بدر الدين وجرّد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ هـ حتى اتى عكا فحاصرها وكانت الحصن الوحيد الذي بقي للصليبيين فحصنوهُ تحصين اليأس لكنهُ لم يمتنع على جيوش الاسلام فهدموهُ ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي سنة ٦٩١ هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفيًّا الى القسطنطينية لانهُ كان سببًا للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا ففتح ارضروم فذاع صيتهُ حتى ارهب اعداءهُ فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار ففاجأتهُ المنية على فراشهِ . وسبب موتهِ ان احدى نسائهِ تواطأت مع مملوك لهُ يدعى بيدرا فقتلاهُ بخنجر في جوفهِ في شهر محرم سنة ٦٩٢ هـ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . واليهِ ينسب الخان المشهور بخان الخليل او الخان الخليلي في السكة الجديدة في القاهرة وكان في مكانهِ قبل بنائهِ مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها واضاف الغوري الى بنائهِ في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخلهِ وفي هذا الخان تباع الآن جميع انواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واواني نحاسية وغيرها

وبويع بيدرا ولقب بالملك القاهر الّا انهُ لم يحكم الّا يومًا واحدًا ثم قتلهُ المماليك اخذًا بثار سلطانهم السابق وبايعوا اخا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وسنهُ ٩ سنوات ولقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ ـ ٦٩٤ ﻫ او من ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائهِ لكثرة ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة المتوالية . ونظرًا لصغر سن هذا الملك اقاموا لهُ وصيًّا يدعى زين الدين كتبوغا الملقب بالمنصوري لانهُ كان من مماليك الملك المنصور قلاون فما استتبت لهُ الوصاية حتى تاقت نفسهُ الى السلطة وكان معهُ وزير آخر يقال لهُ علم الدين سنقر وكانت تحدثهُ نفسهُ بمثل ذلك ايضًا فاختلفا وتخاصما وانتهت المخاصمة بقتل سنقر ولما خلا الجو لكتبوغا ولم يعد من ينازعهُ عمد الى الملك الناصر فخلعهُ وتولى مكانهُ سلطانًا على مصر ونفاهُ الى الكرك ولم يكن حكمهُ هذه المرة الّا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبوغا

من سنة ٦٩٤ ـ ٦٩٦ ﻫ او من ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ ﻫ بويع كتبوغا ولقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب بهِ قبلهُ سلامش بن بيبرس الاوّل واستوزر فخر الدين وزير قلاون . ولم يكن هذا الاختلاس الّا داعيًا لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فدامها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءًا كبيرًا من اهلها ثم جاء الحرب تتمة لهذه الضربات

وذلك ان قبيلة المغل (المغول) التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو اصبحت بعد وفاتهِ تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربندهٔ

ابن ايغاني فتخوفت منهُ طائفة من رجالهِ عرفوا تحت اسم الاويراتية وفرُّوا عن بلاده الى نواحي بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هنالك و بعثوا الى نائب حلب يستأذنونهُ في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فاذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنسا فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوفات والضيافات فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبوغا فاستشار الامراء فيما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثماية من اكابرهم الى القاهرة وفرّق الباقون بالبقاع العزيزية (لبنان) و ببلاد الساحل ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانة واجرى عليهم الرواتب وانزلهم بالحسينية وكانوا على غير الملة الاسلامية فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرّة واشتد الامر على الناس وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف العذاب عنا فانّا قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانصلقنا وانطحنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد. وكان مرادهُ ان يجعلهم عوناً لهُ فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعهُ بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبوغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا

فيهم وبالغوا في تقريبهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين اهل الدولة الى ان آل الامر بسببهم وباسباب اخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبوغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ ﻫ

سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ ـ ٦٩٨ ﻫ او من ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبوغا ان ينسحب الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي مقدم الاويراتية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرّق جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة والامراء بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيراً من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء وكان يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولّى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها باسرها من دواوين

الامراء وجعل للامراء والاجناد احد عشر قيراطاً وافرد تسعة قراريط ليخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب اوراقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط ووفّر قيراطاً لزيادة ما عساه يطلب زيادةً لقلة محصل اقطاعهِ وافرد لبطانتهِ عدة اعمال جليلة . فتنكرت قلوب الامراء وحقدوا عليهِ وما انفكوا حتى قتلوهُ في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقيت كرسي السلطنة خالية ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طغجي من دعوة الناس الى حزبهِ فالتف عليهِ جماعة كبيرة فبايعوهُ ولقبوهُ الملك القاهر كما لقب بيدرا قبلهُ وكان حظهُ من الملك كحظ سميّه فلم يحكم الاّ يوماً واحداً ثم ذبحهُ المماليك

سلطنة الملك الناصر بن قلاون ثانيةً

من سنة ٦٩٨ ــ ٧٠٨ هـ او من ١٢٩٩ ــ ١٣٠٨ م

فتفكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقرروا على استقدام الملك الناصر بن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر ليبايعوهُ فبعثوا اليهِ وفداً يبلغهُ ذلك القرار فقدموا اليهِ في الكرك . وكانت والدتهُ عندهُ فلم تسمح بسفرهِ معهم لئلا يكون تحت اقوالهم هذه مقاصد خطرة فالحوا عليها واكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبايعوهُ فتأكدت اخلاصهم فسمحت بسيرهِ معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم تهددوا فبايعوهُ

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانيةً الى افتتاح سوريا فجرد اليهِ الملك الناصر سنة ٧٠٠ هـ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى بهِ في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجالهُ وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب .

وكان التتر قد حسبوا ان الفوز قد تقرر لهم فوضعوا يدهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر في جيشهِ الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فانغلب المصريون في بادئ الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال ففرقوا جموعهم واثخنوا فيهم ضربًا بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافرًا ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يعد ما يشغلهُ في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا لهُ واغتنم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقر والجاموس وعددًا وافرًا من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ ﻫ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسمًا عظيمًا من سوريا ومصر واخرجت المياه من الابار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقًا كثيرًا . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثّر في اخلاق المصريين فانقسموا احزابًا يضاد بعضها بعضًا ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انهُ لا يقوى على دفعهم وخاف على حياتهِ فترك القاهرة مظهرًا الحج وسار مع بطانتهِ الى الكرك وكان لهُ فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحًا بتنازلهِ ومفوضًا لهم تولية من ارادوا

سلطة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ ـ ٧٠٩ ﻫ او من ١٣٠٨ ـ ١٣٠٩ م

فوصل كتابهُ اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ ﻫ فبايعوا الامير ركن

الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوهُ بالملك المظفَّر وهو من مماليك الملك المنصور قلاون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحتهِ سيفًا منقوشًا عليهِ اسمهُ مشفوعًا بلقب «المنصوري والسيفي» كما ترى في الشكل الستين

وفي اواخر هذه السنة قدم الافرنج بموافقة صاحب قبرص لغزو دمياط بحرًا فاتفق الامراء

ش ٦٠ اسم السلطان بيبرس الثاني على سيفهِ

في القاهرة على انشاء جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفًا من قدوم الافرنج بحرًا في ايام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى الاعمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع ستماية راس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل وانهوهُ في شهر واحد فكان طولهُ من دمياط الى قليوب وعرضهُ اربع قصبات من اعلاهُ وست قصبات من اسفلهِ ومشى عليهِ ستة رؤوس من الخيل صفًّا واحدًا ومن آثارهِ في القاهرة جامعهُ المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبنيٌّ على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجدًا الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالتهِ وتخليهِ عن مقاليد الاعمال لاحد مماليكهِ فجعل يترقب فرصة لتسلُّق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ بارح الكرك مستخلفًا عليها ارغون احد مماليكهِ المتقربين وجاء دمشق فبايعهُ امراؤُها فجند الى مصر ومعهُ رجال عديدون وكان الامير برلك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعهُ كثيرون من نخبة رجالهِ فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرَ سبيلاً لنجاتهِ الاَّ بالتنازل فاستقال في الليلة الاولى من شهر شوال بعد ان ضمَّ اليهِ مبلغًا مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيرًا من الجمال والخيل وهمَّ

الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها فلاقاهُ خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوهُ شتماً ورجماً فرشقهم بما كان معهُ من النقود وسار حتى جاء اخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاون ثالثةً

من سنة ٧٠٩ ـ ٧٤١ ﻫ اومن ١٣٠٩ ـ ١٣٤١ م

وفي غد مبارحة بيبرس القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليهِ وكان ذلك يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة . فاستتبع الهاربين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوهُ وقتل بيبرس وكان سن الملك الناصر اذ ذاك ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمهُ في الملك فكان ذلك بمثابة الامثولة لهُ فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٢ سنة

وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي النيل يسمونهُ احتفال عيد الشهيد زعماً منهم ان النيل لا يفي الاّ اذا القوا فيهِ تابوتاً من خشب فيهِ اصبع من اصابع ابائهم الماثلين فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجاً على اختلاف الدرجات والنزعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل وكان فلاّحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونهُ من الخمر في ذلك العيد فامرَ الملك الناصر بابطال هذه العادة كليًا . وابطل كثيرًا من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة مالهِ ابدًا ولو عدم منهُ واذا مات يُؤخذ من ورثتهِ وابطل ما كان يُجبى من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر مبشّر بفتح حصن او نحوهِ فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على

قدر طاقتهِ وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبى من اهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة دينارًا من كل واحد قيامًا باحتفال كانوا يقيمونهُ عند المقياس يكثرون فيهِ من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اما اعمالهُ فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ هـ جسرًا بين بولاق وميت شيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (ثمن الازبكية) فلما بنى الجسر كفَّت الماء الا يسيرًا فتكوَّن هناك جزيرة دعوها جزيرة بولاق فاقيمت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءًا منهُ فاتخذوها مرسى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى هذا اليوم وهذا ما يعبر عنهُ الآن بثمن بولاق

وفي سنة ٧١٨ هـ ابتنى جامعًا في القلعة دعاهُ الجامع الناصري وكان هو الجامع الملوكي الذي يصلّي فيهِ السلطان وحاشيتهُ ولما بني جامع محمد علي بجانبهِ صار يدعى الجامع العتيق . وقد جعلتهُ الحكومة المصرية مؤخرًا مخزنًا للمهمات العسكرية اما الآن فقد اخلي من المهمات وعرض للفرجة وهو قائمٌ على يسار المقبل على جامع محمد علي في القلعة

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكينة وسلامًا خارجًا وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخابر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوّجهِ بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان منعكفًا بكليتهِ الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزح الخليج المدعو باسمهِ (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ . وقد انشأ سنة ٧٢٨ هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصدًا في الميدان وشاد قصرًا على انقاض قصر الاشرف فانتهى منهُ في

سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ هـ . وابنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكرهُ جامعًا آخر بجانب جامع ابيهِ في شارع النحاسين يشاهد فيهِ عند الدخول اليهِ اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكارًا للظفر وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحي سنة ٦٩٨ هـ والمقريزي يقول ان بناءهُ تم سنة ٧٠٢ هـ وان الملك العادل كتبوغا هو الذي وضع اساسهُ ايام السلطنة . وشاد الناصر دارًا كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيونًا كثيرة ومدارس عالية متعددة واتم بناء البيمارستان الذي شرع ابوهُ في بنائهِ وزاد فيهِ كثيرًا وخصص مالاً معلومًا للنفقة عليهِ

ومن اعمالهِ الحميدة انهُ ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على كل ما يباع ويشترى من حيوان ونبات وعقار فاحبتهُ الرعية واجمعوا على طاعتهِ . فاستتبت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الاَّ تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاهُ حسمًا للمشاكل

وفي سنة ٧٣٨ هـ توفي ابنهُ انوق فحزن عليهِ حزنًا شديدًا اورثهُ مرضًا رافقهُ حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وسنهُ ٥٧ سنة ومدة حكمهِ ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعدهُ الواحد بعد الآخر الاَّ ان تنصيبهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال فكانت مدات حكمهم قصيرة جدًّا

وترى في الشكل الحادي والستين صورة نقود الملك الناصر ابن قلاون النحاسية

ش ٦١ نقود الملك الناصر بن قلاون

سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وقوجوق واحمد واسماعيل وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

من سنة ٧٤١ ـ ٧٥٣ ﻫ اومن ١٣٤١ ـ ١٣٥١ م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنهُ البكر سيف الدين ابو بكر ولُقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يومًا عُزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ ﻫ وفي يوم خلعهِ سطا المماليك على نساء ابيهِ واهانوهنَّ ونهبوا متاعهنَّ . فبويع أخوهُ علاء الدين قوجوق ولهُ من العمر ست سنوات فقط ولُقّب بالملك الاشرف

وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خُلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويع اخوهُ شهاب الدين احمد وكان متغيبًا في الكرك فاستُقدم وبويع ولُقّب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ ﻫ اعيد الى الكرك منفاهُ الاول . فبويع اخوهُ عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة اكثر قليلاً من اخوتهِ السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهمُّ ما حصل في ايامهِ انهُ اعاد منصب الوزارة الى حكمهِ سنة ٧٤٤ ﻫ وكان قد الغاه ابوهُ كما رأيت وانهُ قتل اخاهُ شهاب الدين احمد سنة ٧٤٥ ﻫ وكان منفيًّا في الكرك ثم انتهت سلطنتهُ بموتهِ في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ ﻫ . فبويع اخوهُ الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنهُ لم يكن اسمًا على مسمًّى فابغضتهُ الرعية وهجاهُ الشعراء . ومكث حاكمًا سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ ﻫ عُزل . فبويع اخوهُ السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبدادًا

من سلفهِ فلم تطل مدة حكمهِ اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذُبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ . فبويع اخوهُ السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيرهِ في الملك ما كان لابيهِ فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبهِ الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويع اخوهُ الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح (الثاني) وكان على وزارتهِ الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبة غربي الرميلة اوهما جامعان واحد على كل من جانبي الطريق وكلاهما يعرفان بهذا الاسم . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و١٤ يومًا

وفي سنة ٧٥٤ هـ دهم القطر طاعون وانتشر حتى عمَّ البلاد واختطف الامام الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمهُ المعتضد بالله

وفي اوائل سنة ٧٥٥ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى من الاملاك الموقوفة للاديرة فاحيلت هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان للنصارى اوقافًا تبلغ ٣٥ الف فدانًا من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة فعرضت على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني وكان واليًا على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ منها اصبع الشهيد في صندوق واحضرهُ الى الملك الصالح فأحرق بين يديهِ في الميدان وذرى رمادهُ في البحر حتى لا يأخذهُ النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذٍ كليًّا . وكان بين المترشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدَّان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها وانضم الى كلّ

منها احزاب فانتهى الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ه وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيهِ الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين وكان الناصر مسجونًا ففاز بمرادهِ وخلع اخاهُ فأُخرج من السجن وبويع وبقي الملك الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام بمساعدة الامير تاج الدين فولاهُ الوزارة مكافأة لمسعاهُ . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ ه قُتل بمكيدة من كبار امرائهِ

ومن مآثرهِ الباقية الى هذا العهد جامعهُ في الرميلة مقابل قلعة الجبل في القاهرة وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة واتقنها اقتضى لبنائهِ ٣ سنوات أُنفق عليهِ في خلالها ما يساوي ستماية جنيهًا كل يوم وقد جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليهِ الكتابات الكوفية والعربية فزادهُ رونقًا وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجههِ ملامح الشيخوخة لكنها لم تزدهُ الاَّ عظمةً ووقارًا

وترى في الشكل الثاني والستين صورة النقود الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن

ش ٦٢ نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من سنة ٧٦٢ ــ ٧٦٤ ه او من ١٣٦٠ ــ ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويع ابن اخيهِ محمد بن الملك المظفر حاجي وسنهُ ١٤ سنة ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان

سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل عن الملك لابن عمهِ شعبان بن حسن وسنهُ عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث)

وترى في شكل ٦٣ صورة النقود الذهبية للملك المنصور محمد ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ هـ

ش ٦٣ نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ هـ

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ ـ ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٣ ـ ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينة وسلام وفي السنة الثالثة من حكمهِ اصيبت مصر وسوريا بقحط ضايق على الناس حتى اكلوا الكلاب والقطط واكل بعضهم أولادهُ من شدة الجوع واستمر الامر كذلك في بعض الاماكن ٣ سنوات ولما كانت السنة الحادية عشرة من حكمهِ اصاب البلاد حروب اهلية اشد وطأة من الجوع وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائبًا للملك . ففي سنة ٧٧٦ هـ سطت عليهِ عصبة من مماليكهِ في قصرهِ فقتلوهُ وساروا بريدون مثل ذلك من السلطان نفسهِ فردّهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولّى على النيابة الجاي اليوسفي وكان طماعًا مريدًا فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدتهِ فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكتهُ وكثر متشيعوهُ فطمع بالسلطة فقتل زوجتهُ المذكورة وتواطأ مع قاتلي يلبغا على

قتل السلطان فهاجموهُ فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعًا كبيرًا وتبعهم رجالهُ حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكد يطمأن من هذا القبيل حتى اجتمع عليهِ اضداد يريدون قتلهُ فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائدًا من زيارة الحرمين كمنوا لهُ في مضيق العقبة فقتلوا من معهُ من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على اثر فظنوا انهُ قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٤ هـ ان يبايع من يشاء . فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تشاؤن وانا اصادق على بيعتهِ » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حيًّا مختبئًا في القاهرة فقبضوا عليهِ وخنقوهُ في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

وترى في الشكل الرابع والستين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٦٤ نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ ـ ٧٨٣ هـ او من ١٣٧٦ ـ ١٣٨١ م

وبايعوا ابنهُ علاء الدين علي وسنهُ ٧ سنوات فسرّ بذلك المنصب لصغر سنهِ ولم يعلم انهُ مدفن ابيهِ ولا يلبث حتى يلحق بهِ . فلقبوهُ بالملك المنصور (السادس) واقاموا لهُ الامير لاين بك وصيًّا . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي سيأتي على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة . وقد كانت هذه مقاصدهُ منذ ولي الوصاية لكنهُ بقي محافظًا على ولاء مولاه الى ان توفاهُ الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمهِ اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ ـ ٧٨٤ ﻫ او من ١٣٨١ ـ ١٣٨٢ م

فبويع اخوهُ زين الدين حاجي وسنهُ ست سنوات ولقب بالملك الصالح (الثالث) ولم تمر على مبايعتهِ سنة ونصف حتى ملَّ برقوق من اخفاء مقاصدهِ فخلعهُ ونفاهُ في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ ﻫ واستلم مقاليد الملك. وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى سلالة قلاون المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحوًا من مايةٍ وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ ـ ٩٢٣ ﻫ او من ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م

منشأُ المماليك الشراكسة

وقد دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضًا كركس اوجركس او كرغزوهم لم ينشأُوا في اسيا العليا انما جاؤُا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيكال منذ الجيل السادس للميلاد ثم هاجروا الى غربي بحر قسبين فاستوطنوا هناك ودعيت تلك البلاد شركاسيا. وكان المماليك الشراكسة يُحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك

البحرية الاخير عددًا وافرًا فضلاً عن المماليك البحرية اقتداء باسلافهِ . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعًا لما خصَّتهم بهِ الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية وما زالوا يزدادون عددًا وقوة ومنعة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونها ارثًا لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي بن شعبان وبايعوا برقوق

اما برقوق فهو ابن مرتدٍ شركسي اسمهُ أنس من قبيلة كسا استُملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراهُ رجل مسلم يقال لهُ عثمان وجاء بهِ الى مصر سنة ٧٦٣ هـ وباعهُ للامير يلبغا فجعلهُ في عداد مماليكهِ الأان نباهة برقوق وجمالهُ ومهابتهُ استلفتت انتباه سيدهِ فبالغ في اكرامهِ وترقيتهِ حتى ادخلهُ في بطانتهِ ولقبهُ بالشيخ اشارة الى براعتهِ بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعلهُ في مصاف الامراء وكان يلقب ايضًا بالعثماني واليلبغاوي وما زال في خدمتهِ الى ان قضى الله على يلبغا بما قضى وتشتتت مماليكهُ فبقي برقوق وامير آخر يقال لهُ بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلا في خدمة منجك حاكم دمشق . ثم عاد الى مصر بطلب من الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش . وتولَّى رفيقهُ بركة رئاسة حكومات الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خُلع الملك الصالح حاجي فتمكن برقوق بمساعدة احزابهِ ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رأيت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ ـ ٨٠١ ه او من ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨ م

فاقرّ الخليفة المتوكل بالله على تولية برقوق وبايعهُ جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوهُ بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني بهِ ركن الدين بيبرس البندقداري وكان تيمور لنك الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاتهِ حتى سمع دويُّها في سوريا اذ جاء يتهدد حدودها فنهض اليهِ برقوق في جيش عظيم فاوقفهُ عند حدهِ لكنهُ لم يكد يتخلص من ذلك العدو التتري حتى ظهر لهُ عدو في بيتهِ نعني بهِ الخليفة المتوكل بالله فانهُ دعا الى خلع برقوق فالتفَّ حولهُ دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشائخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة فخلعهُ وحبسهُ في القلعة سنة ٧٨٧ ه ونصب عمرًا اخا ابرهيم ولقبهُ بالواثق بالله . ثم توفي الواثق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ ه فنصب ابا يحيى زكريا عم ابن الخليفة المستنصر بالله! . وهذا لم يلبث طويلاً لانهُ اساء السلطان برقوق فخلعهُ في جمادى الاولى سنة ٧٩١ ه واعاد المتوكل بالله لكنهُ ندم بعد ذلك لما رأى من سعيهِ الى خلعهِ فحاول تنزيلهُ ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمى منطاش على خلعهِ ووافقهما سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوهُ بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوهُ منفيًّا الى قلعة الكرك منفى السلاطين في تلك الايام واستقدموا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك البحرية وهو الذي خلعهُ برقوق . فبايعوهُ في ٦ جمادى الآخرة سنة ٧٩١ ه . وكان يلقب بالملك الصالح فابدلهُ بالملك المنصور لكنهُ لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعيا الى توليتهِ

ندما فانزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يدهِ فبادر حالاً الى الملك المنصور حاجي وامانهُ وكلّ من كان على دعوتهِ منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحائها ولم يكن يشق بمقاصد احزاب الخلفاء فجعل يتداخل في احزابهم فيتحد تارةً مع هولاء وطوراً مع هولاء لاستدامة الشقاق بينهم فلا يتفقون على خلعهِ

وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداهُ قرا يوسف امير الدولة الهادية مدينة تبريز فبعث اليهِ برقوق خلعة وفوّض اليهِ ان يفتتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنهُ لم يلبث حتى اتى القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيهِ احمد بن عويس فارّين من وجه تيمور لنك وكانا قد التجآ الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانهُ كان في ريبة من امره مع دولة جديدة قارب صبحها من الانفجار وهي الدولة التي لقبت بعد ذلك بالدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وكان ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه العائلة الظافرة وكان قد غزا معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية واعظمها حتى تهدد القسطنطينية فجاءهُ التتر من ورائهِ تحت قيادة تيمور لنك فاوقفوهُ عن مقصدهِ واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فأرجفت لها افريقيا واضطربت مصر من دويّهما

وطمحت انظار هذين الناحيين الى مصر فبعث كلٌّ منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهدهم على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يترّهم رسمياً على سلطنة الاناضول فاجابهم الى ما طلبوه اما وفد تيمور لنك فاتخذوا خطة اخرى في مأموريتهم لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطاليبهم وطلبوا اليهِ ان يسلم لهم قرا يوسف

واحمد بن عويس الذين قد التجأا اليهِ . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجورًا فامر بقتلهم فشقّ ذلك على تيمورلنك فساق جيشهُ وقدم للانتقام فمر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها ثم توقف تيمورلنك عن مسيرهِ لغرض في نفسهِ ليسهل عليهِ افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع او الهجوم لكنهُ لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركتهُ الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وسنهُ ستون سنة فأسف عليهِ الناس اسفًا شديدًا لما كان من عدلهِ ويقظتهِ ورفقهِ برعيتهِ . ومن ادلّة ذلك انهُ خفف عوائد الحبوب وابطل العوائد التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق وكان كثير التصدق على الفقراء محبًا للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليهِ . وابتنى جامعًا لايزال الى الان معروفًا باسم جامع السلطان برقوق واقعًا بجانب جامع الملك الناصر المتقدم ذكرهُ في شارع النحاسين . وكان لهُ ولعٌ خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من المماليك الشراكسة ابناء جلدتهِ فنظم منهم فرقة بركن اليها عند الحاجة . وجعل في مصالح الدولة مراتب هذه اهمها

(١) اتابك العساكر
(٢) رأس نوبة الامراء
(٣) امير السلاح
(٤) امير المجلس
(٥) امير الياخور
(٦) دوادار
(٧) رأس النوبة الثاني
(٨) حاجب الحجاب

(٩) النائب

وكانت مقاليد الحل والربط بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على امر انفذوهُ ولا مردَّ لقضائهم

سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

من سنة ٨٠١ ـ ٨٠٨ ﻫ اومن ١٣٩٨ ـ ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائهِ فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وسنُّهُ ست وعشرون سنة ولقبوهُ بالملك الناصر. وفي اول حكمهِ ثارَ الاتابك يلطمش وتنم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمي حاكم حلب فاستولى على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها الاَّ ان حدسهُ لم يتحقق فأُخذت منهُ المضايق وضويق عليهِ حتى قيد اسيرًا وقتل هو وكل دعاتهِ. ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراسًا. فان تيمورلنك بعد ان انهى حروبهُ في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ ﻫ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحمص بعد حرب شديدة وفرَّ فرج الى مصر رغمًا عنهُ فجمع اليهِ رجالهُ وتأهب للدفاع ثم بلغهُ ان عدوَّهُ انشغل عنهُ بمحاربة بيازيد في الاناضول فسكن روعهُ ثم جاءتهُ الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسرهِ سنة ٨٠٤ ﻫ في وقعة انقرة فخارت قواهُ وقنط من الفرج فبعث اليهِ تيمورلنك ان يسلم بسلطنة التتر ويبعث اليهم باحمد وقرا يوسف حالاً وبعث اليهِ فيلاً هنديًا. فلم يسع فرج الاَّ الاذعان لقضاء الله . فاجابهُ الى طلبهِ صاغرًا واهداهُ زرافة حبشية معترفًا بسيادة التتر على مصر وقيامهِ باحكامها بالنيابة عنهم. اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا بهِ وحقوق الضيافة تمنعهُ من تسليمها فيكون هو الجاني عليهما

لكنهُ وعد ان يسجنها عندهُ فاستقرت سيادة تيمور على مصر . وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهي اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انهُ مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفًا ونحو ذلك من مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤهُ على الملك فاغتنم فرج تلك الفرصة للتخلص من سلطة التتر والافراج عن احمد وقرا يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم اخذ بالتاهب لاسترجاع سوريا بنفسهِ فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضويق عليهِ في قصرهِ . وسبب ذلك ان المصريين لما رأوا اذعانهُ لتيمور لنك وتسليمهُ بسيادتهِ على بلادهم حسبوا ذلك خيانة وضعفًا وايقنوا انهُ لا يصلح لادارة الاعمال فاقرُّوا على خلعهِ وتولية اخيهِ عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منهُ فاجتمعوا تحت لوائهِ وساروا لمحاصرة اخيهِ في قصرهِ في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يتهددونهُ حتى تنازل حفظًا لحياتهِ وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يومًا

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ ــ ٨٠٨ هـ او من ١٤٠٥ ــ ١٤٠٥ م

ثم خرج من قصرهِ واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انهُ قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاهُ ولقبوهُ بالملك المنصور . ولم يمضِ شهران من توليتهِ حتى تحققوا خيبة ظنهم بهِ فملُّوا من طاعتهِ ومالوا بكليتهم الى سلفهِ فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائهِ فتقدم اليهِ الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبهِ فعاد في جمادى الآخرة ونفى اخاهُ عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهرًا قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق ثانيةً

من سنة ٨٠٨ ـ ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ ـ ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبهِ وجّه انتباههُ خصوصًا الى استرجاع ثقة الاهلين فيهِ فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم في راحة الرعية فساد الأمن وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٢ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياتهِ . وتفصيل ذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري نسبة الى سيدهِ الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد عتقهُ ووعدهُ بالخدامات الحربية فطمحت ابصارهُ الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وكان قد وُلّي الخلافة بدلاً من الخليفة المتوكل بالله منذ خمس سنوات . وقد كان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد واقامة فرعها في القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالأيمة . فاسرَّ الشيخ المحمودي الى المستعين بالله انهُ يمكنهُ اعادة السلطنة السياسية اليهِ كما كانت لاسلافهِ وقال لهُ « ان الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتكم وتنفيذ اوامركم » فثار في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ المحمودي وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامهِ فانفذا اليهِ اولاً ان يتنازل عن الملك فاجاب ان جوابهُ الوحيد على ذلك انما هو السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ المحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر الخليفة خطًّا شريفًا بتوقيعهِ فجاء بما لا يجيء بهِ السيف ونصهُ « من الامام ابي الفضل العباسي المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اننا نصرح بخلع فرج بن برقوق عن سلطنة

مصر وسوريا لان السلطان الحقيقي عليهما انما هو الخليفة سلالة النبي (صلعم) ونائبهُ . فطوبى لمن اذعن لهُ وويل لمن اعرض عنهُ والسلام »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبقَ لهُ نصير فحاول الفرار فلم يتجُ فقُبض عليهِ وقيد الى الخليفة فانتحل لهُ ذنبًا يستوجب عليهِ المحاكمة . وهو انهُ كان قد اضطر لكثرة ما انفقهُ في محاربة التتر ان يفرض على الاهالي ضرائب فوق العادة فرفعت عليهِ عرائض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انهُ اختلس الاهالي وخرب البلاد وانهُ تمرَّد على الخليفة ظلّ الله على الارض فاتخذ الخليفة هذه التشكيات ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوهُ في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثتهُ ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ ـ ٨١٥ هـ اومن ١٤١٢ ـ ١٤١٢ م

فاصبحت السلطة الروحية والسياسية بيد المستعين بالله فبايعهُ الامراء وقواد الجند ولقبوهُ بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي رئيسًا لشوراه . واخذ في اصلاح الاحوال وتنظيم الاحكام ووجه انتباههُ الى ما يكتسب بهِ ثقة الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصة المعتدين واظهر لياقتهُ لما عهد اليهِ فشرع في اصلاح امور الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبتهُ الاهالي . اما الشيخ المحمودي فقد كان في بالهِ انهُ اقام هذه الثورة خدمة لاغراضهِ وليس للخليفة فرأى انهُ اصبح بعدها آلة بيد ذلك السلطان الجديد فاضمر لهُ شرًّا ونوى على خلعهِ لكنهُ استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص المناسبة خوفًا من الوقوع في شر اعمالهِ فعمل على توطيد العلاقات الودية بينهُ وبين امراء المماليك

والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئًا من ضعف الرأي والخمول فضلاً عن كونهِ اجنبيًا عنهم. فاستمال قلوبهم واشتد ازرهُ بهم فاخذ يشكو من منصبهِ فولاَّهُ الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربهِ وما زال ساعيًا الى مطمح انظارهِ حتى كثرت احزابهُ واصبحت ازمَّة البلاد في يدهِ فاجبر الخليفة على مشاركتهِ في السلطنة فاجابهُ ولقبهُ بالملك المؤيد وبعد يسير خطا خطوة اخرى فخلع الخليفة وحبسهُ في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ ـ ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ ـ ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله ادنى مقاومة لكنهُ كتب سرًّا الى نوروز احد اصدقائهِ القدماء وكان قد ولاَّهُ سوريا يستنجدهُ فقدم نوروز مسرعًا الى القاهرة في جيش فرأى انهُ يقصر عن مناواة المحمودي فاوعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر منشورًا بحرمانهِ فاغتنم المشائخ والامراء فرصة غيابهِ وجاهروا بخلعهِ. وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة فخافهُ المشائخ والعلماء وانكروا مجاهرتهم بحرمانهِ وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الحرمان والحوُّا على معاقبتهِ لانهُ تمرد على سلطانهم فخلعوهُ من السلطنة والخلافة وسجنوهُ ثم نفوهُ الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا اخاهُ داود خليفةً مكانهُ ولقبوهُ بالامام المعتضد بالله فعاد الشيخ المحمودي على كرسي السلطنة واخذ يسعى الى اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفي السلطان الشيخ المحمودي. وكان

محبًّا للعلماء يكرم مثواهم . ولهُ بنايات جميلة من جملتها الجامع المسمّى جامع المؤيّد بالقرب من باب زويلة وقد جُدّد بناؤهُ وهو كثير النقوش ولم يبقَ من البناء القديم الّا ليوان القبلة . وبعد وفاتهِ عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى على السلطنة بعدهُ ثلاثة سلاطين لم يحكموا الّا مدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين تتر ثم محمد بن تتر

من سنة ٨٢٤ ـ ٨٢٥ ﻫ او من ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ م

اوّلهم ولدهُ شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلّى عن الملك لوصيّهِ وحميهِ سيف الدين تتر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويع ابنهُ ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعهُ وصيُّهُ سيف الدين برس باي فقضى باقي حياتهِ في الشقاء

سلطنة الملك الاشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ ـ ٨٤١ ﻫ او من ١٤٢٢ ـ ١٤٣٧ م

وبعد خلعهِ اختلف الامراء على من يخلفهُ فتنحّى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضًا فتسلق السلطنة غنيمة باردة . فبويع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ ﻫ ولقب بالملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكًا احبَّهُ سيدهُ الملك الظاهر تتر فاعتقهُ ورقّاهُ حتى جعلهُ وصيًّا على ابنهِ . وفي اول حكمهِ تزايد وفاء النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الحبوب وشبع الفقراء وكان برس باي كالشيخ المحمودي حكمةً ورفقًا وقد رمم عدّة مُدُن وشاد في القاهرة عدة بنايات منها الجامع المعروف بجامع

الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتدأ في بنائهِ سنة ٨٢٦ هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياستهِ وحزمهِ من استبقاء السلطنة بيدهِ مدة طويلة والبلاد في سكينة الاَّ في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير بنيق النجاشي وكان قد ولاَّهُ حكومة دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلَّت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال لهُ عبد الرحمن فولاَّهُ برس باي على سوريا بدلاً من النجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل واَخرها في ايامهِ . اما محاربتهُ مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانهُ جرَّد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانهِ وفرض عليهِ الجزية وقد عقد مع ملوك الافرنج وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد عدة معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكتهِ . فكانت مصر في ايامهِ سعيدة داخلاً وخارجاً . وقد قال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لانهُ كان ارفعهم همةً واشدَّهم عزيمةً واكثرهم تدرُّبًا في الاحكام ومما يمتدح عليهِ انهُ ابدل جميع التذلُّلات التي كانت تقدم للملوك قبلهُ بتقبيل اليد فقط . وبعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام قضى يوم السبت في ١٢ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وسنهُ ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ ــ ٨٤٣ هـ او من ١٤٣٧ ــ ١٤٣٨ م

فبويع ابنهُ جمال الدين يوسف الملقَّب باي المحاسن ولُقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة اشهر من مبايعتهِ تخاصم مماليكهُ وسيف الدين جقمق اتابك جيشهِ خصامًا انتهى بعزلهِ ومبايعة جقمق في ٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولُقّب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمهِ اصيبت مصر بطاعون انتشر في سائر انحائها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان بارًّا تقيًّا واوصى بالخلافة بعدهُ الى اخيهِ بالرحم فبايعوهُ ولقبوهُ بالمستكفي بالله وكان صديقًا للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافتهِ توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاخيهِ نقاء وبرًّا حتى تخاصم الاعيان والكبراء تسابقًا الى حمل نعشهِ وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانهُ حمل بهِ على منكبيهِ . فبويع اخوهُ ولقب بالقايم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايرًا لسير سابقيهِ فابغضهُ السلطان وخشي من دسائسهِ وكان قد تجاوز الثمانين من سنّهِ ولم تعد فيهِ عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطنة لابنهِ فخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد بن مراد القسطنطينية وباد مملكة الرومان

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ ـ ٨٥٧ هـ اومن ١٤٥٣ ـ ١٤٥٣ م

وبويع فخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسهِ طمعًا بالسلطنة فدعا اليهِ زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان ينال بذلك ما نالهُ المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهرًا ويومًا . اما الخليفة فخاب انتظارهُ وحبطت مساعيهِ فغادرنهُ

الاحزاب وبايعوا مملوكاً مُسنًّا اسمهُ ابو النصر ينال ولقبوهُ بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف ينال

من سنة ٨٥٧ ـ ٨٦٥ هـ او من ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسهِ ان هذا السلطان شيخ فلننتظرنَّ وفاتهُ انهُ لا يلبث ان يصيب حتفهُ . فانتظر ست سنوات فلم يمتْ فعمد الى الدسيسة فاتصل ذلك بالوزير بلجبوني فاعلم السلطان بامرهِ فاستحضر الخليفة وقرَّعهُ ثم امر بخلعهِ عن الخلافة . فقال الخليفة « من ابن لك ان تخلع الخلفاء ولهم وحدهم ان يولوا و يعزلوا » فلم يجبهُ الاَّ بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوهُ بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان ينال بعد ذلك سنتين ولّى وعزل اثناءها كثيراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادى الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن ينال

من سنة ٨٦٥ ـ ٨٦٥ هـ او من ١٤٦٠ ـ ١٤٦١ م

فتولى بعدهُ ابنهُ شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في آخر ايام ابيهِ . وترى في شكل ٦٥ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيهِ فلما بويع لقب بالملك المؤيد

ش ٦٥ نقود ابي الفتح والاشرف

ولكنهُ لم يحكم الاَّ اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبويع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ـ ٨٧٢ هـ او من ١٤٦١ ـ ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانهُ يوناني الاصل وبالناصري لانهُ كان من مماليك الملك الناصر وكان محبًّا للاداب اليونانية محافظًا عليها وكان حكيمًا بارًّا حليمًا محبًّا لرعيتهِ ساهرًا على راحتهم ولم يكن يستوزر الاَّ الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاحبتهُ الرعية واجمعوا على طاعتهِ والاخلاص لهُ . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى بهِ رجال دولتهِ فساد الأَمن . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطنة الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وسنهُ ستون سنة فاسف عليهِ الناس كثيرًا

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمار بوغا

من سنة ٨٧٢ ـ ٨٧٣ هـ او من ١٤٦٧ ـ ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوهُ بالملك الظاهر. فكان سميًّا لسابقهِ بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء ذاك من الحسنات لانهُ كان مستبدًّا عاتيًا لا يغادر كبيرًا ولا صغيرًا فكرههُ الناس . ولم يمضِ ٦٦ يومًا من توليتهِ حتى خلعوهُ وذلك في ١٧ جمادى الاولى من تلك السنة وبايعوا الامير ابا سعيد تمار بوغا الملقب بالظاهري ولقبوهُ بالملك الظاهر ايضًا فكان حظهُ من الملك كحظ سلفهِ لانهُ خُلع بعد شهرين من توليتهِ وبايعوا الامير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوهُ بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ ـ ٩٠١ ه او من ١٤٦٧ ـ ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ ه اربعة سلاطين . اما السلطان الاخير فمكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغماً عما كانت عليهِ البلاد اذ ذاك من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من مماليك جقمق وكان لعلوّ همتهِ وحسن سجاياه قابضاً على ازمّة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمأنة الاَّ انها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبَّأ قايت باي ان ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فارسل حامية كبيرة الى الحدود فاجَّل العثمانيون عزمهم لانشغالهم اذ ذاك بفتح البلاد النصرانية . اما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم يرَ سبيلاً لرفع المسئولية عنهُ الاَّ بالتنازل عن الملك فادرك الامراء شدة احتياجهم اليهِ في مثل تلك الاحوال الصعبة فاجبروهُ على قبول السلطنة ولم يكد يعلوها حتى جاءتهُ الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمهِ على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ ه . لكنهُ لم يخرج من برالاناضول حتى داهمتهُ المنية في مدينة طيقور جابر . وتخاصم ابناهُ بيازيد وجم (او زبزم) على الملك فانشغلا عن الفتح فاغتنم قايت باي تلك الفرصة للانسحاب فعاد بجيشهِ الى مصر

وما زال الخصام يتعاظم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة بني شهر فانهزم جم حتى اتى مصر فالتجأ الى قايت باي فاكرم وفادتهُ ثم علم ان ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسهِ « اذا كان لا بدَّ لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين اولى من ان نكون مدافعين » فجعل يناوي الاتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج الى الحرمين

حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى بيازيد واستولى على ادنه وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين . اما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الاجراآت طينة على عجينة الاَّ انهُ رأى ان يأتيهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوهُ من الخسائر والاضرار فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومتهُ اشد مقاومة وارجعت جيشهُ الى ملاطية فانجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضايق الجبال فهجموا عليهم بغتةً وذبحوا منهم عدداً كبيراً وفرَّ الباقون وتحصنوا في ترسوس وادنه . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاخراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على السلطان بيازيد وآلى على نفسهِ الاَّ ان يسترجع ترسوس وادنه فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهرهِ احمد وهو ابن امير بوسنا ولد في البانيا ثم اعتنق الاسلامية واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقهِ حتى تمكن مع صغر سنهِ وكونهِ غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية الاَّ ان رجالهُ لم يستطيعوا الثبات ففازت الجيوش المصرية وأُسر احمد بعد ان جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي بمأسورهِ الى مصر ظافراً فبنى جامعهُ المشهور المعروف بجامع الازبكية واليهِ ينسب ثمن الازبكية وحديقة الازبكية وكانت في ايامهِ بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليهِ الان

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشهِ استشاط غضباً وجنَّد جنداً كبيراً جعلهُ تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان فاتصل خبرها بقايت باي فاوجس خيفة فعمد الى جانب المصالحة

فانفذ الى بيازيد صهرهُ احمد واسطة لعقد شروط المصالحة فرفض بيازيد ذلك رفضًا كليًا وسار حتى التقى بالمصريين في ادنه وترسوس فحاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماء غزيرة ثم سار الى ارمينيا الصغرى واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعًا قويًا واسر حاكمها وارسلهُ بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الازبكيّ ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوهُ اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقرى وعاد الى القاهرة ظافرًا فخلع عليهِ قايت باي . ثم رأى ان يغتنم كونهُ ظافرًا لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابهُ متهددًا وطلب اليهِ ان يتنازل لهُ عن ترسوس وادنه وانهُ اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائهِ كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحًا مبينًا . فخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين ارتضاء باهون الشرّين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ

وعاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يومًا فبكاهُ الناس . ومن آثارهِ جامعهُ المعروف باسمهِ الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيهِ مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبنى قايت باي جامعًا في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطنة محمد بن قايت باي ثم قنسو خمسمية ثم قنسو ابي سعيد ثم قنسوجان بلد ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ ـ ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ ـ ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنهُ ابو السعادة محمد ولُقّب بالملك الناصر

ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منهُ فانهُ كان احمق جبيصًا وحشيًّا لا ديدن لهُ الَّا الانغماس في الملذات الحيوانية ولو كلفهُ ذلك ارتكاب اشر الآثام. وقد زادت فحنهُ حتى سلخ جلد احد مماليكهِ حيًّا فثار عليهِ المماليك وخلعوهُ بعد ان حكم ستة اشهر وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمية لانهُ ابتيع بالاصل بخمسماية دينار ولقبوهُ بالملك الاشرف وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزًا فاعادوا الملك الناصر محمد ثانيةً لكنهُ لم يبقَ الَّا ١٨ شهرًا ونصف فذبحهُ المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عمَّ قنسو واسمهُ قنسو الثاني الملقب باني سعيد ولقبوهُ بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الخطر الَّا رغماً عنهُ وبعد عشرين شهرًا وبضعة ايام عزلوهُ وبايعوا قنسو الثالث جان بلد ولقبوهُ بالملك الاشرف ولم يحكم الَّا سبعة اشهر ثم خُلع في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوهُ بالملك العادل. فوافقهم امراء القاهرة على ذلك. وبعد ثلاثة اشهر اضمر لهُ المماليك مكيدة يقتلونهُ بها فعلم هو بذلك ففرَّ طلبًا للنجاة فأوى الى مكان ظنَّهُ ملجأ حصينًا مكث فيهِ اربعين يومًا ثم اكتشف عليهِ المماليك وقتلوهُ في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضًا من مماليك قايت باي وكان رجلاً تقيًّا مخلصًا محترمًا من الناس عفيفًا غير عالم بما كان يتخاصم عليهِ الامراء وما كانوا يدسُّونهُ من الدسائس. فلما بلغهُ امر مبايعتهِ انذهل ورفض قائلاً للذين انتخبوهُ «اني لا اخالف لكم امرًا انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي» فاجابوهُ ان صدق نيتهِ واخلاصهُ وثقة الناس فيهِ كافية لاستحقاقهِ هذا المنصب. فلم يرَ بدًّا من القبول لكنهُ قال لهم «اكون في غاية السرور اذا جئتموني

يومًا تنبئوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدتهُ من معيشة السكينة » فولوهُ في غرة شوال من تلك السنة ولقبوهُ بالملك الاشرف ايضًا

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ او من ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخلص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حالها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعًا ومدرسةً ينسبان اليهِ وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كلٌّ منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويليها الى الجنوب مدفن فيهِ مقام بعض اعضاء عائلتهِ . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليهِ انهُ هائل وهو مبنيٌّ على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصدهُ من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند أثقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد (سليم الاول) الى مصر ملتجأ اليها بعد ان تخاصم مع اخيهِ على الملك كما حصل بجم وبيازيد المتقدم ذكرهما . فترحب بهِ قنسو الغوري ترحابًا عظيمًا وجهزهُ بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية فذهبت هذه العمارة ايضًا غنيمة لمراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الّا اثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهّز اليها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية

وارسل الى مصر رسائل التهديد . فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الاَّ ان الجيوش العثمانية لم تبالِ بكثرة العدد فشتتت الجيشين واي تشتيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بامر الصلح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم فخرُّوا سجَّدًا وخاطبوهُ بامر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظًا « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا لهُ انَّ الرجلَ لا تعثر بحجر واحد اكثر من مرة واحدة . وها انا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان لهُ اهلاً » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليهِ رجالهُ وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك واظهر الغوري بسالة واقدامًا عظيمين حتى اوشكت رجالهُ من الاستظهار فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الاَّ الرماح والحراب والسيوف فتشوَّش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائدا جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائدًا لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحوَّل شكيمة جوادهِ فسقط عنهُ لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ﻫ بعد ان حكم مدة ١٥ سنة وتسعة اشهر و٢٥ يومًا

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٣ﻫ او من ١٥١٦ ـ ١٥١٧

وكان السلطان قنسو الغوري قبل مبارحتهِ القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن اخيهِ طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوهُ ايضًا بالملك الاشرف وكان حازمًا باسلاً . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة

اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الاَّ ان الامر لم يكن كما ظن لانهُ لم يكد يتمُّ اعداداتهِ حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصهُ

« من السلطان سليم خان ابن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

الحمد لله . اما بعد فقد تمَّت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملتهُ النخوة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءهُ منَّا ولم يعد لدينا الاَّ ان نتخلص منك فانك جارٌ معادٍ والله سبحانهُ وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعالَ الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والاَّ . . . . . »

فلمَّا قرأ طومان باي الكتاب وما في ذيلهِ من التهديد المستر استنشاط غيظًا واصرَّ على المقاتلة وكان عالمًا بعجزهِ لكنهُ فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنهُ جمعهُ من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بفرّ الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيهِ من العزم على المدافعة لشدة اليأس فعرج بجيشهِ تاركًا الصالحية عن يمينهِ وسار حتى اتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة . فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشهِ لمهاجمتهم من الوراء فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدَّمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففرَّ المصريون

الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليهِ طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في المرات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية وحمّل السلاح كل من يستطيع حملهُ للمدافعة عن الوطن . ولكن رغماً عن كل هذه الاعدادات وعما اظهرهُ طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليهِ امراؤهُ لم تنجُ القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوةً وامعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة . اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليهِ بعض العربان الرحّل وباعوهُ للعثمانيين . فاستحضرهُ السلطان سليم مغلولاً ونظر اليهِ فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجههُ القنوط لما حلَّ ببلادهِ من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحلَّ قيودهُ وأن يؤذن لهُ بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسالهُ مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم انهُ لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقهِ وذلك في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلّقوهُ تحت رواق باب زويلة بكلّاب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الحين اصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

الدولة العثمانية

١٧٩٨

من سنة ٩٢٣ ـ ١٢١٣ ﻫ او من ١٥١٧ ـ ١٧٨٩ م

وقد كانت دولة المماليك الثانية التي بادت بقتل طومان باي اكثر عربدة واقل اشتهارًا بالاعمال الحربية من الاولى لكنها ذهبت شهيدة الشرف بالمدافعة عن بلادها ورعاياها كالايوبيين . اما مصر فاستعاضت بدولة آل عثمان الذين لم يبخسوها حقها ولم يألوا جهدًا في اعادة الامن اليها والتعويض عما خسرته من المال والرجال

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٣ ـ ٩٢٦ ﻫ او من ١٥١٧ ـ ١٥٢٠ م

وامر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنهِ بثلاثة ايام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافرًا في غاية ربيع اول سنة ٩٢٣ ﻫ . وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشهِ لوضع الحماية عليها . ثم عاد الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبارحها قاصدًا الروملي . ويقال انهُ نقل معهُ الف جمل محملة ذهبًا وفضةً فضلاً عن اسلاب اخرى وهدايا قدمت لهُ . وقبل مبارحتهِ اياها جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايالة عثمانية سياسيًا ودينيًا

وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية الثانية . وكيفية توصل الخلافة اليهِ ان الامام المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في

ايام ينال سنة ٨٥٩ هـ كما تقدم توفي في ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ بعد ان تولاها ٢٥ سنة وولي مكانهُ الخليفة عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جدّهِ . ثم توفي يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٢ هـ فخلفهُ الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب بالمستمسك بالله ثم خلف هذا نحو الفتوح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم ذكرهُ . فلما فتح العثمانيون مصر رأى السلطان سليم الفاتح ان نصرهُ لا يؤيّد الّا اذا قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين فصارت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم . واما الخليفة العباسي فقيدَ الى الاستانة وخصّص لهُ راتبٌ معين لنفقاتهِ وقبل وفاة السلطان سليم بيسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفردًا الى ان توفاهُ الله سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطتهِ في مصر ليأمن من تمردها وتلاعب ذوي الاغراض فيها وكان قد جعل عليها حاكمًا يلقب بالباشا اليهِ مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في وقعة مرج دابق امير يقال لهُ خير بك وكان من كبار رجال قنسو . فلما فتح الله على العثمانيين ولّاهُ السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي ان تفرد هذا الحاكم بالامر مع بُعد مصر عن الاستانة ربما يكونان داعيًا لعصيانهِ فعمل الفكرة فيما يكفيهِ مؤنة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن لهُ ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال الاخريين فلا يخشى من اتحادها وتمردها . فالقوة الاولى « الباشا » واهمُّ واجباتهِ ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها

والقوة الثانية « الوجاقات » فانهُ اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ستة آلاف فارس وستة آلاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات « فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظماء وامرهُ

ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنهُ وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه الآتي

(١) وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

(٢) وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

(٣) وجاق الهجانة

(٤) وجاق التفنجية . وهم ناقلو البنادق

(٥) وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لانا طة محافظة البلاد بهم

(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم «وجاقلية» واحدهم «وجاقلي» على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبهُ الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الاَّ بصادقتهم . امّا هم فلهم ان يوقفوهُ عن الاجراء وان يستأنفوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضاً ان يطلبوا عزلهُ حالما يشتبهون بمقاصدهِ

اما القوة الثالثة فالمماليك . وهم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسماً الى ١٢ «سنجقلية» (مديرية) يحكم كلاًّ منها حاكم يقال لهُ «سنجق» او «بك» يعيّنهُ الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها

مع تعداد الآمرين مما يقود الى القلاقل والمتاعب اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها

وبقي خير بك باشا واليًا على مصر الى ان داركتهُ الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨ ﻫ ودفن في المدرسة التي تدعى الخيربكية التي كان قد بناها في القاهرة في شارع درب الوزير تحت القلعة . وبعد وفاتهِ لهجت الالسنة بذمّهِ لعظم استبدادهِ فكانوا يقولون انهُ كان ينهض من لحدهِ ليلاً ويستغفر الله على ما اتاهُ من الشرور في حياتهِ . ومن آثارهِ في القاهرة جامع يعرف بجامع خيربك في درب الوزير

سلطنة سليمان بن سليم

من سنة ٩٢٦ ـ ٩٧٤ ﻫ او من ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفهُ ابنهُ السلطان سليمان سنة ٩٢٦ ﻫ وسنُّهُ ٢٦ سنة فمكث على كرسي الخلافة نحوًا من نصف قرن وقد اكثر من اهتمامهِ بمصر وتنظيمها . وكان ابوهُ قبل وفاتهِ قد رسم الخطة التي يجب ان تسير عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنهُ توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولّى السلطان سليمان جعل اهتمامهُ اتمام مشروع ابيهِ

وكان من رأي السلطان سليم ان ينشئ ديوانًا تحت رئاسة الباشا حفظًا للموازنة . اما السلطان سليمان فاتمَّ الموازنة بانشاء ديوانين عُرفا بالديوان الكبير والديوان الصغير «او الديوان فقط» واناط رئاستهما بالباشا الذي عليهِ ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر . وعلى الكخيا والدفتردار استئذانهُ قبل المفاوضة ومتى اقرَّ الديوان على امر ابلغاهُ

ذلك القرار وليس لهُ الاَّ المصادقة والامر بالتنفيذ . وجعل اقامة هذا الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الآغا الذي هو قومندانها ويجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالباب العالي نفسهِ . اما اعضاء هذا الديوان فهم اغوات الوجاقات الستة ودفتردار يوها وروزنامجيُّوها . ونوابٌ من جميع فرق الجيوش وامير الحج والقاضي الاكبر واعيان المشايخ والاشراف والمفتيون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء . اما المخاطبات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلَّم للباشا ولهُ وحدهُ الحق ان يامر بعقد جلساتهِ التي لم تكن كثيرة . اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يوميًّا في قصرهِ واعضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفتردارهُ وروزنامجيُّهُ ونائبٌ من كل من الوجاقات والآغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة . ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاتهِ البحث في الادارات الثانوية

وانشأ السلطان سليمان فضلاً عن الستة وجاقات التي كان قد انشأها ابوهُ وجاقًا سابعًا دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية دولة المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها . اما نفقاتها فمن مخصَّصات يتولَّى ضبطها وتفريقها «افنديٌّ» من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلسًا مولفًا من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطانهِ لمحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبتهِ وعليهِ علامتهُ . ومجموع رجال الوجاقات معًا عشرون الفًا وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء . اما مقرُّهم ففي القاهرة على انهم كثيرًا ما كانوا يخرجون منها لمهمَّات في المديريات . وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات

وكان قائدهُ (الآغا) مفضلاً على سائر القواد ولهُ نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المماليك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحقًا بالارتقاء الى رتبة الباشوية . واضاف اليهم ١٢ بيكًا آخرين لمأموريات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المماليك وهم الكخيا او نائب الباشا والقبابطين الثلاثة وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار واميرالحج واميرالخزنة وحكمداريو او مديريو المديريات الخمس الآتي ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار واميرالحج الحق في دخول الديوان فالدفتردار كان عليهِ ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امرٌ ببيع عقار الاَّ بعد توقيعهِ عليهِ اشارةً الى تسجيلهِ في دفاترهِ . واميرالحج يحمل الهدايا والصدقات التي كانت ترسل من السلطان سنويًا الى مكة او المدينة وعليهِ حماية قافلة الحج ذهابًا وايابًا . واما امير الخزنة فيحمل القسم المخصص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برًا وعليهِ حمايتهُ

وكانت مديريات الفليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشّاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الاَّ بعد مصادقة الشريجية وغيرهم من الوجاقليين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين كخيا الباشا وقبابطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأسًا بجلالة السلطان فيُرسلون من الاستانة ويستدعون اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الآخرين فيعينهم الديوان ويوليهم الباشا ويثبّتهم الباب العالي ومراكزهم ثابتة الاَّ ان واجباتهم تتغير الاَّ الدفتردار . وقد يُنتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من همّ الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط

والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يُدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها رأسًا من الاستانة تحت قيادة القبابطين ويجددها كل سنة وهولاء القبابطين لم يكونوا يحسبون من جيوش مصر الاَّ باعتبار اقامتهم فيها وبما ينالونهُ من الامدادات المالية لنفقاتهم . اما فيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر البلاد في شيء فاوامرهم كانت ترد اليهم رأسًا من ديوان الاستانة

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل محصولات البلاد فان السلطان سليمان صرَّح بانهُ المالك الحرُّ لجميع ارض مصر فكانت لهُ ملكًا وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعوهم «الملتزمين» . على انهُ لم يكن لهُ ان يمنع اقطاعها او يوقفهُ فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون تلك الاراضي كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لا مناص من دفعهِ للملتزمين فاذا توفي فلاَّح عن غير وريث تعطى ارضهُ للملتزم وهو يعهد حراثتها الى من يشاء واذا مات الملتزم عن غير وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملتزمين والفلاَّحين خراجٌ يدفعونهُ اما نقدًا واما عينًا فاذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نوال نصيبهِ واذا تأخر الملتزم تؤخذ الارض منهُ . ونظرًا لاتساع ارض مصر لم يكن ممكنًا حصر املاك كلٍّ من الملتزمين فلم يكن ممكنًا تعيين مقدار خراجها فارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الاراضي المصرية فقسموا المديريات الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاًّ منها على حدة وحددوهُ

كل هذه النظامات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمهِ وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولَّى بعد وفاة خيربك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ وبعد

تسعة اشهر و٢٥ يومًا ابدل باحمد باشا وكان عدوًّا للصدر الاعظم ابراهيم باشا فاسرّ الصدر سنة ٩٣٠ ﻫ الى امراء القاهرة ان يقتلوهُ فعلم هو بذلك فقبض على الثلاثة قبل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلنهم انها اوامر واردة من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعهم عليها فابوا الاذعان الّا ان إباءهم لم يمنع قتلهم . ولما تاكّد انهُ صار في مأمن من المقاومين صرّح باستقلالهِ وامر ان يخطب لهُ وان تضرب النقود باسمهِ وبالغ بالعسف والفجور فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض فثارت الافكار عليهِ حتى اصبحت حياتهُ في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجأهُ اميران من امرائهِ كان قد امر بسجنهما وهما جهم الحمزاوي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستنصران الناس حتى اتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففرّ من السطح والتجأ الى احد مشائخ عربان الشرقية واسمهُ ابن بقر فتعقّبهُ اعداؤهُ حتى ادركوهُ وقطعوا رأسهُ وعلقوهُ على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ ﻫ . فارسل السلطان عوضًا عنهُ قاسم باشا مصمماً على تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلاّ يثور في خواطرهم حب الاستقلال فبعد تسعة اشهر و١٤ يومًا استبدلهُ بابراهيم باشا وكان نشيطًا محبًّا للاصلاح والنظام الّا ان قصر مدتهِ لم تمكنهُ من اتمام ما كان شارعًا فيهِ من تنظيم الضابطة فعزل واقيم بدلاً منهُ سليمان باشا سنة ٩٣٣ﻫ . وكان السلطان راضيًا عن هذا الباشا واثقًا فيهِ فابقاهُ في الحكم مدة تسع سنوات و١١ شهرًا وفي سنة ٩٤١ﻫ استقدمهُ الى الاستانة ليسلمهُ قيادة حملة اعدّها لمحاربة الفرس والهند . وقد اقام في مدة حكمهِ بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية او شارية في القلعة . وناب عنهُ في مدة غيابهِ خسرو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فعاد سليمان باشا الى مصر وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ ﻫ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة و٨ اشهر وكان رجلاً مستقيمًا كريم الاخلاق محبًّا للعلماء آخذًا بناصرهم

كلفًا بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عددًا وافرًا واستنسخ كل ما ظفر بهِ من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جدًّا . وكانت الاهالي في مدة حكمهِ في بحبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦ ﻫ فتولّى مكانهُ علي باشا وهذا رمم وبنى عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي فوه ورشيد واقتدى بهِ غيرهُ من بكوات مصر فجعلوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه عيسى بك في دبروط . وكان علي باشا محبوبًا مكرمًا من المصريين يعتبرونهُ بمنزلة الاب لكنهُ رغمًا عن ذلك لم يحكم الّا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ ﻫ تولى باشوية مصر محمد باشا وكان مبغوضًا من الناس فلم يحكم الّا ثلاث سنوات ولما زاد التشكي منهُ عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليهِ بالقتل سنة ٩٦٣ ﻫ

وبعد محمد باشا تولّى اسكندر باشا فحكم ٢ سنوات و ٢ اشهر ونصف وفي سنة ٩٦٨ ﻫ تولّى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهرًا تولّى مكانهُ مصطفى باشا (الثاني) في سنة ٩٦٩ ﻫ ثم في سنة ٩٧١ ﻫ تولاها علي باشا الصوفي مدة سنتين و ٢ اشهر . وكان علي الصوفي قبلاً حاكمًا في بغداد مشهورًا فيها باعوجاج الاحكام والخيانة فلما تولّى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصّت ضواحي القاهرة باللصوص واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض فاضطرت الحكومة ان تقيم سورًا من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعًا لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ ﻫ استبدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فأُهدي اليهِ اثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاهُ الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيو جميع انواع الهدايا وخمسون الف دينار فأخذ الباشا الهدايا منهُ وامر بخنقهِ حال خروجهِ من مجلسهِ وامر ايضًا بخنق القاضي يوسف العبادي لانهُ

لم يأتِ لملاقاتهِ ولم يهدِ شيئًا واستمر على هذا الاستبداد حتى قتل معظم اعيان القاهرة فكان لا يمرُّ الاَّ مصحوبًا بالشوباصي (رئيس الجلادين) فاذا مرَّ باحدٍ واراد قتلهُ اشار بيدهِ الى بالشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك الشيء الطالع فيعدمهُ الحياة باسرع من لمح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميرًا للحج فاستولى محمود باشا على كل ما ترك من المال والمماليك والجواري وجملة ذلك ماية الف دينار ضمَّها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنويًا وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائهِ استجلابًا لخاطرهم لكنهُ لم ينتفع من ذلك قبل ان قتل في يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ هـ بينما كان مارًّا في موكبهِ الاعتيادي بين البساتين ولم تقف الحكومة على القاتل فاتهمت اثنين من النلاَّحين وقتلتهما ظلمًا لانهما وجدا بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان الثاني قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة ٩٧٤ هـ) وسنُّهُ ٧٤ سنة ومدة حكمهِ ٤٨ فتولى بعدهُ ابنهُ سليم شاه (سليم الثاني) في ٩ ربيع اول من تلك السنة

وترى في الشكل ٦٦ نقود السلطان سليمان الثاني ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ . ومما يحسن التنبيه اليهِ ان سلاطين آل عثمان لا يؤرخون نقودهم الاَّ بسنة جلوسهم على السلطنة وليس بسنة ضربها

ش ٦٦ نقود السلطان سليمان الثاني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ ـ ٩٨٢ هـ او من ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا

من باشوية حلب الى باشوية مصر وبعد وصولهِ اليها بتسعة اشهر انفذهُ لمحاربة اليمن فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ مصحوبًا بحمزة بك وماي بك وغيرهما من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و٤ اشهر ففتح اليمن وعاد ظافرًا الى مصر فرأى الاحوال هادئة والنظام مستتبًا بدراية اسكندر باشا المذكور لانهُ كان حكيمًا محبًّا للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبة العلم لانهُ كان شديد التعلق بالعلم وذويهِ فلما عاد سينان باشا الى مصر (اول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت احكامها الى يدهِ فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فاعاد حفر ترعة الاسكندرية ورممها وبنى فيها جامعًا وشارعًا وعدة حمامات . وبنى في بولاق بمصر شارعًا ووكالات وجامعًا لا يزال معروفًا باسمهِ . وما زال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ فخلفهُ حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الاَّ لكثرة حلمهِ الامر الذي آل الى تكاثر اللصوص في ايامهِ ولم يحكم الاَّ سنة وتسعة اشهر . وفي ايامهِ توفي السلطان سليم شاه (سليم الثاني) في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد ان حكم ثماني سنين وخمسة اشهر و ١٩ يومًا

وترى في الشكل ٦٧ صورة نقود السلطان سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ هـ

ش ٦٧ نقود السلطان سليم الثاني

سلطنة مراد بن سليم

من سنة ٩٨٢ ـ ١٠٠٣ ﻫ او من ١٥٧٤ ـ ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان بويع ابنهُ مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسهِ على كرسي السلطنة ولّى على مصر بدلاً من حسين باشا مسيح باشا وكان خزندارًا عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجّه اهتمامهُ خصوصًا الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهًا لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثارهِ مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمهِ . وقد بناهُ على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعلهُ لهُ ولنسلهِ ملكًا حرًّا وخصص دخلاً معلومًا للنفقة عليهِ . وامر مسيح باشا ان تسهل الاوامر والكتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة «الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآلهِ وصحبهِ ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله»

وفي سنة ٩٨٨ ﻫ وُلّي مصر حسن باشا الخادم خزندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همُّهُ الّا جمع الاموال باي وسيلة كانت واعادة ما كان حظرهُ سابقهُ من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة اشهر ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المقابر لئلاّ ينتقم منهُ الاهالي . وفي سنة ٩٩١ ﻫ ولّى مكانهُ ابراهيم باشا فاخذ يستطلع ويتحرى ما اتاهُ سابقهُ من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق مأمورًا خصوصيًّا لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من

جملتها ١٠٠٤٤٣ اردب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم باشا تقريرًا مدققًا بشان ذلك الى السلطان فامر بقتلهِ خنقًا . ثم طاف ابراهيم باشا بنفسهِ يتفقد احوال المديريات ويتحقق حالتها وزار ايضًا آثار امرود في الصحراء ورسم بعضها . وفي عودتهِ الى القاهرة استقال من منصبهِ سنة ٩٩٣ هـ وتولى مكانهُ سنان باشا الثاني وكان دفتردارًا وبعد ستة اشهر وعشرين يومًا بارح مصر هاربًا وسبب ذلك انهُ ساء التصرف فاشتكاهُ الناس الى الاستانة فجاء عويس باشا الى مصر ليتحرى امر تلك التشكيات فحالما علم سنان بمجيء عويس فرَّ هاربًا

فتولى عويس[1] حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ وكان رجلاً صارمًا في الاحكام وكان في اوَّل امرهِ قاضيًا ثم صار دفتردارًا في الروملي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم وبقي عليها خمس سنوات وخمسة اشهر وعشرة ايام واراد ان يعيد تعليم الجنود فعصوهُ وهجموا عليهِ في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ واهانوهُ ونهبوا بيتهُ وفي جملة ما نهبوا منهُ ساعة كبيرة تعرف منها الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الحوانيت فنهبوها كل ذلك والامراء لا يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد اشكالاً والثائرون تمرُّدًا وقد حاول الدفتردار ايقافهم عند حدهم فذهب سعيهُ باطلاً . ثم ظن عويس باشا انهُ اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون . فبعث الى القضاة ان لا يخالفوا لهم امرًا فلم يزدهم ذلك الاَّ عنادًا وفجورًا حتى انهم قبضوا على اولاد الباشا رهنًا لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لكل ما ارادوهُ واعطاهم كلما طلبوهُ واستقال من تلك الولاية بعد ان ملَّ من خيبة مساعيهِ الحميدة فيها . فتولى مكانهُ حافظ احمد باشا الملقب بالخادم سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكمًا في قبرص وعلى جانب عظيم من حب

(١) اويس

في سائر انحاء القطر المصري . ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزلهِ في برية الجيزة فعاد الى القاهرة تحفُّ بهِ السناجق وزمرة من الغفر فلم يبالِ العصاة بذلك بل اطلقوا عليهِ النار ولم يتخلص من ايديهم الاَّ بعد شق الانفس . فسار الى احد منازلهِ فتبعوهُ وحاصروهُ هناك ليلاً ونهارًا والحُّوا عليهِ ان يسلمهم بعضًا من ضباطهِ وفي جملتهم دالي محمد احد كبار الامراء والامير جلاد الشوباصي والامير خضر كاشف المنصورة فطلب اليهم ان يعطوهُ مهلة ثلاثة ايام . فلما جاءهم رسولهُ قالوا لهُ « سيحكم الله بيننا وبين سيدك » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرؤوف عزب الزادين فاجبروهُ على القيام بمطاليبهم . اما الباشا فاغتنم فرصة اشتغالهم بذلك الشأن وفرَّ من منزلهِ ودخل القلعة وقفل ابوابها وراءه ملتجئًا الى حسن باشا السكراني قائد عموم الجيش وبيري بك امير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثًا . ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ونهبوا بيوتهما واثخنوا في الناس قتلاً ونهبًا

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و١٢ يومًا وقد اغضب الاهالي منذ وصولهِ القاهرة لانهُ امر بقطع جميع العطيات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ولم يقتصر على الايقاع بهؤلاء الضعفاء فقط بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم من زادهم فتجمهروا في ٣٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ وساروا الى قاضي العسكر . ثم اتحدوا جميعًا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين فخاف الباشا فسلم لهم بكل ما كانوا يطلبون واعاد لهم العطيات كما شاءوا فخمدت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الاَّ ان الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءهُ الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانهُ الوزير علي باشا السلحدار وكان شجاعًا محبًا للحرب

ولذلك كان يكرم

العلم وطالبيهِ حاذقًا مدرِّبًا في امور الاحكام . وكان رفوقًا بالاهالي ففرق الحسنات على المحاج الفقراء . وابتنى في بولاق وكالتين وعدة قيسريات وعدة بيوت وخصَّص ربع دخلها العمل الخير وبقي حاكمًا في مصر ٤ سنوات

ش ٦٨ نقود السلطان مراد بن سليم

وترى في الشكلين ٦٨ و٦٩ صورة نقود السلطان مراد بن سليم مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ٩٨٢ ﻫ

ش ٦٩ نقود السطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ ــ ١٠١٢ ﻫ او من ١٥٩٤ ــ ١٦٠٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ ﻫ تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضًا عن ابيهِ مراد الثالث

فولَّى على مصر قورط باشا فلم يبقَ فيها الاَّ سنة وثمانية ايام وكان محبوبًا من الاهالي نظرًا للطفهِ ودعتهِ وتنشيطهِ لطالبي الادب ومساعدتهِ للفقراء ولكل من يلتجئُ اليهِ . وفي شوال سنة ١٠٠٤ ﻫ أُبدل بالسيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع اثناءها خطة اسلافهِ في في محبة العلم والادب وتنشيطها فاعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيهِ توزيعًا يوميًا من العدس المطبوخ على الطلبة الفقراء ورمم ايضًا المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخَّاه من السعي في حفظ النظام بين الاهالي لم يمكنهُ اكفاءهم شر ثورة عسكرية انتشبت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ ﻫ

في سائر انحاء

ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص الاَّ انهُ كان سفاكًا للدماء فتظلم الاهالي من قساوتهِ . ولم يكن يخرج في موكبهِ الى المدينة او ضواحيها الاَّ ويبيت على الاقل عشرة اشخاص تحت اقدام جوادهِ فكان الناس يرتعدون خوفًا عند ذكر اسمهِ . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعمَّ الخراب فازداد الرعب حتى امر الباشا ان تدفن الموتى سرًّا اما هو فترك القاهرة فرارًا من تلك الغائلة مستخلفًا عليها بيري بك وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامهُ وبقي هذا حتى عين الباب العالي بدلاً من علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ . وترى في الشكلين ٧٠ و٧١

ش ٧٠ نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة

صورة نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق

ش ٧١ نقود السلطان محمد بن مراد مضروبة في دمشق

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ ــ ١٠٢٦ هـ او من ١٦٠٣ ــ ١٦١٧ م

فنصّب ابنهُ احمد بن محمد (احمد الاول) فولّى على مصر ابراهيم باشا . فحكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم وذلك انهُ منذ وصولهِ اليها نوى على ابطال طلبات الجند ولما سعى الى انفاذ ما نواهُ زادت الجنود تمردًا وعصيانًا . وفي ٢٩ ربيع آخر سنة ١٠١٢ هـ علموا ان الباشا

خرج من القاهرة في زمرة من رجالهِ وركب في النيل الى بولاق قاصدًا شوبرا قرب جسر ابي المنجا . فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتحالفوا بالايمان العظيمة على قتلهِ . وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق منتظرين عودهُ . ثم قاموا من هناك على نية مهاجمتهِ في قلعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائهِ اليها . فلما عرف هو ومن معهُ من السناجق بقدوم تلك العصبة تشاوروا فيما بينهم فنصح لهُ السناجق ان يسافر بحرًا قبل ان يصل اليهِ ضيمٌ فلم يصغَ لهم لانهُ تشدد بمن معهُ من الجاويشية والمتفرقة

ثم جاءت الجنود الثائرة واحاطوا بالقلعة ثم بعثوا من بينهم ١٥ شخصًا ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف في ايديهم الى ان جاءوا مجلسهُ فانتهرهم قائلاً « ماذا تريدون مني الم تستولوا على مرتباتكم والانعام التي تعطى اعتياديًا عند اول تولية الحكام عليكم فماذا تطلبون اذًا » فاجابوهُ « لا نطلب منك شيئًا الّا رأسك » قالوا هذا وضربهُ احدهم صفعًا على وجههِ وادركهُ الباقون بالطعن مرارًا . ثم عمد احدهم الى رأسهِ فقطعهُ فناداهم الامير محمد بن خسرو منتهرًا وموبخًا على ما جاءوا بهِ من الفحة فلم يجيبوهُ الّا بما اجابوا ذاك واخذوا راسي الاثنين وعادوا بهما الى ارفاقهما حول القلعة . ثم حملوهما جميعًا وداروا بهما في شوارع المدينة ثم علقوهما على باب زويلة الذي كان قد تعود مثل هذه الاكاليل . وفي ذلك اليوم ولّوا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي . فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا ارسل عوضًا عنهُ الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخادم . وحال وصولهِ القاهرة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي موجهة الى جميع السناجق بان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع في الحال السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قرا ميدان وكان الباشا في القلعة فبعث يستقدم السناجق اليهِ ليبلغهم هذه الاوامر رسميًا

فرفضوا المثول بين يديهِ فتواسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلّموا القاتلين ينجون هم وينالون العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فامر بقطع اعناقهم بين يديهِ حالاً واطلق السناجق . فهاب الثائرون وضعف عزمهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا الانتباه الكلي لحفظ النظام ومعاقبة المعتدين المعاقبة الصارمة حتى قتل منهم نحوًا من مائتي رجل في مدة حكمهِ القصيرة التي لم تدم اكثر من سبعة اشهر وتسعة ايام

فتولى بعدهُ الوزير حسن باشا وكان اقلّ صرامة من سلفهِ وكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنهُ فيهم برتبة بيلربك وكانت الاحوال هادئة جدًا في اثناء حكمهِ . ثم تولى بعدهُ الوزير محمد باشا وذلك في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة اشهر و ١٢ يومًا وكان رجلاً حكيمًا حازمًا اخذ منذ وصولهِ القاهرة في المحافظة على السلام فنجّى الاهالي من كل ما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الاّ انهُ لم ينجُ من الحساد وذوي الاغراض

وفي اواخر شوال من السنة التالية ثارت عليهِ الجيوش واجتمعوا في برج سيد احمد البدوي وتحالفوا ان لا يوافقوهُ على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطر الى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيسًا ولوهُ عليهم سلطانًا بايعاز الوزراء وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحدٍ منهم اثارة الشغب والنهب في قسمٍ منها فانتشرت تعدياتهم في جميع الذلتا . فلما علمَ محمد باشا بذلك جمع السناجق والجاويشية والمتفرقة وسار بها تحت قيادتهِ لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ هـ واخذ معهُ ستة مدافع وانضم اليهِ عدة من مشائخ قبائل العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج . وفي الصباح التالي هاجموا العصاة في الخانكاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فاخذ عليهم الباشا عهودًا اولها ان يسلموا اليهِ سلطانهم وكبار روسائهم ووعدهم مقابلة

لذلك بالتامين على حياتهم فقبلوا وسلموا الروساء وعددهم نحو ٧٧ فامر بقتلهم حالاً . ثم جرّد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتعقبتهم رجال الباشا فقتلوا كل من ظفروا بهِ منهم . فلما رأى قاضي العسكر محمد افندي الملقب بيختي زادة ما كان يحصل من مثل هذه المذابح يوميًّا نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليهِ من بعد ذلك الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة و بطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات أخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص بنفسهِ النفقات التي كانت تدفع من الخزينة وابطل منها على سبيل الوفر كلما لم يكن ضروريًّا ثم نظر الى الضرائب فمنع اتباع طريقة المماليك الشراكسة فيها واتبع القوانين التي أُصدرت سنة ٩٢٣ هـ تحت سلطة السلطان سليمان ثم نظم المكوس وعدّلها ولم يكن يكلف نفسًا الاَّ وسعها فاذا رأى ارضًا لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس تنازل لها عنهُ وساعدها في احياء خصبها . ولما بارح مصر نال من المكافآت والانعامات ما لم ينلهُ احدٌ من اسلافهِ في مصر . وتولى بعدهُ محمد باشا الملقب بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعًا حليمًا عفيفًا لم يقبل رشوة ولم يأتِ ظلمًا الاَّ انهُ كان ملومًا لزيادة ضعفهِ بما يتعلق بمحبوبهِ يوسف الذي كثيرًا ما تعدّى حدودهُ

وفي سنة ١٠٣٢ هـ ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاخماد ما كان ثائرًا من الشغب هناك وأُرسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر مرفوقة بامرٍ سامٍ الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشييع الحملة الى اليمن فلما وصلت الجيوش الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشانهم ادّعوا انهم انما جاؤا ليقيموا في مصر ولم يذعنوا لاوامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر و بعض بيوت الاهالي بعد ان طردوا اصحابها منها فاجتهد الباشا ان يحملهم على التسليم

بالاوامر الواردة اليهِ بشأنهم فذهب سعيهُ باطلاً واقاموا لهم متاريس في ابواب الحارة وقفلوا باب النصر واقاموا المدافع في برجيهِ فاضطر الباشا لمحاصرتهم بكل ما لديهِ من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدبن بك من الدخول الى حصنهم من مدخل في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية فخاف العصاة وسلموا ففرّق فيهم الباشا نحو ثمانين كيساً وسافروا من المدينة

وبعد يسير عزل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العدلية ولم يبارحها الاَّ بعد ان علم بوصول خلفهِ احمد باشا دفتردار مصر سابقًا الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل وبينما هو بحفلهِ في المدينة رماهُ احد الناس بحجر من على سطح احد البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامتهِ ولم يضرّهِ فأُمسك الناعل فاعترف بذنبهِ فقتل في المكان عينهِ

وفي محرم سنة ١٠٣٥ هـ ورد الى الباشا المذكور امر من الاستانة ان يرسل الفًا من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس فارسلهم تحت قيادة صالح بك امير الحج فساروا على اتمّ نظام ومرُّوا بالمدبريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم مع انهُ لم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة ما لم ينهبوها . وذلك لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما اقام في مصر من النظام واعطاء الجيوش حقهم من المرتبات . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانكاه وانضمت اليهِ وعند ما ودع الباشا عساكرهُ فرّق فيهم المال فاصاب الواحد منهم ٣٠ دينارًا على الاقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة اشهر واثنا عشر يومًا لم يقتل اثناءها اكثر من عشرة اشخاص جاؤا امورًا استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على احدٍ الاَّ بعد التحري الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ ـ ١٠٣٢ ﻫ او من ١٦١٧ ـ ١٦٢٢ م

وفي يوم الاربعا في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ ﻫ توفي السلطان احمد الاول وتولى بعدهُ اخوهُ السلطان مصطفى الاول وعند توليتهِ استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لنغلي الاَّ ان السلطان مصطفى لم يمكث على كرسي السلطنة الاَّ ثلاثة اشهر وثمانية ايام . وفي يوم الاربعا ٣ ربيع اول سنة ١٠٢٧ ﻫ عزل السلطان مصطفى وولى مكانهُ بالانتخاب ابن اخيهِ ابو النصر عثمان . اما الوزير مصطفى باشا فلم يبقَ على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاهُ الاَّ بضعة اشهر لانهُ جعل سبيلاً لنفوذ ذويهِ في الاحكام فنشأت ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ ﻫ فقتل الثائرون عدد كبيرًا من الامراء والاغوات وغيرهم من كبار المأمورين واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الاَّ بعزل مصطفى باشا بامر السلطان عثمان فتولَّى مكانهُ الوزير جعفر باشا وهذا لم تدم حكومتهُ اكثر من خمسة اشهر ونصف وكان محبًّا للعلم والعلماء وكان يجمع اليهِ رجال الادب ويكرم مثواهم ولم يهتم كل تلك المدة الاَّ بما فيهِ صالح البلاد وراحة العباد

وحصل في ايامهِ وباء انتشر في مصر وفتك باهلها فتكًا ذريعًا من غاية ربيع اول سنة ١٠٢٨ ﻫ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ ان معظم من مات بهذا الوباء كانوا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر وبلغت جملة من توفي بسببهِ ٦٤٥٠٠٠ نفس

وتولَّى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالبكلجي زعيم الثورة التي نشأت في ايام مصطفى باشا لنغلي وحكم عليهِ

بالاعدام فسرَّ الاهالي لذلك لان مصطفى بك المذكور كان مصدرًا لمناعبهم . الَّا ان ذلك السرور لم يلبث ان ظهر حتى أُبدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضطهد تجَّارهم اضطهادًا عنيفًا وضيق عليهم مسالك رزقهم . فرفعوا ظلاماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم بعزل ذلك الباشا وتولية حسين باشا . فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير الاصولية التي كان قد ضربها سلفهُ . وفي ايامهِ ارتفع النيل ارتفاعًا غير اعتيادي فطاف على الارض بكثرة حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الفيضان فحصل بسبب ذلك ضيق عظيم عقبهُ طاعون شديد . ثم عُزل حسين باشا واستُقدم الى الاستانة وقبل وصولهِ اليها خُلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ وبويع مصطفى الاول الذي كان قبلهُ

اما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات لهُ لان إعراض السلطان السابق عنهُ كان داعيًا لرغبة السلطان الجديد في تقريبهِ منهُ فاتفقت الاحزاب هناك فولوهُ الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل فاتهِ قد بعث الى مصر محمد باشا بدلاً من حسين باشا لكنهُ لم يصل مصر الَّا بعد ان أُنبئ اهلها بما كان يأتيهِ في الروملي يوم كان واليًا عليها ما جعلهم ينفرون منهُ ويخشون من تصرفهِ ولحسن حظهم لم يبقَ بينهم الَّا شهرين ونصف فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزلهُ بامر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنةً وقد تمكن بحسن سياستهِ وتدبيرهِ من استجلاب رضى الاهالي وتفنهم الَّا انهُ حصل في ايامهِ ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جدًّا

ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بحرًا خلافًا لما كانت العادة عند من سبقوهُ على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عُزلوا من مناصبهم سافروا برًّا . وتولَّى مكانهُ مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فاتاه كتبة الديوان يشتكون من تصرف سلفهِ وقالوا انهُ

مديون للخزينة بمبلغ وافر فارسل في اثرهِ بعض الجاويشية فالتقوا بهِ فتهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنهُ فخافوا وعادوا الى القاهرة فارسل الامير صالح بك فادركهُ وقد نزل البحر عند الاسكندرية فاستدعاهُ ان يقف فاجاب انهُ متوجه الى الاستانة فاذا كان عليهِ شيءٌ يدفعهُ هناك الى السلطان نفسهِ . قال ذلك ونشر الشراع فصخرت بهِ السفينة فاطلقوا عليهِ من طابية منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها

سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ ــ ١٠٤٩ هـ اومن ١٦٢٣ ــ ١٦٤٠ م

وما زال حتى بلغ الاستانة فاذا بالسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولّى مكانهُ السلطان مراد الرابع بن احمد ولذلك لم يتعرض احد لابراهيم باشا ولم يهتم احد بقضيتهِ وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر . اي في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة خبر عزلهِ وتولية علي باشا مكانهُ . فاجتمعت الاجناد وساروا الى القائمقام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي توزع عند تولية كل والٍ جديد فانتهرهم عيسى بك قائلاً « اني كل ثلاثة اشهر تجددون هذه الطلبات » فاجابوهُ « وما المانع الم يغيّر مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر والياً علينا ألا يضرُّ ذلك بصالح البلاد فاذا أراد ان يولي كل يوم والياً نحن ايضاً كل يوم نطلب الاعطاءات الاعتيادية التي لنا » . فحاول القائمقام اقناعهم فلم ينجح ولم يزدهم ذلك الّا عناداً وتهديداً وصرخوا جميعهم بصوت واحد « نحن لا نرضى حاكماً آخر غير مصطفى باشا وليرجع هذا الى حيث اتى » ثم قرأوا الفاتحة على محافظتهم لما قالوهُ وان لا يحنث احد منهم بذلك وبناء عليهِ أُعيد مصطفى باشا الى مركزهِ

فلما رأى ان الحزب العسكري كلهُ معهُ حرَّر الى السلطان يطلب تثبيتهُ وارفق الكتاب برسائل عديدة ممضية من علماء القاهرة ومشائخها وقضاتها وجميعهم يطلبون تثبيتهِ بصوت واحد . ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليهِ وفدًا يبلغونهُ ان الجند والاهالي متفقون على رفضهِ فجمع اليهِ الوفد والقى اليهم كتبًا كلها مدح واطناب للامراء والجيوش فلما تليت تلك الرسائل على الجند لم يكن جوابهم الَّا اعادة ذلك الوفد ثانيةً يعيدون مطالبهم الاولى فلما رأى ما كان من اصرارهم استشاط غضبًا وامر فقُبض على ذلك الوفد وقيدوا الى سجن قلعة الاسكندرية مغلولين فتآمروا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فحلوا وثاقهم وهجموا جميعًا على علي باشا وهدموا خيمتهُ واجبروهُ على مبارحة الاسكندرية فورًا فانزلوهُ في قارب مخصوص واخرجوهُ من المينا وكان الريح ضدهُ فاعادهُ اليها ثانيةً فاطلق عليهِ الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت مركبهُ ثقوبًا لم تغرقها لكنها اخرجتها من المينا ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٤ هـ جاء القاهرة كتاب محمولٌ على حمامة يفيد قرب وصول مندوب عثماني ناقل لبعض الاوامر السلطانية . وبعد ايامٍ وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع اليهِ السناجق والامراء وكبار المأمورين في الديوان وألبسَ مصطفى باشا الخلعة المرسلة اليهِ من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيتهِ على مصر

وفي السنة التالية زاد النيل زيادة غير اعتيادية فبلغ ٢٤ ذراعًا فخشي الاهالي ان لا تنخفض المياه عن اراضيهم في زمنٍ يمكنهم فيهِ زراعتها . لكنهُ اخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمها ما هو اصعب مراسًا منهُ وهو الوباء فانهُ ظهر فيها في اوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ هـ واخذ ينتشر في جميع انحائها بسرعة

وفي شعبان من تلك السنة اخذ بالتناقص ولم ينقضِ الاَّ في اوائل رمضان . قال بعضهم ان عدد الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فاغتنم الباشا من هذه الضربات فرصة لاختلاس اموال الناس فجعل نفسهُ وريثًا لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فتظلَّم الورثاء الاصليون منهُ الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يتولَّ مصر الاَّ رغمًا عن ارادة الباب العالي فاغتنم هذه الفرصة فعزلهُ وولَّى بيرام باشا . وهذا حاكم مصطفى باشا وحكم عليهِ بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما لهُ من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليهِ . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٢٧ ﻫ) حكم عليهِ بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد ارادتهم مخالف للنظام العمومي ولما وضعهُ السلطان سليم الفاتح وما جعلهُ لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . وقد اعتُبرت موافقة الباب العالي على مطاليب الامراء خرقًا للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل ما حصل من التحوير في القواعد الاساسية التي سنَّها السلطان سليم الاول منذ نحو قرن

وكان بيرام باشا محبًّا للعلم والعلماء لكنهُ كان اكثر حبًّا لاحراز المال واقامة المشروعات المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها لكنهُ اكثر من الضرائب عليها حتى على الصابون . واما فيما خلا ذلك فكان حازمًا لم يترك للجند فرصة للتمرد فهدأت مصر في ايامهِ . ثم استدعي الى الاستانة وعُيِّن وزيرًا في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينهِ في ذلك المنصب . فتولَّى بعدهُ الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محبًّا للحياة الانفرادية فلم يظهر في طرق القاهرة اثناء مدة حكمهِ التي هي نحو سنتين الاَّ ست مرات . واتصل بهِ ما حصل في اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية فعرض على السلطان اخضاعها وتعهد

بارسال فرقة من رجالهِ تحت قيادة قنسو بك امير الحج لهذه الغاية فاجابهُ السلطان الى ما طلب وولى قنسو بك على اليمن مع رتبة باشا وجعلهُ بيلر بك على الجيش . فانشأ قنسو بك جيشًا من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغًا كبيرًا ليدفع منهُ نفقات الحملة الاَّ انهُ بعد ان قبضهُ توقف عن السفر وترك جيشهُ نقمة لمصر يسلبون وينهبون ويقتلون فتكًا في الاهالي وتعريضًا للمسافرين في طريقهم . ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الروملي جاءوا للمشاركة في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاخمدوا تلك الثورة والزموا قنسو بك على المسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ ﻫ فسار وحارب وفاز وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) مرَّ في مكة تيَّار من الماء فاغرق القسم الاعظم من ارضها حتى مقام الكعبة فهدم جميع بنائها ولم يبقَ من جدرانها الاَّ الايمن . فانصل ذلك بوالي مصر فاوصلهُ للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليهِ ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات على ما قالهُ بعضهم نحوًا من مئة الف قرش (القرش يساوي اربع فرنكات تقريبًا)

وفي سنة ١٠٤٠ ﻫ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعًا ولكن رغمًا عن ذلك النقص فتح الخليج وسيقت المياه قليلةً الى الاراضي ولكن البلاد امنت من الجوع بتدبير محمد باشا . وفي هذه السنة استُدعي محمد باشا الى الاستانة وقلدهُ السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياستهِ ودرايتهِ . وتولَّى مكانهُ في مصر الوزير موسى باشا وكان للاهلين في باديء الرأي ثقة تامة فيهِ وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ فانهم ساروا لملاقاتهِ في شوبرا الاَّ انهُ لم يكد يمكّن قدمهُ حتى القى بنفسهِ الى هوى النفس من المطامع فاخذ في الاخنلاس ظلمًا والاستبداد بانفس العباد فامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق

وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصد تصرفاتهم لعلَّهُ يأتي على طريقة للاستيلاء على ثرواتهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليهِ اعداد حملة من جندهِ لمحاربة الفرس فجمعهم وجعل قيادتهم في عهدة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة تحت اسم اعانة حربية . ولما وصلت تلك المبالغ الى يدهِ اوعز الى قيطاس بك ان مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة فنصح لهُ قيطاس ان يتبع الاستقامة فهي افضل لهُ فذهبت جميع اقوالهِ عبثاً . ثم اوجس موسى باشا خيفةً من قيطاس بك لانهُ اطلع على اعمالهِ فاستدعاهُ الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجالهِ ان يقتلوهُ ففعلوا . فلما رأى ذلك الاميران كنعان بك وعلي بك وقع الخوف في قلوبهم واسرعوا الى الجيوش فاعلموهم بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالاً في الرميلة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار المأمورين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فاقرُّوا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامهُ وقتياً لبينما يأتي امر الباب العالي بشأنهِ فخلعوهُ واقاموا حسن بك مكانهُ . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمهُ بما كان من تلك الثورة . اما رؤساؤها فكانوا قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية ممضيٌّ من السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية ممضيٌّ من القضاة والمشائخ والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا فاجابهم السلطان الى طلبهم فولَّى عليهم خليل باشا

وفي ربيع اول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم ازمتها . وبعد يسير بلغهُ ان جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة احد الاشراف المدعو نامي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وارسلهم تحت قيادة

الامير قاسم بك لاخماد تلك الثورة فساروا وحاربوهم وقتلوا زعماءهم وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ عاد قاسم بك بجيشهِ الى القاهرة ظافرًا . واقبلت محصولات مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها ونزلت اسعار الحنطة من ثمانية غروش الاردب الى غرشين

وفي سنة ١٠٤٣ هـ استقال خليل باشا من حكومة مصر فخرج منها والناس يثنون عليهِ ثناءً طيبًا لانهُ كان عادلاً مع رفق فلم يكن يصدر حكمهُ الاَّ بعد التروي بما يقولهُ الطرفان . ومما يحكى عنهُ انهُ جيءَ اليهِ يومًا بثلاثة لصوص قُبض عليهم في حال اجراء الجناية فأمر أن يحاكموا فقال احد رجال ديوانهِ ان مثل هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة لثبوت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأسًا بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الاَّ الامر بهدم بيت ذلك الناصح فاستغرب الرجل ذلك وطلب السبب الموجب لهُ فاجابهُ الباشا قائلاً « كيف يحق لك الاعتراض عليَّ اذا امرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا يحق لذلك الباني العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنايتهُ بغير وجه شرعي » ثم ابطل الامر بالهدم وامر باطلاق اللصوص . قال ابن ابي السرور ناقل هذه الحكاية ان اللصوص قتلوا بعد تلك الحادثة اهابة للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين على الروملي وولّي على مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً امير ياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ هـ وردت لهُ الاوامر الشاهانية ان يبعث الفين من العساكر المصرية الى سوريا مساعدة للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط واربعة آلاف قنطار من البارود . ثم وردت اوامر اخرى بطلب الفي رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى احمد باشا ان مصر لا تقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليهِ ١٢ الف قنطار من النحاس ليسكبها نقودًا وطلب

اليهِ ان يبعث عوضًا عنها الى الاستانة ثلاثماية الف محبوب [1] فاخذ في سكب النحاس واعدَّ لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين ان جميع هذه الاجراآت ذاهبة عبثًا لان الفعلة ملُّوا من العمل ومات منهم كثيرون من الحرّ والجهد فجمع اليهِ ذوي شوراه من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رأيهِ ان يدفع مطاليب السلطان من مالهِ الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرور وبلاد الزنج . فارتأى احد القضاة رأيًا آخر وهو ان يُخبر اهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وان يفرق النحاس عليهم مقادير متناسبة لما يدفعون فوافق الجميع على ذلك واخذوا في تنفيذهِ في ١٦ ذي الحجة سنة ١٠٤٣ هـ وتمموهُ في آخر شعبان من السنة التالية . وكان ذلك ثقلاً عظيماً على كاهل المصريين لانهُ لم ينجُ من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلَّت النقود وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاءً فاحشًا وزاد في الطنبور نغمة ان النيل في السنة التالية لم يكن وفاؤهُ حسنًا غير ان ذلك لم يمنع استغلال الارض غلة متوسطة

وبعد يسير استُدعي احمد باشا الى الاستانة فسار وقد توقف عن دفع المبالغ التي جمعت للخزينة فرفع المصريون التقارير اللازمة بشأن ذلك متظلمين فلما وصل الى الاستانة حكم عليهِ بالاعدام . وتولى مكانهُ الوزير حسين باشا فجاء مصر في زمرة من رجالة الدروز قد التقطهم من كل ناد وكانوا من قاطعي السبل فجعلوا يسومون المصريين انواع

---

(١) كان من النقود الذهبية في مصر زر محبوب او محبوب ويقال لهُ ايضًا سكوين وهو عبارة عن قطعة من المعاملة تساوي ٤٥ غرشًا ميريًا مصريًا او اقل قليلاً من اثنا عشر فرنكًا . نصفها يدعى نصف محبوب او نصف وربعها يدعى ربع محبوب او ربع

العذاب نهباً وقتلاً فاضطربت الاحوال وقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استقباح المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وابطل حسين باشا حقوق الوراثة فكان اذا مات احد الاهالي استولى هو على تركتهِ واحرم منها الذين تركهم الفقيد من الايتام او الارامل او الثكالى واذا اراد احد الانتقام من عدوٍّ لهُ لا يحتاج الى اكثر من الوشاية بهِ الى حسين باشا بانهُ غني او ابن غني فيجعلهُ الباشا في السجن فلا يخرج منهُ الاَّ بالبذل الكثير . ولم يكن يمرُّ يوم لا يطوف فيهِ حسين باشا في المدينة راكباً وقلما تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر وكان يخطر لهُ احياناً ان يقتل كل من لاقاهُ في طريقهِ انساناً كان او حيواناً . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عنفهِ هذا الغاشم في مدة حكمهِ التي لم تتجاوز سنةً و ١١ شهراً فبلغوا نحواً من الف ومائتي نفس فضلاً عمن كان يقتلهم بيدهِ . وقد كان لهُ هيبة في قلوب رجالهِ فاحب يوماً ان لا يشاركوهُ بالقتل والنهب فحظر عليهم ذلك فلم يعودوا يجسروا على اقل المخالفات فلم يعد يسمع بشيء من تعدياتهم

ثم عُزل وتولى مكانهُ الوزير محمد باشا ابن احمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني . وفي شوال من سنة ١٠٤٧ ﻫ وردت اليهِ الاوامر ان يرسل الف وخمسماية مقاتل لمساعدة الحملة العثمانية الى بغداد فارسل تلك الفرقة تحت قيادة امير الحج قنسو بك في محرَّم سنة ١٠٤٨ ﻫ فسارت ولم ترجع الى مصر الاَّ بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ ﻫ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفهِ بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء المشهورين فقام عليهِ الورثة وبعد الاجتهاد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال . وازداد ظلماً وعنواً حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايتام واخذها لنفسهِ فكثرت التظلمات

وتعددت العائلات المعسرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان مراد الرابع

وترى في شكل ٧٢ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة ١٠٣٢ هـ وهي سنة توليهِ

ش ٧٢ نقود السلطان مراد الرابع بن احمد

سلطنة ابراهيم بن احمد

من سنة ١٠٤٩ ـ ١٠٥٨ هـ او من ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨ م

فظن المصريون ان في تغيير السلطان منجاة لهم مما كانوا يكابدونهُ . فبويع اخوهُ السلطان ابراهيم بن احمد وامر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمهُ من العطية التي كانت تعطى اعتياديًا لحاكم مصر عند ما يستقيل من منصبهِ . لكنهُ امر بعد ذلك بابقائهِ فعادالى اعمالهِ وازداد ظلمًا وعتوًّا ففتك بالناس فتكًا ذريعًا لم يبق ولم يذر

ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي[1] وكان ابيَّ النفس على نوع ما الاَّ ان كاتبهُ احمد افندي كان عاتيًا غشومًا وكانت بيدهِ ازمَّة الاحكام فاستبدَّ بها ما كرَّه المصريين بالحياة واتفق في ايامهِ نقصير النيل فازدادت الاثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتداخل في الاحكام على الاطلاق فكثرت السرقات حتى لم ينجُ حيٌّ من احياء القاهرة من النهب واضطر معظم الاهالي الى مهاجرة بيوتهم وكان رئيس الضابطة

(١) هو لقب لفرقة عظيمة من الجنود العثمانية برأسها رئيس يعرف بالبستانجي باشي وهو من اعظم وزراء الدولة

اذا جيء اليهِ ببعض اللصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن ومثل ذلك كان يفعل الكشّاف (حكام الاقاليم) فتواترت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية آخر اسمهُ كنعان بك فاهتم هذا بالقبض على اللصوص فسجن عددًا كبيرًا منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ﻫ ثارت الجهادية وجاهر الجاويشيون على رئيسهم الامير علي بدعوى انهُ لا يفرّق الاعطيات الّا على كتبتهِ فاضطر الباشا الى عزلهِ وتولية عابدين بك في مكانهِ . فلما رأى باقي الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعًا وادعوا ان مخازن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتاخرة منذ سنة . فعيّن لهم محمد افندي قاضي العسكر لتحري دعواهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وان ما كان فيها قد باعهُ الكاتب واخفى ثمنهُ فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ان يتخلى عن كاتبهِ رغمًا عن حبّهِ لهُ فاستنجد الجاويشية فانجدوهُ واعادوهُ الى مركزهِ فازداد تمردًا وبالغ في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولّى الوزير مقصود باشا وكان واليًا على ديار بكر قديمًا فلما استلم مقاليد الاحكام بحث عن تصرفات سلفهِ فاطلع على اعمالهِ فقبض على كاتبهِ والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . اما مصطفى باشا فأُرسل الى الاستانة وهناك أُخذ منهُ مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية واصبح في جملة الوزراء السبعة العظام في الروملي

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امرَّ العذاب من وباء وفد عليها وكان اصعب مراسًا من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجعفر باشا لانهُ كان عامًّا لم ينجُ من اصابتهِ الشيوخ ولا الشبان فكان يصيب من الشيوخ واحدًا في الثمانية . ظهر هذا الوباء اولًا في بولاق في اوائل شعبان سنة ١٠٥٢ﻫ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة وما زال على معظمهِ من ابتداء ذي القعدة من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٣ﻫ ثم اخذ

بالتناقص شيئًا فشيئًا ولم ينقضِ حتى انقضى الشهر الثاني ولم يكن يُسمع الّا بالوفيات المتتابعة في كل ساعة وكانت تنقل الجثث بالعشرات دفعة واحدة فكان يشاهد في الشارع الواحد احيانًا ثلاثون او اربعون جنازة وقد روى ابن ابي السرور وهو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صُلّي عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في مدة ثلاثة اشهر الفان وتسعماية وستون وقد كانوا في آخر الامر يدفنون موتاهم بغير صلاة وعدد هؤلاء لا يقلّ عن عدد الذين صُلّي عليهم . اما خارج القاهرة فلم يكن الوباء اقلّ فتكًا ويقال ان ٢٢٠ قرية اصبحت خرابًا لاصابة كل اهاليها بذلك الداء

فلما رأى مقصود باشا ما المّ بمصر من الدمار جعل يسعى الى اصلاح الاحوال جهدهُ فاستعمل الرفق فالغى جميع الضرائب التي وضعها اسلافهُ بغير الحق وجعل حقوق الوراثة الى الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركة الى الحكومة وجعل يتحرّى التعديات تحرّيًا شديدًا وشدد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضًا وسجن بعضًا وقاصص آخرين بحسب ذنوبهم متخذًا الصرامة ديدنًا فاستكنّت الناس وطابت قلوبهم نوعًا . وبينما كان هذا الباشا ساعيًا فيما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدرت اعمالهُ وذلك ان نحوًا من سبعماية من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون بغتة والمسلمون في الجوامع يصلّون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوت ولم يبقوا ولم يذروا ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كان بانتظارهم في البحر واقلعوا يطلبون الفرار . ولم يكن ذلك كل ما تهدد مقصود باشا وحال دون مشروعاتهِ انما هناك ما هو ادهى وامرّ وذلك ان جماعة السناجق تآمروا عليهِ وتواطأوا على عزلهِ في يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ هـ باجتماع

عقدوهُ في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب . وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حبًّا بتسديد رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخزينة عن الاقطاعات الحربية التي كانت في يدهم فرفضوا ذلك بالاجماع وطلبوا عزل بعض المأمورين الذين كانوا ينظرون اليهم كاكبر نصير للباشا في ارادتهِ . فسلم لهم الباشا بما ارادوا اما هم فلم يقنعوا بذلك فحرروا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفهِ بموافقة كثيرين من الاعيان فكتب اليهِ الباب العالي رأسًا ما مفاده « ان الحضرة الشاهانية لم تعلم اسباب الثورة الجهادية التي حصلت في مصر وتتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي عنها » فاجاب الباشا انهُ لم يحصل لديهِ ما يدعى ثورة وانما هناك بعض التشكيات وبعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالتي هي احسن ولذلك لم يكن ثمَّ حاجة لابلاغ الباب العالي . فطلب اليهِ الباب العالي ان يتحرَّى التحريات اللازمة ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يتراءى لهُ . الَّا انهُ رغمًا عن كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنهُ اراد الفتك بالامير علي بك والامير ماماي بك والدفتردار شعبان بك لعلمهِ انهم زعماء تلك الثورة فاعدَّ لهم كمينًا واقام لهم رصداء ليقتلوهم في الديوان وعيَّن لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ الَّا ان الصدفة لم تسمح لهُ بما اراد فان الدفتردار نزل الى الديوان وحدهُ في ذلك اليوم فشاور الباشا عقلهُ بين ان ينتك بهِ وحده اوان يخفي ما في ضميرهِ لبينما ينتك بالثلاثة معًا فاقر اخيرًا على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

وفي اليوم الثاني جاء الفرمان بعزلهِ وتولية الدفتردار شعبان بك بصفة قائمقام يتعاطى الاحكام وقتيًّا فشق ذلك على الباشا لكنهُ اذعن وسلم مفاليد الاحكام لشعبان بك فرفع السناجق الى الباب العالي يطلعونهُ على حقيقة ما حصل في ايام الباشا السابق ويطلبون اليهِ الاسراع في ارسال

من يخلفهُ فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من مأموري السراي الشاهانية . فلما عهدت اليهِ هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار المحدقة بها الاَّ انهُ اضطر اخيرًا الى قبولها . وقد كان رجلاً حازمًا مستقيمًا استعان بمامور بهِ على ادارة الاعمال فلم تمضِ سنتان على حكمهِ حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد ان صار وزيرًا وعكف على العبادة معتزلاً السياسة ومتمثلاً بالدراويش فتنازل عن ممتلكاتهِ في الاستانة للدائرة الخاصة الهمايونية وانفرد في احد المعابد في الروملي . فوُلّي مكانهُ الوزير محمد باشا بن حيدر سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فئة من الانكشارية في مصر القديمة فتهددهم والي الشرطة فازدادوا تمردًا فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبهُ الاَّ انهُ قام بواجباتهِ فوافقهم الباشا على ما ارادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا قاموا بصوت واحد يشكون من سوء تصرفهِ فخاف ان تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالي فتعود العاقبة عليهِ وبالاَّ فاجتمع بقنسو بك واستشارهُ بماذا ينعل وكان هذا ممن لا يشيرون الاَّ بما يعود عليهم بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا ان يرفع الى الاستانة تقريرًا سريًّا يشرح فيهِ كل ما حصل من الارتباكات وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك وينسب اليهما ايضًا اختلاس مال الخزينة المصرية وانهما سلباهُ منصب امير الحج وحكومة جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك وماماي بك الى منصبيهما

فباشر الباشا بكتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان ان يوقعوا عليهِ فبلغ ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث بهِ الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيهِ ما فيهِ

من التشكيات ضد قنسو بك وماماي بك فورد الجواب من الاستانة مفوضًا الى رضوان بك وعلي بك امر النظر في تلك القضية وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٥٧ هـ ورد الى الباشا الفرمان بذلك وفي ٢٧ منهُ استدعاهما الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك وماماي بك وامرا بقتلهما وقتل امراء آخرين كانوا على دعوتهما . ولم تكد تخلص مصر من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششنير وسبب ذلك انهُ لم يسلّم سنجقًا عوضًا من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الى علي بك ان يترك القاهرة ويتوجّه حالاً الى حكومتهِ في جرجا . وبعد ذلك بثلاثة ايام استدعي رضوان بك الى وليمة في القلعة بامر الباشا فخاف من دسيستهِ فابى الحضور فغضب عليهِ الباشا وجردهُ من امارة الحج فسار رضوان بك من القاهرة في نحو مائتين من رجالهِ وفيهم عدة من الامراء والكشاف واتحدمع علي بك فبعث الباشا على اثرهما اثنين من جنودهِ ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرميلة واقرّوا على اغتيال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام الاميرين فقدما الى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرتب والحقوق فسعى الى مصالحتهما مع مصطفى كخيا

وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا قد سعى على مصر عوضًا من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منهُ وردت الاوامر قاضية باعادة محمد باشا الى منصبهِ . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٥٨ هـ توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانهُ السلطان محمد الرابع

وترى في شكل ٧٣ صورة النقود الفضية للسلطان ابراهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ هـ

ش ٧٣ نقود السلطان ابراهيم بن احمد

سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ ـ ١٠٩٩ ﻫ او من ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م

وبلغ ذلك التغيير مصر في اوائل رمضان مصحوبًا بعزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلاقل

واول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ ﻫ بسبب تقصير النيل فانهُ لم يرتفع تلك السنة اكثر من ١٦ ذراعًا فلم يرتوِ من ارض الصعيد الاَّ الثلث اما الوجه البحرى فلم يرتوِ منهُ شيءٌ تقريبًا . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة

اما الباشا فلم يكن يهمُّهُ الا تكثير الضرائب مع انهُ لم يكن يرسل منها الى الاستانة الاَّ الثلثين وكان لسوء نيَّتهِ يرسل تلك المبالغ الى الاستانة في عهدة الامير رضوان بك ليحمل الباب العالي على الشك بامانتهِ فيتغير خاطر السلطان عليهِ وكان اتمامًا لمكيدتهِ يكتب للباب العالي على التتابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب تجريدهُ من امارة الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان لكنهُ لم يكن يعلم دسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيتهِ ان يوقع الضغائن بين الاميرين فيحل عرى اتحادهما لكنهُ لم يتم مقصدهُ حتى اتى الامر العالي بعزلهِ يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ ﻫ ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعي احمد باشا الاَّ زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم اخلاقهما ان كلاًّ منهما كان يتنازل للآخر عن امارة الحج فاعجبت هذه الشهامة المصريين فمالوا بكليتهم الى محبتهما وبالغوا في اعتبارهما حتى انهم اقاموا لهما دعاء عموميًّا في الرميلة . والباشا اذ ذاك

محبوس في القلعة ولم يُفرج عنهُ حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة . فتولّى مكانهُ الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٣ ﻫ وقد قاسى ما قاساهُ سلفهُ من السجن والاهانة لانهُ سار على خطواتهِ . فاختار الباب العالي الوزير محمد باشا ليقوم مقامهُ في ٥ شوال من تلك السنة ولكنهُ لم يدخل القاهرة الاَّ يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٤ ﻫ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم واحوالهم يستحق الذكر . وفي آخر الامر تحوَّل النفوذ كلّهُ من ايديهم الى أيدي البكوات المماليك . اما الباشوات فكانوا يولُّون مصر فاذا اتوها لا يكون ديدنهم الاَّ اكتساب الثروة باي طريقة كانت ليعلم كلٌّ منهم انهُ لن يعتم حتى يأتيهِ الامر بالعزل وقلما انعزل احدهم ولم يكن السجن مأواهُ

السلاطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ ــ ١١١٤ ﻫ اومن ١٦٨٧ ــ ١٧٠٢ م

فالسلطان محمد الرابع أُقيل من السلطنة في ٢ محرم سنة ١٠٩٩ ﻫ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثالث وبعد ٣ سنوات توفي (في ٢٠ رمضان سنة ١١٠٢ ﻫ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى ايضاً احمد الثاني وبعد ثلاث سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦ ﻫ) فبويع ابن اخيهِ السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع . وبعد تسع سنوات تقريباً (في جمادى الاولى سنة ١١١٤ ﻫ) أُقيل وتوفي في السجن في محرم سنة ١١١٩ ﻫ

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٤ ـ ١١٤٣ هـ او من ١٧٠٢ ـ ١٧٣٠ م

وبويع اخوهُ احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمهِ على المملكة العثمانية نحوًا من عشرين سنة . وفي ايامهِ حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك وهذه قلعة الجبل قد كانت سجنًا للباشوات الذين كانوا يتولون الاحكام ولا يهمهم منها الاَّ الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ هـ الى ١١١٩ هـ اثنان وعشرون واليًا اغضينا عن ذكرهم لعدم اهميتهم . وفي سنة ١١١٩ هـ في أيام السلطان احمد خان تولّى مصر حسن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بصفة شيخ بلد

وقد كانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية والفقارية وكان هذان الحزبان لا ينفكان يضاد احدهما الآخر ويحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيهِ اقوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم وذو الفقار ولدَي سودون احد امراء المماليك في عهد السلطان سليم الفاتح وان السلطان سليم هو الذي نشطهما ونشط احزابهما وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم يقول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بكّ الدفتردار وذي الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ . وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس الفقارية . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصة بها فالفقارية كانت توصف بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل . وعلامة الفقارية علمٌ ابيض

ومزاريقهُ برمانة والقاسمية علمٌ احمر ومزاريقهُ بجلبة

وقد كانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما فعمد الى الدسائس فالقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين مواقع دامت ثمانين يومًا فكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يوميًا ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيصرفون الليل بسلام في بيوتهم بين نسائهم واولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة ومن الغريب ان هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقًا فما برحت الاشغال جارية في مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة

وانتهت تلك المواقع بوفاة قاسم عيواظ بك فاسف عليهِ الناس وبكوهُ بكاءهم على حاكم عادل او اب حنون بارّ ولم يبقَ صديق ولا عدوّ حتى بكاه لانهُ كان فضلاً عن حكمتهِ وعدلهِ ودعتهِ شجاعًا باسلاً ابيّ النفس . فاقاموا بعدهُ ابنهُ اسماعيل بك مكانهُ شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنهِ ان اسماعيل لصغر سنهِ يكون آلة بيدهِ يديرها كيف شاء فزاد لذلك كدر ذي الفقار بك واشتد انتقامهُ لانهُ كان ينتظر ان يولى هو ذلك المنصب . وكان اسماعيل رجلاً عاقلاً حكيمًا كوالدهِ عارفًا وجه الربح والحق فسعى الى الوفاق مع طائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان جميعًا على الباشا . وقد كان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا بصفة كونهِ رئيسًا عليهِ لكنهُ لم ينفك ساعيًا سرًّا الى خلعهِ فكتب عنهُ الى الاستانة ففاز بعزلهِ فجاء غيرهُ ثم ابدل باخر فآخر واسماعيل بك في منصبهِ مكتسبًا ثقة الرعية فكانوا يحبونهُ الى ما يشبهُ العبادة

ومما يحكى عنهُ ان احد تجار القاهرة في ايامهِ وكان يدعى عثمان باع لاحد القبجية (لقب يعطى للحرس السلطاني) وكان قد اتى القاهرة بمأمورية مهمة ثلاثماية قنة بن الى أجل مسمًّى وكتب عليهِ بذلك كتابًا ففي اثناء مدة

الاستحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبقجي والحكم عليهِ بالاعدام حالاً فجيءَ بهِ الى الباشا فقتلهُ ووضع يدهُ على تركتهِ وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك بصفة كونهِ شيخ البلد ما كان من امر البن فاجبر الباشا ان يرجع البن لصاحبهِ قبل كل شيءٍ ففعل فاصبح عثمان في حالٍ من الممنونية لذلك الرجل لا يعرف كيف يبيّنها فلاح لهُ ان يهديهُ علبة مرصعة وبعض القناطير من السكر النقي فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت عليهِ بواسطتي مالك ولك الحق بهِ فاكون قد فعلت واجباتي والله يكافئني فاذا قبلت هديتك اظلم نفسي . اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليهِ بالحيلة فقبولي هديتك يعد مشاركة لك بالخيانة لكني مع ذلك اقبل السكّر الذي حملتهُ اليَّ على شرط ان نقبل ثمنهُ من وكيلي لاني سآمرهُ ان يدفعهُ اليك »

ويحكى عنهُ ايضاً انهُ كان يأدب في ليالي رمضان مأدبات ليلية يجتمع اليها العلماء والفقهاء والمشائخ وقراة القرآن ولم يكن يسمح لغير هولاء الحضور فيها . فرأى ذات ليلة بين الحضور رجلاً عليهِ ملامح الكآبة واليأس فاوصى بعض الخدم انهم متى ارفضّ الاجتماع يأتون بهذا الرجل اليهِ ففعلوا فلما حضر بين يديهِ اعطاهُ قرآناً وامرهُ ان يتلو عليهِ منهُ سورة فتوقّف الرجل مرتجفاً ثم ترامى على قدمي البك متضرعاً وقال « يعش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما اتيت الى هذه المأدبة متلبساً بلباس الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فانصفهُ ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبهِ هذا لكنهُ جعلهُ في عداد خدمتهِ وجعل لعائلتهِ راتباً معيناً وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدمة واكثرهم غيرة وهمة

وما زال اسماعيل بك في منصبهِ هذا مدة ست عشرة سنة تقلب اثناءها

على مصر عدة باشوات لم يكونوا الاَّ اسماً بلا رسم . وكان لحسن سياستهِ موقفًا الفقاريين عن كل حركة لتظاهرهِ انهُ على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يتحدون بها عليهِ الاَّ انهُ ارتكب خطاءً واحدًا آل الى قتلهِ . وذلك ان احد المماليك الفقارية واسمهُ ذو الفقار كان لهُ عقار كافٍ للقيام بنفقات عائلتهِ فاختلسهُ منهُ احد المماليك القاسمية وهم مماليك اسماعيل بك فرفع ذو الفقار دعواهُ الى شيخ البلد (اسماعيل بك) فلم يصغَ لطلبهِ واقرَّ على العقار لمملوكهِ فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواهُ الى زعيم الفقارية ويقال لهُ شركس بك وكان خصمًا لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا وتخابر معهُ بشأن تصرف اسماعيل بك وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد فوافقهُ على الايقاع بهِ ثم قال لهُ « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث احد مماليكك وتأمرهُ ان يقتل هذا الرجل وانا اعدهُ ان يكون لهُ جميع ما يتركهُ من المال والنساء مكافأة لاتعابهِ »

فوافقهُ على رأيهِ وعين لتلك الفعلة اول يوم يجتمع فيهِ الديوان وامر مملوكهُ ذا الفقار ان يستعد لاجرائها فقبل اعتمادًا على وعد الباشا ففي اليوم المعين سار ذو الفقار ودخل الديوان وفيهِ اسماعيل بك فتقدم اليهِ وقبل يدهُ قائلاً « ارجوك ان تأمر بارجاع عقاري اليَّ » فاجابهُ اسماعيل بك منتهرًا « سننظر في طلبك هذا » فالحَّ عليهِ فانتهرهُ فاستل خنجرًا ماضيًا بقرَ بهِ بطنهُ فتدفقت امعاؤهُ ومات لساعتهِ في وسط الديوان فهجمت رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم ينجُ منهم الاَّ سريع العدو . هكذا كان انتهاء حكم اسماعيل بك سنة ١١٢٦ ﻫ فنقلت جثتهُ الى بيتهِ ثم دُفنت بجانب جثة ابيهِ بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل بك ونسائهِ كما كان موعودًا من الباشا فاصبح رجلاً عظيمًا يشار اليهِ بالبنان وفي خدمتهِ مئات من المماليك فخافهُ شركس بك واخذ يسعى

الى اذاقتهِ ما اذاقهُ لاسماعيل بك فعلم ذو الفقار بتلك الدسائس فجمع اليهِ رجالهُ وفيهم عدة من الرجال العثمانيين وهجم على شركس بك فحصلت بينهم موقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها اكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم وفرَّ الباقون ومعهم زعيمهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم

فتولى ذو الفقار مكانهُ مع لقب بك بعد ان اقرَّ الباشا على ذلك فاصبح ذو الفقار بعد قليل عدوًّا الدَّ لكل اترابهِ البكوات وعلى الخصوص لابي دفية (سمّي بذلك لانهُ كان يتشح برداء كبير يقال لهُ دفية) ثم أنبئ ذو الفقار بك ان ابا دفية ساع الى اهلاكهِ وقد حاول ذلك مرارًا ولم ينجح . ثم ان شركس بك جمع اليهِ دعاتهُ في الصعيد وسار بهم نحو القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قوَّادهِ في فرقة من المماليك لمحاربتهِ فتقهقر شركس بك ورجالهُ مرارًا حتى لحق ببلاد البربر . فسكر ذو الفقار من خمرة النصر واخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة فكان يقتل منهم كل من يظن فيهِ الانتماء الى شركس بك حتى قتل منهم خلقًا كثيرًا فاتحد من بقي حيًّا منهم مع رئيس الشرطة والآغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة ذي الفقار وتعاهدوا جميعًا على محاربتهِ وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي الفقار ومعهُ جماعة من الرجال الاشداء فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم ذو الفقار بذلك فجمع اليهِ العلماء والمشائخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم في تلك الحال الاَّ اذا تأكَّد الفوز فلم يصغَ لمشورتهم فارسل عثمان بك احد قوادهِ لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما موقعة قتل فيها مصطفى القرد وغرق شركس بك في النيل وهو يحاول الفرار فبعث عثمان بك برأسيهما الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لانهُ قتل بعد قتل عدوهِ شركس بيومين بمكيدة أُعدَّت لهُ بمساعي البكوات

في القاهرة وذلك انهم البسوا واحدًا منهم دفية وجاؤا بهِ الى بين يدي ذي الفقار وقالوا لهُ هذا ابو دفية قد جعلهُ الله في ايدينا وكانوا قد جعلوا تحت دفيتهِ عيارين ناريين فلما وقف بين يديهِ اطلقهما عليهِ دفعةً واحدة فسقط ذو الفقار مضرَّجًا بدمائهِ في وسط ديوانهِ سنة ١١٤٣ هـ فعلم عثمان بك بما اصاب رئيسهِ فهرع الى الاخذ بثأرهِ فدخل القاهرة وجعل ينتك بكل من يصادفهُ في طريقهِ فخافهُ الجميع

ثم ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خاليًا فطمع فيهِ فتعاهد مع صالح كاشف صديقهِ على ان يقتلوا كل من بقي من زملائهِ البكوات بمكيدة ينصبها لهم فأدب محمد بك مأدبة فاخرة دعاهم اليها فلبُّوا دعوتهُ ثم علموا بمكيدتهِ فقاوموهُ مقاومة شديدة وتمكَّنوا من قتلهِ فيئس صالح كاشف من مرامهِ ففرَّ الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسنين . ثم عقب هذه الفلاقل ضربة اشد وطأة وهي الوباء الذي أصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكبير فانهُ انتشر في البلاد انتشارًا سريعًا وفتك بالعباد فتكًا ذريعًا . ورافق كل هذه الضربات عزل السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة ١١٤٣ هـ

وترى في شكل ٧٤ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١١٥ هـ

ش ٧٤ نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ ـ ١١٦٨ هـ او من ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويع ابن اخيهِ محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعوهُ بعضهم محمود الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمس وعشرين سنة . اما الباشوات الذين كانوا يتولّون مصر في ايامهِ فلم يكونوا اكثر اهلية من اسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشائخ البلد وفي يدهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيء

فبعد قتل ذي الفقار بك تولّى مكانهُ عثمان بك المتقدم ذكرهُ فرقّى كثيرين من مماليكهِ الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازمًا ولكنهُ كان صارمًا لا يراعي في تنفيذ العدل جانبًا فعلم مرةً ان احد بكواتهِ سعى في اقليمهِ ظلمًا فاستدعاهُ اليهِ واذ تحقق ارتكابهُ قطع رأسهُ . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمهِ واستقامتهِ وقسطه لا بأس من ذكر بعضها على سبيل النموذج

يحكى ان حمّارًا من حمّاري القاهرة اراد ترميم مزود حمارهِ وبينما كان برممهُ عثر في احد جدران البيت على وعاء مملوء ذهبًا ففرح جدًّا واخذ الوعاء برمتهِ وسلمهُ الى امرأتهِ واوصاها ان تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منهُ لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فلم يسع الامرأة الّا انها طلبت من زوجها ان يبتاع لها مصاغًا وثيابًا فاخرة لتتمتع بتلك الهبة فابى زوجها اجابة طلبها خيفة ان يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاغتاظت الامرأة واسرعت لساعتها ووشت بزوجها الى عثمان بك

فاستدعى الحمّار وبعد ان سمع حقيقة الحال صرفهُ قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلّق امرأتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في اول حكمهِ فرأى الجوع الذي عقب الوباء ففتح مخازنهُ وخزائنهُ وفرّق الاقوات والاموال في الناس الّا انهُ مع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان الاول كخيا (١) الانكشارية والآخر كخيا العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدقلية والاخر من طائفة الجلفية . واصل الطائفة الاولى مملوك يقال لهُ القزدغلي كان سروجيًّا واصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في بادئ امره شيالاً واغناهُ الله بطريقة في غاية الغرابة ولا بأس من ذكرها وهي

جاء احد المماليك الى بعض معاصر الزيت ليبتاع منهـا ما يقوم بمؤونة بيتهِ مدة السنة وكان احمد الجلفي شيالاً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد لحملهِ فحملهُ وسار معهُ وما زالا حتى بلغا بيتهُ فانزل الحمل ووقف ينتظر اجرتهُ فجاءهُ المملوك وطلب اليهِ ان يساعدهُ في اخفاء مبلغ من النقود في احد جدران البيت والحّ عليهِ ان يكتم الامر سرًّا واعطاهُ بضعة دراهم مكافأة لذلك فساعدهُ واخذ الدراهم وسار في سبيلهِ حامدًا شاكرًا . وبعد مضي ثلاثين يومًا اتفق لهُ المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد ثمّ جماهير مجتمعة . ثم علم ان ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركتهُ للبيع . فتقدم احمـد وابتاع البيت الذي فيهِ المخبأة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وساربها الى قريتهِ (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت ثروتهُ وما زال حتى اصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليهِ

(١) ويكتب ايضًا كتخدا وكان لكل وجاق كخيا وفي عهدهِ ملاحظة شرطة ذلك الوجاق وقضاياه

وقد كان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الرأي على تباين كلي بالاديبات والماديات فكان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامح كبيرة . اما اسماعيل فكان غنيًّا بليدًا لا يهمهُ الاَّ التمتع بالملذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منهُ . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي احد التجار الاغنياء واخذ معها مالاً كثيرًا فتمكن بذلك من التداخل في بيت شيخ البلد والقاء المفاسد فيهِ بواسطة عدة من المماليك والاتراك وغيرهم من ذوي الرتب الذين كان يستعملهم آلة بيدهِ لتنفيذ مآربهِ . ثم تأتى لهُ الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقهِ اسماعيل رضوان واتحد الاثنان معًا على السراء والضراء ووحدوا ممتلكاتهما واجتزأوا بالسواء من محصولاتها

فاوجس عثمان بك خيفة من سرعة نموثروتهما وملافاةً لما كان يخشى حدوثهُ من طموح انظارهما جمع اليهِ ثلاثة احزاب احدها حزب ابراهيم بك القطامش وفيهِ ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيهِ بكان . والثالث حزب علي كخيا الطويل وشاورهم في الامر فاقروا على وجوب قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك كخيا الانكشارية ورضوان بك . فوافقوهُ على ما اراد الاَّ ان احمد السكري وكيلهُ وكان من مماليك ابراهيم بك فلم يمكنهُ كتمان ذلك عنهُ فجاء اليهِ واخبرهُ بجميع ما كان من التواطؤ على قتلهِ وقتل رفيقهِ فسار للحال الى رضوان بك واخبرهُ وتشاورا بشأن ذلك فقررا اعداد مكيدة يقتلان بها عثمان بك فبعثا لهُ جواسيس يترصدونهُ في طريقهِ الى القلعة فمرَّ فوثبوا عليهِ ففر بجوادهِ حتى دخل القلعة ولم يظفروا بهِ فلاقاهُ وكيلهُ وقد اضمر لهُ الشر فسألهُ عما المَّ بهِ فاخبرهُ بما كان فكلمهُ بلسان الثعلب ناصحًا لهُ ان يبارح المدينة حالاً لان الناس قد ثاروا جميعًا يطلبون قتلهُ وما زال حتى اقنعهُ ففرَّ الى سوريا وسار هو برفقتهِ حتى اذا دنوا من غزة تنحَّى احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال

لما الاشرفية بدعوى انهُ يريد استطلاع الاحوال حماية لعثمان بك فتربّص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معهُ من المماليك وسار الى ابراهيم بك واعلمهُ بما فعل فكافأهُ على تلك الخيانة برتبة البكوية . وهمّ الاهالي الى بيت عثمان بك فاحرقوهُ واقتسموا تركتهُ اما هو فوصل سوريا وحدهُ وسار منها الى الاستانة فولي بروصة ولبث فيها حتى توفاهُ الله . وجميع هذه الحوادث توالت في مصر اثناء سنة ١١٥٦ هـ

فبعد اخراج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم كخيا ورضوان بك فعملا على ابادة الاحزاب التي كانت متآمرة عليهما فاخذ رضوان بك على نفسهِ اهلاك علي كخيا الطويل فأمر احد مماليكهِ ان يقتلهُ بالرصاص في وليمة حافلة فلبّى المملوك الامر لكنهُ اخطأ الرمي وعوضاً من ان يصيب عليًّا اصاب مملوكهُ الذي كان بجانبهِ فقُبض عليهِ وقتل للحال . اما ابراهيم كخيا فتعهد باهلاك من بقي من الاحزاب وقد كان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليهِ ابراهيم ان يوافقهُ على ابادة البكوات فوافقهُ وربما كان ذلك لخوفهِ منهُ اولان ذلك يعود عليهِ بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فبذلوها فسهلت مشروعهم حتى انهم قتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيلهِ سليمان في وسط الديوان وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الاخر من احزابهِ . فامر ابراهيم كخيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلا على بابيَ الانكشارية والعزب جندًا . وحافظ سليمان على وعدهِ فبوشر بالمذبحة واول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة القطامش وكثيرون غيرهم وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسهِ ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الاَّ محمد بك وخليل بك

ولم يبقَ من مناظري ابراهيم كخيا ورضوان بك الاَّ ابراهيم القطامش

وعلي كخيا الطويل فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسهِ تاركًا الدار ومن بناها . فصفا الجو لابراهيم كخيا فتولى مشيخة البلد وسمّى رضوان بك اميرًا للحج . ثم جعلا يتبادلان هاتين الوظيفتين كل سنة وعاد كلٌّ منهما الى ميلهِ الطبيعي ابراهيم الى مطامعهِ ورضوان الى ملاهيهِ . فاخذ ابراهيم كخيا يمتهن الاحكام ويستخدمها لاسترجاع ما بذلهُ للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الاَّ استخدمها في سبيل مطامعهِ من قتل وفتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الدمياطي فحجر عليهِ في القلعة ولم يفرج عنهُ حتى استرجع منهُ كلما كان اعطاهُ من النقود . ثم باغتَ من بقيَ من الاغنياء في القاهرة ووضع يدهُ على ممتلكاتهم بعد ما قتل بعضًا منهم ونفى البعض الآخر . فاستولى في يوم واحد على اموال نحو من ثمانين بيتًا من بيوت القاهرة ووضع يدهُ على جميع محصولات البلاد والكمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة ويقال بالاجمال انهُ لم يبقِ ولم يذر

وكان كيور احمد باشا قد استُدعي الى الاستانة وولي حكومة قبرص فاقيم مقامهُ في القاهرة باشا آخر سنة ١١٥٦ﻫ فعاملهُ ابراهيم كخيا بالاحتقار فحقد عليهِ . ثم اتفق غياب ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاغتنم الباشا فرصة غيابهِ وتواطأ مع حسين بك الخشّاب على مكيدة يعدّانها لابرهيم فاتفقا على ان يقوم الخشاب بما يلزم لقتل ابراهيم ورفيقهِ رضوان وان يكافئهُ الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب الى اتمام وعدهِ ففازَ بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولاَّهُ الباشا مشيخة البلد إلاَّ انهُ لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم كخيا اتحدوا وهجموا دفعةً على حسين بك والباشا واخرجوا المسجونين ففرَّ الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من نوبيا . اما الباشا فاستُدعي الى الاستانة فعاقبهُ السلطان عقابًا انتهى بالموت

وكان يملك ابراهيم كخيا على اكثر من الفي مملوك وفي جملتهم علي الذي سيلقب بعلي بك الكبير ويكون لهُ شأن عظيم بهذا التاريخ وسترى في سيرتهِ انهُ من افراد الدهر حزمًا وبطشًا وحكمةً . وكان علي بك بين مماليك ابراهيم كخيا بصفة سلحدار آغا وكان ابراهيم كخيا يحبهُ كثيرًا ويعتبرهُ حتى جعلهُ ناقل سيفهِ . ومما زادهُ اعتبارًا لهُ انهُ استصحبهُ مرة في مسيرهِ الى الحرمين في قافلة وكان برتبة كاشف وقد سار قائدًا لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق سرب من اللصوص فدفعهم علي بقلب لا يهاب الموت فلقبوهُ بالجني . ولما رجع ابراهيم كخيا الى القاهرة نوى على مكافئة علي بلقب بك إلّا ان صغر سنهِ ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك . ثم عقب ذلك شاغل آخر اكثر اهمية زاد الامر تأخيرًا وذلك انهُ جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلاً من الباشا الذي أُخرج منها . وكان من عادة الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد بعثوا وفدًا يلاقونهُ في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون بهِ يستطلعون مقاصدهُ ونواياهُ وما في يدهِ من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سلميَّة ومقاصدهُ حسنة تأهلوا بهِ وفتحوا لهُ الطريق حتى يصل بولاق فيحتفل الامراء بلقائهِ . اما اذا استطلعوا من احوالهِ غير ذلك بلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانهُ ان يقف حيث هو ويحرّرون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءهُ في مصر مخل بالنظام العمومي او ربما حمل الاهالي على الثورة . ثم يطلبون استبدالهُ بآخر اكثر مناسبة للبلاد منهُ

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمهُ راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسهِ لاستقبالهِ ومعهُ البكوات ثم اجتمعوا جميعًا بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لامير المؤمنين وكان قد خلع على كل منهم خلعة كالمعتاد . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانهُ عرف كيف يعامل شيخ البلد

فاحبتهُ الرعية ومالوا بكليتهم اليهِ فصرف بين ظهرانيهم سنتين كلها سلام وطمانينة حتى اجمع البكوات على استبقائهِ بينهم طويلاً

وبينما هم في مثل ذلك ورد الى الباشا خط شريف [1] ان يسعى جهدهُ الى قطع دابر البكوات وفي جملتهم شيخ البلد وكل من يلوذ بهِ . فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشتبهٌ بتصرفهِ في مصر وانهُ قد وشي بهِ الى جلالة السلطان ان اتفاقهُ مع بكوات مصر ليس الاَّ من قبيل عزمهِ على استخدامهم في مآربهِ بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيص بيص وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية جهاراً معما في ذلك من الخطر وما يحول دونهُ من المصاعب او ان يعصاها او يؤخّرها فيعرض حيانهُ للخطر ويؤيّد التشكيات التي تقدمّت بحقّهِ . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوهها قرّر في ذهنهِ افضلية الفتك باصدقائهِ البكوات فتراطأ مع زمرة من رجالهِ انهُ متى اجتمع البكوات في مجلسهِ فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم دفعةً عند اول اشارة ففعلوا ما امرهم بهِ لكنهم لم ينوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تثريباً على فعلتهِ هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منهُ بعد ان اظهروا نحوهُ من اللطف والصداقة والاخلاص ما قد رأيت . فبرَّأ ساحتهُ باطلاعهم على الفرمان السرّي الوارد لهُ بهذا الصدد فكفّوا عن الانتقام منهُ لكنهم عزلوهُ وحرروا الى الاستانة يطلبون من يقوم مقامهُ . وفي الحال عينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة . واستغنم ابراهيم كخيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقّاهُ الى رتبة بك فساء

---

(١) يقصدون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

ذلك الترقّي احد البكوات المدعو ابراهيم بك وكان شركسي المولد ولذلك كان يعرف باسم ابراهيم بك الشركسي وكان من دعاة ابراهيم كخيا لكنهُ عند ذلك تظاهر بعداوتهِ ونمت بينهما الضغائن التي لم تنتهِ الاّ بقتل ابراهيم كخيا بعد ذلك الحين بخمس سنوات بيد ابراهيم بك الشركسي المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى

ش ٧٥ نقود السلطان محمود بن مصطفى

وترى في شكل ٧٥ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ هـ فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زرمحبوب او سكوبن والثانية ذهبية ايضاً وهي نصف سكوبن او نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ ـ ١١٧١ هـ او من ١٧٥٤ ـ ١٧٥٧ م

فبويع اخوهُ السلطان عثمان بن مصطفى ويدعوهُ بعض مؤرخي المغرب عثمان الثاني وهو بالحقيقة عثمان الثالث وبقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط . فشفى ابراهيم بك الشركسي غليلهُ بقتل ابراهيم كخيا لكنهُ لم يروِ مطامعهُ لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك صديق

ابراهيم كخيا . ثم ظهر لهُ مناظر آخر من زعماء حزب ابراهيم كخيا يقال لهُ حسين بك اصبح بعد قتل الكخيا اكبر زعماء ذلك الحزب فادعى لنفسهِ الاولوية بمشيخة البلد فلم تقبل دعواهُ فجمع اليهِ عددًا من دعاتهِ المماليك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم رضوان بك فاطلق عليها قنابل خرقت جدرانها فتداعت اركانها

وكان رضوان بك اذ ذاك مشغولاً بحلاقة لحيتهِ . فلما احسَّ بالامر امتطى جوادهُ لكنهُ لم يعلُ ظهرهُ حتى اصيب برصاصة كسرت فخذهُ الَّا انهُ تمكن من الفرار ومعهُ بعض المماليك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن المسير لزيادة الالم وبرفقتهِ رئيس الضابطة وكان مجروحًا ثم توفي الاثنان ودفنا معًا . فسمّي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد وجعل يتقرب من اترابهِ البكوات لكنهم كانوا لا يزيدون منهُ الَّا نفورًا ولم تمضِ بضعة اشهر من توليتهِ حتى كمنوا لهُ في مكان مصاطب النشاب في السهل الواقع بين القاهرة واراضي ابراهيم بك وقد كان هناك منشغلاً بعرض جنودهِ المماليك فهجموا بهِ وذبحوهُ ثم قطعوهُ اربًا ومن ذلك الحين صار يعرف بحسين بك المقتول . فتولى مكانهُ خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهرًا بالعداوة والحسد لعلي بك على الخصوص لانهُ علم انهُ اشد اعدائهِ عزمًا

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ ـ ١١٨٧ هـ ومن ١٧٥٧ ـ ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ هـ تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . وبالحقيقة ان علي بك كان لشدَّة اخلاصهِ لابراهيم كخيا

لا ينفك ساعيًا الى الانتقام لهُ ولكنهُ كان واضعًا امام عينيهِ ان السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مرامهِ انما هو القوة . فاخفى ما في ضميرهِ مدة ثماني سنوات كان اثناءها منشغلاً بجمع القوة فابتاع عددًا وافرًا من المماليك وتداخل مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهرهُ من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم بهِ من الهدايا وما زال يخطو خطوة بعد اخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فاوجس خليل بك خيفة منهُ وجعل يتتبَّعهُ بالارصاد والعيون ويعدُّ لهُ المكايد في شوارع القاهرة ففي ذات يوم هجم عليهِ حسين بك كشكش بامر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك ان يفر الى الصعيد في جملة من اصدقائهِ البكوات يستعد للانتقام انتقامًا مضاعفًا

فصرح خليل بك ان علي بك ومن تابعهُ من البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولَّى بمناصبهم بكوات من ذويهِ وقتل كل من ظفر بهِ في القاهرة من اصدقاء علي بك او المنتمين اليهِ . اما علي بك فلاقى في الصعيد احد مماليك مصطفى القرد يدعى صالح بك كان منفيًّا الى هناك وفي قلبهِ من خليل بك حزازات فاتحد الاثنان ورجالهما وزحفا الى القاهرة . فخرج خليل بك وحسين بك كشكش لمقاتلتهما فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي بك ورفيقهِ فتتبعا خليل بك ورجالهُ حتى قطعوا بهم مديرية القليوبية واوصلوهم الى المسجد الاخضر على ضفاف النيل واشتد الكفاح هناك فاضطر خليل بك ورجالهُ الى الالتجاء الى طنطا فبعث علي بك كاشفهُ محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد ان قتل حسين كشكش . اما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيهِ وقد داهمهُ الجوع ثم قبض عليهِ ونفي الى الاسكندرية ثم خنق هناك . اما رؤوس القتلى فنقلوها الى القاهرة وطافوا بها في اسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ ـ ١١٨٧ ﻫ او من ١٧٦٣ ـ ١٧٧٤ م

فتمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة وذلك سنة ١١٧٧ ﻫ واول امر باشرهُ قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيدهُ فثارت عليهِ احزابهُ يطلبون الانتقام وكانوا عديدين فخاف علي بك على حياتهِ ففرَّ من القاهرة حالاً طالبًا سوريا فالتجأ الى متسلّم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الّا ان هذا الملجأ لم يحمهِ الا مدة شهرين لان اعداءهُ البكوات لما علموا بمقرّه شكوهُ للسلطان مصطفى واخبروهُ بمقرّهِ فانفذ الى متسلم المقدس فرمانًا يأمرهُ بهِ ان يرسل علي بك تحت الحجز الى الباب العالي . فعلم علي بك بذلك ففرَّ الى عكَّا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ظاهر بن عمر امير تلك المدينة الحصينة فاكرم وفادتهُ وسعى الى تبرئتهِ امام الباب العالي وبمساعدة نصرائهِ من اصدقاء ابراهيم تحيا تمكن من نوال العفو عنهُ من لدن الحضرة الشاهانية فالغيت الاوامر بالقبض عليهِ واعيد الى القاهرة في منصبهِ الاول

وفي سنة ١١٧٩ ﻫ اي بعد ذلك الحين بسنتين هُدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب . وكيفية ذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مر بك كان لا يفتر عن تذكار كرم اخلاق علي مذ كان كاشفًا . فبعد استقالتهِ من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات ارتقى الى رتبة صدر اعظم بامر السلطان مصطفى الثالث وما انفك مع ذلك متذكرًا صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدتهِ وتسهيل مشروعاتهِ سرًّا وجهرًا . ففي سنة ١١٧٩ ﻫ توفي الوزير راغب محمد باشا فاصبح علي بك في احتياج لمن يعضدهُ . فاغتنم اعداؤهُ هذه الفرصة ووشوا بهِ الى

الاستانة فاضطر علي بك ان يفرّ الى اليمن لكنهُ لم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبهُ بمساعدة احزابهِ وموت اربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم تراءى لهُ ان صديقهُ صالح بك قد حدثتهُ نفسهُ بخرق حرمة الصداقة واتباع داعي المطامع الشخصية فوكل امر قتلهِ الى احد اتباعهِ المدعو ابراهيم كاشف فقتلهُ طعنًا وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

ثم رأى علي بك ايضًا ان قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فا نفذ اليها احد مماليكهِ المدعو احمد في فرقة من الرجال فحارب اولئك العربان وامعن في قتلهم حتى لقبوهُ بالجزّار وهو الذي تولّى عكا بعدئذٍ واشتهر هذا الاسم هناك بالعسف والجور . اما من بقي من اعداء علي بك فاضطربوا خوفًا ولزموا السكوت والطاعة فارتاح وتحقق تخلصهُ من القلاقل والمفاسد والمقاومات . الّا انهُ رأى من باب الاحتياط والحرص ان يرقي ثمانية عشر مملوكًا من اتباعهِ الى رتبة البكوية يكونون لهُ نصراء وقت الحاجة وهذه اسماؤهم

(١)	رضوان	ابن اخيهِ	من جورجيا
(٢)	علي الطنطاوي	«	«
(٣)	اسماعيل	«	«
(٤)	خليل	«	«
(٥)	عبد الرحمن	«	«
(٦)	حسن	«	«
(٧)	يوسف	«	«
(٨)	ذو الفقار	«	«
(٩)	عجيب	«	«
(١٠)	مصطفى	«	«

(١١) احمد الجزّار من اماسيا
(١٢) سليم آغا انكشاري
(١٣) سليمان كخيا »
(١٤) لطيف شركسي
(١٥) عثمان »
(١٦) ابراهيم »
(١٧) مراد »

ختم سليمان كخيا صورة ٧٦

ولهذين الاخيرين شأن في هذا التاريخ لانهما سيتنازعان السلطة في مصر

(١٨) محمد

وكان يعزُّهُ اكثر من الجميع وستراهُ رجلاً عقوقًا ناكرًا للجميل . فلما تقلَّد محمد هذا البكويَّة ولم يكن قبل ذلك الّا كاشفًا لُقِّب بابي الذهب فاحب ان يجعل هذا اللقب اسماً على مسمًّى فجعل يتظاهر بالكرم المفرط فكان بدلاً من ان يفرّق العطايا بالبارات يفرّقها بالارباع

اما علي بك فكان ساهرًا على مصلحة البلاد سهرًا تامًّا وكان مخلصًا في كل اعمالهِ فطهَّر البلاد من اللصوص وسعى كل ما في جهدهِ لاصلاح شؤونها فساد الأمن فيها بعد ان كانت معرضًا للقلاقل والمفاسد . ولم يكن ذلك كلَّ مطامع علي بك فانهُ رأى من تحامل الواشين بينهُ وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض بهِ وبسلطتهِ ما حملهُ على السعي الى الاستقلال بمصر وتجريدها من حماية الدولة العثمانية كليةً لكنهُ كتم مقاصدهُ هذه وجعل يسعى الى تنفيذها تحت طي الخفاء واول خطوة خطاها نحو هذه الغاية انهُ انتحل اسبابًا مختلفة بنى عليها عزل او ابعاد جميع مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدالهم بمن هم على دعوتهِ الّا وجاق الانكشارية فانهُ لم يمسَّهُ وذلك بعد ان تمكن من استبقائهِ تحت حمايتهِ وسد جميع السبل التي يمكنهُ بهِ التطرق الى مقاومتهِ

واخّر دفع مرتبات الوجاقات الاخرى عمدًا فكان يدفع لهم اقساطًا عملة ورق بول وكانت تخسر المائة من هذا الورق تسعين فكان يربح علي بك ارباحًا عظيمة باسترجاع الورق بالاثمان البخسة وصرفهِ ثانيةً بثمنهِ الاصلي . فلما رأت الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الّا على العشر كرهوا الاستخدام بالعسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئًا فشيئًا ويتعاطون اشغالاً اخرى اكثر فائدةً لهم

ثم سعى علي بك الى تقليل العساكر العثمانية وتكثير المماليك من دعاتهِ. فيقال انهُ جعل عددهم نحوًا من ستة الاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى من تغيُّرهم عليهِ ان يقتني احدهم اكثر من مملوك او مملوكين . وكان على ولاية مصر اذ ذاك محمد باشا فازعجتهُ اجراآت علي بك وخشي عاقبتها فنصح اليهِ ان يقف عند حدّهِ فلم يكترث بقولهِ . فاقرَّ الباشا على مقاومتهِ بدعوى ان هذه الاجراآت مضادة لمصالح الباب العالي ولكنهُ لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصدهِ هذه فجعل يدسُّها سرًّا واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركسي واقرُّوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فسادًا بين احزابهِ حتى استجلبوا بعضًا منهم الى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هولاء محمد بك ابو الذهب الذي طمرهُ علي بك بفضلهِ حتى ازوجهُ ابنتهُ وكان ينادبهِ كما ينادي اولادهُ . ولما لم يكونوا يستطيعون تنفيذ مآربهم جهارًا اغروا صهرهُ محمد بك المذكور بمبالغ وافرة ووعدوهُ انهُ اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانهُ فقبل لكنهُ علم بعدئذٍ انهُ يقصر باعًا عن مناواة علي بك واستعظم الجناية فعدل عنها الى جناية اعظم منها . وذلك انهُ شكى الى علي بك من معاملة الباشا لهُ فاسرع علي بك الى انقاذهِ منهُ وما انفك عن الباشا حتى اخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزدَد علي بك في محمد بك ابي الذهب الّا ثقةً واخلاصًا رغمًا عما كان يُنقل اليهِ عنهُ من السعي الى الايقاع بهِ

وفي سنة ١١٨٣ هـ انتشرت حرب بين الروسية والدولة العلية فبعثت هذه الاخيرة الى مصر ان تبعث اليها مددًا من اثني عشر الفًا فوصلت الاوامر لعلي بك بهذا الصدد ومشروعهُ لم ينضج بعد فلم يسعهُ الاَّ مباشرة ما أُمر بهِ فابتدأ بجمع الجنود . اما اعداؤهُ فاغتنموا تلك الفرصة للوشي بهِ فاستجلبوا اليهم بكل سهولة الباشا الجديد الذي كان قد أُرسل من القسطنطينية بدلاً من الباشا الذي اخرجهُ علي بك واتفقوا جميعًا على كتابة تقرير ممضيّ من الباشا وسائر البكوات اعداء عليّ يوشون بهِ الى الديوان الشاهاني بدعوى انهُ انما اراد بما يجمعهُ من الجيوش معاضدة روسيا لتحرير مصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا امرًا مشدَّدًا ان يقتل علي بك ويرسل رأسهُ الى اعتابهِ . فاتصل ذلك بعلي سرًّا بواسطة اصدقائهِ بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاتهِ في عشرة من اتباعهِ المماليك متنكرين بلباس بدوي يكمنون في مكان على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بدَّ للقابجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور بهِ فمكثوا هناك ثلاثة ايام متوالية وفي اليوم الرابع بانَ لهم القابجي ومعهُ اربعة نفر فقط فوثبوا عليهم وقتلوهم جميعًا وطمروهم في الرمل بعد ان اخذوا ملابسهم والفرمان وساروا بهِ الى علي فقرأهُ ثم جمع اليهِ ديوان البكوات العمومي واطلعهم عليهِ واقنعهم ان ذلك الامر ليس فقط لقتلهِ وحده وانما لقتلهم جميعًا على أثرهِ ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا اذًا عن حياتكم وحقوقكم واعلموا ان مصر ما برحت منذ القدم محكومة بدولٍ من المماليك وقد كانوا سلاطين اشدَّاء تفاخر بهم الارض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة ثمينة لا تضيعوها فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها هلمَّ اذًا نسعى الى الاستقلال فان فيهِ حياتنا وحريتنا »

فثار البكوات بجملتهم متأثرين من فصاحة عليّ وبلاغتهِ وكانوا ثمانية عشر جميعهم على دعوتهِ فعاهدوهُ ان يدافعوا عنهُ ما استطاعوا . اما

من بقي من الامراء المماليك الذين كانوا من اعدائهِ فخافوا العاقبة ولزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك امرًا الى الباشا ان يبارح الاراضي المصرية في مدة ثمان واربعين ساعة وانهُ اذا لم يفعل يقتل وان مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر امير عكا يعلنهُ رسميًا استقلال مصر ويدعوهُ للمساعدة في ذلك فاجابهُ الشيخ ضاهر مسرورًا وجمع اليهِ رجالهُ ورجال بنيهِ السبعة وصهرهِ وانضمَّ الجميع الى جنود علي وكان قد اضاف الى الستة آلاف التي عندهُ من المماليك الاثني عشر الف التي جمعت لمدد العثمانيين واضاف الى هذه ايضًا رجال اصدقائهِ البكوات حتى رجال اعدائهِ لانهم لم يعد يسعهم الاَّ طاعتهُ . فاتصل ذلك بالاستانة فارسل الباب العالي امرًا الى والي دمشق ان يسير في خمسة وعشرين الفًا لمنع جنود عكا من معاضدة عليّ فسار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاهُ الشيخ ضاهر في ستة آلاف فيما بين جبل لبنان وبحيرة طبرية وردَّهُ على اعقابهِ سنة ١١٨٣ ﻫ . وكانت هذه الموقعة آخر المواقع لان الباب العالي امسك بعد ذلك عن ارسال الجند وكانهُ نسي علاقتهُ مع سوريا ومصر بالكلية

اما عليّ فاغتنم فرصة انشغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف اعتناءهُ نحو تنظيم مملكتهِ الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل فخفض الضرائب وجعل على المالية مدير الكمرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي الذي قتل جزاء خيانتهِ . ونظَّم التجارة الخارجية والمخابرات وابعد العربان الى الصحراء فساد الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب بلوط قبان (مبيد اللصوص) . وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوّارة وكانت اشدهنَّ بأسًا واطول باعًا جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرَّت فيما بين جرجا وفرشوط في بقعةٍ من الارض لم تكن تصلح

للزراعة فاعتنوا فيها حتى ابتنوا فيها عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلّوا جميع الاراضي بين هو وكفر الشيخ سليم . ثم اغتنم الشيخ هامان (شيخ الهوارة) فرصة انشغال مصر بما تقدم ووضع يدهُ على كل البلاد من اسيوط الى اصوان وجمع اليهِ محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممّن تولوا مصر قبل عليّ وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٣٥٠ الف اردب من الحنطة توردها سنويًّا الى مصر

ففي سنة ١١٨٣ هـ ارسل علي بك صديقهُ محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ هامان وقبيلتهِ فحاربهم وتغلب عليهم في اواخر تلك السنة فاضطر ابناء الشيخ ان يبتاعوا حياتهم بكل ما كان لديهم من ثروة ايهم . فربح ابو الذهب من هذه الموقعة ثروة كبيرة ثم اسرع الى القاهرة لما علمهُ من الدسائس التي كان ساعيًا بها رفيقهُ احمد بك الجزّار على علي بك وكانهُ لم يكن يريد ان يشاركهُ احدٌ بالدسائس على سيدهِ . وكان احمد الجزّار ينظر الى محمد ابي الذهب نظرهُ الى عدوٍّ يناظرهُ في ارتكاب الدنايا فسعى الى قتلهِ فلم ينجح . وكان لاحمد الجزار سيفٌ مشهور بطيب فولاذهِ واتقان صنعهِ فاتفق يومًا انهُ اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال لهُ محمد «ارني حسامك لاجرّبَ فرندهُ» فاجابهُ احمد «لا يستلُّ حسامي سواي ولا اغمده حتى يستباح قتيل» ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصدًا القسطنطينية فوصلها ثم عهدت اليهِ ولاية عكا بعد ذلك وما زال فيها حتى توفاهُ الله

اما علي بك فبعد ان تغلب على الصعيد ثار في خاطرهِ حب الافتتاح فجرّد الى اليمن تحت قيادة محمد ابي الذهب فسار في عشرين الف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يُبقِ على احد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقهِ وما زال حتى اتى اليمن وافتتحها . وامر عليٌّ فسار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجداوي اشارة الى انتصارهِ على تلك

المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين . ولم تمضِ ستة اشهر حتى افتُتحت شبه جزيرة العرب وفي جملتها مكة المشرفة التي لحق بها نهبٌ شديد وأُنزل شريفها واقيم مقامهُ ابن عمهِ الامير عبدالله فثبَّت عليًّا في سلطنتهِ ببراءة رسمية ولقبهُ بسلطان مصر وخاقان البحرين . فلما حصل علي بك على هذا التثبيت من شريف مكة اخذ يتمتع بكل حقوق السلطنة فامر ان يُخطب باسمهِ في الصلوات العمومية ايام الجمعة وضرب النقود سنة ١١٨٥ هـ في القاهرة باسمهِ كما سترى

وفي هذه السنة سعى علي بك الى امرٍ سيق بهِ الى حتفهِ وذلك انهُ عهد الى محمد بك ابي الذهب ان يسير في ثلاثين الفًا لاخضاع بلاد الشام لانهُ كان يعتبر هذه الولاية بعد ان خرج هو من طاعة الدولة العلية جارًا عدوًّا يخشى منهُ ليس فقط على نفسهِ ولكن على الشيخ ظاهر صديقهِ ومحالفهِ ايضًا . وكان ينظر الى سوريا كانها مجعولة من طبيعتها جزءًا من مملكة مصر وقد كانت بالواقع قسمًا منها في سائر الازمنة التي كانت فيها مصر مستقلة كما رأيت في ايام الدول الطولونية والايوبية والمماليك وغيرها . وسعى علي بك في الوقت نفسهِ الى التحالف مع دولٍ بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية . فاستخدم احد التجار الايطاليانيين المدعو روستي فعقد لهُ معاهدة سلمية مع الفنيسيين على ان يكونوا اصدقاء معضدين لهُ . ثم عهد الى رجل ارمني يدعى يعقوب ان يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن امكان عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرة روسيا كاترينا الثانية . فاجاب الكونت بالايجاب وفُتحت المخابرات بشأن ذلك وطال امرها كثيرًا لبعد المسافة بين الطرفين . اما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ ظاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس واورشليم ويافا وصيدا واخيرًا حاصروا دمشق ولم تلبث يسيرًا حتى سلَّمت

فلما رأى محمد ابو الذهب ما كان من هذه الفتوحات العظيمة على يدهِ حدثتهُ نفسهُ ان يجعلها لنفسهِ . ثم قادتهُ مطامعهُ الى محاربة عليّ واستخراج مصر من يدهِ . ويظن انهُ لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسهِ وانما كان محمولاً باوامر جاءتهُ من الاستانة لان المخابرات السرّية كانت متواصلة بينهُ وبينها بواسطة الباشا الذي اخرجهُ عليٌّ من مصر . فامسك محمد عن المسير في الاراضي العثمانية وحوّل شكيمة مقاصدهِ نحو الديار المصرية فجمع اليهِ كل ما كان لديهِ من الجيوش وضمَّ اليها كل الحاميات التي كان قد اقامها في المدن المفتتحة وسار قاصدًا مصر . الاَّ انهُ لم يجسر على المسير الى القاهرة رأسًا خشية ان يلاقي من الانكشارية والوجاقات الاخرى اعداء اشداء لعلمهِ بما في قلوبهم من الضغينة عليهِ . فعرَّج نحو الصحراء وسار حتى بلغ الصعيد فحط رحالهُ هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم اليهِ قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمهِ على خلع علي بك وسار قاصدًا القاهرة فوصلها في اوائل سنة ١١٨٦ هـ فنزل بجيشهِ مقابل البساتين فوق مصر القديمة . فلما علم عليٌّ بذلك ندم على ما وضع من الثقة في رجلٍ كان لهُ ان يعتبر من سيرتهِ الماضية انهُ على غير الاخلاص والاستقامة . فجند ثلاثة الآف رجل تحت قيادة اسماعيل بك وامرهم ان يمنعوا محمدًا من عبور النيل فسار اسماعيل لكنهُ خاف سطوة عدوهِ . ثم وردت اليهِ منهُ كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فاخذ جانبهُ وضمَّ جيشهُ الى جيشهِ فقطع محمد بك النيل فاستقبلتهُ رجال اسماعيل بالترحاب فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة بعائلتهِ واصدقائهِ ورجال دعوتهِ عازمًا على المدافعة الى آخر نسمة من حياتهِ . وبعد ذلك بثلاثة ايام ورد اليهِ كتابٌ من الشيخ احمد احد ابناء صديقهِ الشيخ ضاهر ان يبارح القاهرة حالاً ويلتجي الى ابيهِ في

عكا فبارح عليٌّ القلعة بمن معهُ وسار من جهة الجبل الاحمر طالبًا سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجهُ قبل دخول محمد بك القاهرة بيوم واحد اي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ وهذه هي المرة الثالثة لخروجهِ منها الى سوريا وفي معيتهِ عددٌ يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معهُ من المال الاَّ ثمانماية الف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً . ونقل معهُ من المصاغ والحلي ما يساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في المسير ليلاً ونهارًا فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة ايام فرأوا ان خمسة من الجمال الحاملة للنقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان عددًا من جنودهِ قد فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى اتى عكا بعد ثمانية ايام فترحَّب بهِ اميرها وكانت بينهما مودة شديدة فامن عليٌّ هناك غير ان ما تكبَّدهُ من المشاق في الاسفار مع ما اثَّر في نفسهِ من الغيظ الشديد قد غيَّرا في صحتهِ فلم يصل عكا الاَّ وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي اثناء ذلك وصل مينا عكا اسطولٌ روسيٌّ فلما علمت حاميتهُ بما حلَّ بعلي عقدوا معهُ معاهدة ثانية وقدموا لهُ كلما يحتاج اليهِ من المؤن والذخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين (الارناووط) مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل فأمدُّوه بهم . فلما رأى علي بك ما كان من نجدة الروسيين مع ما يمكنهُ الحصول عليهِ من جنود الشيخ ظاهر عزم على مناواة ابي الذهب لكنهُ لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسهِ لانحراف صحتهِ . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهر ان يسير اولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد ابي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى اخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد ابي الذهب . ثم سار عليٌّ بنفسهِ فيمن بقي من

الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في اثنائها على غزة عنوةً وعلى الرملة واللد تسليمًا . فاعاد يافا الى حكومة الشيخ ضاهر وجعل على اللد حسن بك الجداوي وعلى الرملة سليم بك

وفي ٩ ذي القعدة سنة ١١٨٦ ﻫ كان علي بك في يافا فجاءتهُ رسل من القاهرة بمأمورية سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر اعيان القاهرة يعلمونهُ ان محمد ابا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمّى نفسهُ شيخ البلد وجعل يعيث في البلاد ظلمًا لم يسبقهُ الى مثلهِ احدٌ ممن تولى مصر قبلهُ فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانونًا غريبًا دعاهُ قانون رفع المظالم والمقصود منهُ بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراءات الاستبدادية التي كان يسومهم اياها الكشاف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ما انفكت اشدَّ وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزدد الاَّ استبدادًا فضلاً عما رافق كل ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهبًا

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليهِ من الانحطاط وما لحق باهلها من المظالم والاجراآت التي ما انزل الله بها من سلطان قد نوَّبتهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتمس رجوعهُ ليحكم فيها لانهُ هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تفتح ابوابها لاستقبال اميرها القديم وان تدافع عنهُ الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك ابو الذهب اجراء ما يخالف الصوت العمومي

فلما علم علي بك بكل ذلك شعر كأن آمالهُ عادت اليهِ وبارح يافا للحال قاصدًا القاهرة . ولم يكن لديهِ من الجنود الاَّ الفان وخمسماية فاستنجد حاميات اللد والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ضاهر وجنود ابنهِ الشيخ شلبي وصهرهِ الشيخ كريم وحسن شيخ مدينة صور . وكان قد استأجر

ثلاثة آلاف وخمسماية من المغاربة . فكان عدد الجنود التي بمعيتهِ جملةَ ثمانية آلاف محارب

ففي ١١ محرَّم سنة ١١٨٧ ﻫ وصل علي بك بجنودهِ الى خان يونس وفي ١٦ منهُ اقترب من الصالحية . وفي ١٨ منهُ التقى بمقدمة جيوش محمد بك ابي الذهب وعدَّتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضع ساعات ظهر علي بك عليهم بعد ان قتل عددًا غفيرًا من رجالهم . فانفتحت لهُ ابواب الصالحية فدخلها بسلام وقد أُصيب بجروح بليغة . ثم علم ان اعتمادهُ على احزابهِ في القاهرة لا يورثهُ الاَّ خيبة الامل لان ابا الذهب كان قد جمع اليهِ كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم لعلي وحاول اقناعهم ان علي بك قد غدر الامَّة وخان الوطن واباح دماء المسلمين بمعاهداتهِ مع الروسيين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم ابو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح فانحازت اليهِ كل القوات العسكرية الاَّ وجاق الانكشارية فانهُ بقي محافظًا على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك ابو الذهب اجتماع الاحزاب في مصر على دعوتهِ أَمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسهِ لمحاربة علي

اما علي فانزعج لتلك الاحوال انزعاجًا كثيرًا فضلاً عما كابدهُ من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي اصابتهُ في موقعة الصالحية فأُصيب بحمى شديدة منعتهُ من امتطاء جوادهِ وقيادة جنودهِ . وفي ٢٠ محرم سنة ١١٨٧ ﻫ علم بمجيء ابي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع فأمر قوَّادهُ فانتظمت رجالهُ على قلَّتها وتهيَّأت للدفاع . وكان على الجناح الواحد من الجيش علي بك الطنطاوي ومن معهُ من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهرهُ فاستظهرت جنود علي بادئ الرأي حتى قاربت الفوز التام ثم ارسل ابو الذهب جواسيس الى المغاربة في جيش علي يغريهم على

خيانة رئيسهم فوافقوهُ ووافقهُ غيرهم كثيرون من بكوات علي وفي جملتهم ابراهيم بك ومراد بك . وهذا الاخير اشترط ان يأخذ مقابلاً لخيانتهِ هذه كلما يتركهُ علي من المتاع والنساء وعلى الاخص امرأتهُ نفيسة التي كان علي يحبها ويعتبرها كثيرًا لما كانت عليهِ من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا الى معسكر ابي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من الفوز فلما رأت تلك الخيانة حبطت قواها وفرَّ الجند يطلبون النجاة بانفسهم بعد ان قُتل علي بك الطنطاوي والشيخ شلبي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا الى فسطاط علي واعلموهُ بماحصل وطلبوا اليهِ ان يتطي فرسهُ ويسير برفقتهم الى غزة حيث يلاقيهم الشيخ ضاهر بمن معهُ من الجند . اما علي بك فأبت نفسهُ الاصغاء لما ارادوا فجلس عند باب خيمتهِ وقال لهم « ها اني ملازم هذا الموضع لا ابارحهُ حتى تبارحني نفسي لان الموت فيهِ افضل عندي من الفرار . اما انتم فاذا شئتم النجاة بانفسكم فبادروا الى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعهِ » . فاضطر ابن اخيهِ ورجالهُ الباقون ان يذعنوا لما امر . فودعوهُ وحوَّلوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزَّة وهناك وجدوا الشيخ ضاهر فاعلموهُ بما كان وبوفاة ابنهِ فاسف عليهِ كثيرًا .

اما علي بك فمكث بعد وداع اصدقائهِ بضع ساعات ينتظر منيتهُ وبجانبهِ عشرة من مماليكهِ واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد ابي الذهب قد وصلوا الى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشتدًا عليهِ وفيهِ جروح لكنهُ نهض بسيفهِ فقتل اوّل قادم اليهِ وجرح اثنين آخرين فخشي الباقون الاقتراب منهُ فاطلقوا عليهِ البنادق فجرحوهُ جروحًا بليغة في ذراعهِ وفخذهِ اليمنى . فجعل يدافع بيسراهُ دفاعًا شديدًا حتى وثب عليهِ الكخيا بنفسهِ فدافعهُ حتى اصيب

في ذراعهِ اليسرى وفي اماكن اخرى فسقط على الارض وهو لا ينفك عن الدفاع فتكاثرت عليهِ الرجال حتى امسكوهُ حيًّا وساروا بهِ الى محمد ابي الذهب وطرحوهُ عند قدميهِ فامر بحملهِ الى القاهرة فحملوهُ اليها وانزلوهُ في دارهِ بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة ايام ثم توفاهُ الله . وقد قال بعضهم ان ابا الذهب ادخل السمَّ في جروحهِ فقتلهُ والله اعلم . وقد دفنوهُ بتربة استاذه ابراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وقد كان لموت هذا الرجل تأثير عظيم في قلب كل من عرفهُ حتى ان ابا الذهب نفسهُ لم يسعهُ الاَّ الندم داخليًّا لما فرط منهُ وما اتاهُ من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة

ومن صفات علي بك انهُ كان عظيم الهيبة حتى اتفق لاناس انهم ماتوا خوفًا من هيبتهِ وكانت تاخذ الرعدة بعضهم بمجرَّد المثول بين يديهِ فيأخذ هو بتلطيف رعبهِ فيقول لهُ « هوّن عليك » . وكان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرأ لهُ الصكوك والوثايق بل يقرأها هو بنفسهِ ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها . ومن مآثرهِ البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد الجامع والقبة على مقام السيد البدوي والمكاتب والمضاة الكبيرة والحنفيات والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة والقيسارية العظيمة . وجدد ايضًا قبة الامام الشافعي وبنايات ووكالات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل مميزًا عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونهُ « علي بك الكبير »

وترى في شكل ٧٧ و٧٨ صور النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية للسلطان مصطفى بن احمد وتاريخ توليهِ السلطنة سنة ١١٧١ هـ ولكن يشاهد عليها ايضًا من الاعلى اسم عليّ وتاريخ ٨٥ وهي مختصرة من سنة ١١٨٥ هـ وتدعى هذه

القطعة من المعاملة قرشًا . والثانية فضية ايضًا ويشاهد عليها الطغراء العثمانية اما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١١٨٣ وهي السنة التي

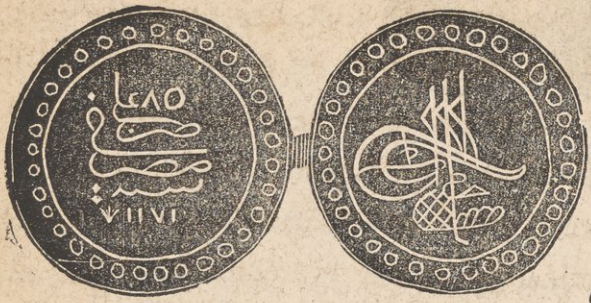

ش ٧٧ نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

صرح بها علي بك باستقلالهِ ويشاهد عليها اسمهُ وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش

ش ٧٨ نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

سلطنة عبد الحميد بن احمد

من سنة ١١٨٧ ـ ١٢٠٣ هـ او من ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد بن احمد عوضًا من السلطان مصطفى الثالث

ش ٧٩ نقود السلطان مصطفى بن احمد

وترى في شكل ٧٩ و ٨٠ صور نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى

بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ ﻫ الاولى فضية والثانية نحاسيّة

ش ٨٠ نقود السلطان مصطفى بن احمد

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليهِ قبلهُ تابعًا لاملاك الدولة العلية وعادت احكامهُ الى مشائخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المصالح وسيلة لاختلاس اموال الناس وحقوق الدولة وكان علي بك قد جعل لكل هذه المظالم حدًّا واصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها اما المنيَّة فلم تبق عليهِ

نعم ان مصر بعد وفاتهِ عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئًا لانها كانت في الحالة الاولى طعمة لرجل محبّ للاصلاح مخلص بمقاصدهِ وان كانت بمعزل عن صوالح الدولة وفي الثانية اصبحت طعمة لثلاثين رجلاً كلٌّ منهم يسعى الى ابتلاعها لا يتفقون الاَّ على كره الدولة التي هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الاَّ من كان اسمًا بلا رسم كما كان شأنهم قبل ظهور عليّ فكان الباشا من هولاء آلة يديرها البكوات كيف شاؤُا ولم يكن لديهِ من الاعمال الاَّ مخابرة القسطنطينية مخابرات سرّية فيما كان يقع بين هولاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليهِ من الخصام وواجبانهُ المهمة ان يستلم من الحكومة المصرية الجزية ويرسلها الى الاستانة هذا اذا تمكّن من قبضها

فلم تكن ولاية مصر الاَّ مأمورية يستعيب بها المأمور بتأديتها فكانوا يعتبرونها بمثابة منفى قد استحقهُ الباشا او الوزير الذي يرسل اليها لانهُ كان يعلم قبل خروجهِ من الاستانة انهُ اذا لم يكن راضيًا بما يرضاهُ شيخ البلد لا يلبث ان يصلهُ منهُ رسالة ينقلها ناقلٌ يقال لهُ الاوطه باشي

وفيها الامر بعزلهِ امرًا لا مردَّ لهُ ولا مجال للمدافعة بعدهُ . وكيفية ذلك ان شيخ البلد ورجالهُ اذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك يجتمعون اجتماعًا عموميًّا في الديوان ويقررون عزلهُ ويكتبون بذلك امرًا عاليًا يسلمونهُ الى الاوطه باشي ليوصلهُ الى الباشا فيحملهُ ويسير منفردًا على حمار (لان القانون لا يسمح لهُ بركوب الخيل او البغال) بين يديهِ فرمان العزل فاذا مرَّ في الاسواق على هذه الصورة علم الناس انهُ ساع الى امر مهمّ فيهِ عزلٌ فيهرولون وراءهُ . ولا يزال سائرًا في عرض الطرق قائدًا لتلك المواكب نحو القلعة . وكان من واجبات اي جندي صادفهُ في تلك الحال ان يرافقهُ انقاء مما يخشى حدوثهُ عند وصولهِ الى القلعة . فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو امامهُ بكل وقار لكنهُ عند ما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثيًا عليها وينادي باعلى صوتهِ « انزل يا باشا » وعند طيّ السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعود لهُ اقلُّ سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارتهُ وتصير تحت اوامر الاوطه باشي . والباشا يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقهُ بعزلهِ او قتلهِ فلا يسعهُ الاَّ الطاعة التامة . وعلى مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر فانهم كانوا عرضة لاوامر العزل التي اذا لم تكن من الاستانة تكون من مصر

فلما مات علي بك اختلف اعداؤهُ في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسهِ الحق بالتمتع باثمار الانتصار كغيرهِ او اكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم . اما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكانًا فيهِ راحة لهم فقد كانوا في عكا عند الشيخ ضاهر على ما تقدم فلم يكن من ابي الذهب الاَّ انهُ تعقبهم لانهُ كان رجلاً محبًّا للانتقام حبًّا يفوق التصديق وقد آلى على نفسهِ الاَّ يبقي على احد من رجال علي

اما الشيخ ضاهر امير عكا فلم يعد يطيب لهُ السكون بعد ان خسر

ابنهُ في سبيل نصرة علي بك فثارت في خاطرهِ دواعي الانتقام . ولكن محمد بك ابا الذهب لم يكن اقل رغبة في الانتقام منهُ ولما لم يعد يستطيع صبرًا على ذلك استرحم من الباب العالي ان يؤذن لهُ بالمسير الى محاربة سوريا وعلى الخصوص عكا واوقع في اميرها الشيخ ضاهر فاتّهمهُ بالعصيان وانهُ ساع بدسائس ضدّ الدولة . فاجاب الباب العالي بفرمان يثبتهُ في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما اتاه من الايقاع بعلي واحزابهِ وصرّح لهُ ان يتتبّع ذلك الشيخ العاصي . فلما وصل الفرمان الى ابي الذهب كاد يطير من شدة الفرح واعدّ جيشًا جعلهُ تحت قيادتهِ الشخصية مستخلفًا في مصر اسماعيل بك بصفة قائمقام وعهد حكومة مدينة القاهرة الى ابراهيم بك . ثم سار في جيشهِ الى سوريا ولم تنتهِ سنة ١١٨٩ﻫ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبهِ بما اوتيهِ من الالقاب والرتب وما وُعد بهِ من المساعدات من قبل الباب العالي لا يزيد الأكبرًا حتى جعل خيمتهُ التي كان يقيم فيها اوقات الراحة من اثمن ما يمكن مزينةً بابدع ما يكون . فمرّ بخان يونس فغزّة فالرملة ولم يصادف اقل مقاومة . اما يافا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ضاهر فدافعت قليلاً ثم فُتحت عنوة فدخلتها رجال ابي الذهب بالقتل والنهب حتى قتلوا القسم الاعظم من سكانها من رجال ونساء وشيوخ واطفال

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر وهو في عكا فخاف ان يصيبهُ ما اصابها ففرّ بعائلتهِ وبمن هم لديهِ من المهاجرين المصريين ولم يترك في المدينة الاّ ابنهُ الشيخ علي . وهذا لما علم باقتراب جيوش ابي الذهب اخلى القلعة وانسحب منها لعلمهُ انهِ اذا حاول الدفاع انما يكون محاولاً عبثًا . فوصلها ابو الذهب وابوابها مفتوحة فدخلها ولم يبقِ عليها ومثل ذلك فعل بقرى اخرى من فلسطين والى هذه المدينة وفيها انتهت ارتكابات هذا الرجل لانهُ بينما كان عازمًا على العود الى مصر اصبح القوم

فوجدوهُ ميتًا في خيمتهِ ولم يستطيعوا معرفة القاتل رغماً عما اتخذوهُ من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم انهُ اصيب بنقطة وهو داء السكتة وقال آخرون لا بل مات مقتولاً بيد عدوّ فانك والله اعلم . وبعد موت ابي الذهب عادت الجيوش المصرية تحت قيادة مراد بك الى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدفنوها بالقرب من مدفن علي بك . فقدمات ابو الذهب بعد موت علي بك بسنتين ولقب «بالخائن»

وتولى مشيخة البلد بعدهُ اسماعيل بك رغمًا عن ادعاءات مراد بك وابراهيم بك ولم يبق غيرهُ من طائفة ابراهيم كحيا وهو من الذين نالوا رتبة البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوتهِ ولكنهُ انضم الى ابي الذهب خوفًا . اما قلبهُ فلم يفتر لاهجًا بالمدافعة عن رئيسهِ الذي لم يأتِ نحوهُ الاَّ كل ما يستدعي انتصارهُ لهُ فضلاً عن انهما من طائفة واحدة . فلما استلم زمام الاحكام عمل على اتباع خطوات علي بك فبعث الى الذين كانوا لا يزالون من حزبهِ في سوريا واستدعاهم اليهِ واقرَّهم في اماكنهم وطيب خاطرهم كل ذلك استعدادًا لمقاومة مناظريهِ مراد وابراهيم . وكانا قد اتحدا معًا قلبًا واحدًا على خلع اسماعيل بك فباشرا اولاً يطلبان طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم ينوزا الاَّ انهما تمكنا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاهما منها ففرَّا الى الصعيد . وبعد يسير جمع المنهزمان حزبًا كبيرًا واستعدَّا لدفاع اسماعيل فبعث جيوشًا لتخمد انفاسهما فعادت الجيوش على اعقابها وفاز الاميران فاضطر اسماعيل بك الى مبارحة القطر المصري فسار الى الاستانة . اما حسن بك فقُبض عليهِ وسيق الى جدَّة منفيًا فتمكن اثناء الطريق من ارضاء رئيس المركب الذي نقلهُ فانزلهُ في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غربًا حتى اتى الصعيد فاستكنَّ في اعلاه

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعيَّن الاول

اميرًا للحج والثاني شيخًا للبلد ورقّيا كثيرًا من مماليكهم الى رتبة البكوية وقلداهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في ايام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وانهُ جاء الى حلوان فبعثا اليهِ فرقة من المماليك فتكت بكل ما كان معهُ من عائلتهِ ورجالهِ اما هو فتمكن من النجاة باختبائهِ في بعض الكهوف ثلاثة ايام . ثم سار منهُ طالبًا الشلال وهناك اجتمع بصديقهِ حسن بك الجداوي وسارا معًا وأويا الى شلال الجنادل في السودان . فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الهاربين فارتأى احدهما وجوب التجنيد وخالفهُ الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك من القاهرة وانسحابهِ الى المنيا في الصعيد مغتاظًا . فارسل اليهِ مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من جاشهِ ما استطاعوا فارضوهُ واعادوهُ الى مركزهِ في القاهرة . الّا ان العلاقات الودية ما انفكّت متكدرة بين الاثنين ولم تمضِ مدة حتى انسحب مراد بك الى المنيا مغتاظًا من زميلهِ لعلمهِ باتحادهِ مع خمسة من بيت عدوّهما القديم وهم البكوات عثمان الشرقاوي وايوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير

ولبث مراد بك بعيدًا من القاهرة خمسة اشهر وكان يظن ابراهيم بك انهُ لا يلبث ان يسكن جاشهُ حتى يعود اليهِ فلما استبطأهُ ارسل اليهِ الاختيارية كما فعل ذاك معهُ . فابى مراد بك وردّ الاختيارية خائبين . ثم جند جندًا من اتباعهِ المماليك وسار نازلًا على الضفة الغربية للنيل حتى اتى الجيزة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . ثم همّ الى قطع النيل فعلم ابراهيم بك بذلك فجنّد في الجهة المقابلة على البر الشرقي ليمنعهُ من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يومًا لا يهمّان الّا الى اطلاق مدفع او مدفعين على سبيل المناوشة ولم يقتل الّا رجل وفرس . فملّ مراد بك من تلك الحال فعاد الى المنيا بمن كان معهُ .

اما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميلهِ فانفذ اليهِ بعد خمسة اشهر من انسحابهِ وفدًا ثانيًا من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليهِ الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنهُ اشترط عليهم ان يسلموهُ الخمسة بكوات المتقدم ذكرهم حال وصولهِ الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعلم اولئك البكوات باعلام سرّي من ابراهيم بك بما اشترطهُ مراد بك فخرجوا من القاهرة لجهة القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود بالقرب من الاهرام زمرةً من العربان تترصد مرورهم لكنهُ لم يستطع صبرًا على ذلك فقطع النيل ببعض رجالهِ فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج فتلاحموا فجُرح مراد بك ونجا اولئك فلاقاهم العربان عند الجسر الاسود فاسروهم وجاءوا بهم الى مراد بك فلم يسعهُ لشدة غيظهِ الاَّ نفيهم الى المنصورة وفرسكور ودمياط تفريقًا لكلمتهم لكنهم لم يلبثوا الاَّ مدة يسيرة حتى اجتمعوا في غاية سنة ١١٩٧ هـ واتفقوا ان يفرُّوا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصبة يقاومون بها عدوَّهم لكنهم لم يباشروا ذلك حتى تداخل شيخ الجامع الازهر في امرهم واستحصل لهم على العفو من مراد بك فصفح عنهم واعادهم الى القاهرة بكل اكرام واعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

ثم مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايرادات البلاد فيما بينهما بالسواء لا يقدمون عنها حسابًا او اذا قدموهُ لا يكون الاَّ حبرًا على ورق . فوشى بهما محمد باشا وكان واليًا على مصر اذ ذاك الى السلطان وبما هما فيهِ من الاستقلال بمالية البلاد فامر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ هـ ان يرسل الى مصر جيشٌ لايقافهما عند حدهما فسار الجيش في عمارة تحت قيادة قبطان باشا حسن فوصلوا الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ فخاف البكوات خوفًا شديدًا واجتمعوا اجتماعًا عموميًا في الديوان وتباحثوا فيما يجب

اجراءهُ . ونظرًا لكثرة اللغط واختلاف المقاصد والآراء لم يقرُّوا على شيء واخيرًا ارتأوا طلب تداخل محمد باشا ولما عرضوا عليهِ رأيهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي كاتم السر وباش كاتب الديوان الخصوصي وغيرهم ان يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا

وترى في شكل ٨١ صورة ختم الشيخ المهدي وامضائهِ الرسميّ وفيهِ لقبهُ كما يكتبهُ بيدهِ

فركبوا من بولاق في زورق متقن وما زالوا حتى بلغوا رشيد فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام . اما هم فلعلمهم ان الاميرين ابراهيم ومراد لا يثبتان على رأي فربما طلبوا لهما العفو فحصلوا عليهِ ثم نكث ذانك فتكون الملامة عليهم . فقال الشيخ

ش ٨١ ختم محمد المهدي وامضاؤهُ

العروسي «يا مولانا ان رعية مصر قوم ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا «لا تخشوا بأسًا فان اول ما اوصاني بهِ مولانا السلطان هو قولهُ «ان الرعية وداعة الله عندي وانا استودعك ما اودعنيهِ الله تعالى» فدعوا لهُ بطول العمر . ثم قال لهم «كيف ترضون ان يملككم مملوكان كافران يسومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم» فاجابهُ احدهم بقولهِ «يا سلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم» فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة ان هذا الوفد قد تصرف بالحكمة لانهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم مراد بك ومعهُ عشرة من البكوات وعدد من الكشاف والمماليك . ثم شاع انهم نزلوا في الرحمانية عند منشإ الترعة المحمودية الاسكندرانية .

وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما ارسل ذلك الوفد خطر لهُ الدفاع بالسيف فجمع اليهِ ذوي شوراه وفاوضهم فاقروا على وجوب الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم للمحافظة على القاهرة

فسار مراد بمن معهُ ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقتهم الجنود العثمانية الظافرة وحصلت بينهما موقعة لم تطل الاَّ يسيرًا فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التي كانت تتفرقع بين ارجل خيلهم فتشتت شملهم وفاز العثمانيون ففرَّ مراد بك ومن معهُ حتى اتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وفرُّوا جميعًا الى الصعيد ولبثوا هناك ينتظرون هجمات العثمانيين . فلما رأى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من المماليك جمع اليهِ الوجاقات ونزل بمعيتهم من القلعة استعدادًا لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان خربت جيوشهُ ونهبوا كل ما مروا بهِ من المدن والقرى ولولاهُ لم يبقوا على شيء أصلاً . لكنهُ كان يتهددهم وقد قتل منهم كثيرين عبرةً للباقين فكفت الايدي فسكنت الناس . فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند القصر العيني على النيل ثم عرض امتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومي وفي جملتها حريمهم واولادهم ومماليكهم فاسترحم المشائخ ان يخرج الاولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لان ذلك فضلاً عن انهُ مخالف للحاسيات الانسانية فهو مغضب لله . فانتهرهم القبطان باشا قائلاً « ساحرر الى الاستانة بانكم تعارضون في بيع امتعة اعداء جلالة السلطان » فاجابهُ الشيخ السادات قائلاً « قد أُرسلتَ الينا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهتك شرائعنا والطعن في عوائدنا فاكتب الى الاستانة ما شئت » . فعند ذلك امر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع وبعد ان بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا الى اصلاح الادارة فاصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية . وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي

من الصعيد فارسلها في جيش تحت قيادة عابدبن باشا ودرويش باشا وهما قائدا الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البرّ (فضلاً عن العمارة البحرية المتقدم ذكرها) وسار في تلك الحملة ايضاً نحو من الف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من امراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجالهِ

فحصلت هناك موقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزام مراد بك ورجالهِ الى الشلالات ورجوع الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة. ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا عن مصر وتولية عابدبن باشا مكانهُ

وهنا تنتهي مأمورية حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا. ولم تنجُ مصر مما كانت تشكو منهُ نعني بهم البكوات لانهم كانوا لا يزالون في مصر العليا كما رأيت. والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا لهم فانهُ اخذ كل متاعهم وباعهُ على مشهد من الناس فضلاً عن الاهانة التي سامهم اياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري امين احتساب مصر فانهم قبضوا على امرأتهِ واجبروها ان تخبرهم بمخابئ زوجها من النقود فاخبرتهم فاستخرجوها واخذوها. وعند ما بارح حسن باشا القاهرة اقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد وهذا عهد الى صديقهِ القديم حسن بك الجداوي امارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الايراد

وفي سنة ١٢٠٢ هـ توفي السلطان عبد الحميد بن احمد

وترى في شكل ٨٢ و٨٣ صور النقود الذهبية التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد بن

ش ٨٢ نقود السلطان عبد الحميد بن احمد

احمد في القاهرة بتاريخ ١١٨٧ه
فالاولى تدعى نصف زرمحبوب
والثانية فندقلي

ش ٨٣ نقود السلطان عبد الحميد بن احمد

سلطنة سليم بن مصطفى

من سنة ١٢٠٣ ـ ١٢١٤ه او من ١٧٨٩ ـ ١٧٩٨م

فبويع السلطان سليم الثالث بن مصطفى فاقرّ اسماعيل بك في مركزه وما زال اسماعيل بك مارسًا للاحكام بكل دراية وحكمة الى سنة ١٢٠٥ه وفي هذه السنة طرأ على البلاد ولا سيما القاهرة وباء شديد الوطأة لم تقاسِ مثلهُ قبلهُ فان عدد الموتى بهِ بلغ نحو الالف في يوم واحد في القاهرة وحدها وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام وسبب ذلك ان اسماعيل بك اصيب بالوباء فاقيم آخر مكانهُ فآخر حتى في كل من كان من بيت اسماعيل بك الاَّ واحد يدعى عثمان بك الطبل . ولا يزال هذا الوباء مشهورًا بفتكهِ ويعرف بوباء اسماعيل . فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد الاَّ انهُ لم يكن قادرًا على ادارة الاعمال التي عهدت اليهِ فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففرّ حسن بك الجداوي الى مصر العليا قانطًا . فاستلم ابراهيم ومراد ازمّة الاحكام وجعلا يعيشان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج سنويًا بعد ان افنيا كل من كان على غير دعوتهما فصفا الجوُّ لهما اما قلوبهما فكانت لا تخلو من الضغائن المتبادلة لما طبع عليهِ كل منهما من الطمع وحب الاثرة ولما كان في صفاتهما من المناقضة . فقد كان مراد بك رجلاً شديد البطش مقدامًا لا يهاب الموت وكان ابراهيم بك

اكبر سنًا منهُ واكثر اختبارًا وكان يتربص لهُ محاذرًا بطشهُ خيفة ان يطلبهُ للنزال والّا لما رضي معهُ بالاجتزاء من الدخل اجتزاء سويًا وكان لا يعارضهُ فيما يتعاطاه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب اموال الناس على نية ان يشاركهُ بالارباح الناتجة من ذلك . وكان على شيء من الرياء يظهر خلاف ما يضمر اذا استُصرخ وعد مع العزم على الاخلاف وكان جبانًا فاذا اراد امرًا لا يتظاهر بهِ وانما يسعى اليهِ بالدسائس والمكايد على اساليب النفاق

اما مراد بك فلم يكن يعرف المكر وانما كان يسعى الى اغراضهِ بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأس يقطع عنق الثور بضربة من سيفهِ وعلى وجههِ ملاح الاسود فاذا غضب يهابهُ ويخاف منهُ كل من يراهُ حتى احب اصدقائهِ . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حرّ الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليهِ مخلصًا لاصحابهِ مقيمًا على قولهِ وكان طمعهُ بمقدار سخائهِ وحبُّهُ لذاتهِ بمقدار حرّية مباديهِ وكان سريع الغضب شديدهُ لا يراعي في حال غضبهِ امرًا من الامور وربما فتك بصوالح نفسهِ او اضرّ بشخصهِ

ش ٨٤ ختم مراد بك ختم ابراهيم بك

وترى في شكل ٨٤ صورة كلّ من ختمَي مراد بك وابراهيم بك محفورة على شكل جميل

والمّ بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى مصر جوع هائل ويقال انهُ حصل من كثرة ما ضبطاهُ من الحبوب في مصر العليا طمعًا بالكسب . ثم ألغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية . فكثرت تعديات

مماليكها وعلى الخصوص تعديات احدهم محمد الالفي[1] فثارت الاهالي ثورة عامة لم يسعها معها الاَّ توقيف تلك الاجراآت وقتيًّا فخمدت الثورة فعادا الى ما كانا عليهِ فعاد الاهالي الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية

ومما يحكى ان مراد بك تظاهر يومًا انهُ عازم على تجديد الملابس والامتعة العسكرية فيحتاج لما يقوم بنفقاتها ففرض على طائفة الاسرائيليين مبلغًا كبيرًا مساعدة لهذا المشروع فاجتمع رؤساء الطائفة وتخابروا فيماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليهِ اثنين من كبرائهم يسعيان الى ما ينجيهم من هذه الضريبة فسارا ولما مثلا بين يدي مراد بك قالا لهُ « ايها الامير اننا فقراء ولو بعنا جميع ممتلكاتنا ونسائنا واولادنا وانفسنا لا نجمع عشر ما تطلبهُ منا فاذا تنازلت الى اعفائنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطلعك على مخباة تكفيك مؤنة هذه المطالب . وهذه المخباة لا يعلم بها احد الاَّ عائلتنا وقد تنوقل هذا السرّ فيها اباً عن جد حتى وصل الينا ونحن علينا ان نوصلهُ لاولادنا عند ما تحضرنا الوفاة » . فلما سمع كلمة « مخباة » فتح اذنيهِ وقاطعهما قائلاً « هلمَّ بنا لنرى تلك المخباة فاني اذا رأيتكم صادقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلمَّ بنا الى المخباة اين هي » فاجابا « ان هذه المخباة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة قد جعلها هناك ذلك الفاتح العظيم في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقرَّهُ الا نحن » فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهرًا للصيد في البرية فمرَّ بجامع عمرو فدخلهُ كانهُ يريد الصلاة ثم نظر الجامع فاذا بهِ قد تداعت اركانهُ فالتفت الى شيخهِ قائلاً « بما ان الله قد ادخلني الى هذا

---

(١) يقال انهُ دعي بهذا الاسم لانهُ ابتيع بالف دينار

المكان المقدس وجب عليَّ ان اسعى الى اصلاحهِ لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسهِ الفاتح عمرو بن العاص وغدا ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل النعلة تحت مناظرة احد ثقاتهِ وبدلاً من ان يبدأوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بدأوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسهِ فاذا بهم قد وصلوا الى دهليز فيهِ صندوق من الحديد فتحقق ما قالهُ لهُ الاسرائيليان وكانا بين الجماهير فامر فأُخرج الصندوق فامر بفتحهُ فاذا هو ملآن رقوقاً مكتوباً عليها آيات من القرآن الشريف بالقلم الكوفي

ش ٨٥ بعض كلمات من فاتحة القرآن الشريف

وترى في شكل ٨٥ رسم بضع كلمات من فاتحة ذلك القرآن مثالاً لنوع كتابتهِ الكوفية ويظن انهُ كتب في ايام عمرو بن العاص . فلما رأى الاسرائيليان ذلك فرّا من بين الجماهير . اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على الاسرائيليين واصرَّ الآن يدفعوها حالاً واستعمل الكرباج لحثهم على ذلك . اما تلك الرقوق الثمينة فأُلقيت في الدهليز بغير اعتناء وتركت هناك عرضة للشمس والماء فنسد بعضها . ثم لما كانت الحملة الفرنساوية التقط ما بقي منها الموسيو مارسل مدير مطبوعات تلك الحملة وحفظها عندهُ في متحفهِ الخصوصي . وقد شاهدتُ في المكتبة الخديوية العامرة اليوم نسخة من

هذا النوع تمامًا يقولون انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون ذات النسخة التي التقطها مارسل والله اعلم

وعاد مراد بك ورفيقهُ الى ما كانا عليهِ من اختلاس اموال الاهالي واموال الاجانب بالضرائب الناحشة فانهُ ضرب على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما انزل الله بها من سلطان فرفعوا شكواهم الى قناصلهم فلم تكن النتيجة الاَّ زيادة الاضطهاد. اما تداخل الباشا في مثل هذه الامور فكان عديم النائدة على الاطلاق فرفع المتظلمون شكواهم الى الاستانة فلم يكن الجواب الاَّ الصمت ولم يزدد مراد بك الاَّ عتوًّا وعسفًا ولم يكن يبالي بما يقولهُ القائلون او يتظلم منهُ المتظلمون من سائر ساكني القطر. كل ذلك كان على

ش ٨٦ نقود السلطان سليم بن مصطفى

عهد السلطان سليم بن مصطفى السلطان التاسع والعشرون من سلاطين آل عثمان

وترى في شكل ٨٦ و ٨٧ صورة نقود السلطان سليم بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١٢٠٣ هـ وهي سنة تنصيبهِ على كرسي السلطنة

ش ٨٧ نقود السلطان سليم بن مصطفى

الحملة الفرنساويّة

(تمهيد)

قد رأيت ما كان من انغماس مراد بك ورفيقهِ في ارتكاب المظالم واختلاس اموال الاهلين بغير الحق وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك التعديات بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم فاوعزت الى الظالم ان يرعوي فلم يرعوِ . وما زال الحال كذلك حتى جاء النابوليون بونابرت الرجل العظيم برجالهِ لافتتاح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للقارئ . اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنساويين الى تجريدها . ثانيًا كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها

لماذا جرّد الفرنساويون الى مصر

لما قتل الفرنساويون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم المطلق اقاموا عليهم نوعًا من الحكومة دعوهُ «الادارة» وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء دعوا كلاًّ منهم «مديرًا» وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ هـ) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت . فحاربوا اوستريا ثم ايطاليا ثم غيرها وما زالوا حتى لم يبقَ في سبيلهم الاَّ دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولا سيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مرارًا لكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمهُ من قوتها ومناعة جانبها

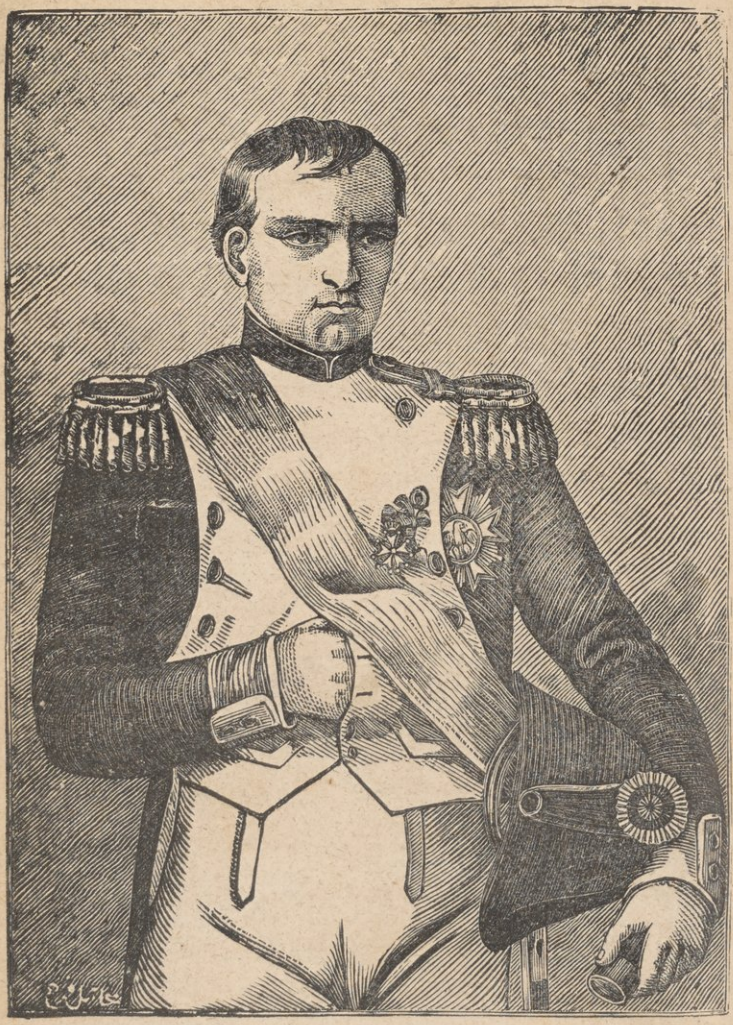

ناپوليون الاول امبراطور الفرنساويين

وكان بونابرت قد مرَّ في البحر المتوسط وضمَّ قسماً عظيماً من سواحلهِ الى فرنسا فطمع بمصر وقد اعجبهُ شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولتهِ والارهاب لانكلترا . الاَّ ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأيهُ هذا عليها بعد ان شرح لها شرحاً مستوفياً كيف ان هذا الوادي ما برح منذ القدم منشأ لخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعاً لمطامع الدول العظيمة وشاغلاً لرجال الفتوحات كالاسكندر وغيرهِ حتى الايام الاخيرة الى ان قال مخاطباً الادارة

« ان مصر ايها السادة اكثر الارض خصباً وقد كانت اهراء لرومية قديماً وللقسطنطينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والسكر والنيلة والقطن والسنا والخيار شنبر والبطرون والكتان والقنب وفيها انواع الماشية الجوية والبريَّة والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوَّة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادر فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق بجملتهِ لا غنى لهُ عن هذا الوادي لانهُ مركزٌ متوسطٌ بين افريقيا واسيا . فان القوافل تنزل في القاهرة كما ترسي المراكب عند الشواطئ بعد سفر طويل وهذه القوافل مؤلفة من مئات واحياناً الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب اوسوريا او سواحل المغرب او الحبشة او افريقيا المركزية او من راس الرجا الصالح او السنجال حاملةً انواع التجارة من الخشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثمار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصمغ والاطياب والعطريات والشالات وكل محصولات الهند فتبيعها في مصر وتأخذ بدلاً منها احمالاً من مصنوعات اوروبا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجاريًّا بين اوربا والهند وهذه تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف راس الرجا الصالح تأتينا عن طريق مصر وذلك ان تحط في برنيس على سواحل البحر الاحمر

ومنها تنقل على الجمال في الصحراء مسافة ٢٤ مرحلة حتى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى بلاد مصر وتتوزع فيها ومنها تنقل الى اوروبا . وكانت التجارة احيانًا تنقل الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها الينا . على اننا لو اغضينا عن اهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند لرأينا فيها اهمية عظمى بالنسبة لتجارتها الخصوصية فاننا اذا فتحنا هذه البلاد واعتنينا بادارتها مدة خمسين سنة فقط لاصبح عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو الآن لان سكان هذا الوادي قد كانوا في الازمنة الخالية بين ١٢ و١٥ مليونًا (كذا) وهم الآن لا يبلغون ثلث هذا القدر وذلك لسوء الادارة . هذا فضلاً عما تقدّمهُ لمعاملنا من محصولاتها وما تنفقهُ فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا . فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف هلمَّ اليها فنستغل من ارزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن محصولات اميركا وتكفينا مؤنة الارتباط معها

« ولا يخفاكم ايضًا اننا اذا ثبّتنا قدمنا في مصر لا تلبث انكلترا طويلاً في الهند فاننا نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات نقيمها في معاقل منيعة نذخر فيها من نتاج ذلك القطر ونحوّل التجارة الهندية اليهِ . على اننا لو فرضنا بقاءها عن طريق راس الرجا الصالح كما هي الآن لاقمنا بيننا وبينها بابًا للمباراة وفتحنا ترعة بين السويس والنيل . ولا شك اننا اذا فعلنا ذلك نحبط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تتحول بجملتها الينا . اما هذه الترعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا اعادة حفرها . فاذا فتحنا مصر لا نقتصر منفعتها لنا كمنفعة سائر المستعمرات العظيمة ولكنّا بها نعرقل مساعي انكلترا فنكفي مؤنة مقاومتها هذا اذا لم نذهب بها الى الحضيض »

فترددت الادارة بقبول مشروعهِ لكنهُ ما زال في مثل ما تقدم حتى

اشتدَّ الجدال بينهُ وبينهم فرأى فيهم اصرارًا على مقاومتهِ فعرَّض بذكر استعفائهِ فنهضوا اليهِ واوقفوهُ ثم راجعوا النظر فيما عرضهُ واخيرًا وافقوهُ على رأيهِ بشرط ان يكون ذلك سرًّا لئلَّا تتصل مقاصدهم هذه بمسامع انكلترا فتسعى ضدهم . فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة مدراء فقط حتى ان الكاتب الذي كتب الأمر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقتهُ لانهُ أُمر ان يكتبهُ بصورة مبهمة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة مؤلفة من اربعين الف مقاتل عليهم اربعون قائدًا يختارهم بونابرت وفئة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسيين وجغرافيين ونحو ذلك العدد من سائر الصناع . وعمارة بحرية تحت قيادة الاميرال برويس يضاف اليها المراكب الراسية عند طولون . وان يقبض في مدة عشرة ايام من الخزينة مليونًا وخمسماية الف فرنك فضلًا عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمتهِ والاوامر السرية المعطاة لهُ . فصرف بونابرت جهدهُ لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها . فشاعت الاقاويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدُّها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون لا بل لافتتاح مدن جديدة في اسيا وافريقيا وقال آخرون غير ذلك . وبونابرت لم يألُ جهدًا في اعداد المهمات وترتيب مخارج الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الحملة البريَّة اربعمائة مركبًا تسير فرقًا اربع من اماكن مختلفة فتسير الفرقة الاولى من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتا فكيا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر . وتنقل على هذه المراكب ايضًا مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العملة . وعلى انقاض هذه المطبعة أُقيمت مطبعة بولاق الاميرية ونقلوا ايضًا كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى فئة العلماء كثير

من مشاهير علماء وصناع فرنسا في ذلك العهد ومثل ذلك القواد . وكأن فرنسا بجملتها تاقت الى استصحاب هذا القائد العظيم فانضم الى حملتهِ كثير من ابطالها وعلمائها وصناعها بقلب واحد . وهم لا يعلمون الى اين تذهب بهم الاقدار . اما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمسماية من الفرسان والف من الطبجية والمهندسين ومن بقي (من الاربعين الفاً) جعلهُ من المشاة وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلابر وديزه البطلان الشهيران ورينيير وبون ومينو وهؤلاء هم قواد الخمس فرق من المشاة ومورات قائداً للفرسان وكافرالي قائداً لفرقة المهندسين ودومارتين على الطبجية . هذا من قبيل الحملة البرية اما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (اولاً) من ١٥ مركباً حربياً من جملتها « الشرق » محمولها ماية وعشرون مدفعاً ومركبان محمول الواحد منها ثمانون . وعشرة محمول الواحد منها ٧٤ مدفعاً واثنان محمول الواحد منها ٦٤ . (٢) من اربع عشرة مدرعة بعضها تحمل اربعين مدفعاً وبعضها ٣٦ وفيها ابريقان (٣) من ٧٢ مركباً حربياً صغاراً على اشكال مختلفة . هذه هي الحملة البحرية وهي مؤلفة من اكثر من ماية قطعة وبرفقتها سبعماية مركباً لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخيولهم واسلحتهم وجميعها تحت قيادة برويس وبلغ عدد الملاحين في تلك الحملة نحواً من عشرة الآف . اما الفئة العلمية المرافقة لتلك الحملة فكانت مؤلفة من فرق لكل من العلوم والصنائع وجملة اعضائها ماية فيهم فرقة للهندسة واخرى للفلك واخرى للميكانيكيات واخرى للكيميا واخرى للمعادن واخرى للحيوان واخرى للنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذهِ الفنون اشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدم ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه المعدات توفرت وكانت

على اهبة السفر في ٢٠ افريل من تلك السنة اي بعد صدور الامر ببضعة اسابيع . ومن الغريب انهُ رغماً عن تعداد الرجال الذين ساعدوا في تنفيذ امر الادارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف لاحد منهم حقيقة المقصود من تلك الحملة الاَّ لتاليران وهو الرجل السياسي الذي ارسلتهُ الادارة الى الاستانة لمخابرة الباب العالي بشان تلك الحملة وطلب مصادقتهِ عليها . وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون وكان الجند في انتظاره كانهم على جمر الغضى فخطب فيهم فزادهم توقداً ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منهُ ودَّع بونابرت امرأتهُ وركب على الدارعة « الشرق » وهي اكبر دوارع الاسطول ومعهُ اركان حربهِ يتهللون جميعاً كانهم ذاهبون الى نزهة او الى غنيمة باردة وسارت سائر المراكب من النقط الاخرى ثم اتحدت جميعها وعددها جميعاً يزيد عن الخمسماية فسارت تخترق البحر معًا وعليها نحو من خمسين الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطا ومنها ساروا قاصدين الاسكندرية

فاوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانتدبت نلسون احد كبار اميرالاتها في اسطول وعهدت اليهِ ان يتبع خطوات الاسطول الفرنساوي في البحر المتوسط وان يكون ساهرًا على اجراآتهِ وان يقاومهُ اذا رأى منهُ مسًّا لحقوق انكلترا فسار نلسون فطاف البحر المتوسط ثم تنبَّأ ان الاسطول الفرنساوي لا يقصد الاَّ مصر او سوريا فسار نحوها . فبلغ ذلك بونابرت فامر الاسطول ان يمّم غربي الاسكندرية ببضعة مراحل وان يكون دائمًا في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنساوية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك اكثر من ثلاثة ملايين من السكان

مؤلفين من ثلاث طوائف كبرى وهم (١) الاقباط وهم سكان مصر الاصليون لا يزيدون عن مائتي الف نفس (٢) العرب الذين افتتحوها (٣) الاتراك وفيهم المماليك . وهناك شرذمات من طوائف اخرى

والباشا وهو الحاكم المرسل من الاستانة لتابيد سلطة امير المؤمنين كان يقيم في قلعة الجبل في القاهرة لا فائدة من وجودهِ هناك الا اثبات سلطة جلالة السلطان وخلافتهِ على مصر وذلك يقوم بالخطبة لجلالتهِ في الصلاة وضرب النقود باسمهِ . اما المماليك وكانوا اخلاطًا من الاتراك والشراكسة والكرج وكانت جميع ثروة البلاد وادارتها في ايديهم على انهم مع ذلك لم يكن لهم في البلاد عصبة عائلية لانهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الاَّ نادرًا وانما كان يتولى منهم من يمتاز بشيءٍ من القوة الخصوصية او الاحتيال او المحسوبية وما شاكل . وقلما ارتقوا الى الحكم بالحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت احكامهم عرضة للفساد وداعيةً للخلل . اما مقرُّهم ففي قاعة كبيرة مخصصة بهم في قلعة الجبل وفيها اصطبلات كبيرة لخيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . اما مساكنهم الخصوصية فكانت غالبًا في حيّ قيسون وحيّ بركة الفيل ودرب الحبانية في اجمل ما يكون من البناء مرصعة بالرخام والفسيفساء وفيها الفرش من المخمل مزركشة بالحرير وفي بعضها حدائق تزينها السراري الجميلات من نساء الكرج وغيرها . اما الجنود فكانت تزيد عن الثمانماية او الالف من المماليك الاشداء وقلما يكونون على شيءٍ من الفنون الحربية واكثرهم من الفرسان اما المشاة فقليلون بينهم . فاذا امتطى المملوك صهوتهُ يتقلد القربينة بمنكبهِ والطبنجات في منطقتهِ والسيف على يسارهِ وهراوة في قربوزهِ وقضيبًا من الفولاذ امام انفهِ ممتدًّا من جبهتهِ الى ذقنهِ . وربما يتفق تمرُّن احدهم على الحركات الحربية اما الجماعات فلا يعرفون شيئًا عن المربعات او الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون فن الفروسية جيدًا

ففي يوم قدوم الفرنسويين الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني امير الحج وبيدهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك ربعًا ضخم القامة حسن الطلعة حاد العينين مشهورًا بالغنى والطمع والاحتيال . اما مراد فكان ينوقهُ اقدامًا وحزمًا وفيهِ كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما الاَّ بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ابراد البلاد . اما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي ايديهم ادارة المعابد والتكيات وهم في الغالب من عائلات قديمة متصلة بالصحابة وغيرهم من اصحاب البيت وكانت معيشتهم غالبًا في بحبوحة الرفاهية وترف العيش لكنهم قلما وصلوا الى ما وصل اليهِ البكوات المماليك وكانوا محترمين من الاهالي احترامًا دينيًّا وادبيًّا . اما نفوذهم السياسي فكان ضائعًا في جانب استبداد المماليك . اما التجارة فكانت معتبرة في مصر واصحابها من ثقات العرب واصحاب الامانة ولذلك قلَّت بينهم التفاليس . وكانت مينا القاهرة بولاق وهناك كانت تستقبل المراكب حاملة البضائع من سائر الانواع قادمة من اقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل الى الخانات او الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركماني وتباع فيها بالاجمال . اما البيع بالمفردات فكان في الاسواق الى شمال المدينة من باب زويلة الى الباب الذي يشرف على الصحراء

اما جمع الخراج فكان موكولاً بفئتين من المصريين وهم المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الاراضي وسجلات الاملاك وكانوا ممتازين عن سائر الاهالي ومحافظين على انسابهم العائلية لا يتزوجون الاَّ من بنات عائلتهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم ممتلكات واسعة وكان يضرب بهم المثل في ذلك . اما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كسائر الحسَّاب الاَّ فيما ندر . اما مساكن الاقباط في القاهرة فكانت الى شمالي المدينة وغربيها فيما كان

لمعرف بباب المقس (حيث ثمن الازبكية الآن ولذلك دعي بعضها بحارة النصارى) وفي باب البحر واكثرهم من متوسطي الثروة . اما اصحاب البنوكة والمداينون والصيارف فكانوا من اليهود وكانوا يسكنون عائلات كثيرة في بيت واحد في حارة اليهود ويضطهدهم المماليك اضطهادًا شديدًا . اما الاجانب في القاهرة فكانوا غالبًا من الفرنساويين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيدًا ويقيمون في جهة الموسكي وكانوا يتزاوجون مع المسيحيين من السوريين الذين كانوا يقيمون غالبًا في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جمع من السوريين لكنهم كانوا يقيمون غالبًا في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد واسيوط ومعاطاتهم التجارة غالبًا إما ببضائع اوروبا او بمحصولات السودان من العاج والريش والصمغ او ببضائع بلاد اخرى . اما علاقة مصر مع الدول الاجنبية في ذلك العهد فكانت مقصورة على التجارة وكانت البندقية «فنيس» اشد علاقة معها من الجميع ولها قنصل مقيم في الاسكندرية وكانت لها ايضًا علاقات اخرى مع تجار فرنسا وانكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنساويين اليها

الحملة الفرنسوية

من سنة ١٢١٣ ـ ١٢١٦ ﻫ او من ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م

مر بك في الفصل السابق ان الاسطولين الفرنساوي والانكليزي سارا في البحر المتوسط قاصدين سواحل الدلتا

ففي يوم الاحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ ﻫ ظهر امام الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركبًا انكليزيًا وكان يتولى الاسكندرية السيد محمد كريم احد الاشراف الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول

جعل يراقب حركاتهِ وسكناتهِ واهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن امره. وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيهِ عشرة نفر افرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيئ بهم الى السيد محمد كريم وهو في مجلسهِ وحولهُ رجال حكومتهِ فسألهم عما جاءوا من اجلهِ فقالوا «ان ما ترونهُ في هذا البحر انما هو اسطول انكليزي قد جاء للتفتيش على عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخرًا تريد جهة من الجهات فربما داهمتكم فلا تقوون على دفعها فتكون لكم نصراء عليها» فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاغلظ لهم بالقول فقالوا «اننا نقف في هذا البحر محافظين لكم لا نطلب منكم الاَّ المدد بالماء والزاد بثمنهِ» فاجابوهم ان هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فاذا جاؤنا لا نبالي بهم فاذهبوا انتم عنا. فعادوا ثم اقلعت المراكب تخترق عباب البحر. اما السيد محمد كريم فانفذ الى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبرهُ بما كان وارسل الى كاشف البحيرة يامرهُ ان يجمع اليهِ العربان ويأتي بهم للمحافظة على الثغر فلما اتصل ذلك بمسامع الامراء والبكوات لم يكترثوا بها وقالوا «اننا لا نبالي بمن تحدثهُ نفسهُ بمداهمتنا بل ندوسهُ تحت حوافر خيولنا». اما الشعب فاضطرب وخاف. ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجاش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منهُ وصلت ثغر الاسكندرية العمارة الفرنساوية فانفذت احد قواربها تطلب القنصل فمانع السيد محمد كريم اول الامر في تسليمهِ. ثم اذن لهُ فنزل حتى اتى الدارعة التي عليها بونابرت فسالهُ عن حالة المدينة فاخبرهُ بما كان من امر الاسطول الانكليزي وان الاهالي في يقظة واستعداد للدفاع جهادًا في سبيل الدين

وقد كانت حامية الاسكندرية لا تزيد عن خمسماية من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة والصناعة الاَّ انهم كانوا في استعداد للدفاع. وكتب السيد محمد الى مراد بك وابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى ان

قال «ان العمارة التي ظهرت امامنا في هذا اليوم لا يعرف اولها من آخرها» . فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظاً ورمى بالكتاب الى الارض ثم ركب جوادهُ قاصداً ابراهيم بك وكان قاطناً في سراي القصر العيني على ضفة النيل المطلّة على جزيرة الروضة . فلما وصل اليهِ انفذ الى سائر كبار البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعاً حافلاً تباحثوا فيهِ في امر ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك ناظراً الى بكير باشا شزراً «لا ريب ان الفرنساويين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء انفسهم فلعلهم جاءوا بامر من الباب العالي ولكن الله قادرٌ ان ينصرنا على الاثنين» فاجابهُ بكير باشا قائلاً «ان هذا الكلام لا يليق صدورهُ منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول امة غريبة الى بلادهِ . دع عنك مثل هذا وهلمَّ الى سيفك ورجلك لدفع العدو الذي داهمك» . وبعد المفاوضة بالامر اقرّوا على المواد الآتية

(١) ان يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنساويين عن التقدم

(٢) ان يعسكر ابراهيم بك بمن يبقى من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

(٣) ان يرسل بكير باشا رسلهُ الى الاستانة يستمد الباب العالي (بالترياق من العراق) . ثم شاع في اسواق القاهرة خبر قدوم الفرنساويين فكثر الهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين رغماً عن محاولة ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هولاء المسيحيين هم من جملة رعايا الدولة العلية

اما بونابرت فبعدان استوعب كلام القنصل اقرَّ على النزول الى البر حالاً فاعترضهُ الاميرال بروبس نظراً لما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسالك فاصرَّ بونابرت على النزول وكانت قيادة القوتين البحرية

والبرية بيدهِ فوافقهُ برويس مكرهًا فسار بالمراكب الى جهة العجمي وبرج مرابوت على مسافة قصيرة جدًّا من الاسكندرية غربًا وصرفوا النهار بطولهِ يستعدون للنزول وفي الساعة العاشرة مساءً شرعوا بالنزول بالسرعة الممكنة وما زالوا في ذلك حتى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم اربعة آلاف وثلاثماية نفر فنزل بونابرت وكانت ليلة مقمرة فرقد نحو ساعتين على الرمال ثم ارسل طلائعهُ وسار بمن بقي مشاةً مستترين بجنح الليل ومستنيرين بالقمر . ففي الصباح التقى بونابرت بقبائل من عرب البحيرة (ولد علي) تحت قيادة اميرها فتبادلوا طلقات قليلة . ثم فرَّ العربان وما زال بونابرت سائرًا في رجالهِ حتى اشرفوا على الاسكندرية متخذين عامود السواري مطمحًا لانظارهم . ثم وقف بونابرت على مرتفع ونظر الى الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمنارات تناطح السحاب فجعل رجالهُ فرقًا لتسير الواحدة بعيدة من الاخرى مرمى رصاص بعد ان خطب فيهم وحرضهم ان يتجنبوا اهراق الدماء ما استطاعوا فهاجم الفرنساويون المدينة ودخلوها وقد اهاب الجنرال كلابر برصاصة في رأسهِ لم تمتهُ . فاستلمت الجنود الفرنساوية الاسوار وفرت الحامية المصرية تطلب ملجأً الى الابراج القديمة وسقط الجنرال مينو عن احد الاسوار التي استلمها هو فجرح فخذهُ . اما الجنرال مرمون فدخل المدينة ما بابها بعد ان حطَّمهُ بالنوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لانها لم تكن متينة البناء . ثم ارسل بونابرت احد ضباط جيشهِ الى اهالي المدينة يخبرهم انهم في مأمن على ارواحهم واموالهم وان الفرنساويين لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاءوا لمحاربة المماليك . اما السيد محمد كريم والعساكر الاتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهالي الى التسليم قهرًا فدخل بونابرت ورجالهُ الاسواق . فلما بلغ ذلك السيد محمد كريم جاء بمن معهُ وسلم سلاحهُ ومثل ذلك فعل المشائخ والعلماء فاكرمهم بونابرت اكرامًا خصوصيًّا . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً

«قد اخذت سلاحك بالسيف وقد كان لي ان اعاملك معاملة الاسير لاني اخذتك بعد ان دافعت عن نفسك ما استطعت ولكن بما ان الشجاعة حليفة الشرف ها اني اعيد اليك سيفك على امل ان تكون مساعداً اميناً للجمهورية الفرنساوية كما كنت للحكومة السابقة على عنوها وظلمها» ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مشروعهم الذي هو تأييد سلطة الباب العالي وقمع سلطة المماليك . فاجاب بالايجاب فاقرّهُ على الاسكندرية تحت مناظرة الجنرال كلابروكان قد اضطر الى البقاء في الاسكندرية بسبب الجرح الذي اصابهُ . ثم صرح بونابرت للمسلمين بالمحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا يفعلون قبلاً وجرد الاهالي من السلاح قاطبة وامرهم ان يجعلوا في صدورهم الجوكار وهو عبارة عن علامة مصنوعة من ثلاث قطع من الجوخ او الحرير مستديرة بقدر الريال كحلية وبيضاء وحمراء توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة اشارة الى العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الوان . ولما رسخت قدم الفرنسويين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال الفئة العلمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا يبحثون في آثار الاسكندرية البنائية والجيولوجية . ثم امر بونابرت ان تنزل الى البر جميع المهمات العسكرية من خيول واسلحة ومدافع وغيرها وان يكون ذلك باوفر سرعة . وان يطبع منشور بالعربية يفرق في البلاد فكُتب وطبع ونصهُ بالحرف الواحد

«بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الاَّ الله لا ولد لهُ ولا شريك في ملكهِ . من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية والمساواة السر عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش يعرف اهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنساوية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم واحسرتاه انهُ منذ ايام وعصور هولاء المماليك المجلوبون من بلاد الاباظه والكرج يفسدون في احسن اقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء

بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم انني ما نزلت هذه الجهة الاَّ بقصد ازالة دينكم فذلك كذبٌ صريحٌ لا تصدقوهُ وقولوا لاخوانكم انني ما قدمتُ اليكم الاَّ للاَّخذ بحقكم من الظالمين وانني اكثر من المماليك عبادة لله سبحانهُ وتعالى واحتراماً لنبيِّهِ محمد (صلعم) وللقرآن العظيم وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم واي شيءٍ في المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كلما تجلب بهِ الحياة الدنيا فحيثما تكون ارض مخصبة فهي للمماليك ومثل ذلك احسن الجواري واكرم الخيل واجمل المساكن . فان كانوا قد اخذوا الارض المصرية التزاماً فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونهِ تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى احدٌ من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يفوَّض اليهم تدبير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كالمدن العظيمة والمخلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعهُ طمع المماليك وظلمهم . فيا ايها القضاة والمشايخ والائمَّة ويا ايها الشريجية واعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنساويين هم ايضاً مسلمون مخلصون واثباتاً لذلك قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحثُّ النصارى على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكنفاليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين ومع ذلك فان الفرنساويين في كل وقت احبَّاء حضرة سلطان العثمانيين واعداء اعدائهِ أبَّد الله ملكهُ وبعكسهم المماليك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لاوامرهِ ولم يطيعوهُ الاَّ عن طمع في قلوبهم كمين فطوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين

لاحد الفريقين المتحاربين لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقى لهم اثر .

« المادة الاولى . جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمرُّ بها العسكر الفرنساوي يجب ان ترسل للصاري عسكر بعض وكلاء من عندها لكي يعرّفوا المشار اليهِ انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية . كل قرية تقوم على العساكر الفرنساوية تحرق بالنار

« المادة الثالثة . كل قرية تطيع العساكر الفرنساوية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنساوي كذلك علم سلطان العثمانيين محبّنا دام بقاؤهُ

« المادة الرابعة . على المشايخ في كل بلد ان يخفوا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع ادنى شيء منها

« المادة الخامسة . يجب على المشايخ والقضاة والائمّة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحدٍ من اهل البلد ان يبقى في مسكنهِ مطمئنًا كذلك تقدم الصلوة في الجوامع على العادة وعلى المصريين جميعًا ان يشكروا فضل الله سبحانهُ وتعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنساوي . لعن المماليك واصلح حال الامّة المصرية

« تحريرًا في معسكر الاسكندرية في ١٢ شهر مسدور من السنة السابعة من اقامة الجمهور الفرنساوي يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ ه »

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في امر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان الى القاهرة من الاسكندرية طريقان الواحد عن طريق دمنهور او الصحراء على البر الغربي والثاني عن طريق رشيد في النيل فرأى ان الطريق الثاني اصعب مسلكًا عليهِ بالنسبة لبقاء

رشيد في حوزة المماليك اذ ذاك فاقرّ ان يسير في حملة عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انفذ الجنرال دبزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحتل رشيد ثم تسير في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرّم سنة ١٢١٣ ه (٧ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٨ م) بارح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساءً وقاية من الحرّ تاركًا كلابر فيها. وما زال سائرًا بجملته حتى منتصف الليل فنزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهارًا وقد قاسوا عذابًا شديدًا من قلّة الماء حتى وصلوا دمنهور فصادفوا خيرات كثيرة وماءً غزيرًا فمكثوا هناك يومين وليلتين ثم ساروا قاصدين الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ ه (١١ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من مسيرهم لاقتهم شرذمة من الخيالة المماليك فحصلت بين الفريقين مناوشة شفّت عن انهزام المماليك بعد ان قتل منهم نحو من خمسين فارسًا. فواصل بونابرت سيره حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فوثبت العساكر على الماء كانهم ذئاب خاطفة فشربوا وتركوا خيولهم للمرعى وعسكر بونابرت ومن معهُ طلبًا للاستراحة على اثر ما قاسوهُ من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العمارة البحرية التي انفذوها الى رشيد. وبعد ليلتين من مكوثهم هناك اتت العمارة بعد ان استولت على رشيد وجعلت فيها حامية تحفظها. وكانت الجيوش قد استراحت فتأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العمارة سائرة في النيل وما زالوا يجدّون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطلاع حالة العدو تلك الليلة

اما ما كان من قبيل مراد بك فانهُ عند ما عهد اليهِ المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع اليهِ خيالتهُ وقبل مبارحتهم القاهرة صاروا

يصادرون الناس ويأخذون ما يحتاجون اليهِ بدون ثمن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فمكث بهِ يومين حتى تكامل العسكر وسناجقهُ وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكانا من اخصّائهِ المقيمين معهُ في الجيزة . واخذ معهُ عدة كثيرة من المدافع والبارود . وجعل الرحالة وهم اسراب من الالداشات والغليونجية والارنوط والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشأها هو . ولما بارح الجسر الاسود ارسل الى مصر بمشورة علي باشا الطرابلسي يأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها مائة وثلاثون ذراعًا تنصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتمنع مراكب الفرنساويين من المرور . وان يجعل عندها جسر من المراكب عليها المتاريس والمدافع ظنًا منهُ ان الفرنساويين لا يناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحرًا وانهم يطاولونهم ويصابرونهم في القتال حتى تأتيهم النجدات . وما زال مراد بك سائرًا فيمن معهُ ملازمًا ضفة النيل الغربية والى يمينهِ الغلايين وفيها من ذكرنا من الرحالة قاصدًا الجيوش الفرنساوية فوصل الى قرية شبرايس وعسكر هناك بفرسانهِ وارسل عمارتهُ لملاقاة عمارة الفرنساويين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر مسافةً بسبب الريح الشديد الذي طلع عليها ذلك اليوم . فانبهر الفرنساويون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المماليك وكان على قيادة العمارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكرهُ فاحتدمت الحرب بين الفريقين حتى كادت تدور الدائرة على الفرنساويين وقد يئسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المماليك فارسل بيره قائد العمارة الفرنساوية من يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قنابل الفرنساويين اصابت المركب الذي فيهِ زخائر المماليك فاحرقتها وتتطايرت اجزاؤها في الفضاء فاذعر المماليك وخابت آمالهم

ثم وصل بونابرت بمن معهُ فحمد الاتفاق الذي نجّى عمارتهم وامران تنتظم عساكرهُ مربعات منتظمة لملاقاة المماليك في البرّ ايضاً فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد مدةً عاد المماليك على اعقابهم طالبين النجاة وفرّ كل من كان في القرى المجاورة فدخلها الفرنساويون فلم يجدوا فيها احداً فواصلوا السير حتى اتوا وردان فعسكروا للاستراحة ثم بلغهم ان مراد بك ورجالهُ قد تحصنوا في امبابه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ ﻫ بارح بونابرت وردان بجيشهِ قاصداً القاهرة وما مشى يسيرًا حتى ظهرت له من وراء الافق الاهرام العظيمة . وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك لملاقاة الفرنساويين في اضطراب يجتمع علماؤهم وفقهاؤهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله ان ينصرهُ على الاعداء ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلامذة المدارس . اما باقي الاهالي فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عندما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

اما ابراهيم بك فكان معسكرًا في بولاق كما تقدم . فلما بلغهُ تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعهِ تخابر مع رجال حكومتهِ فاقروا على مد الطوابي واقامة المدافع من بولاق الى شوبرا تعزيزًا للقاهرة . اما اهالي المدينة فمَن يسكّن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب . اما مراد بك فكان قد تحصن في امبابه على نية ان يقابل الفرنساويين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنساويون الجسر الاسود ثم ام دينار . وفي صباح ٨ منهُ (٢١ يوليو) بارح الفرنساويون ام دينار ونزلوا على مسافة ميلين من امبابه في حقل من البطيخ فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال لبيبا عن يمينهم وامبابه امامهم وفيها مراد بك وجنودهُ وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلألاء في اشعة الشمس والوان ملابسهم تزيدها رونقًا

واصوات خيولهم قد ملأت الفضاء . فالتفت بونابرت الى معسكر العدو فاذا بهِ حصين وفي مقدمتهِ اربعون مدفعاً مستعدة لاطلاق القنابل على الفرنساويين عند ابداء اول حركة نحوهم فالتفت الى رجالهِ واشار الى الاهرام قائلاً « اعلموا ان خمسين جيلاً من الناس تنظر اليكم من قمة هذه الاهرام وتراقب حركاتكم ناظرة الى ما يأول اليهِ امركم مع هؤلاء المماليك »

وترى في شكل ٨٨ الجيوش الفرنساوية بجوار اهرام الجيزة

ثم أمر فرقة الجنرال ديزه ان تسير نحو اليمين والفرقة الاخرى نحو اليسار تجنباً لنيران تلك المدافع فادرك مراد بك مرادهم من هذهِ

ش ٨٨ الجيوش الفرنساوية بجوار الاهرام

الحركات فامر ايوب بك الدفتردار ان يطلق القنابل على فرقة الجنرال ديزه ويوقفها عن المسير فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم ايوب بك هجمة الاسود الضارية وتبعتهُ السناجق بالسيوف فلاقاهم مربع ديزه بنار كالصواقع المتساقطة فلم ينفك ايوب بك هاجماً وهو ينادي باعلى صوتهِ « ويل لكم ايها الكفار الملاعين قد ساقتكم كبرياؤكم الى ارضنا مهلاً اننا سنملأ القبور باجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكرهُ اعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات احدنا فانهُ يذهب شهيداً الى النعيم والذي يبقى حياً فلهُ السعادة الى آخر ايامهِ » . ثم هجمت الفرق الفرنساوية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالاً حتى تهزمت المماليك وقُتل

ايوب بك وفرّ مراد بك بمن بقي من رجالهِ قاصدًا الصعيد واستولى الفرنساويون على امبابه

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجّت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين «يارب يالطيف يا رجال الله» وكانوا كانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم وكان العقلاء منهم ينادونهم ان يتركوا ذلك الصياح قائلين ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والنباح . اما هم فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون ومن يقرأ ومن يسمع . ثم ركبت طائفة كبيرة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعدية امدادًا لمراد فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين كل ذلك وريح النكباء يشتد هبوبها وامواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع احدهم ان يفتح عينيهِ من شدة الغبار وكان ذلك من اعظم اسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الارض تزلزلت والسماء ساقطة عليها . كل ذلك والهزيمة متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكير باشا . وجعل اهالي المدينة يحملون ما خفّ حملهُ وغلا ثمنهُ ويفرّون من وجه الموت جنوبًا وشرقًا الى الصعيد او الى السويس وبلبيس اما ابراهيم بك فسار الى جهة الشرق . كل ذلك ظنًا منهم ان الفرنساويين قد عدوا الى البر الشرقي ولا سيما عند ما رأوا دخانًا متصاعدًا من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنساويين قد حرقوها وجاءوا قاصدين المدينة يحرقون وينهبون ويفتكون

ولما اصبح القوم تبيّن لهم ان الفرنساويين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع بعض العلماء والمشايخ في الجامع الازهر واقرّوا على ان يرسلوا الى

الفرنساويين كتابًا وينتظروا ماذا يكون من امرهم فارسلوهُ صحبة رجل مغربي يعرف الفرنساوية وبرفقتهِ رجل آخر فعادا واخبرا انهما قابلا كبير الفرنساويين واعطياهُ الكتاب فقرأهُ عليهِ ترجمانهُ ومضمونهُ الاستفهام عن قصدهم فقال لهما ابن عظماؤكم ومشائخكم لماذا لا يأتون الينا لنجري ما يكون فيهِ راحتهم فقالا اننا جئنا نطلب ذلك بالنيابة عنهم فقال قد سبق منّا منشور ارسلناه اليكم من الاسكندرية فقالا قد وصلنا وانما نريد تضمينًا آخر فكتب لهما ما مضمونهُ « اننا قد ارسلنا لكم سابقًا كتابًا فيهِ الكفاءة وقد ذكرنا لكم اننا ما حضرنا الاَّ بقصد ازالة المماليك الذين يعاملون الفرنساويين بالذل والاحتقار واخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم واسرنا بعضهم عندنا ونحن في طلبهم حتي لا يبقى منهم احد في القطر المصري . واما المشائخ والعلماء واصحاب المرتبات والرعية فليكونوا مطمئنّين وفي مساكنهم مستقرّين الخ » . ثم قال لهما يلزم ان يأتي الينا المشائخ والشورجية لنرتب لهم ديوانًا ننتخبهُ من سبعة اشخاص عقلاء يدبرون الامور . فلما رأى العلماء تلك الملاينة سكن جاشهم وكاتبوا من كان فارًّا منهم فحضر الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات . وفي ذلك اليوم حضر بعض الاوباش ونهبوا بيتي مراد بك وابراهيم بك بخطة قيسون واحرقوها

وفي يوم الثلاثاء ١ اصفر عدت الجيوش الفرنساوية الى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي في الازبكية بخط الساكت وكان قد بناهُ وزخرفهُ في السنة الماضية كانهُ كان يعدُّهُ لهذه الغاية وهي البناية التي فيها مخزن فرانسيز الآن بجانب اللوكندة الخديوية . واخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من الفرنساويين يعاملون الباعة باللين ويبتاعون ما يحتاجون اليهِ ويدفعون فيهِ ثمنًا غاليًا فاحبتهم الناس وارتاحوا اليهم

وفي الخميس ١٢ اصفر بعث بونابرت يطلب المشائخ واعيان البلاد

والوجاقلية فحضروا ولما استقرَّ بهم الجلوس خاطبهم وتفاوض معهم بامر انشاء ديوان مؤلف من عشرة اشخاص من المشائخ لنصل الدعاوي فوقع الاتفاق على عشرة وفيهم الشيخ عبدالله الشرقاي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي . كل هذا الانتخاب حصل بمشورة قنصل فرنسا في مصر والاسكندرية وجعلوا علي آغا الشعراوي والياً على الشرطة وعلي آغا محرم والياً على الاحتساب باشارة ارباب الديوان بعد ان افهموا بونابرت ان سوقة مصر لا يهابون الاَّ الاتراك وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم . وجعلوا ذا الفقار كتخدا محمد بك الالفي كخيا لبونابرت . وجعلوا من ارباب الشورى الخواجه موسى كافلو وكلوي الفرنساويين ووكيل الديوان جان بنوا . ثم امروا الوالي والآغا ان ينادوا بالامان وفتح الحوانيت وان يطمئن الناس . وكان الفرنساويون يدخلون بيوت الامراء المهجورة ويأخذون منها شيئاً ويتركونها منتوحة فيدخلها الرعاع وينهبونها ثم تكررت هذه التعديات على البيوت التي اصحابها فيها فجعلوا للبيوت بيارق بثلاثة الوان تعلَّق على بيوت الكبراء الذين يخافون على بيوتهم من النهب او يلصقون على ابوابهم ورقة يأخذونها من السر عسكر (بونابرت) . وفي ذلك اليوم قلدوا برطلمين الرومي كخيا مستحفظان وجعلوا شخصاً آخر افرنجياً امين الجمرين وآخر جعلوهُ آغا الرسالة وجعلوا الديوان في بيت قائد آغا بالازبكية قرب الرويعي وسكن به رئيس الديوان وسكن دبوي قائمقام المدينة ببيت ابراهيم بك الوالي المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد في بيت ابراهيم بك الكبير وسكن مجلون في بيت مراد بك . واقام بونابرت بوسليك مديراً للمالية سكن في بيت الشيخ البكري القديم وكان يجتمع عندهُ القبط لاجل الحسابات

ثم اخذت العساكر الفرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئاً فشيئاً حتى

كثر عددهم في القاهرة فامتلأت منهم الاسواق وسكنوا في البيوت ولكنهم لم يشوشوا على احد وكانوا يأخذون ما يحتاجون اليهِ بزيادة في الثمن ففجر السوقة وصغروا اقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الارواام عدة حوانيت لبيع انواع الاشربة وحانات وقهاوي وفتح بعض الافرنج المتوطنين بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي (اي لوكاندات افرنجية) ولم يكن ذلك معروفاً في مصر الى ذلك العهد ولذلك وصفها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي كانها شيء جديد دخل عليهم فقال « وفتحوا بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على طرايقهم في بلادهم وجعلوا على ابوابها علامات يعرفونها بينهم فاذا مرَّت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخلوهُ وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونهُ ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم »

وفي يوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكرهُ وتباحث في احتياجهِ الى النقود فقرَّر استلاف خمسماية الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والسوريين والافرنج واخذوا في تحصيلها وقرروا ان ينادى في الاسواق ان من أخذ شيئاً من نهب البيوت عليهِ ان يحضر بهِ الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابهُ . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يسكنَّ بيوتهنَّ وان كان عندهن شيء من امتعة ازواجهنَّ يصالحن على انفسهنَّ فجاء كثيرات منهنَّ وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منهُ طلب بونابرت الخيول والجمال والاسلحة

فجمعوا شيئًا كثيرًا منها وكذلك الابقار والثيران واشاعوا التفتيش وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيرهِ واخرجوا ما وجدوهُ فيها من الاسلحة واخرجوا فيها خلا ذلك كثيرًا من الخبايا والودائع بواسطة البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت اسيادهم فكانوا يطلعونهم على اماكن الخبايا ومواضع المدافن نقرُبًا من الفرنساويين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية (الرعاع) ورموهُ بالرصاص ببركة الازبكية مع رفيق لهُ . ثم قبضوا على آخرين في الرميلة فخاف الناس وصاروا يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منهُ طلبوا اهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مبلغًا على سبيل القرض لا يستطيعون دفعهُ واجّلوا لهم اجل ستين يومًا لدفعهِ فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فتكلموا بامرهم امام الديوان فلطف المطلوب الى نصفهِ ووسعوا لهم في الاجل . وقد كان بكل عطفة او حارة من عطف وحارات القاهرة باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فامر بونابرت بقلع ابواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة ايام فخاف الاهالي وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال فظن بعضهم ان الفرنساويين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب النقود تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد ذلك الى احد رجالهِ . وكان في نيتهِ انشاء بريد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنهُ لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد اثناء الطريق

وفي ٢٠ منهُ وردت الى الديوان تحاريز من قافلة الحج من العقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت واعلموهُ بذلك وطلبوا منهُ امانًا لامير الحاج فامتنع خيفة ان يكون في كثرة من الحجاج فيحدث

ما يكدر الراحة . وقال لا اعطيهِ ذلك الّا اذا جاء في قلّةٍ ولا يدخل معهُ المماليك فقالوا ومن يغفر الحجاج قال انا ارسل لهم من عساكري اربعة الآف يوصلونهم الى مصر فكتبوا الى امير الحج كتاباً لطيفاً واوعزوا اليهِ ان يحضر بمن معهُ الى الدار الحمراء وانهُ متى وصل الى هناك يدبرون ما فيهِ الخير فلم يصلهُ ذلك الكتاب حتى خابرهُ ابراهيم بك وكان في بلبيس يطلب اليهِ ان يوافيهُ الى هناك حالاً فسار الى بلبيس فعلم بونابرت باقامة ابراهيم بك في بلبيس فارسل اليهِ فرقة من جيوشهِ تحت قيادة الجنرال لاكلاك فسار وعسكر في الخانكاه وراء المطرية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقلَّ مقاومة . وفي اليوم الثالث هجم عليهِ وعلى رجالهِ قبائل من العرب وبينهم عدد كبير من المماليك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنساوية نحو القاهرة لعجز خيولهم فعلم الجنرال مورات بذلك فاستمد بونابرت فامدَّهُ فاجتمعت الجيوش الفرنساوية ثانية الى الخانكاه وتبعهم بونابرت بنفسهِ خيفة ان يكونوا في ارتباك فينكسرون وتعود العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنساوية في الخانكاه وساروا جميعاً في أثر العربان والمماليك حتى الصالحية وهناك كان ابراهيم بك بمن معهُ ثم علموا انهُ بارح الصالحية فارًّا نحو سوريا ملتجئاً الى الجزّار في عكا وانضم كثيرون من رجالهِ الى عسكر الفرنساويين وسلمت الصالحية بمن فيها

فلما رأى بونابرت ذلك اسرع بالعود الى القاهرة . وبينما كان في الطريق قابلهُ رسول بكتاب مفضوض فتلاهُ فاذا بهِ خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية الى الاسكندرية وحصول موقعة كبيرة في ابي قير شفَّت عن تحطم العمارة الفرنساوية برمَّتها . فاذعر لذلك الخبر ولكنهُ تجلَّد وقال لاركان حربهِ الذي كان قد فضَّ الكتاب وتلاهُ قبلهُ دع هذا الخبر في سرّك الآن لنرى ماذا يأتي بهِ الغد

«موقعة ابي قير»

وتفصيل تلك الموقعة ان نلسون بعد ان بارح الاسكندرية علم بقدوم الفرنساويين اليها ودخولهم في القطر المصري فعاد بعمارتهِ حتى جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢١٣ هـ (اول اوغسطس (آب) سنة ١٧٩٨ م) وكانت العمارة الفرنساوية راسية في جون ابي قير على خط واحد ممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال برويس وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين نفرًا من كل دارعة من دوارعها الى البر لغفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار فلما استكشفوا العمارة الانكليزية نادوا بالرجال ان يعودوا الى المراكب . ثم تداول الاميرال برويس مع ضباطهِ في كيفية مقابلة العمارة الانكليزية فاشاروا عليهِ ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصرَّ على بقائهِ في مكانهِ بدعوى ان عدد رجالهِ لا يسمح لهُ بقبول مشورتهم فبقيت العمارة في الجون بانتظار الانكليز . اما نلسون فكان مذ علم باحتلال الفرنساويين مصر عاملاً فكرتهُ في كيفية ملاقاتهم لا يأكل ولا ينام . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في احسن اسلوب يأخذهم بهِ فاقرَّ على ان يرسل قسمًا من مراكبهِ يدخل بين الفرنساويين والبر والقسم الآخر يأتيهم من الامام فيجعلهم هدفًا لنارين حاميتين غير متغافل عما يحيط بهذا العمل من الخطر ولكن يظهر انهُ كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبهِ من وراء الفرنساويين ورست بينهم وبين البرّ وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابهُ الفرنساويون بنار مثل نارهِ . وبعد ١٢ دقيقة انكسرت دارعة فرنساوية وبعد عشر دقائق انكسرت دارعتان اخريان ولم يأتِ العشاء حتى استولى الانكليز على عدة دوارع فرنساوية عدا عن التي كسرت

وكان الاميرال برويس على الدارعة «الشرق» ذات المائة وعشرين مدفعاً وعليها نحو من الف رجل وكان نلسون من الجهة الاخرى على احدى دوارعهِ يراقب حركات الفرنساويين ويعطي الاوامر فاصابتهُ رصاصة في جبهتهِ فوق احدى عينيهِ فتدلى الجلد حتى غشي بصرهُ فرفعهُ بيدهِ غير مبالٍ وجعل ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبهِ احد ضباطهِ فامسكهُ بيدهِ فانتبه كأنهُ كان في غفلة وناداهُ قائلاً « قد قتلت فارجوك ان تذكرني امام امرأتي » فحملوهُ الى غرفتهِ واحاط بهِ الاطباء وبعد ان كشفوا عن جرحهِ طيَّبوا خاطرهُ وطمنوهُ ان الجرح لا يؤذن بالخطر السريع اما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنهُ مع ذلك لم ينشغل عن الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتتبَّع حركاتها وهو على فراشهِ . ثم ضمدوا جرحهُ وهو يخاطب كاتب سرّهِ ان يحرر حالاً لنظارة البحرية في لندرا عن هذه المحاربة فلم يستطع احد من الحضور ان يمسك القلم من شدة التأثر فاخذ نلسون قلماً وجعل يكتب مسروراً بما أُوتيهِ من الفوز

اما الاميرال برويس فأُصيب اولاً ببعض الجروح ثم اصابتهُ قنبلة قطعتهُ قسمين فسقط على الارض فارادوا حملهُ الى اسفل الدارعة فاشار لهم ان يتركوهُ يفارق الحياة على ظهرها فتركوهُ . وبعد العشاء بيسير اصاب «الشرق» الدارعة الفرنساوية العظيمة احتراق تطرَّق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب ان يحملوهُ الى ظهر دارعتهِ ليشاهد ذلك فحملوهُ فلما رأى تلك المشاهد تأثر منها كثيراً فامر ان يسير احد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنساويين في انقاذ دارعة «الشرق» من الحريق ولم ينجُ من رجالها الاَّ بعضهم واشتد الحريق حتى رآهُ اهالي الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطاً حتى ظهر اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزاً مبيناً

وكان كلابر ورجالهُ في الاسكندرية اثناء المعركة في خوف واضطراب

وكانوا جميعاً تحت السلاح. وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العمارة الفرنساوية ثم وردت مكاتبة اخرى تفيد ان اسرى ومجاريح الفرنساويين محفوظين بكل اكرام عند الانكليز وان في نية نلسون ان يبعث بهم الى البر يقيمون في مستشفيات تحت معاينة بعض اطبائهِ . فلما وصل خبر انكسار الفرنساويين الى رشيد والاسكندرية خافت جيوش الاحتلال وصغرت قيمتهم في اعين الوطنيين. واضطر الرشيديون الى تواصل المخابرة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البرُد وفيها التحاريروالرسائل والاخبار لاجل المفاوضة في امر الدفاع اذا اراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلابر الى بونابرت بواقعة الحال وما انتهت اليهِ العمارة الفرنساوية فوصلهُ الكتاب اثناء عودهِ من الصالحية كما مر بك اما العمارة الانكليزية فاقلعت عن الاسكندرية

« عودٌ »

فسار بونابرت حتى اتى بلبيس فرأى ضباطهُ واركان حربهِ على المائدة صباحاً وهم فرحون بانتصارهم على المماليك في الصالحية غير عالمين بشيءٍ من محاربة ابي قير فقال لهم ضاحكاً « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا ان تعتادوا على هواء هذا الاقليم فاننا اصبحنا ولا مراكب لدينا تنقلنا الى اوربا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم ان لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول

واليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٣ مسري) فامر بونابرت ان يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين ونادوا في الناس الخروج للنزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وارسل بونابرت اوراقاً رسمية الى كخيا الباشا والى القاضي وارباب الديوان واصحاب المشورة وارباب المناصب وغيرهم للحضور في صبحها وركب هو معهم في موكبهِ وزينتهِ وعساكرهِ وطبولهِ وزموره الى قنطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم واطلقوا المدافع اطلاقاً متوالياً واحرقوا النفوط حتى جرى الماء في

الخليج ثم ركب وهم برفقتهِ حتى اتى الى دارهِ . اما اهل المدينة فلم يخرج احد منهم تلك الليلة للنزهة في المراكب كالعادة الاَّ الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم

ثم جاء المولد النبويُّ ولم يكن في نية العلماء الاحتفال بهِ فاستفهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيهِ ذلك الاحتفال من النفقات . فقال بونابرت لا بدَّ من الاحتفال كالعادة وصرف لهُ في الحال ثلثماية ريال فرنساوي وامر بتعليق قناديل واحمال وتعاليق واجتمع الفرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وارسل بونابرت طبلخانتهُ الكبرى (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها طول الليل والنهار بالبركة تحت دارهِ واحرقوا اثناء الليل نفوطاً وشوارخ كثيرة وفي ذلك اليوم أُلبس الشيخ خليل البكري فروة ونقلَّد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان لهُ دعوى على شريفٍ فليرفعها الى النقيب

ثم جاء يوم احتفال الفرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا بهِ غاية الاحتفال وشخصوا فيهِ حرب امبابه وانكسار المماليك ونصبوا شجرة الحرية فانبهج لها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود منها . ثم ارسل بونابرت مندوباً ينصب العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك اسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

وقد تقدم ان السيد محمد كريم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء الفرنساويين . وقبل واقعة ابي قير بيسير عثر الفرنساويون على كتاب مرسل من محمد كريم المذكور الى مراد بك يتواطأ معهُ على تسليم الاسكندرية فاستُحضر الى القاهرة فحكم عليهِ ان يدفع ثلاثمائة الف فرنك غرامةً على خيانتهِ وانهُ اذا لم يدفع المبلغ اثناء خمسة ايام يقطع رأسهُ فقال

لهُ التراجمة انت رجل غني فافدِ نفسك بهذا المبلغ فتبسم وقال «لا لا ادفع شيئًا لاني اذا قدّر لي الموت لا يدفع الدفع مقدورًا واذا قدرت لي الحياة فانا حيٌّ بغير دفع» . ثم استُحضر وسئل عن تلك الخيانة فانكر فابرزوا لهُ التحرير فأُفحم فارسلهُ بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت ان يعفو عنهُ فاطلعهم على تحريرهِ واصرَّ على قتلهِ وما انفك حتى اذاقهُ الموت وطوَّف رأسهُ بالمدينة مكتوبًا فيهِ «هذا جزاء الخائن»

وفي ٢٠ منهُ استدعى بونابرت مشائخ القاهرة وعلماءها الى بيتهِ فلما استقروا جلوسًا خرج ثم عاد وبيدهِ طيالسة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض ابيض واحمر وكحلي فوضع واحدًا منها على كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان فرمى بهِ الى الارض واستعفى وتغيَّر مزاجهُ واخذ منهُ الغيظ مأخذًا عظيمًا . فقال الترجمان الذي كان مرافقًا لبونابرت «يا مشائخ ما بالكم لا تزالون في نفرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احبائهِ وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالسة تعظيمكم وتشريفكم بزيّهِ وعلامتهِ فانكم اذا تميزتم بها عظَّمتكم العساكر واكثرت من احترامكم» فقالوا «لكنَّ قدرنا ينحط عندالله وعند اخواننا المسلمين» فاغتاظ بونابرت وانتهر الشرقاوي قائلاً ان مثلك لا يصلح للرئاسة فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلطفون من غضب بونابرت ويطلبون اليهِ ان يعفيهم مما اراد . فقال ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة وقد تقدم ذكرها فقالوا نرجوك الامهال ريثما نتروى في الامر وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليهِ فحضر فلاطفهُ في القول واعرب لهُ عن محبتهِ لهُ (كل ذلك بواسطة الترجمان) ثم ناولهُ خاتمًا من الالماس هديةً وطلب اليهِ ان يحضر في اليوم التالي فحضر فاتى لهُ بجوكار وعلقهُ بفرجيتهِ فسكت ولما انصرف نزعهُ . وفي ذلك اليوم نودي بالمدينة

بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فانف الناس على ان بعضهم علم انها لا تخلُّ بالدين وخشي العقاب فوضعها . ثم في العصر نادوا بعدم اعطائها الاَّ لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

ومن الغريب ان النابوليون بونابرت مع شدة رغبتهِ في الاستيلاء على مصر وكثرة سهرهِ على ذلك لم يحسن التصرف بهِ كما كان يجب فقد رأيناهُ يصرح باحترامهِ الديانة الاسلامية وتأمين الاهالي على عوائدهم واديانهم وارزاقهم واعراضهم الامر الذي استوجب عليهِ ثناءً طيباً الاَّ اننا لا نرى وجهاً يصوّب ادعاءهُ الاسلام ادعاءً لم يصدّقهُ احد من المصريين ولم يزدد الناس بسببهِ الاَّ حذراً من الفرنساويين بناءً على انهم لم يدّعوا غير دينهم الاَّ تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون الحصول عليهِ

على انهُ لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يثبتها لكان خيراً وانما رأيناه من الجهة الاُخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر امراً يخالف نص القرآن الشريف مخالفة صريحة كما لا يخفى . وليس ذلك فقط فانهُ تجاهل عن العوائد المشرقية واراد ان يجعل الشعب المصري بعد ما قاساهُ في ايام المماليك ان يسير على خطوات الشعب الفرنساوي بعوائده وشرائعهُ وازيائهِ . فكانت العساكر الفرنساوية تدخل احياناً بيوت الهوانم اللواتي لم يكن يجسر الباشا بنفسهِ ان يدخلها . وسبب ذلك ان بونابرت اجاز لرجالهِ الدخول الى بيوت النساء للتفتيش على اسلحة او مخبآت او امور اخرى ولا يخفى ما في ذلك من تنفير القلوب وكلٌّ منا يعلم ان الشرقي اشد حرصاً على عرضهِ منهُ على حياتهِ . ناهيك عما كان ياتيهِ الجند الفرنساوي من الفواحش التي تأباها النفوس الشرقية على اننا لا ننكر على هذا الرجل العظيم ما ادخلهُ بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في احوال الامة المصرية صحياً واديباً وشرعياً ولكنا لا نعجب بعد ان علمنا من تصرفهِ مثل ما قد

علمنا اذا رأينا الاهالي بعيدين من الاخلاص لهُ رغماً عن قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا رأيناهم يشتغلون بمصائبهِ ويترقبون فرصة لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمكنها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو اكبر رابط بين المشارقة . وقد انخدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايتهِ وما علم ان قبولهم ذلك وغيرهُ من مثلهِ انما هو رغماً عن ارادتهم وامتثالاً لقول القائل اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون

ومن الامور المغايرة التي اتى بها الفرنساويون واستوجبوا من اجلها نفور الاهالي زيادة الضرائب والاستبداد في تحصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على المواريث وعلى المسافرين من بلد الى اخرى فتعطى لهم تذكرة مرور بثمنها واباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنارات وتخريب بعض الترب تحت اسم الاصلاحات الصحية وتكثير القلع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع ارزاق الاوقاف عن اهلها وتسليمها لغير المسلمين

وفي خاتمة الجميع وردت للعلماء والمشائخ تحاريز سرية من ابراهيم بك واحمد باشا حاكم عكا في ٢ ربيع آخر مآلها ان جلالة السلطان قد ارسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لانقاذهم من نير الفرنساويين . وعلم بونابرت بذلك فجعل يجمع العلماء والفقهاء واعيان البلاد ويخاطبهم محاولاً اقناعهم ان خطابات المماليك لهم كلها كذب ونفاق

وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشائخ كتاباً ارسل منهُ نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ لصقوها بالشوارع جعلهُ عن لسان المشائخ يتكلمون عن اعمال الفرنساويين بمصر ومنادهُ

« ان الفرنساويين قد قاتلوا المماليك وهزموهم وانهم انما اتوا مصر

وتكبّدوا ما تكبدوهُ في سبيل حبهم للباب العالي لانهم من اخصّاء جلالة مولانا السلطان واعداء اعدائهِ وان السكة والخطبة لا تزالان باسمهِ وشعائر الاسلام قائمة على ما كانت عليهِ وانهم هم انفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم اوصلوا الحجاج المتشتتين واكرموهم واركبوا الماشي منهم واطعموا الجائع وسقوا الظمآن واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر استجلابًا لسرور المؤمنين وانفقوا اموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتنوا كذلك بالمولد النبوي وانفقوا المال في شأن انتظامهِ وعلو شأنهِ وانهم قد اتفقوا رأيًا على لبس الجناب الاكرم مصطفى اغا كخيا بكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشائخ) استحسنوا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين وقد امرونا ان نعلمكم بذلك والسلام» . وارسلوا من هذا التحرير نسخة الى احمد باشا والي عكا واخرى الى والي سوريا

وفي اول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ اكتوبر (ت ١) سنة ١٧٩٨) حضر الى الشيخ البكري جمٌّ غفير من اولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها من هم غير مسلمين فوعدهم انهم اذا قدموا شكواهم هذه الى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم . وفي اليوم التالي اجتمع المشائخ في الجامع الازهر وارسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون المسلمين قائلين « فليذهب كل من يوحد الله الى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار واخذ الثار» فهج الناس وقفلوا حوانيتهم ونقلدوا اسلحتهم التي كانوا قد خبأوها في اماكن معلومة وساروا نحو الجامع افواجًا يزاحم بعضهم بعضًا وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاع الحسينية ينادون باعلى اصواتهم « نصر الله دين الاسلام» وساروا توًّا الى بيت قاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين آخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم فخاف القاضي واغلق بابهُ واوقف حجابهُ

فضربوهم وحاول هو الهرب فامسكوهُ . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير الى الجامع الازهر . ثم سارت فرقة منهم الى بيت الجنرال كافارلّي وفيهِ بعض الادوات فنهبوهُ واخربوهُ ولم يكن الجنرال فيهِ

وكان الجنرال ديبوي قائمقام القاهرة مقيمًا عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارّين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهيرة رأى الجماهير قد تعاظمت والاسواق قد ازدحمت فركب في جماعة وسار مسرعًا الى بيت الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان بقرب الغورية فلم يجدهُ فسار شمالاً نحو بيت القاضي وكان يرى الجماهير تزداد والاصوات تتعاظم فمرَّ بين القصرين فرأى هناك جمهورًا كبيرًا اوقفهُ عن المسير فيمن معهُ فكلمهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا فامر بالهجوم عليهم بالجنود التي برفقتهِ فرماه احد الناس من احد الشبابيك على عنقهِ بحربةٍ مشدودة براس عمود فقطعت لهُ وعاءً دمويًا كبيرًا وكانت القاضية عليهِ

وتعاظمت الجماهير على الخصوص في مركز القاهرة بجوار الجامع الازهر اما اهالي مصر القديمة وخط بركة النيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنساوية على غير استعداد لمثل هذه الثورة وحصونهم على سفح المقطم والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا يستطيعون تهديد المدينة . وجعل الثائرون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على اختلاف نزعاتهم بين افرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

فلما اتصل ذلك ببونابرت ركب في ٢٠ من دواليلهِ وسار الى اكثر الاماكن تعرضًا للنهب والسلب فانتعشت جنودهُ فعهد قيادة المدينة الى الجنرال بون وفرق الطوبجية حيث اجتمعت جماهير الثائرين . وفي اليوم التالي اصبح القوم واذا بسفح المقطم والربى خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد ارسل بونابرت وفدًا الى المشائخ يطلب اليهم ان يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (افرنجية) من الصباح بلغ

بونابرت ان بعض العربان قادمون الى القاهرة يريدون الدخول اليها من باب النصر فبعث اركان حربهِ سالكوسكي لينظر في امر ذلك فبينما كان مارًا عند باب العدوي هجم عليهِ بعض الثائرين وقتلوهُ وكان يحبهُ بونابرت فاسف عليهِ كثيرًا

وبينما هم في ذلك وصل الجنرال كلابر بجيشهِ من الاسكندرية بعد ما شفي من جراحهِ فاشتد ازر الجنود الفرنساوية وتألفوا على المحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بجهة الازبكية . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الازهر حيث كان مركز الثورة وفيهِ زعماؤُها وما زال الضرب الى المساء فاضطربت الاهالي ووقع في قلوبهم الرعب فأجمع المشائخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا الى بونابرت يطلبون الأمان فانتهرهم على ما أتوهُ من سفك الدماء ثم أمَّنهم واوقف الضرب اما سكان خط حسين ومعظمهم من الجزايرين فلم ينفكوا عن الضرب حتى فرغت جعبهم من البارود فهدأوا

فدخلت الجنود الفرنساوية المدينة واخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الخيالة في الاسواق للغفر فادخلوا خيولهم الى الجامع الازهر وكسروا قناديلهُ ومحوا ما كان مكتوبًا عليهِ من الآيات القرآنية . وفي يوم الثلاثا ٤ جمادى الاولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الازهر فاذا بالخيول تعج فيهِ عجيجًا . وفي صباح الاربعاء ٥ منهُ بعث المشائخ الى بونابرت يلتمسون اخراج الخيول من الجامع فسألهم عن زعماء الثورة ومنشطيها فلم يجيبوهُ فرفض طلبهم . ثم تداخل محمد الجوهري من اعيان القاهرة وفضلائها في الامر وكان ممَّن لازموا الحيادة فوافقهُ بونابرت على اخراج الخيالة من الجامع على ان يجعل في ذلك الخط غفرًا من سبعين رجلاً . ثم سار الى بونابرت جميع السوريين واليونانيين الذين نهبت بيوتهم بسبب

الثورة وشكوا اليهِ خسائرهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على الذين نقع عليهم الشبهة رجالاً ونساءً حتى قتل منهم ١٢ شيخًا دفعةً وجعل جثثهم في اكياس والقاها في النيل واخذ من ذلك الحين يستخدم الصرامة في معاملتهِ المصريين فمنع المشائخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات في الشعب لاجل تسكين الهيجان فسكن روع الشعب حسب الظاهر

وفي ليلة السبت ٢٤ جمادى الاولى جاء الى القاهرة هجَّان بكتابات من احمد باشا الجزَّار وفيها فرمان عليهِ الطغراء العثمانية وكتابات اخرى من بكير باشا وابراهيم بك وجميعها معنونة باسم مصطفى بك فلما تناولها وقرأها لم يسعهُ من خوفهِ الاَّ ان يسلمها الى بونابرت فترجمت لهُ وهاك ترجمتها بعد الاستهلال « ان الفرنساويين ابادهم الله وغشى اعلامهم غشاء العار لانهم كفار معاندون قوم لا يؤمنون برسالة النبي (صلعم) ويسخرون بجميع الاديان ويجحدون البعث وما قدرهُ الله فيهِ من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدفة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود الى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة وبناءً على هذا الاعتقاد قد وضعوا أيديهم على هياكلهم وطردوا منها قسسهم ورهبانهم . وعندهم ان الكتب المنزلة ليست سوى خزعبلات واكاذيب ملفقة وان القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمد رجال اعتياديون وان الناس جميعاً قد خلقوا سواء لا شيء يميِّز بعضهم من بعض وان كلاًّ منهم لهُ ان يعتقد بما يخطر لهُ وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع اعمالهم ووضعوا شرائع جهنميَّة وقد اهتزَّت اوربا لاجرآتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وانتم تعلمون ماذا تأمركم بهِ الديانة الاسلامية الشريفة فعليكم الانتباه لملافاة ما يبثونهُ بينكم لان من غرضهم هدم مكة والمدينة واورشليم وذبح كل من فيها

من الناس الاَّ الاطفال واقتسام تركاتهم واراضيهم اما من يبقى منهم حيًّا فيجبرونهم على اتباع مباديهم وتعلم لغتهم فتختفي الاسلامية من الارض . فافهموا اذًا ماذا تكون النتيجة اذا كان كل مسلم لا يحمل الاسلام ويجاهد ضد هولاء المعطلين فانتبهوا اذا الى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكترث بالثعالب كثر عددها او قلَّ الخ »

فلما فهم بونابرت فحوى هذا الفرمان اجتهد ان يغرس في اذهان المشائخ انها فتنٌ قد سعى بها اعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشورًا ممضيًّا منهم يفرقونهُ في البلاد ونصهُ بالحرف الواحد

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد . نعرّف اهل مصر قاطبةً انهُ حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجعيدية واشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد ان كانوا اصحابًا واحبابًا وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية لانهُ رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كامل اهل مصر فعليكم ان لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفتكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمئنوا على عيالكم واديانكم فان الله سبحانهُ وتعالى يؤتي ملكهُ من يشاء ويحكّم من يريد ونخبركم ان كل من تسببوا في اثارة هذه الفتنة قُتلوا عن آخرهم واراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم ان لا تلقوا بايديكم الى التهلكة واشتغلوا باسباب معايشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضي من علماء مصر كافة طبعوهُ بالمطبعة التي

اتت بها الحملة معها كما تقدم . ثم شاع بين الاهالي امر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشائخ والعلماء منشورًا يبرئون بهِ الفرنساويين مما جاء بحقهم في ذلك الفرمان ونصهُ حرفيًا

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا اهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك ارسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائهِ بالكذب والبهتان . وسبب ذلك انهُ حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظًا شديدًا من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وان يتركوا عيالهم واوطانهم فارادوا ان يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهارًا مع اغواتٍ معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائمًا يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم اصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرتهِ واصدقاء ملازمون لهُ لمودتهِ وعشرتهِ ومعونتهِ يحبون من والاهُ ويبغضون من عاداهُ . ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن اجل هذا يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا يبقون منهم بقية . فنصحكم يا اهل الاقاليم المصرية ان لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيء من انواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والا فتصبحوا على ما فعلتم

نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم واموالكم آمنين مطمئنّين لان حضرة صاري عسكر الكبير امير الجيوش بونابرته اتفق معنا على انهُ لا ينازع احدًا في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعهُ الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على اخذ الخراج ويزيل ما احدثتهُ الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيُّهُ ورسولهُ الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم عليهِ افضل الصلاة والسلام ختام »

ولصقوا نسخًا من هذين المنشورين في اسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر . واقام بونابرت على القاهرة الجنرال استنك عوضًا من ديبوي الذي تقدم انهُ قُتل . ثم سعى الى تحصين مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحصنها تحصينًا منيعًا . وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة اخرى . وانشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الحنطة . وجعل في الروضة مستشفى (اسبيتالية) يسع خمسمائة مريضًا

ثم جعل مطاحن ومستشفيات ايضًا في الاسكندرية ورشيد ودمياط وأنشئ في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم الاولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرنساويتان الواحدة تدعى « دكاد اجبسيان » والاخرى « كوريه ديجيبت » ومرسح للتشخيص ومعامل للاقمنال والاسلحة والنجارة ومعامل أُخرى للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقمشة وسائر احتياجات البلاد . واستُحدث فيها ايضًا اماكن للهو وحدائق للنزهة وبالنتيجة ان الجيش الفرنساوي لم يكن ينقصهُ من داعيات الراحة الاَّ البريد وانشأوا مجمعًا علميًّا مصريًّا (انستيتي ديجيبت)

وكان بونابرت لا يتقاعد مطلقًا عن اجراء كل ما فيهِ راحة جيشهِ

ورفاهية البلاد . فسكنت الاحوال مدة شهرين تمكن الفرنساويون اثناءها من اجراء بعض الاصلاحات في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها رحبة واسعة . وجددوا قنطرة المغربي وبنوا جسرًا ممهدًا ممتدًا من الازبكية الى بولاق حيث ينقسم الى فرعين يسير احدهما الى طريق ابي العلا والآخر الى جهة التبانة وضفة النيل . وجعلوا الى جانبي ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيهِ اشجارًا وسيسبانًا . واحدثوا طريقًا آخر فيما بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ومهدوا جسرًا آخر ممتدًا من هناك الى خارج الحسينية وازالوا ما يتخلل ذلك من الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهدوا الارض بينهما . وفعلوا كل ذلك دون ان يسخروا احدًا بل كانوا يدفعون الاجور زيادة عن الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعةً ومنارتهُ برجًا فصار يعرف بقلعة الظاهر . وبنوا اماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد فانهم رمموا ما فيهِ من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في اوقات معينة من النهار واذا دخلها احد الوطنيين كانوا يتأهلون بهِ واذا اراد التفرُّج اطلعوهُ على ما اراد او المطالعة سلموهُ ما اراد من الكتب ولا سيما التي تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسمٌ للنبي (صلعم) ورسوم اخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الائمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية . وافردوا لكل علم من العلوم دارًا مخصوصةً ولا سيما علم الكيميا فانهم جعلوا لهُ معملاً كبيرًا للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض

التجارب الكيماوية التي كانوا يتبهرون لها وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب واظهر انذهالهُ منها . وافردوا ايضًا اماكن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد فانتخب ستين رجلاً يتألف منهم الديوان العمومي وانتقى منهم اربعة عشر يتألف منهم الديوان الخصوصي او الديوان الدائم لانهُ كان يجتمع كل يوم اما الديوان العمومي فيجتمع عند اللزوم . وهذه اسماء اعضاء الديوان الخصوصي . من المشائخ . الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي . ومن التجار المحروقي واحمد بن محرم . ومن القبط لطف الله المصري . ومن السوريين يوسف فرحات ومخائيل كحيل وواحد انكليزي وآخر يدعى ابا ديف وواحد فرنساوي يدعى موسى كافور وجعل معهم وكلاء ومباشرين فرنساويين وتراجمة . اما الديوان العمومي فجعل فيهِ من مشائخ الحرف وغيرهم وكتب بذلك منشورًا ارسلهُ الى الاعيان ولصق منهُ نسخًا في الاسواق ونصهُ

« من بونابرته امير الجيوش الفرنساوية خطابًا الى جميع اهل مصر الخاص والعام . نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب اوقعوا الفتنة سابقًا بين اهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانهُ وتعالى امرني بالشفقة والرحمة للعباد فامتثلت امرهُ وصرت رحيمًا بكم شفوقًا عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك ابطلت الديوان الذي كنت رتبتهُ لنظام البلد واصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة انسانا ذنوب الاشرار واهل الفتنة التي وقعت سابقًا

«فيا ايها العلماء والاشراف اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بان الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامهُ من ضلال عقلهِ وفساد فكره فلا يجد مخلصًا ولا ملجأ ينجيهِ مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضتهِ مقاديرهُ سبحانهُ وتعالى. والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادتهِ وقضائهِ ومن يشك في ذلك فهو احمق واعمى البصيرة . واعلموا ايضًا امتكم ان الله قدَّر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي . وقدَّر في الازل ان أجيء من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أُمرت بهِ . ولا يشك العاقل ان هذا كلهُ بتقدير الله وارادتهِ وقضائهِ . واعلموا ايضًا امتكم ان القرآن العظيم صرَّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل واشار في آيات اخرى الى امور اخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابهِ صدق وحق لا يختلف . واذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع امتكم جميعًا الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يمتنع من لعني واظهار عداوتي خوفًا من سلاحي وشدة سطوتي . ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خاينة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضًا لاحكام الله ومنافقًا وعليهِ اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا ايضًا اني قادر على اظهار ما في نفس كل منكم لانني اعرف احوال الشخص وما انطوى عليهِ بمجرَّد نظري اليهِ وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عندهُ ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عيانًا ويتضح ان ما فعلتهُ وحكمت بهِ هو حكم الهي لا يرد . وان اجتهاد الانسان بغاية جهدهِ لا يمنعهُ عن قضاء الله الذي قدَّرهُ واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام » . ورتب لارباب الديوان الدائم راتبًا يدفع لهم نظير تقييدهم بمصالح العامَّة والدعاوي

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) بارح بونابرت القاهرة في سرب من

رجال معيتهِ وبعض المهندسين قاصداً برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي كانت قد حفرت قديماً بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منهُ وفي ٢١ منهُ قطع البحر الاحمر حتى اتى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات وفي اليوم عينهِ عاد بمن معهُ قاصداً السويس خوضاً في البحر على مثل ما فعل موسى فاخطأوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل وفي الصباح التالي اتمَّ بونابرت استطلاعاتهِ ثم بارح السويس قاصداً القاهرة فمر ببلبيس فاستولى عليها وسار منها حتى اتى القاهرة في ٢٥ منهُ (في ٢ ينابر سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصولهِ لاقاهُ الجنرال كلابر قادماً من الاسكندرية ومعهُ تحاريز وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبئ بتغيير خاطر الباب العالي على الجمهورية الفرنساوية لافتتاحها مصر واستقلالها باحكامها . فلندع بونابرت يطالع تحاريرهُ وجرائدهُ ولنلتفت الى الجنرال دبزه وحملتهِ الى الصعيد بعد واقعة امبابه

لما عدَّى الجيش الفرنساوي الى البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابه عهد بونابرت الى الجنرال دبزه ان يسير في حملة لتعقب المماليك واخضاع الصعيد . فسار في ١٦ محرَّم سنة ١٢١٤ هـ حتى اتى بني سويف فلاقاهُ مراد بك برجالهِ وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت المواقع بتقهقر المماليك وامعانهم في داخلية الصعيد

وفي ١٢ جمادى الآخرة بارح الجنرال دبزه بني سويف فاتى المنيا في ١٨ منهُ وتربَّص هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لمعاضدتهِ فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيرها . ثم سار من المنيا وما زال يتعقَّب مراد بك واتباعهُ حتى اتى اصوان في البر الغربي فعسكر هناك . وكان كلَّما مرَّ باثر من الآثار المصرية القديمة يحفر عليهِ اسمهُ واسماء المدن التي

افتتحها . وقد شاهدتُ مثل هذه الكتابة على جانبي باب من ابواب هيكل الكرنك بجوار الاقصر . واستطلع ديزه اخبار العدو في اصوان فعلم انهُ معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصّن اصوان لدفاع المماليك اذا قدموا اليها لانهُ لم يرَ فائدة من تتبعهم الى وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحاتهِ على مثل ما تقدم . وهناك آخر ما وصلهُ الفرنساويون في حملة بونابرت . ولم يكد يتم ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال إلفي بك جهات طيبة فسار اليهِ وما زال حتى هزمهُ . فاذعنت بلاد الصعيد وهدأت احوالها

اما بونابرت فانهُ علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن اخرى ان الدولة العلية سعت الى استرجاع مصر من الفرنساويين فبعثت بمنشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنساوية وبعثت الى احمد باشا الجزار والي عكا ان يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل فبعث اليهِ بونابرت ان يخلي تلك المدينة لانها من حدود مصر فلم يطعهُ فامر باعداد حملة يسير بها ليس للمدافعة عن مصر فقط وانما لافتتاح سوريا ايضاً . فاعدَّ حملةً من اثنى عشر الفاً بينها الف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد ان عهد قيادة القاهرة الى الجنرال دوغا وقيادة الصعيد الى الجنرال ديزه وقيادة الاسكندرية الى الجنرال مرمون وامر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعضاً من مشائخ القاهرة وفي ٢١ شعبان اصدر منشوراً مطبوعاً فرقهُ في الاهالي وهاك نصهُ بالحرف الواحد

« الحمد لله وحدهُ . هذا خطاب الى جميع اهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجاقات والتجار الفخام

« نعلمكم معاشر اهل مصر ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب

ما حصل من اراذل الناس من اهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عنهم عفوًا شاملاً واعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبهُ من الاربعة عشر شخصًا اصحاب معرفة واتقان انتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على اكمل نظام واحكام. كل ذلك من كمال عقلهِ وحسن تدبيرهِ ومزيد حبهِ لمصر وشفقتهِ على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتصَّ من عسكرهِ الذين اساؤا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالي الى ادنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنساويين خصوصًا مع النساء الارامل فان ذلك قبيحٌ عندهم لا يفعلهُ الاَّ كل خسيس. وقبض بالقلعة على رجلٍ نصراني مكَّاس لانهُ بلغهُ انهُ زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيرهِ ليمتنع غيرهُ من المظالم ومرادهُ رفع الظلم عن كامل الخلق ودائمًا يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف اجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطَّاع الطرق وتكثر عليهم اسباب التجارة من الهند واليمن وكل فجٍ عميق. فاشتغلوا في امر دينكم واسباب دنياكم واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من اسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله واياكم التوفيق والتسليم. ومن كان لهُ حاجة فليات الديوان بقلب سليم الاَّ من كان لهُ دعوى شرعية فيتوجه الى قاضي العسكر المتولي بمصر المحميَّة بخط السكرية والسلام على افضل الرسل الى الدوام»

وفي ٢٥ شعبان (اول فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال

كلابر والجنرال رينر في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان او ١٠ فبراير (شباط) سافر بونابرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزار وقد عسكر خارج المدينة . ففي صباح ٨ منهُ كانت مقدمة الفرنساويين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموهُ بغتة فقتلوهُ وشتتوا جيشهُ واستولوا على جميع الزخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . اما بونابرت فوصل الصالحية في ٧ منهُ وفي ١١ منهُ وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة كانت تنسف عليهِ وعلى رجالهِ الرمال احمالاً وكانت المياه قليلة فعطشت العساكر عطشًا عظيماً فعسكر هناك وبعث الخبراء يستطلعون خطوات كلابر وجهة مسيرهِ فعادوا واخبروهُ فنهض وما زال حتى اتى العريش في ١٢ رمضان فاذا بكلابر قد حاصرها وامتنع عليهِ فتحها لقلة الطبجية ونفاد المؤن . فلما وصل بونابرت ارسل الى حامية العريش كتابًا يطلب اليهم التسليم ويتهددهم فسلموا بعد بضعة ايام فدخل الفرنساويون العريش وأمّنوا اهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المماليك وارسلوهم الى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا الى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حاميةً وديوانًا وطنيًّا لتنظيم الاحوال

وفي ٢٣ رمضان سنة ١٢١٤ هـ (٢٨ فبراير (شباط) سنة ١٧٩٩ م) ساروا الى يافا فلما وصلوها امر بونابرت الجنرال كلابر ان يتقدم في فرقتهِ الى عكا ففعل . وكانت حامية يافا اخلاطًا من الاتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم يرَ بونابرت محاصرتها فامر بالهجوم عليها في ٢٧ منهُ ٤ مارس (اذار) فهجم الفرنساويون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرّت الحامية فتتبعوها وقد تحصّنت في بعض الخانات الكبيرة فالحّوا عليها فقال الارناوط ومنهم تنألف معظم الحامية «نحن نسلم لكم انفسنا اذا امنتمونا على حياتنا» وكان على قيادة الهاجمين من الفرنساويين

احد اركان حرب بونابرت فوعدهم بالأمان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو اربعة الآف حتى اتى بهم المعسكر الفرنساوي فلما رآهم بونابرت قال للقادم اليهِ ما هذه الجماهير . قال هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئنا بها اليك . قال « وماذا تريدون ان افعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم اومراكب تنقلهم الى مصر او فرنسا واذا ارسلناهم في البرّ فمن يتولى غنارتهم » فاجابهُ قائلاً « اننا قد قبلنا استئسارهم حجبًا للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب ان تفعلوا ذلك ولكن مع الاطفال والنساء والشيوخ وليس معمثل هذا القدر من الرجال الاشداء المجندين » ثم امرهم بالجلوس مكتوفي الايدي امام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئًا من البقسماط الجاف والماء

ثم عقد بونابرت مجلسًا في خيمتهِ للمفاوضة فيماذا يجب ان يفعل بهؤلاء الاسرى وبعد الاجتماع عدّة جلسات لم يقرّوا على شيء فانزعج بونابرت لكثرة التردد في الامر وبعد الافتكار والتأمل رأى انهُ لا يستطيع استبقاءهم معهُ لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا ارسالهم الى مصر لعدم استغنائهِ عن رجال يسيرون لغفارتهم ولا اطلاق سبيلهم لئلاّ يرتدّون عليهِ فاقرّ على اعدامهم . وفي ٤ شوال (١٠ مارس (اذار) سنة ٩٩) بعد الظهيرة قادوهم مكتوفين الى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقًا قادوا كلاًّ منها الى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما انزل الله بهِ من سلطان فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزّار ورجالهِ في عكا اصرّوا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم لئلاّ يصيبهم اذا سلموا ما اصاب اولئك

ولما استلم بونابرت يافا امر بترميم حصونها وبعث الى الاسكندرية يأمر العمارة الباقية هناك ان توافيهُ الى يافا . ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملأت تلك الجهات . ثم كتب بونابرت الى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فاجابوا انهم تابعون

لولاية عكا وحالما تسلم عكا يسلمون . ثم كتب الى القاهرة منشورًا باستيلائهِ على يافا وكان قد ارسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزَّة ولنذكر هنا منشورهُ من يافا فقط على سبيل النموذج وفيهِ تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصهُ بالحرف الواحد

« بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك ينعل في ملكهِ ما يريد . هذه صورة تمليك الله سبحانهُ وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية . نعرف اهل مصر واقاليمها ان العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منهُ في امنٍ واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزَّار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقدارًا كبيرًا من مخازن البقسماط والشعير ووجدوا ايضًا ١٥٠٠ قربة مجهزة جهزها الجزَّار ليسير بها الى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومرادهُ التوجه اليها مع العربان الاشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل وما كان قصدهُ سوى سفك الدماء مثل عادتهِ في اهل الشام وناهيكم ما هو مشهورٌ عنهُ من التجبر والظلم والجور فانهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفانهُ ان الامر لله وكل شيء بقضائهِ وتدبيرهِ

« وفي السادس والعشرين حلَّت طلائع الفرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وارسلوا الى حاكمها وكيل الجزَّار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار ولكنهُ لخشونة عقلهِ وفساد رأيهِ وسوء تدبيرهِ لم يرد وفي ذلك اليوم اي ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجَّهت فرقة منهنَّ على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ امر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف

ان سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزّار الوفيرة

« وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فامر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع اعوان القنابر باحكام وتأسيس وامر بنصب مدافع اخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البرّ والمراكب التي اعدّها عسكر الجزّار في الميناء للهرب والفرار. ولما رأى عسكر الجزّار المحاصرون في القلعة ان عديد الفرنساويين قليل غرّهم الطمع فخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظنًّا منهم انهم يغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم كثيرين واجبروهم على الدخول الى القلعة ثانية

« وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على اهل يافا اذا دخلت عساكرهُ بالقهر والقوة فارسل اليهم مع رسول خطابًا وهذا مضمونهُ « لا اله الاّ الله وحدهُ ولا شريك لهُ . باسم الله الرحمن الرحيم . من حضرة صاري عسكر برتيه كتخدا العسكر الفرنساوي الى حضرة حاكم يافا . نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابارته امرنا ان نعرّفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئهِ الى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزّار فقط من هذا البلد لانهُ تعدّى بارسال عسكرهِ الى العريش ومرابطتهِ فيها والحال انها من اقليم مصر التي انعم الله بها علينا فلا تجوز لهُ الاقامة بالعريش لانها ليست من ارضهِ فقد تعدّى على ملك غيرهِ ونعرّفكم يا اهل يافا اننا حصرنا بندركم من جميع اطرافهِ وجهاتهِ وضيقنا عليهِ بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفي برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمتهِ وحنوهِ خاف عليكم من سطوة عساكرهِ المحاربين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر اهلكوكم جميعًا ولذلك امرنا ان نرسل اليكم هذا الخطاب تأمينًا لاهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وان نؤخر

ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا » . فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية . فتميز صاري عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبهُ وامر باطلاق المدافع والقنابر . ولم يمضِ الاَّ اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزَّار في وبال وخسران وعند الظهر اخترق سور يافا وارتج لهُ القوم ونقب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال آمر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي اقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية جميع البندر والابراج ودار السيف في المحاربين وحمي الوطيس وكثر القتل

« وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصخ الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورقَّ قلبهُ لا سيما على من كان في يافا من اهل مصر فاعطاهم الامان وامرهم بالعود الى الاوطان وكذلك امر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمتهِ ومزيد رأفتهِ . وقتل في هذه الوقعة اكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . اما الفرنساويون فلم يقتل منهم الاَّ القليل وسبب ذلك ان سلوكهم الى القلعة كان في طريقة امينة خافية عن العيون واخذوا زخائر كثيرة واموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في المينا ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان الآت الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عبادهُ وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتيهِ من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

ثم سار بونابرت برجالهِ قاصداً عكا تاركاً في يافا حامية كافية فقابلهُ في الطريق بعض العصاة من المماليك فحصلت بينهما مناوشة شنَّت عن فرار المماليك فواصل السير حتى اتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً منيعاً بهمة واليها احمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذي كان

يعتمد عليهِ الباب العالي في حماية سوريا . فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٣ شوال صعد بونابرت الى رابية وجعل يتأمل حصون عكا مستعيناً بالنظارة المكبرة ثم امر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت فيها عمارة انكليزية تحت قيادة السير سدني سميث قد زادت الجزار تمسكاً بالدفاع . ففي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفوا قوات العدو . وفي ١٤ شوال او ٣ مارس (اذار) بدأوا بالمحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار في البحر وقد اظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنهُ اضطر اخيراً الى استنجاد قوات صيدا ودمشق وحلب

اما بونابرت فابقى الحصار على عكا وحوّل شكيمة فتوحاتهِ نحو اماكن اخرى من سوريا فارسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا واماكن اخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنساوية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ ﻫ (٩ افريل (نيسان) سنة ١٧٩٨ م) قتل الجنرال كافارلّي

وفي ٥ ذي الحجة (٩ مايو (ايار)) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقرّ بونابرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تهاب الموت ولم تكن عكا لتقف في طريقهم لولا العمارة الانكليزية فانها هي التي أخّرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر . ثم جاءتهم نجدة من الاستانة تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوّة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنساويون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة أخرى لم ينبهم منها الاّ التقهقر لانهم صادفوا مقاومة قوية قتل فيها الجنرال بون . فيئس بونابرت من حبوط مساعيهِ وفشل حملتهِ السورية على انهُ كان يتعزّى بما سبق استيلاؤهُ عليهِ من المدن والقرى السورية الاّن تلك الاماكن حالما سمعت بما المّ بجيشهِ من النشل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدني سميث كتب منشورات وزعها على المشائخ

والامراء في لبنان يدعوهم الى الاتحاد مع الباب العالي وارسل الى سراة المسيحيين ايضاً صورة منشور بونابرت الذي يقول فيهِ انهُ هدَّ اركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود للفرنساويين فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آمالهُ . فكتب الى ديوان مصر انهُ قد هدم اسوار عكا واخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانهُ سيبارحها بعد ثلاثة ايام عائداً الى مصر ومتى جاءها يقتصّ من الباغين . ثم استقدم حاميات صنه وطبرية وغيرها

وفي ٢١ ذي الحجة (٢٢ مايو (ايار)) امر بالمسير الى مصر بكل رجالهِ وفيهم الجرحى فقاسوا عذاباً مرًّا من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء فامر بونابرت ان يسير الرجال الاصحاء على اقدامهم وان تعطى الخيول والجمال الى المرضى والجرحى ومما زادهم شقاء ان العمارة الانكليزية كانت تتعقَّبهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من ورائهم اما هم فكانوا يخربون كل ما مروا بهِ من المدن والقرى . وفي ٢ ذي الحجة (٣ يونيو (حزيران)) وصلوا العريش فامر بونابرت بتحصينها تحصيناً منيعاً واشتد عليهم القيظ وكان الماء الذي يشربونهُ ملآنًا علقاً يمتصّ الدم فكان يلتصق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً اليماً

ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغماً عن الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشائخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها وهم لم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا ومما مروا بهِ من الصحاري الحارة . فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهالي الاَّ انهُ لم يكد يفعل حتى بلغهُ تقدم المماليك من جهة الصعيد وسبب ذلك ان مراد بك كان في أعلى الصعيد فبلغهُ قدوم حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر فجمع اليهِ رجالهُ وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وارسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابراهيم بك

القادم من جهة سوريا فعلم بونابرت بذلك فانفذ جندًا على كلّ من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشتتتها واخذت امتعتها . والتقى جند الضفة الغربية وفيهِ بونابرت بمراد بك في الجيزة فانتشبت الحرب فانكسر المماليك وتشتت شملهم فعادت الجنود الفرنساوية ظافرة

وفي ١٦ محرم سنة ١٢١٤ هـ (١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م) وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئهُ بمجيء الحملة العثمانية ونزولها في ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر فامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط ان تكون في يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى الفرنساويين مرارًا يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الاَّ المحاولة وكانت انكلترا في الوقت عينهِ تنشط الباب العالي في هذه المطاليب حتى انها اخيرًا اتفقت معهُ ان يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير وهناك تتحد العمارتان وتخرجان الفرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية باترونا بك وعليها ثمانية الآف من الجنود البرية تحت قيادة مصطفى باشا سرعسكر ومعهم حسن بك ورجالهُ وسارت العمارة الانكليزية تحت اميرالية السير سدني سميث المتقدم ذكرهُ والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فاسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت كما رأيت

فبارح بونابرت القاهرة برًّا ثاني يوم وصول الرسالة صباحًا فسار من الجيزة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة «ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالاً روسيين لا يؤمنون باله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة» ثم بارح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم (٢٢ يوليو (تموز))

فلاقاهُ مرمون فعنفهُ لغفلتهِ عن حصن ابي قير حتى احتلَّهُ العثمانيون وفي اليوم التالي استكشف استحكامات العدو ثم سار برجالهِ نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على رابية من الرمال الى اليمين بجوار الشاطئ وجماعة آخرون الى اليسار في حصن على رابية اخرى وهاتان الرابيتان بمثابة جناحي الجيش . فهاجم بونابرت اولاً الرابية اليمنى ففرَّ من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل سرية من الفرسان لملاقاة الفارين ومثل ذلك فعل بالرابية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طابية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجَّع الفرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسيروا يسيرًا حتى سمعوا دوي المدافع الانكليزية ووزيز قنابلها فارتدوا الى الوراء . فارتد العثمانيون وتبعوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم انشغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتنم احد قواد الفرنساويين فرصة تغافلهم وسار في فرقتهِ من على اليسار قاصدًا الطابية الخلفية وسار قائدٌ آخر من اليمين فدخلا الطابية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع واسرع احدهما (الجنرال مورات) بنفسهِ للقبض على مصطفى باشا في خيمتهِ فاطلق عليهِ الباشا عيارًا ناريًا فلم يعبأ موارت بذلك لكنهُ هجم عليهِ بسيفهِ فقطع اصبعيهِ وامر اثنين من رجالهِ فاوثقاهُ وارسلاهُ الى معسكر الفرنساويين . واخذت العساكر الفرنساوية بالنهب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئًا من المؤن والذخائر وفرَّ من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب ارسلها لهم السير سدني الاَّ بعض الحامية في حصن اقاموهُ هناك فهجم عليهِ الفرنساويون وبعد دفاع سبعة ايام هدموهُ واسروا من كان فيهِ فشاع خبر انتصار الفرنساويين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهالي

ثم ورد لبونابرت من فرنسا رسائل منبئة باضطرابهم هناك وبثقل

اليد عليهم وفيهِ الخاح كلي عليهِ ان يسير حالاً الى فرنسا بعد ان يجعل في مصر حامية منتظمة فكتم الامر ولم يكاشف بهِ احداً الاَّ الاميرال غانتوم لانهُ لم يرَ بدًّا من مكاشفتهِ لكي يعدَّ لهُ دارعتين تنقلانهِ ومعيتهُ الى فرنسا . ولكي لا يجعل للمصريين شبهة بمقاصدهِ عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٣ صفر فخرج الاعيان لملاقاتهِ بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهرًا التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجنرال كلابر وكان على مدبرية الغربية يولّيهِ القيادة العامة على مصر ويبين لهُ وجوب المحافظة على الاحتلال لئلاَّ تأتي دولة اخرى تحتل هذا القطر بعد ان بذلوا فيهِ ما بذلوهُ من المال والرجال ووعدهُ بنجدة يبعث بها لهُ حال وصولهِ الى فرنسا واخبرهُ اخيرًا عن الداعي الذي حملهُ على هذه السرعة . وكتب كتابًا آخر الى عساكرهِ يشجعهم على الثبات والصبر وكتابًا آخر الى علماء مصر ومشائخها يطلب اليهم ان يعتبروا الجنرال كلابر في مكانهِ جاعلاً السبب في سفرهِ انهُ ذاهب لقهر من بقي من اعدائهِ في اوروبا لانهُ ان لم يفعل ذلك لا يطمئن بالهُ على مصر ويعدهم انهُ لا يغيب عنهم اكثر من ثلاثة اشهر وارسل كل هذه التحارير معًا الى كلابر واوصاهُ ان يطلع اصحابها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجنرال مينو اليهِ فجاءهُ حالاً وهو على اهبَّة السفر في ٢٥ صفر (٢٢ اوغسطس (آب)) فعهد اليهِ قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلَّمهُ تحارير كلابر واوصاهُ ان يوصلها لهُ حالاً . ثم ركب جوادهُ وسار مساء بمن معهُ الى جهة مرابوت او العجمي وكان الاميرال غانتوم ودارعناهُ بانتظارهِ هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معهُ الى البحر وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا واقلعوا قاصدين فرنسا

اما اهالي الاسكندرية ولا سيما الغفر خارج المدينة فانهم شاهدوا في

ذلك الصباح غباراً عجاجاً بجهة حصن العجمي فخافوا ان تكون كتيبة من من العربان قادمة على المدينة ثم تبيّن لهم انها خيول مسروجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم انها الخيول التي نقلت بونابرت ومعيتهُ الى البحر وقد سافر الى فرنسا فاندعر القوم لتلك الاخبار البغتية وكادوا لا يصدقونها حتى بلّغهم مينو رسمياً ما عهد اليهِ بونابرت قبل ذهابهِ

ثم ارسل مينو الاوامر والتحاريز التي بيدهِ الى كلابر فوصلتهُ وهو في رشيد قادماً لمقابلة بونابرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشائخ والعلماء بما امرهُ بهِ بونابرت وتلا عليهم كتاب بونابرت اليهم وهولاء بلغوا الاهالي وهكذا ذاع خبر بونابرت في سائر القطر . وكان كلابر بالحقيقة اولى من جميع قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانهُ كان افضلهم حزماً وعقلاً وهيبةً وامانة وبسالة

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنساوية لم يكن القصد منها الاَّ الاحتلال الدائم . ذلك كان قصد بونابرت اما كلابر فلم يكن ذلك رأيهُ وانما كان ينظر الى مصر نظرهُ الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنساويين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف المناخ والعوائد والاخلاق فضلاً عن انهُ لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونابرت ولذلك بادر عند استلامهِ ازمَّة القيادة الى اطلاع فرنسا على حالة مصر عند مبارحة بونابرت فقال

« قد سافر بونابرت الى فرنسا في الفروكتيدور السادس بدون ان يعلن احداً لكنهُ ارسل لي تحريراً وآخر للصدر الاعظم الى الاستانة وقد كان في علمهِ انهُ وصل الى دمشق . اما اعداؤنا الآن فليسوا المماليك فقط وانما هم ثلاث دول عظمى الباب العالي وانكلترا والروسية . اما جنودنا فقد اصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم الى مصر مفرقين في انحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . اما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة ومثل ذلك الالبسة فقد اصبحت

رجالنا لاحتياجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد وزد على ذلك اننا خسرنا ١٢ مليونًا من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بونابرت . قد تشتت المماليك لكنهم لم يبيدوا هذا مراد بك ما انفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنهُ بهم اشغال قسم من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم قد جاء بحملة عثمانية لمناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . اما حصوننا واستحكاماتنا فلا تزيدنا قوة فهذا حصن العريش لا يدفع مهاجمًا وهذه الاسكندرية اشبه بمعسكر محاط بزريبة . فافضل ما يمكنني اجراؤهُ والحالة هذه المخابرة مع الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيهِ خيرٌ لنا . وقد علمت الآن ان عمارة عثمانية رست امام دمياط»

الاَّ ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع العوائد والمكوس لدفع مرتباب الجند على حين انهُ لم يكن ممن يريدون احتلال مصر او استعمارها ولكنهُ كان يفضل الانسحاب منها على اسلوب لا يكون فيهِ عارٌ على دولتهِ غير ان الاحوال لم تعطهِ ما نواهُ لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من ايدي الفرنساويين بالقوة فارسلت الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسهِ الى دمشق يجنّد جندًا عظيماً يسير بهِ عن طريق البرّ الى القاهرة وجندًا آخر يسير بحرًا في عمارة السير سدني سميث بوفاق مع انكلترا لمطاولة الفرنساويين من جهة البحر ليسهل على حملة البرّ المسير في داخلية القطر . فسار جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود الفرنساوية . اما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملتهِ ثم جعل يتخابر مع كلابر في امر وفاق ينتهون اليهِ فانتهت المخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجنرال دبزه والموسيو بوسيلك من الفرنساويين اقرَّ على معاهدة صلح أُمضيت في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ هـ (٢ دسمبر (كـ ١) سنة ١٧٩٩ م)

غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بهاجمتهم العريش في ٣ رجب (٢٣ دسمبر (ك ١)) وكانت تحت قيادة الكولونل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فاحب الاهالي التسليم فابى واصرَّ على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهِ ولم يكن العريش من المناعة على شيء فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل ذلك بالجنرال كلابر فاغتاظ جدًّا وكتب الى السير سدني يعنفهُ مع علمهِ ببراءتهِ فعادت المخابرات وعقد مؤتمر ثانٍ في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ (٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م) في العريش مؤلف من دبزه وبوسيلك من الفرنساويين واثنين من العثمانيين واقرُّوا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش من مقتضاها انسحاب الفرنساويين بمؤنهم وزخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية والى قير الى فرنسا انسحابا قانونيًّا بكل ما لديهم

فسرَّ كلابر لتلك المعاهدة لاعتقادهِ ان انسحابهُ على هذه الصورة لا يمسُّ شرف دولتهِ . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهالي عمومًا وكذلك الجنود الفرنساوية لانهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم هواءً واخلاقًا ومعيشةً فضلاً عما كانوا يقاسونهُ من عصيان الاهالي وسفك الدماء . فضرب كلابر على الاهالي ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة آلاف كيس لتنفقات الجيش في نقل المهمات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل فباع الفرنساويون كل ما يصعب حملهُ من متاعهم . وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمأن المماليك الذين كانوا قد فرُّوا من وجه الفرنساويين فعادوا الى القاهرة بنسائهم واولادهم . ثم ان الصدر الاعظم نهض بجيشهِ نحو القاهرة حتى اذا اتى بلبيس سار علماء مصر ومشائخها باذن من كلابر لملاقاتهِ وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسرَّ الصدر بهم وخلع عليهم

وبينما الحال كذلك ورد للجنرال كلابر كتاب من السير سدني مآلهُ

نقض معاهدة العريش وتعريبهُ ملخصًا

« سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد اي معاهدة مع الجيوش الفرنساوية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الاَّ اذا سلموا انفسهم وسلاحهم كما يفعل اسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية »

على ان السير سدني نفسهُ لم يكن يرى الاَّ البقاء على المعاهدة اما دولتهُ فما انفكت حتى حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر وقد كتب السير سدني الى دولتهِ يظهر رأيهُ ويبين اوجه الخطأ التي انتهاها بذلك النقض ولم تحصل نتيجة . اما كلابر فاستشاط غضبًا لذلك ولم يكن جوابهُ الاَّ الحرب فاسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد اصبح على مقربة من القاهرة ومعهُ الجيوش العثمانية فكتب الى المشائخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنساويين من بلادهم

فعقد الجنرال كلابر مؤتمرًا حربيًا قال فيهِ « ان الدولة العثمانية قد سهلت امر انسحابنا فوقف الانكليز في طريقنا فعلينا محاربتهم » ثم بعث الى الصدر الاعظم بعزمهِ على الحرب وحشد جيشهُ خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية تحت قيادة ناصيف باشا احد قواد الحملة معسكرة في المطرية النبل الى يمينها والصحراء الى يسارها والى ورائها الخانكاه وفيها باقي الجيش تحت قيادة يوسف باشا وعددهم جميعًا نحو من اربعين الفًا او تزيد وانضم اليها الانكشارية والمماليك تحت قيادة ابراهيم بك . فالتقى كلابر بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض المماليك لجهة القاهرة فتقدم كلابر برجالهِ فظهر لهُ عن بعد غبارٌ عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والمرج الى اليمين ثم انقشع الغبار عن الجنود العثمانية قادمة من الخانكاه لملاقاة الفرنساويين

فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعًا شديدًا معهودًا بالرجال العثمانيين الاَّ انهم اضطروا اخيرًا الى التقهقر نحو الخانكاه فتبعهم الفرنساويون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصالحية فوصلها كلابر فاذا بها خالية فاستولى على ما كان فيها

اما اهالي القاهرة فلما علموا بمسير كلابر الى المطرية ثاروا على من بقي في مصر من الفرنساويين وبعد الظهيرة اتاهم ناصيف باشا ومعهُ جماعة من المماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنساويين وجاؤا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فامر ناصيف باشا ان يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغماً عن كونهم من رعايا الدولة العلية . اما العساكر الفرنساويون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى ان جاء عثمان بك احد ضبّاط العثمانيين الى ناصيف الباشا قائلاً « ليس من العدالة ان تهرقوا دماء رعايا الدولة العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » ثم بثَّ رجالهُ في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنساويون من احتلال القلعة وباقي الطوابي ولبثوا ينتظرون ما يكون من ناصيف باشا . فهجم عليهم فاطلقوا عليهِ وعلى رجالهِ نارًا ارجعتهم الى اماكنهم حتى لم يبقَ منهم في الازبكية نفر واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي حتى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهمَّ المشائخ بالفرار فامسكتهم الرعية رغماً عنهم . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فاخرجها الاهالي ورتبوها على هيئة بطارية احاطوها بطابية وحظر على الناس الخروج من تلك الطابية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضًا عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال أُنبئَ ناصيف باشا بقدوم جند فرنساوي من جهة المطرية لنجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سربًا من الفرسان فلم ينالوا منهم ظفرًا

فوصل الفرنساويون منادين بانتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنساويون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اخماد الثورة . ثم جاء الجنرال كلابر وقد كادت مؤن جيوشهِ في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارّين من على السور طالبين الالتجاء الى معسكر الفرنساويين ثم تضايق الاهالي لقلة الماء لان الفرنساويين قطعوهُ عنهم

وفي ٢٧ شوال (١٤ ابريل (نيسان)) طلب كلابر الى اهالي بولاق ان يسلموا فاجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فاطلق عليهم قنابل لاتزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنساويون بولاق ولم يبقوا عليها نهبًا وقتلاً . فلما تأتّى ذلك لكلابر عرّج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها اصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلمع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاوحال يثبون من حائط آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي ايديهم خرق مبتلّة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصياح من النساء والاطفال خوفًا من النيران حتى كانوا يلقون بانفسهم من على الجدران والسطوح تخلصًا من اللهيب

فهمّ ناصيف باشا الى الفرار فتتبعوهُ فدخل في حيٍّ من ذويهِ واختفى فيهِ فأمر كلابر ان ينادى في الناس « وما النصر الاّ من عند الله وهو سبحانهُ وتعالى يامر الغالبين بالرفق وعليهِ فان الصاري عسكر يعفو عن اهالي القاهرة وسائر البلاد المصريّة عمومًا ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كلٌّ الى شأنهِ » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلابر ان تنظف الاسواق وترفع الجثث وامر أن تنوّر المدينة ثلاثة ايام احتفالاً بالنصر ودعا اليهِ العلماء والمشائخ واعد لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسهِ واخذ يعنفهم على ما اتوهُ من الخيانة فاجابهُ شيخ

المهدي «اننا لم نأتِ خيانة اما اتحادنا مع العثمانيين فكان بناء على امر منك» وحجر كلابر على خمسة عشر شيخًا لم يتركهم حتى اخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليونًا من الفرنكات. وسكنت بعد ذلك الاحوال واطمأنت القلوب. ثم علم مراد بك بما حلّ بالمدينة وما كان من نصرة الفرنساويين فاحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معهُ وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولّاهُ مصر العليا مكافأة لصداقتهِ

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحادهِ مع المماليك وعظم في عين الاهالي وسكن في بيت مراد بك في الجيزة وامر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين. ففي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربهِ الجنرال داماس في منزلهِ قرب ديوان الجيش. فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والموسيو بروتين مهندس الحملة يتمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر فبينما كانا يتحادثان وثب رجل من منتهى الرواق عليهِ ثوب خلق وفي يدهِ خنجر طعن بهِ صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فنال منهُ مثلما نال كلابر فسقط بروتين على الارض فتركهُ ذلك الشقي وعاد الى كلابر وطعنهُ ثانيًا وثالثًا حتى اتمّ قتلهُ ثم سمع ضجيجًا ففرّ الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط فلما اتى الخفر لم يروا الا ذينك الرجلين يخبطان بدمهما فحملاهما الى البيت واتوا لهما بالطبيب فمات كلابر حالاً اما بروتين فبقي تحت المعالجة. ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد افهمهم شيئًا عن ملابسهِ وشكلهِ وبعد يسير جيء برجل عليهِ لباس رثّ واوقفوه امام بروتين فعرفهُ وقال هذا هو الجاني. ثم قرّر

اخرون انهم رأوهُ منذ بضعة ايام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

وبعد تقريرهِ بسبل مختلفة وجد ان اسمهُ سليمان الحلبي التقى بهِ احد اغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب اليها هذا الانكشاري للتفتيش على رجل يُقدم على قتل كلابر فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط ان ينجي اباهُ في حلب من ضرائب غير اعتيادية يطلبها منهُ والي تلك الولاية فجاء بهِ الى غزَّة وهناك اتى لهُ بتحاريز توصية من آغا غزة لعلماء الازهر فبارح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليلةً ثم سار الى العلماء فابوا مشاركتهُ بالجناية اما هو فلم ينفك حتى اغتنم تلك الفرصة وفعل ما فعل . فاستدعي المشائخ المتهمين وهم ثلاثة وبالاستفهام منهم اجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوهُ قبل تلك الساعة . ثم عيَّن الجنرال مينو لجنةً لتحري القضية فحكمت باعدام المشائخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القاتل على القتل ولم يخبروا عنهُ اما القاتل فحكم عليهِ بالاعدام على الخازوق لكنهم اوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيد . فشيعوا جنازتهُ بكل احترام واحتفال ولما واروهُ التراب جاءوا بالجانيين واعدموهم بموجب ذلك الحكم

واقاموا على القيادة العامة بدلاً من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون البقاء في مصر فاعتنق الاسلامية ودعى نفسهُ عبدالله وولد لهُ غلام دعاهُ سليمان . ثم ظهر من تصرفهِ بالاحكام انهُ ليس على شيءٍ من الهمة والدراية فسخر بهِ الفرنساويون وكرهوهُ . وكان ديوان القاهرة مؤلفًا من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعلهُ من المسلمين فقط واخذ جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج وقد كانت بيد الاقباط . على ان ذلك كلَّهُ لم يغير شيئًا من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم . ومن جملة ما قادهم الى ذلك انهُ اعلنَ بحماية فرنسا على مصر وان مصر قد اصبحت مستعمرة من مستعمرات فرنسا . وشقَّ ذلك على قوَّاد الحملة فجاءوا

اليهِ بصفة رسمية وبلغوهُ ان الجيش الفرنساوي غير راضٍ عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنساوية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح بهِ هو فلم يجبهم بشيء وانما وعدهم انهُ سينظر بما قالوا

وكانت انكلترا لا تنفك عن السعي الى اخراج الفرنساويين من مصر صيانة لصوالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركبًا وخمسة عشر الفًا من الرجال وارسلتها الى مصر تحت قيادة السير رلف ابركرومبي فسار اليها ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٨٠١ م فشاهد آثار العمارة الفرنساوية التي حطمتها عمارة نلسون وفي ٧ منهُ نزل السير رلف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل اليهِ الجيش . وفي ٨ منهُ شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فأُطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طابية قد تحصن فيها حاكم الاسكندرية بالف وخمسماية رجل . اما الانكليز فلم يكترثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعةٍ والقنابل تتفرقع حول قواربهم حتى تملكوا البر ولم يلحقهم الاَّ ضرر يسير . ثم ساروا نحو الاسكندرية فلاقاهم الفرنساويون باربعة الآف وخمسماية مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر احدٌ منهما وكانت خسائر الفرنساويين خمسماية رجل والانكليز الف وماية . ومما اعاق الانكليز قلّة خيالتهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والخنادق وحفروا ابارًا لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلتهُ الاخبار بوصول العمارة الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع الى النجدة جعل يتوهَّم اوهامًا لا طائل تحتها وبعد اللتيَّا والتي بعث فرقة الى بلبيس واخرى الى دمياط واخرى الى ابي قير برًّا واخرى في النيل

وفي ١١ منهُ جاءتهُ الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على

الاسكندرية فارتبك بامرهِ فجمع اليهِ مشائخ الديوان واعلمهم انهُ ذاهب الى السواحل تاركًا الجنرال بيليارد ليقوم مقامهُ مدعيًا ان سبب ذهابهِ قدوم بعض المالطية والايطاليين الى ابي قير . ثم استقدم الفرقة التي ارسلها الى بلبيس وامر من بقي من الجيش في مصر ان يسير الى الرحمانية . فبارح مينو القاهرة في ١٢ منهُ لكنهُ لم يصل الاسكندرية الاَّ في ١٩ منهُ وقد تحصن الانكليز تحصنًا لا يقوى على مقاومتهِ فاستشار قوادهُ فاشاروا عليهِ بالهجوم على حصنهم الايمن لانهُ اقوى حصونهم لكنهُ لم يجسر على ذلك نهارًا فهجم ليلاً فلم ينجح وفي اليوم التالي في ٢١ مارس (اذار) امر ان تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكرًا بغير ضرب النفير اما الانكليز فكانوا في يقظة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا صوت المدافع من على يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فاجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنساويون مجانبة فنهم ابركرومبي غرضهم من ذلك فعزَّز ميمنة معسكرهِ واتخذ قيادتها بنفسهِ فاصيب بجرح قتَّال القاهُ على الصعيد فقدم السير سدني سميث وانهضهُ وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنساويين فامر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجالهُ وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو الفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحًا من جملتهم السير رلف ابركرومبي فنقلوهُ الى احدى الدوارع فعاش بضعة ايام وتوفي فتحولت قيادة العمارة الى الجنرال هتشنسون

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز نجدة عثمانية تحت قيادة حسين قبطان باشا

فرأى الجنرال هتشنسون ان يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانية وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع تحت قيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فانفصل ذلك بالجنرال مينو فارسل اركان حربهِ لاستطلاع قوة

تلك التجريدة فقدرها اقلّ مما هي كثيرًا فاستخف مينو بها فلم يجد رشيد. اما الكولونل سبنسر فما زال سائرًا حتى اتى رشيد فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيهِ حامية من الفرنساويين فضايقوا عليهم حتى سلموا فامّنوهم ثم اخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدّت الجنرال بيليارد في القاهرة فاجاب معتذرًا بعدم امكانهِ الاستغناء عمّن لديهِ من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية فامدّها بما استطاع

فاصبحت الجيوش الفرنساوية بذلك اقسامًا متفرّقة لا تقوى على دفاع فكان الجنرال بيليارد بالقاهرة في خمسة آلاف رجل يتأهب لدفاع الجيوش العثمانية القادمة عن طريق الصحراء تحت قيادة الصدر الاعظم يوسف باشا وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها . والجنرال مينو كان محاصرًا في الاسكندرية لا يبدي حراكًا وقد ضايق عليهِ الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملّاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك انهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبقَ عندهُ الّا مياه الصهاريج . اما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد ما احتلوا رشيد صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى اتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستلموها ايضًا ففرّت الجنود الفرنساوية الى القاهرة واعلموا بيليارد بما كان فامر بالتئام مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع دفاعًا نهائيًا لان العدو قد تكاثر عليهم . هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصدًا القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر في بلبيس في ١١ مايو (ايار) . اما مراد بك فبعد محالفتهِ مع الفرنساويين على ما تقدم بمدة توفي وتولى مكانهُ على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدوم العثمانيين والانكليز نقض المحالفة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فرأوا ان جميع

الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لا تزيد عن اثني عشر الفًا نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الاَّ شيء يسير . فلم يرَ بيليارد لحل هذا المشكل الاَّ وجهين اما ان يسير بما لديهِ من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاثف معهُ على الدفاع او ان يسير الى دمياط . فلم يكن يرى بدًّا على الحالين من اخلاء القاهرة ولكنهُ كان يفضل المسير الى دمياط لانها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من المحصولات ما يقوم باحتياجات جيشهِ وهو في الحالين عالم بعجزهِ عن مناهضة عدوّهِ

ثم حدثتهُ نفسهُ ان يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعًا عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلابر وعسكر في الخانكاه فوصلت اليهِ مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف امامها فعاد الى القاهرة

وفي ٢٢ منهُ وصل هتشنسون الى طرامة فقطع في ترعة منوف وسار بنفسهِ الى معسكر يوسف باشا وتفاوض معهُ في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فاقرُّوا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقهِ وسار في رجالهِ على فرع النيل الغربي حتى اتى الجيزة في ٣٠ منهُ وواصل يوسف باشا سيرهُ من الجهة الاخرى فانحصر بيليارد في القاهرة لا يستطيع حراكًا فعقد مجلسًا حربيًّا اقرَّ فيهِ على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية او دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوبًا بشأن ذلك وبعد المخابرة تقرر من الطرفين ان تنسحب الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة انسحابًا قانونيًّا بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وان يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة امضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتثبّتت في ٢٦ منهُ على ان تنفَّذ بعد ١٥ يومًا

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) بارح بيليارد القاهرة ومعهُ ١٢٧٢٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيد على ان يسافروا

منها الى فرنسا فانذهل هتشنسون لما اوتيهِ من الفوز العظيم وكاد لا يصدّق بهِ حتى ٧ اوغسطس (آب) عند ما علم بركوب الجيوش الفرنساوية قاصدين بلادهم

اما مينو فكان باقيًا في الاسكندرية ومعهُ عشرة آلاف مقاتل فتفاوض مع من كان باقيًا لديهِ من القواد فاصرُّوا على المخابرة وفي ٣ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة الانسحاب وانسحبوا اثناء ذلك الشهر على مثل انسحاب بيليارد واذا تأملت ترى انها ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك٢) سنة ١٨٠٠م شيءٌ واحد ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الاَّ سفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد امرت الجنرال برد ان يسير من الهند في ستة آلاف من الجنود الهندية المنظمة الى مصر امدادًا لابركرومبي في البرّ فجاء الى القصير على سواحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء حتى اتى قنا ثم نزل الى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل الى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعتهِ

هذه هي الحملة الفرنساوية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف انها بعد صرف ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخفَّي حنين

من انسحاب الفرنساويين الى تولية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ ــ ١٢٢٠ هـ او من ١٨٠١ ــ ١٨٠٥م

فبعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال العمارة العثمانية لا يزال في ابي قير والاسكندرية بعد سفر مينو . اما الانكليز فلم يكن غرضهم الاَّ تثبيت

سلطة الباب العالي والانسحاب فجعلوا معسكرهم في مصر القديمة . اما المماليك فكانوا لا يزالون يحاولون التسلط ولم تزل بقية منهم تحت قيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي اما معسكرهم فكان في الجيزة

فاخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبّران مكيدة تذهب بمن بقي من المماليك فاتفقا على ان يدعو قبطان باشا بعض امرائهم الى مكيدة يعدّها لهم في ابي قير وان يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجيزة فيأتيان على اهلاكهم . فبعث قبطان باشا الى بعض امراء المماليك يدعوهم الى وليمة قال انهُ اعدّها لهم في معسكرهِ بابي قير وان غرضهُ من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذهُ من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوتهُ وهم في ريبة من مقاصدهِ على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة ان يجعلوا للقوّتين العثمانية والانكليزية بابًا للارتياب بمقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير ترحب بهم حسين باشا ودعاهم الى النزول معهُ في قاربهِ الخصوصي ليسيروا معًا الى القومندان الانكليزي على احدى الدوارع للمفاوضة معهُ ببعض الشؤون . فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آتٍ من جهة الدوارع قال من فيهِ ان لديهم تحاريرَ باسم قبطان باشا ومخابرات اخرى مهمة . فوثب القبطان عند ذلك الى القارب الآخر وامرهُ ان يسير فسار وبقي المماليك وحدهم فاوجسوا خيفةً ثم سمعوا اطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتأكدوا انها مكيدة فحاولوا الرجوع الى البر ولم يصلوهُ حتى قتل عثمان بك الطمبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنان آخران . وفي نحو ذلك الوقت ارسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجالهِ يهاجمون المماليك في الجيزة فوثبوا عليهم واحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغماً عن اصرار يوسف باشا على طلبهم

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية من مصر بامر الاميرال كيت وبقيت

مصر يتنازعها الجنود العثمانية والمماليك . وكان يوسف باشا في القاهرة بمثابة نائب عن الباب العالي . ولما كان لا بد من تولية والٍ عثماني يقوم باعباء الولاية سعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا الى تولية خسرو باشا كخيا حسين قبطان باشا فكتبا بذلك الى الاستانة فاجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك

فتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن ينقصهُ لاستتباب الراحة الاَّ ابادة من بقي من المماليك وكانوا مع ما الَّم بهم منذ قدوم الفرنساويين لا يزالون قادرين على المقاومة نظرًا لمعرفتهم باحوال البلاد واحزابها وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال اصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا . فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن اذ ذاك في سلطة الباب العالي الاَّ القاهرة والاسكندرية وما بينهما . فلم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٢ م واحاطوا بالخزندار وحبسوهُ في بيتهِ . فامر خسرو باشا ان تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الخصام فتداخل طاهر باشا اركان حرب خسرو باشا يريد صرف ذلك المشكل فلم يوافقهُ خسرو على قصدهِ واتَّهمهُ باتحادهِ مع العصاة . فاغاظ طاهر باشا واخذ جانب العصاة وامرهم ان يهدموا الاسوار فخاف الباشا ولم يرَ الاَّ الفرار بحريمهِ وحاشيتهِ على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة . ثم سار منها الى دمياط وحاصر هناك . فاغتنم طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليهِ القضاة وارباب الديوان فاقروهُ على مصر بصفة قائمقام موقتًا لبينما ترد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضًا من خسرو باشا

ففي ٢٥ مايو (ايار) سنة ١٨٠٢ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاهُ خسرو باشا وذلك ان اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل

تشكيا اليهِ من تأخر الرواتب فانتهرهم فاغلظوا لهُ فاشتد الخصام فجردا سيفيهما وقطعا رأسهُ ورمياهُ من الشباك وانتهى الخصام باحتراق السراية فاصبحت مصر بغير وال يدبر اعمالها . وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم المغفور لهُ محمد علي باشا ارومة العائلة الخديوية اظهار ما اختص بهِ من البسالة والاقدام وما جعلهُ الله فيهِ من الفضائل التي قدَّر لهُ ان يبثها في هذا القطر السعيد

الدولة المحمدية العلوية

ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢٢٠ ـ ١٢٦٤ هـ او من ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قواله[1] من اعمال الروملي سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ او ١٧٦٩ م) من ابٍ يدعى ابراهيم اغا وكان من ضباط تلك المدينة وفي عهدتهِ رئاسة غفر الشوارع . ويقال ان والدة الصبي رأت رؤية وهي حامل بهِ فاستفسرت المفسرون فبشَّروها بعظم الذي هي حامل . ثم توفي ابراهيم آغا ومحمد علي لم يتجاوز الرابعة من عمرهِ ولم يبقَ لهُ الأَعمٌ كان يدعى طوسون اغا متسلم قواله قتل بامر الباب العالي بعد ذلك بيسير فاصبح يتيمًا قاصرًا فرباهُ جربنجي براوسطا احد

(١) مدينة صغيرة واقعة في مكدونية غربي الروملي بقرب خليج قواله تجاورها مدينة فيلبي وهي على مسافة ١٢٨ كليومتر للجهة الشمالية الشرقية من تسالونيكيا و ٣٢٠ من الاستانة . حسنة التجارة وفيها نحو من ٨٠٠٠ من السكان معظمهم من المسلمين

محمد علي باشا خديوي مصر

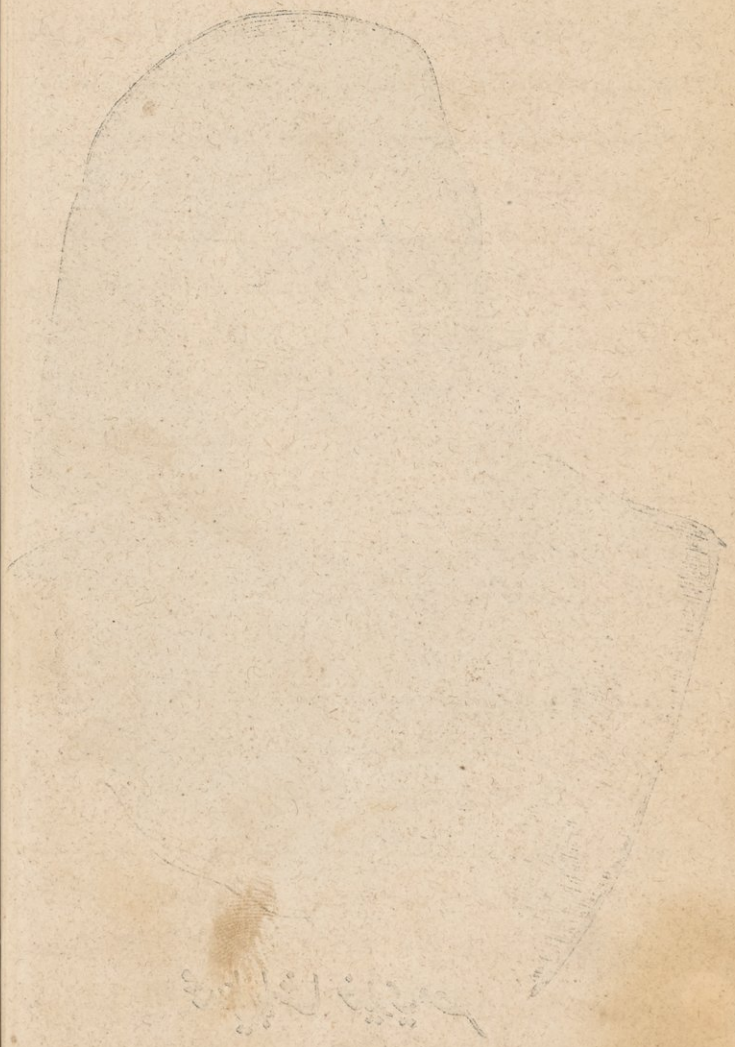

اصدقاء والدهِ وجعلهُ بمنزلة اولادهِ . ولكن محمد علي كان يشعر بحالهِ من اليتم الذي يقود الى الذل وضعة النفس . ومما يروى عنهُ بعد ان ارتقى ذروة المجد انهُ كان يحدث اخصاءهُ عما قاساهُ في صبوتهِ من الذلّ الى ان يقول « ولد لابي سبعة عشر ولدًا لم يعش منهم سواي فكان يحبّني كثيرًا ولا تغفل عينهُ عن حراستي كيفما توجهت ثم توفاهُ الله فاصبحت يتيمًا قاصرًا وابدل عزّي بذل وكثيرًا ما كنت اسمع عشراي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي « ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعيس بعد ان فقد والدهِ » فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك اجعل نفسي غافلاً عنهُ ولكني كنت اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل فاجهد نفسي بكل عمل يمكني معاطاتهُ بهمة غريبة حتى كان يمرُّ عليَّ احيانًا يومان ساعيًا لا آكل ولا انام الاَّ شيئًا يسيرًا . ومن جملة ما قاسيت اني كنت مسافرًا على مركب فطلع النوء فكسرهُ وكنت صغيرًا فتركني ارفاقي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا اما انا فجعلت اجاهد بالماء وسعي تقذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تجرحت يداي وكانتا لا تزالان يانعتين وقد قدرني الله ووصلت الجزيرة سالمًا وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسمًا من مملكتي »

وكان في قوالهِ عائلة فرنساوية من مرسيليا كبيرها يدعى الموسيو ليون وكان من الوجهاء واصحاب الثروة والمحبين للفضيلة واتفق لهُ انهُ عرف هذا الغلام فكان يظهر لهُ المحبة والحنو لما رأى فيهِ من الذكاء والنباهة الطبيعيتين وهذا اصل وثوق محمد علي بعد ذلك بالشعب الفرنساوي واستخدامهِ اياهُ في مصالح البلاد . ويقال ان محمد علي بعد ان استوى على ولاية مصر بعث الى الموسيو ليون سنة ١٢٣٥ هـ او ١٨٢٠ م يدعوهُ الى مصر ليصرف زمنًا في ضيافتهِ فاجاب دعوتهُ لكنهُ توفي في اليوم المعيَّن لقدومهِ . فلما علم محمد علي بذلك اسف اسفًا شديدًا وبعث الى اخت الفقيد هدية

تساوي عشرة الآف فرنك

فلما ترعرع محمد علي انتظم في سلك الجهادية واظهر على صغر سنهِ نباهة وبسالة عجيبتين وكان برسلهُ مربيهِ في مأموريات مهمة لجمع الضرائب ويعتمد عليهِ بامورٍ كثيرة حتى اذا بلغ الثامنة عشرة من العمر رقاهُ الى رتبة بلوك باشي وازوجهُ احدى قريباتهِ فولدت لهُ خمسة اولاد منهم ثلاثة ذكور وهم ابراهيم وطوسون واسماعيل . وكانت امرأة محمد علي على جانب من الثروة فتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف الدخان لانهُ اكثر اصناف التجارة في بلادهِ وبرع فيها كثيرًا حتى انهُ مع قلة معارفهِ العلمية اكتسب شهرة عظيمة بين التجار

فلما كانت الحملة الفرنساوية ارسل الباب العالي يطلب من مكدونية نجدة عسكرية فوردت الاوامر الى جربتجي براوسطا ان يجمع ثلاث مئة مقاتل فنعل وجعل عليهم ابنهُ علي اغا قائدًا ومحمد علي مساعدًا . فسارت تلك الكتيبة المكدونية برفقة العمارة العثمانية تحت قيادة حسين قبطان باشا الى ابي قير وكان الفوز بتلك المحاربة للفرنساويين على ما مرَّ بكَ . فترك علي اغا كتيبتهُ بعد ان عهد قيادتها لمحمد علي وعاد الى بلادهِ فارتقى محمد علي الى رتبة بيكباشي . ثم كانت محاربة العمارة الانكليزية وتقدمها الى القاهرة في النيل والعساكر العثمانية تحت قيادة الصدر الاعظم في البر من جهة الشرق كما تقدم

فلما انسحبت الجيوش الفرنساوية ثم تبعتها الجيوش الانكليزية احتلَّت مصر الجيوش العثمانية وكانت مؤلفة من اربعة الآف من الالبانيين (الارناوط) الاشداء وكان المماليك لا يزالون يحاولون الاستقلال في الملك ولم يتقرَّر لديهم اذا كانوا ينالون هذه البغية او ان مصر ستعود بعد الحملة الفرنساوية لتحت سلطة الباب العالي كما كانت قبلها . اما الباب العالي فكان يرغب ان تكون حكومة مصر بيد من يرسلهُ اليها من

وزراء الدولة فنهى عن اعطاء المماليك القوة العسكرية

وكان المماليك من الجهة الثانية منقسمين فيما بينهم تحت رئاسة اثنين من امرائهم كلٌّ منهما يحاول الاستقلال بنفسهِ كما قد علمت . فلما تولى محمد خسرو باشا على مصر كان مرفوقًا باوامر سرية ماكلها ابادة كل من بقي في مصر من المماليك باي وسيلة كانت وكان مخلصًا للدولة وفيهِ عزيمة ونشاط الَّا انهُ لم يحسن التصرف بما خوّل لهُ بما يتعلق بالاوامر السرّية فضلاً عما كان بينهُ وبين محمد علي من المناظرة منذ بضع سنين . الَّا ان هذا لم ينفك عن العمل حتى ارتقى في الجيش الى رتبة قبي بلوك باشي اي رئيس حرس السراي واخيرًا نال من محمد خسرو باشا رتبة سرششمه فاصبح قائدًا لثلاثة اوار بعة آلاف من الالبانيين . فجعل من ذلك الحين يظهر ما كان كامنًا فيهِ من المواهب العظيمة فامتلك قلوب رجالهِ امتلاكًا غريبًا واكتسب ثقة كل من عرفهُ

فاتفق اثناء ذلك ان المماليك ثاروا على الدولة فانفذ اليهم خسرو باشا حملة من الجنود العثمانية لقهرهم وفي جملتها فرقة محمد علي . فقدَّر الله انقلاب جنود خسرو باشا قبل وصول رجال محمد علي الى الموقعة فرأى قائد تلك الحملة ان ينسب انكسار رجالهِ لتأخر محمد علي ورجالهِ في الطريق فقدَّم تقريرًا بهذا المعنى الى خسرو باشا فسرَّ بهذه الشكاية واقرَّ عليها لاول وهلة وحكم على محمد علي بالاعدام سرًّا تخلصًا منهُ فكتب اليهِ ان يقابلهُ في منتصف الليل للمخابرة معهُ بشؤون مهمة . فاوجس محمد علي خيفة من تلك الدعوة فاخذ يفكر فيماذا يفعل لينجو من هذه المكيدة مع علمهِ انهُ اذا امتنع عن الحضور يعدُّ عاصيًا فتكون البلية الثانية اشر من الاولى

واتفق اذ ذاك تمرد القوة العسكرية لتأخر مرتباتهم . ثم كان انهزام محمد خسرو باشا الى دمياط وتولية طاهر باشا . ثم قتل طاهر باشا كما

مرَّ بكَ فنهض احمد باشا والي الشرطة يطلب ان يولوهِ على مصر بدلاً من محمد خسرو باشا وساعدهُ الانكشارية . وكان محمد علي قد ملك القلعة ومعهُ رجالهُ الارناوط وكانوا لا يريدون ولاية احمد باشا وانما خافوا ان لا يستطيعوا مناهضتهُ . فلاح لمحمد علي ان يستجلب حزب المماليك اليهِ فكاتبهم الى الصعيد وجهات اخرى فاتوا المدينة وفيهم الاميران عثمان البرديسي وابراهيم بك وغيرهما فتعاهد معهم على اخراج احمد باشا من المدينة فكتب اليهِ ابراهيم بك ان يخرج من القاهرة حالاً واذا بقي فيها لبعد الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار لا يلومنَّ الاَّ نفسهُ فخرج احمد باشا من المدينة رغماً عنهُ . ثم طهَّروا القاهرة من الانكشارية والبشناق والسجمان ولم يبقَ فيها الاَّ المماليك ومحمد علي ومعهُ الارناوط . ثم اتفق محمد علي مع عثمان البرديسي على اسئسار محمد خسرو باشا فسار عثمان الى دمياط وحاربهُ هناك حتى اسرهُ في ١٤ ربيع اول سنة ١٢١٨ هـ واتى بهِ الى القاهرة وسلمهُ لابراهيم بك في غاية ربيع اول منها . ثم نقل بعد ذلك الى القلعة

فلما وصلت هذه الحوادث الى الاستانة ارسل الباب العالي علي باشا الجزائرلي (الطرابلسي) ليقوم مقام خسرو باشا ويقتص من الجانين فلم يصل القاهرة الاَّ بعد شق الانفس ولما جاءها علم بعدم استطاعتهِ القيام بهذه المهمة بالقوة فعمد الى المكيدة فعادت العائدة عليهِ فوقع في ايدي اعدائهِ فقتلوهُ فانتعش المماليك لهذا الانتصار

وفي خلال ذلك عاد رئيسهم الثاني محمد الالفي من انكلترا وكان قد ذهب اليها يطلب مساعدة دولتها فنزل في ابي قير فلما علم البرديسي بعودتهِ اوجس شرًّا خيفة ان يطلب مقاسمتهُ فيما نالهُ بسعيهِ . فاصبح كل منهما يترصد الآخر فكانت هذه الفرصة ثمينة لمحمد علي ونظرًا لما كان لهُ من التسلط على افكار البرديسي جعل يثير فيهِ عوامل الحسد لزميلهِ الالفي

وما زال حتى حمله على الكيد به . فاعد البرديسي مكيدة لزميله الالفي الا انه لم يتمكن من نوال مرغوبه لان الالفي فرّ طالبًا الصعيد فخلا الجو للبرديسي فظن نفسه قد تخلص من مناظره ولكنه لم يعلم ان هنالك مناظرًا اصعب مراسًا من ذاك . وذلك ان الالبانيين لما رأوا انقسام رؤسائهم بعضهم على بعض خافوا على حقوقهم من الضياع فقاموا بصوت واحد يطلبون مرتباتهم لمدة ثمانية اشهر واصروا انهم اذا لم ينالوا مطلوبهم يقلبون البلاد رأسًا على عقب فخاف البرديسي من ذلك واجابة لطلبهم ضرب على اهل القاهرة ضرائب فوق العادة ليدفع المبلغ المطلوب غير ان ذلك لم يكن الا لزيادة الطين بلة لان اهالي القاهرة انفسهم انفوا من تلك المعاملة فثاروا على الحكومة واتحدوا مع القوة العسكرية واضطهدوا البرديسي في سرايته يريدون قتله لكنه لحسن حظه تمكن من الفرار فترك القاهرة ولم يعد يدخلها فيما بعد وكان ذلك سنة ١٢١٩ هـ (سنة ١٨٠٤ م)

وكان الباب العالي عند ما بلغه استبداد البرديسي وارفاقه في الاهالي وضرب الضرائب الفاحشة معما سبق من قتلهم لعلي باشا الجزائرلي قد امر باعداد اسطول يأتي مصر في البحر . وبعث الى احمد باشا الجزّار ان يسير بجملة في البر وان تتحد القوّتان على اولئك المستبدين ويقتصوا منهم فلما بلغه خبر الثورة العسكرية وما آل اليه امر المماليك عدل عن عزمه اكتفاء بما حصل

وكان لمحمد علي باع طولى في كل هذه الحوادث . فلما فرّ الاميران لم يعد في القاهرة سواه وكانت جميع القوة العسكرية والملكية يدًا واحدة معه فاستدعى اليه العلماء والمشائخ وتفاوض معهم بشأن اخلاء سبيل خسرو باشا وتوليته على مصر وبعد المفاوضة اقروا على ذلك وبعد تنصيبه بيوم ونصف اقرّوا على ارساله الى رشيد تحت الحفظ ومنها يرسل الى الاستانة وهكذا فعلوا . فقد رأيت كيف تمكن محمد علي بحسن سياسته

وبعيد نظرهِ في الامور من اضعاف سلطة الامراء المماليك ولولا ذلك لم يبلغ ما بلغهُ بما بلغهُ . فلما كانت هذهِ الاحوال في مصر وقد اصبحت بغير نائب عثماني يؤيد سلطة جلالة السلطان عليها صرَّح ان مصر لا تمتثل الاَّ لحاكم عثماني يأتيها من لدن الباب العالي واشار بتولية خورشيد باشا حاكم الاسكندرية لهذا المنصب . فوافقهُ العلماء والفقهاء واعيان البلاد والاجناد وطلبوا اليهِ ان يكون هو عليهم بصفة قائمقام وارسلوا الى الباب العالي يخبرونهُ بهذا التعيين فاقر عليهِ . فاستدعوا خورشيد باشا من الاسكندرية واقاموهُ على القاهرة وجعلوا محمد علي قائمقامًا لهُ وذلك في ذي القعدة سنة ١٢١٨ هـ (مارس (اذار) سنة ١٨٠٤ م) فورد الفرمان بتثبيت خورشيد باشا في ٢٢ محرَّم ونصهُ

«اننا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرية (المماليك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الاعظم فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وبغوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولَّى عليهم (بريد علي باشا الجزائرلي) وقتلوهُ ونهبوا اموالهُ ومتاعهُ فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركبًا حربية وكذلك احمد باشا الجزَّار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاوَّل وصفحنا عنهم صفحًا كليًّا واطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤا واينما ارادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كامل الديار المصرية لما علمنا فيهِ من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ»

ثم حصلت بعد ذلك مواقع كثيرة بين محمد علي والمماليك في اماكن مختلفة من القطر فاصبحوا بعد ما قاسوهُ من الحروب المتواترة مدة سنين لم يعودوا فيما كانوا عليهِ من النفوذ عن ذي قبل واصبحت قوتهم لا تزيد عن

خمسة او ستة آلاف من الفرسان اما ماليتهم فكانت آخذة في الانحطاط .

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ فشقّ ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليهِ جندًا من الدلاة (المغاربة) فوصلوا مصر في اول سنة ١٢٢٠ هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب المماليك فبلغهُ ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاة يستعين بهم على الارناوط فعاد الى القاهرة برجالهِ مظهرًا طلب العلوفة ولولا ذلك لمنعهُ الدلاة من الدخول اليها اما خورشيد فاوجس خيفة من قدومهِ فجعل يراقب حركاتهِ . اما الدلاة فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس ويأخذون اموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا اولاً وثانيًا وثالثًا وهو يعدهم بكفّ هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الاَّ اضطرابًا فشق ذلك خصوصًا على علماء البلاد ومشائخها وكرهوا خورشيد باشا كرهًا شديدًا وصاروا يتوقعون تخلصهم منهُ وعلم هو بذلك فلم يزدد الاَّ فجورًا

وفي ٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد الخط الشريف بتولية محمد علي ولاية جدة فبعث اليهِ خورشيد باشا وقلدهُ الولاية والبسهُ الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة فخرج بريد الركوب فثارت العساكر وطالبوهُ بالعلوفة فقال لهم هذا هو الباشا عندكم فطالبوهُ وسار قاصدًا بيتهُ بالازبكية وصار ينثر الذهب على الناس طول الطريق فازدادوا لهُ حبًّا واعتبارًا ولخورشيد باشا كرهًا واحتقارًا

وفي ٦ منهُ ملَّ اهالي البلاد من معاملة خورشيد باشا فسار علماؤهم ومشائخهم وائمتهم ورؤساء الجند الى محمد علي وقالوا لهُ نحن لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا قال ومن تريدون اذًا قالوا لا نرضى الاَّ بكَ تكون واليًا علينا لما نتوسمهُ فيك من العدالة والخير فامتنع اولاً ثم رضي واحضروا لهُ

كركًا وعليهِ قفطان وقام اليهِ السيد عمر والشيخ الشرقاوي فالبساهُ ثم بعثوا الى خورشيد باشا بذلك فقال «اني مولًى من طرف السلطان فلا اعزل بامر الفلاحين ولا انزل من القلعة الاَّ بامر من السلطنة» فحاصروهُ فيها وقد انحازت جميع القوات العسكرية من الارناوط والدلاة لمحمد علي الاَّ قليلٌ . وكتبوا بالاشتراك مع العلماء والمشائخ الى الباب العالي يطلبون تنصيب محمد علي عليهم واصروا وما زالوا حتى صدرت الارادة السنية بفرمان ينقلهُ القابجي باشي فوصل القاهرة في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ ﻫ (٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٠٥ م) فقرأوا الفرمان في بيت محمد علي بحضور كل الاعيان والمشائخ ومضمونهُ الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقًا ووالي مصر حالاً من ابتداء ٢٠ ربيع اول حيث رضي بذلك العلماء والرعية وان احمد خورشيد باشا معزول عن مصر وان يتوجَّه الى الاسكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الامر بالتوجه الى بعض الولايات الاَّ انهُ لم يخرج من القلعة الاَّ في ١٥ جمادى الاولى من تلك السنة بعد ان جاءهُ مندوب مخصوص من الاستانة بشأن ذلك

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون . وكان الالفي مقيماً في الصعيد وقد التفَّ حولهُ جمهور من المماليك وعندما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانهِ طالبًا خلعهُ وتحالف مع خورشيد باشا ليساعدهُ في غرضهِ وتعهد انهُ اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليدهِ ويكون بعد ذلك خاضعًا لاوامر الدولة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا وخابر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعهُ هذا يكون مستعدًّا ان يسلمها ابواب القطر المصري حالاً . فعلم بذلك قنصل فرنسا فعرقل مسعاهُ فعكف الى مصالحة محمد علي باشا على شيءٍ يرضى بهِ الاثنان فحصلت المخابرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاهُ ثانيةً بواسطة سفير انكلترا في مصر

فطلب هذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولتهِ ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهد بامانة الالفي وخضوعهِ لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فاصدر عفوًا عامًّا عن المماليك باسم اميرهم الكبير الالفي فوصلهُ في غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ . وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية نقلُ موسى باشا مرسلاً من قبل الباب العالي واليًا على مصر ومعهُ عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد وخطًّا شريفًا الى محمد علي باشا ان ينتقل الى ولاية سلانيك وان يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام فخاف محمد علي من حبوط المسعى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فرأى ان احزاب المشائخ والعلماء جميعها معهُ وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنساوي وبقوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتنقوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتابًا الى الباب العالي يطلبون فيهِ استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك فكتبوهُ وامضوهُ وارسلوا منهُ نسخة الى الاستانة واخرى الى قبطان باشا قبطان العمارة التي اتت بموسى باشا فاجابهم القبطان ان ما قدموهُ من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالاً وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسعى جهدهُ مع قبطان باشا الى بقاء محمد علي باشا . ثم علم قبطان باشا بعد ذلك ان المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وانهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على امرٍ فرأى اصوبية طلب البلاد فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وان يبعثوا الطلب مع ابن محمد علي باشا فكتبوهُ وارسلوهُ مع ابنهِ ابراهيم بك على يد قبطان باشا . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ بارحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا

وابراهيم بك

وفي اواخر شعبان (نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليهِ ان لا يتعرض للمماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلاً . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ ه (يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولّوا عليهم شاهين بك رئيساً الاّ انهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قائمة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي مخلاً بتنفوذها ومضرًّا بصوالحها فجردت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك وكانوا قد تبعثروا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ ه (١٧ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين حماية القطر من الفرنساوية فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وبقوا فيها ستة اشهر لا يستطيعون انتقالاً الى ما وراءها وكانوا قد ارسلوا فرقة منهم الى رشيد فمزّقتها سيوف الارناوط كل ممزّق . وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٢ ه استقال السلطان مصطفى وسنُّهُ ٣٤ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)

وفي ١٢ رجب سنة ١٢٢٢ ه (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧ م) انسحبت الجيوش الانكليزية من الاسكندرية باتفاق صلح مع القطر فاستتبت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلالة السلطان عنهُ ودخلت الاسكندرية في ولايتهِ ثم سعى بعضهم الى المصالحة بينهُ وبين المماليك فتمّت بقدوم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمهُ محمد علي وبنى لهُ قصرًا نفيساً لسكناهُ في الجيزة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودّة وهكذا فعل كل المماليك

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذت في تسليم مصالح

حكومتهِ لمن يثق بهم من ذوي قرباهُ لانهُ كان من شديدي المحبة لعائلتهِ ولا شك ان ازرهُ اشتد بهم . ثم نظر الى امر الاراضي ومكوسها فابطل مسموح المشائخ والفقهاء ومعافى البلاد التي التزموها لانهُ لما ابتدع المغارم والشهريات والفرض التي فرضها على القرى ومظالم الكشوفية جعل ذلك عامًّا على جميع الالتزامات والحصص التي بايدي جميع الناس حتى اكابر العسكر واصاغرهم ما عدا البلاد والحصص التي للمشائخ فانهُ اخرجها من ذلك فلا يوخذ منها نصف الفائظ ولا ثلثهُ ولا ربعهُ وكذلك من ينتسب لهم او يحتمي فيهم وكانوا يأخذون الجعالات والهدايا من اصحابها ومن فلاحيهم نظير صيانة حقوقهم . فآل ذلك الامتياز الى تطرف اولئك بانواع المعيشة وزيادة الترف فرأى محمد علي باشا ابطال ذلك الامتياز فابطلهُ رحمة بالرعية

ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود خان يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم

والوهابيون فئة من المسلمين ذهبوا الى اغفال كل الكتب الدينية الاسلامية الاَّ القرآن الشريف فهم بمنزلة الطائفة الانجيلية عند المسيحيين . زعيمها الاول يدعى محمد عبد الوهَّاب ولد سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م) ولما شبَّ تفقَّه وحج ثم اظهر دعوتهُ فالتفَّت عليهِ احزاب كثيرة فافتتح نجد فالحجاز فالحرمين وما زال يفتح في بلاد العرب حتى توفي سنة ١٢٠٥ هـ (سنة ١٧٨٩ م) وسنهُ ٩٥ سنة فاستمرَّ احزابهُ في اعمالهم حتى سنة ١٢٢٤ هـ (سنة ١٨٠٩ م) تحت قيادة الامير سعود وقد اصبحت حدود مملكتهم من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر فنهبوا (١) الكعبة وقد استفحل امرهم ولم يرَ الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر على ما نقدم

فاجاب محمد علي باشا طائعًا وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك

(١) وقيل بل زهبوا الحجر النبوية في المدينة المنورة

الحملة لكنهُ فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في مأمنٍ منهم فيجمعون كلمتهم ويعودون الى ما كانوا عليهِ من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة لكنهُ في الوقت نفسهِ عمل على اعداد مواد الحملة فامر بتجنيد اربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنهِ طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل لهُ ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركبًا واعدَّها عند السويس في انتظار الحملة . اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام لما راوا ما حلَّ بسلفائهم وما عليهِ محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم فاقطعهُ ارضًا بين الجيزة وبني سويف والفيوم فأوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ ﻫ (فبراير (شباط) سنة ١٨١١م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون باقي الحملة ومعها طوسون باشا . وتعيَّن يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجهِ ورجالهِ الى قبة العزب فأُعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال في الوقت المعين وفي جملتهم المماليك وطُلب اليهم ان يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة في ٥ صفر سنة ١٢٢٦ ﻫ (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١ م) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجالهِ فاستقبلهم الباشا في سرايتهِ بكل ترحاب ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكلٌ في مكانهِ منهُ جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيقٍ بين هذا الباب والحوش العالي

امر محمد علي فانغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقًا على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعودًا على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من ورائهم بالرصاص فطلب المماليك الفرار بخيولهم من طرق اخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجّل بعضهم وفرّوا ساعين على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان ياتي بهِ الى كخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليهِ افواجًا وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعماية فلم ينجُ منهم الّا اثنان احدهم احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائبًا بناحية بوش والثاني امين بك كان قد اتى الى القلعة متأخرًا فرأى الموكب سائرًا نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما قفلت الابواب بغتة وسمع طلق النار علم المكيدة فهمز جوادهُ وطلب الصحراء قاصدًا سوريا . والمتبادر على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة همز جوادهُ فوثب بهِ من فوق السور لجهة الميدان فقتل جوادهُ وسلم هو والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا وابنهُ من القلعة وطافا المدينة فامر الباشا بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنهُ حرّض على قبض من يظفرون بهِ من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجًا

يسوقونهم كالغنم الى الذبح فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٢ بيكًا . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين القلوب وايقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفرًا جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية جميع نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهنَّ الاَّ لرجالهِ

ولما استتبت الراحة وخلت البلاد من المماليك انعكف محمد علي الى المهام الاخرى واخصها الوهابيون فكتب الى غالب شريف مكة يخبرهُ باستعدادهِ الى حملة تنفذهُ من فئة الوهابيين فتفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليهِ ان يمهد لهُ السبيل فاجابهُ شاكرًا ووعد بالمساعدة .

اما سعود امير الوهابيين فانبأتهُ الجواسيس بما نواهُ محمد علي فامر فاجتمع حولهُ خمسة عشر الفًا ليدفع بهم جنود مصر . اما محمد علي فسير حملة من ثمانية الآف مقاتل تحت قيادة طوسون باشا فركبت البحر من السويس حتى انتت ينبع على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة . فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجالهُ اولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا تاركين كل مؤنهم وزخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فأُنبئ محمد علي باشا بذلك فجنَّد جندًا كبيرًا وبعث بهِ مددًا لابنهِ فاشتد ازر طوسون وجمع اليهِ القوتين وسار حتى اتى المدينة فاطلق عليها النار فهدم بعض السور ثم دخلها واثخن في حامينها حتى سلمت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقد كان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح . واخلى الوهابيون مكة خوفًا من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيهِ ففرح فرحًا لا مزيد عليهِ لما اتاهُ الله من النصر على يد ابنهِ نصرًا لم يتأتَّ

لغيرهِ من القواد العثمانيين وجيء اليهِ بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسلهُ في غفر الى الاستانة فقتلوهُ حال وصولهِ اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٤ (سنة ١٢٢٨ه) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك يتغلبون عليهم فجندوا وساروا الى طرابايي[1] شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وتهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بدًّا من ذهابهِ بنفسهِ لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتى اتى جدة فنزلها في ٢٠ شعبان سنة ١٢٢٨ه (٢٨ اوغسطس (آب) سنة ١٨١٣م) فلاقاهُ الشيخ غالب شريف مكة وترحب بهِ وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف غالب ليس ممن يعتمد عليهم في الدفاع فعمد الى خلعهِ بطريقة تضمن حقن الدماء فنازع ثم وضع يدهُ على ممتلكاتهِ وبعث بهِ وبعائلتهِ الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات . اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في دراية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ه (١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنهُ عبدالله ولم يكن كفوًا لرعاية الجند . وحصلت بينهُ وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأتِ بنتيجة . وفي ٢٨ محرَّم سنة ١٢٣٠ه (١٠ يناير (ك٢) سنة ١٨١٥م) حصلت موقعة كبيرة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبدالله شتَّت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد . الَّا انهُ اضطر اخيرًا الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درايه[2]

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنهُ لم يُبِد جميع الوهابيين فوصل القاهرة في ٤ رجب

(١) تربة (٢) الدرعيه

سنة ١٢٣٠ هـ (يوليو (حزيران) سنة ١٨١٥ م) فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وكان اوّل من فعل ذلك في مصر فاصدر امرًا عاليًا في شعبان سنة ١٢٣٠هـ (يوليو (تموز) سنة ١٨١٥ م) مؤداهُ ان الجنود المصرية ستدرَّب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي الذي كان متبعًا اذ ذاك في سائر اوربا فعظم على الجهادية ولا سيما الارناوط الامتثال الى هذه الاوامر لانهم اعتبروها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما اصرَّ عليهم الاَّ ان يتبعوها ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم وانقاذهم من الجور فرأى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما ارادوا على نية ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هولاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز الى القاهرة فخرج الناس لملاقاتهِ بالاحتفال والاكرام ثم نزل الى الاسكندرية حيث كان ابوهُ مقيماً فوجد امرأتهُ قد وضعت اثناء غيابهِ غلامًا زكيًّا دعتهُ عباسًا . وبعد يسير اصيب طوسون بألم شديد في رأسهِ لم يعش بعدهُ الاَّ بضع ساعات . وكان محمد علي باشا قد توجه الى القاهرة . ولما اتصل بهِ الخبر كان على ضفة النيل الغربية بجوار اهرام الجيزة . فقالوا لهُ ان طوسون مريض فاسرع الى الاسكندرية لمشاهدتهِ فلما دنا من المكان علم بوفاتهِ فوقف مبغوتًا لا يبدي حراكًا وبقي على مثل تلك الحال ثلاثة ايام متوالية ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودُفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطَّم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعهِ فاخذ يهتم بامر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليهِ فكتب الى عبدالله بن سعود ان يأتي اليهِ بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم ليسير الى الاستانة . فاجابهُ يعتذر عن عدم امكانهِ الشخوص وقال ان تلك

الاموال قد تفرقت على عهد ابيهِ وارسل لهُ هدايا فاخرة فارجع اليهِ محمد علي تلك الهدايا واوسعهُ تهديدًا . ثم جرَّد اليهِ حملة عهد قيادتها الى ابنهِ ابراهيم باشا (جد سمو الخديوي الحالي) وكان باسلاً شجاعًا مقدامًا لا يهاب الموت شديد الغضب سريعهُ ولكنهُ كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامهُ عادلة صارمة . وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ (٢ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨١٦ م) سار ابراهيم باشا بجملتهِ من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شواطئ البحر الاحمر ومنها بحرًا الى جنبو ثم الى المدينة وتربَّص هناك بجميع قواتهِ يستعد الى هجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيهِ . فالتفَّ حولهُ عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قوَّاتهُ اقام الحرب سجالاً وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبدالله فارسلهُ الى ابيهِ فوصل القاهرة في ١٨ محرَّم سنة ١٢٣٤ هـ (١٧ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨١٨ م) فأُذن لهُ بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يدهِ فترحب بهِ كثيرًا لانهُ كان يعجب من جسارة الوهابيين ثم سألهُ ما ظنهُ بابراهيم فاجابهُ قائلاً « انهُ قد قام بواجباتهِ ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا اراد الله » . وفي ٢ محرَّم أُرسل الى الاستانة فطافوا بهِ في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوهُ . وخلع جلالة السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأةً لهُ وسماهُ واليًا على مكة . فانصلت هذه الاخبار بدراية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفرُّوا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة .

اما محمد علي باشا فانهُ نال من انعام امير المؤمنين لقب خان مكافأة لاخلاصهِ وبسالتهِ وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الاَّ حاكم القرم

ولما انهى هذا الرجل الخطير محاربتهِ في بلاد العرب فكر في افتتاح السودان على امل ان يصادف فيها الكنوز الثمينة من معادن الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك عما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجنَّد خمسة آلاف من

الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولادهِ فسارت الحملة من القاهرة في شعبان سنة ١٢٤٥ (يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرّت بهِ من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنّار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتدُّ بها هناك الاَّ الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار عاصمة كردوفان في املاك مصر فسار اسماعيل باشا في جنودهِ الى فرقل وهناك ظن انهُ اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجالهِ الوباء فمات منهم كثيرون ثم اتتهُ نجدة من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة صهرهِ احمد بك الدفتردار فاشتد ازرهُ فاقام صهرهُ هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عبر الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال فاستدعى اليهِ ملكها واسمهُ نمر وقال لهُ « اريد منك ان تأتي اليَّ قبل خمسة ايام بملءِ قاربي هذا من الذهب والتبن من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منهُ اخيرًا عوضًا عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة فاجابهُ الى ما اراد ولكنهُ لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليهِ تطويل الاجل فضربهُ اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجههِ قائلاً « لا ان كنت لا تدفع المبلغ فورًا ليس لك غير الخازوق جزاء » فسكت نمر وقد اضمر لهُ الشرّ وصمم على الانتقام فطيَّب خاطرهُ ووعدهُ باتمام ما يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل من التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل باشا علفًا للجمال وانما جعلهُ حول المعسكر كانهُ يريد اشعالهُ . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب من الاهالي يفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل وضباطهُ لذلك ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئًا فشيئًا حتى اصبح

كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم نمر بالهجوم فهجموا بغتةً على اسماعيل ورجالهِ ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوهُ فمات اسماعيل باشا وكثيرًا ممن كان معهُ بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظًا واقسم انهُ لا يقبل اقل من عشرين الف رأس انتقامًا لاسماعيل فنزل بجيشهِ القليل وحارب الملك نمر وتغلب عليهِ ولم ينفك حتى انفذ قسمهُ فقتل ذلك العدد من الرجال متفننًا في طرق قتلهم على اساليب مختلفة فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تم افتتاح السودان . وما زال احمد بك على حكومة سنار وكردوفان الى سنة ١٢٤٠ هـ (سنة ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

اما محمد علي باشا فعاد الى ما كان فيهِ من تدريب الجند على النظام الحديث وكانت قد تمهدت لهُ السبل فاسّس مدرسة عسكرية في الخانكاه كانت تعلّم فيها اللغات والحركات العسكرية وجعل سراية مراد بك في الجيزة مدرسة للفرسان واقام فيها اساتذة من الافرنج . وانشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع ولاصطناع جميع حاجيات الجند تحت مناظرة عملة من الافرنج . والفضل في ادخال النظام الجديد في الجيش المصري لاحد رجال الفرنساويين اسمهُ الحقيقي «ساف» لكنهُ لم يذعن لهُ الجند حتى اسلم ودعى نفسهُ سليمان باشا . ثم عكف محمد علي الى تنشيط الخارجية بحرًا فوجه انتباههُ الى ثغر الاسكندرية . وجعل فيهِ ترسخانة اتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا وفينيسيا ثم اقام فيها مدرسة اتى اليها بالاساتذة الماهرين من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصنًا منيعًا قد هدم الآن القسم الاعظم منهُ توسيعًا لمساحة المدينة

ثم حوّل انتباههُ الى محصولات البلاد فرأى ارضها خصبة وقد علم ممن عالجها في الازمنة الخالية انها كثيرة النتاج فجاء اليها بالقطن من

البذار (التقاوي) الاميركاني وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وجاء بمن يحسن زرعهُ منهم ومثل ذلك فعل بالافيون فانهُ اتى بهِ وبمن يزرعهُ من اسيا الصغرى . ثم اكثر من غرس الاشجار الكبيرة الى ما يشبهُ الاحراش تلطيفًا لحرارة الهواء واستزادة للغيث . وغرس في جزيرة الروضة بين القاهرة والاهرام حديقة فيها انواع الاشجار والرياحين اتى بها من اقصاء العالم وغرس مغارس الليمون في شبرا

ومن اعمالهِ من هذا القبيل غرس حديقة الازبكية وقد كانت اثناء الحملة الفرنساوية بركة من الماء كبيرة تتصل اليها مياه النيل ايام الفيضان وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليها الانوار المتعددة الالوان ومعهم آلات الطرب . فاحتفر محمد علي حولها ترعة تنصرف اليها المياهُ فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفًا من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . فلما كانت ولاية محمد سعيد باشا اصبحت هذه الحديقة مجموع قهاوي ومحلات لهو على النسق الاوربي حتى اذا كانت ولاية اسماعيل باشا الخديوي السابق احيطت بسور عليهِ شبك حديد بعد ان ردمت الترعة وجعل في وسط الحديقة بركة يأتيها الماء بقناة متصلة بترعة الاسماعيلية ولا يزال هذا شأنها الى اليوم

وبعد ان اكثر محصولات البلاد اخذ في تمهيد سبل التجارة فنظر في امر انشاء مينا امينة تأوى اليها السفن التجارية فلم تعجبهُ رشيد ولا دمياط لخشونة مرساها فاختار الاسكندرية فاحتفر الترعة الموصلة بينها وبين النيل ودعاها المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني . وكان افتتاح تلك الترعة في ٤ ربيع ثاني سنة ١٢٤٥ هـ (٣٠ يناير (ك ١) سنة ١٨٣٠ م) وكانت كثيرة الاستعمال لنقل البضائع الواردة بحرًا الى الدلتا فاكتسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى فتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من اوربا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط

الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء والمسافرين . واصلح مرفا بولاق . ثم عاد الى الصناعة فرأى ان ينشئ معامل لمعالجة القطن والنيلة وغيرهما من محصولات البلاد فانشأ معامل كثيرة في اماكن مختلفة لم ينجح منها الاَّ معمل الطرابيش الحمراء التونسية لكثرة طلاب هذه البضاعة في الشرق عمومًا اما حبوط باقي المعامل فلعدم وجود معادن الفحم والحديد في القطر

ثم جاء الى الاصلاحات الصحية وقد كانت البلاد في غاية الاحتياج اليها لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وما شاكل . والفضل في ايجاد المدارس الطبية والمستشفيات في القطر المصري للدكتور كلوت (ثم صار بعد ذلك كلوت بك واليهِ ينسب شارع كلوت بك في القاهرة) فانهُ ادى من الخدامات ما استوجب عليهِ ثناء محمد علي وحبهُ فقد تاسست بمساعي هذا الدكتور مستشفيات عديدة في سائر القطر المصري وانشئت مدرسة طبية وصيدلية مع مستشفى في ابي زعبل وراء الخانكاه ومدرسة اخرى في فن القوابل في القاهرة . واجاز محمد علي باشا لسوريا ان ترسل من ابنائها عددًا معلومًا يتعلمون الطب مجانًا . ثم اهتمَّ بالحالة العلمية فشكل مجلسًا للمعارف العمومية وقصد بهِ تعليم خدمة الحكومة الملكيين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم . وفتح مدارس كثيرة لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضًا منهم الى اوربا لتتميم دروسهم على مثال الارساليات العلمية في هذه الايام

وقسم القطر المصري الى اقاليم او مديريات جعل على كلٍ منها مديرا وقسم المديرية الى اقسام على الواحد منها مأمور مع بعض القوة العسكرية او الشرطة لمساعدتهِ في جمع الضرائب (الفردة) وكانوا يستخدمون الكرباج في تحصيلها . ومما اتاهُ من الاصلاح الداخلي تنظيم الضابطة فأمن الناس من غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون اثناء تجولهم في القطر اهانات ومشاقًا شديدة اما بعد تنظيم الضابطة فاصبحت

السبل في مأمن وتسهّلت الصلات التجارية وعلى الخصوص بين انكلترا والهند عن طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في امورٍ كثيرة

ومن مشروعاتهِ الخطيرة القناطر الخيرية على رأس الدلتا وتفصيل ذلك ان محمد علي باشا رأى ان النيل اذا وصل الى رأس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرعا رشيد ودمياط او الفرع الغربي والفرع الشرقي فالغربي يصب عند رشيد وهو اكبرهما ويمرُّ في اراضٍ معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب معظم مياههِ هدرًا والشرقي بالعكس فانهُ يخترق اراض واسعة الارجاء حسنة التربة . فاذا كانت ايام التحاريق لا يعود هناك مياه كافية للري فارتأى ان يتخذ وسيلة يتيسر لهُ بها الانتفاع بما يزيد من مياه الفرع الغربي باضافتهِ الى الشرقي ورأى ايضًا ان النيل اذا كانت ايام فيضانهِ يذهب جانب عظيم من مائهِ هدرًا فاذا كانت ايام التحاريق تحتاج الارض الى الري ولا سيما في الصعيد على ان ارض الصعيد لا ترتوي كلها الاَّ اذا كان الفيضان وافيًا . فاقر على ابتناء قناطر على عرض الفرعين عند اوَّل تكونهما في رأس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر ابوابًا من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء بحيث يمكنهُ سد القناطر وفتحها متى اراد فاذا سدَّ قناطر الفرع الواحد وفتح قناطر الآخر انصرفت المياه الى الفرع المفتوح . وبهذه الواسطة يمكنهُ صرف المياه الى حيث شاء واذا كان الفيضان غير وافٍ تسد القناطر كلها فترتفع المياه في الصعيد وتسقي اراضيهِ ثم لا يصرف منها الاَّ ما يلزم لري الوجه البحري . فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض الماء والارض في احتياج اليها . فاقرَّ رأيهُ على مباشرة العمل فوضع الحجر الاول لتلك القناطر سنة ١٢٥١ هـ (سنة ١٨٣٥ م) ودعيت القناطر الخيرية او البراج وهي الآن تامة البناء . غير ان ذلك المشروع لم يأتِ بالفائدة المطلوبة تمامًا لان الماء

في الصعيد لم يرتفع الى القدر المطلوب فضلاً عن ان البناء لم يكن متيناً كاللازم فاهتمت نظارة الاشغال مؤخراً في سدّ هذا الخلل . ومن آثاره ايضاً مطبعة بولاق الاميرية وقد زاد فيها من جاء بعده من الولاة وهي لا تزال الى الآن عامرة عاملة تزيد تحسناً كل يوم وتنفق عليها الحكومة المصرية الآن ٢٢٤٠٠ جنيهاً وهي تابعة لنظارة المالية

ولما اتم محمد علي تلك الاصلاحات العمومية فكر في امر راحته الخصوصية فابتنى القصور والسرايات لاقامته في القاهرة والاسكندرية وشاد له بيتاً في القلعة لسكناه في فصل الشتاء . وانشأ جنائن في شبرا بجوار القاهرة للتنزه وابتنى في الاسكندرية ابنية للمصيف

وقد باشر محمد علي باشا هذه الاصلاحات وانهاها والمشاغل السياسية تنتابه من كل ناحية وتخلل مشروعاته فكان لا يلبث ان يباشر عملاً حتى يحدث من القلاقل او المشاغل ما يستدعي اهتمامه فيهتم به حتى يصرفه فيعود الى مشروعاته كل ذلك مما يدلنا دلالة صريحة على عزيمة ونشاط هذا الرجل العظيم

وفي سنة ١٢٤٩ هـ اوسنة ١٨٣٥ م ارسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا فسار وحارب وعاد ظافراً بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل . ثم ثارت حكام سوريا على الباب العالي وفي جملتهم عبدالله باشا حاكم عكا فجرّد محمد علي باشا سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطوبجية عن طريق العريش برّاً وسار ابراهيم باشا في بطانته بحراً . اما حملة البرّ فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ (٢٦ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٣١ م) فحاصرها برّاً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها (٢٧ مايو (ايار) سنة ١٨٣٢ م)

فهجم عليها هجمة نهائية شنّت عن تسليمها . ثم سار قاصدًا دمشق فاخضعها ولم تدافع الاَّ يسيرًا وبارحها الى حمص حيث كانت تنتظرهُ الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٩ ربيع اول سنة ١٢٤٨ ﻫ (٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م) فعسكر فهجم عليهِ محمد باشا وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت لهُ حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السرعسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حدّهِ فجاء وعسكر في اسكدرونة فلاقاهُ ابراهيم باشا وحاربهُ وانتصر عليهِ ولم يعد يلاقي بعد ذلك مقاومات تستحق الذكر . ثم تقدم في اسيا الصغرى تاركًا طورس وراءهُ . وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاتهِ فجنّد ابراهيم باشا جندًا كبيرًا من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في كونيه جنوبي اسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجالهِ واخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى حتى تهدّد الاستانة

فتداخلت الدول وفي مقدمتهنّ الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس موارافيف لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديدهِ فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابيًا لخراج ادنه وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ ﻫ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامهُ في انطاكية وابتنى فيها سراية وقشلاقات وولى اسمعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس اما الاجراآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد

ان يتداخل فيها الاَّ هو

وكان ابراهيم باشا سائرًا بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الاَّ انهُ مع ذلك لم ينجُ من ثورة ظهرت في نواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف سنة ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطرَّ ابراهيم الى المحاصرة في اورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدَّت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو «حزيران» منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم اجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوهُ بصفد ويقال بالجملة ان سوريا صبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبارح الاسكندرية الى يافا فتقربت منهُ وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الاَّ النابلسيون فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا اخيرًا ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب واعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين تحت قيادة الامير خليل بن الامير بشير امير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم ثم سعى ابراهيم باشا الى تجريد السوريين من السلاح خوفًا من عودهم الى الثورة ففعل لكنهُ لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام وكانهما خلقا ليتحدا ولا يخفى ان ابراهيم باشا قد استفاد من ذلك الاتحاد وكذلك الامير بشير لانهُ كان آخذًا جانب المسيحيين لاعتناقهِ الديانة المسيحية حديثًا . وكان يودُّ اتحادهُ مع من يؤيد سلطتهُ ويساعدهُ على اعدائهِ الدروز

وبعد ان اتم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير جاء الى بعلبك فوصلها في ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٢ هـ (٣ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٣٦ م) وفي تلك الليلة اعد رجالهُ لمهاجمة الشوف في لبنان (مركز قوات الدروز) في ثلاث فرق وجاءت فرقة رابعة من بيروت تحت قيادة سليمان باشا لمحاصرة بيت الدين فوصل الجميع في وقت واحد . فانذهل الدروز لهذه المباغتة واضطروا الى التسليم . وثار اهالي المتن ثم سلموا . وفي ٢٤ جمادى الآخرة او ٩ اكتوبر (ت ١) اتم ابراهيم تجريد الدروز من سلاحهم وارسل الامير بشير بعض الضابطة الى بيوت المسيحيين وهم في الكنيسة فدخلوها واخذوا ما وجدوا فيها من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوهُ منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم . فاستتبت الراحة في سوريا واذعنت البلاد حتى اصبحت اطوع من الظل . الاَّ ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمهِ فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق زجرية فشق ذلك على الباب العالي فعقد مجلساً في ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٥٢ هـ (٢٢ يناير (ك ٢) سنة ١٨٣٧ م) للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم ٣٥ الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة جلالة السلطان محمود خان وان تكون تحت قيادة حافظ باشا وان تسير لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة تحت عناية حفيدهِ عباس باشا فلما عاد اليها اول سنة ١٢٥٤ هـ علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنهِ يستحثهُ فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشهُ في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برًّا . ثم علم ان معظم الاهالي راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت

مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . واتفق في اثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان محمود خان في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٤ هـ او ٣٠ يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٩ م قبل بلوغهِ خبر المواقع فتولّى الخلافة السلطان عبد المجيد

ش ٨٩ نقود السلطان محمود الثاني

وترى في شكل ٨٩ صورة نقود السلطان محمود الثاني مضروبة في مصر وعليها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٢٣ هـ وهي سنة توليتهِ ومن الاعلى تاريخ ٢٣ اي السنة الثالثة والعشرين من حكمهِ فتكون هذه القطعة من المعاملة مضروبة سنة ١٢٤٦ هـ . وعليها من الوجه الآخر الطغراء باسم السلطان المشار اليهِ

وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما اصاب الحملة البرية

ثم توالت الحوادث الى ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٢٥٥ هـ او ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا قاضية باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الاَّ ان ذلك لم يكن ليوقفهُ عن مقاصدهِ ولديهِ اذ ذاك نحو ١٤٦ الفًا من الجنود النظامية و ٣٢ الفًا من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنهِ ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندي ومصر لكنهُ علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمهُ لاتمام مشروعاتهِ فجعل يضم اليها كل تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء غفر وطني احتياطًا ولكنهُ لم ينجح بهِ كل النجاح على انهُ مع ذلك لما عرضت عليهِ معاهدة لندرا لم

يصادق عليها فعرُض عليهِ ان يأخذ ولاية عكا ترضية لهُ ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفرَّ ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابير قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا وقد حصَّنها تحصيناً منيعاً ومعهُ فرقتان من الجند وانما لسوء الحظ جاءتهُ الانباء ان ابراهيم قتل وتشتتت رجالهُ فخاف سليمان ورأى ان لا بد لهُ من تاكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليهِ ما بقي من الجيوش للمدافعة فبارح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد اميرالايات الفرقتين اما هذا فلما رأى نفسهُ منفرداً في بيروت خاف فترك المدينة وفرَّ فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل بهِ من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حيًّا ويأمرهُ بالثبات امام العدو لبينما يحضر فخاف صادق بك الوقوع في شر اعمالهِ فانضم الى الانكليز هو ورجالهُ . ثم سار نابير من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقَّع عليها الطرفان وعند ما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الاشياء على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فاراد جلالة السلطان مكافأة محمد علي فاعطاهُ ان تكون ولاية مصر وراثية لنسلهِ بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها فتردد محمد علي في بادئ الرأي . ثم امر جيوشهُ ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مائة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها الاَّ خمسون الفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً فلم يرَ بدًّا من قبول انعام جلالة السلطان . فبعث الى الباب العالي بذلك فارسل اليهِ خطًّا شريفاً

بتاريخ ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٦ ﻫ او ١٢ فبراير «شباط» سنة ١٨٤١ م بتثبيتهِ على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابهِ وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب وغير ذلك . ثم صدر فرمان آخر يثبّت ولايتهُ على نوبيا ودارفور وكردوفان وسنار فاصبحت حكومتهُ بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى الخط الشريف تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبقَ عندهُ الاَّ ثمانية عشر الفًا بين مشاة وفرسان وغيرهم فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيرًا من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شوبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاوروباويين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعًا بما قسم لهُ من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالتهِ ابنهُ سعيد باشا لتقديم واجب العبودية

فعادت العلاقات الودية واستتبت الراحة وقد انف محمد علي من الحروب وانعكف الى استرجاع ثروة البلاد ورغدها فاهتم بالزراعة على نوع خاص ولما رأى ان الفلاح لا يستطيع من نفسهِ امرًا كافلاً اخراجه مما هو فيهِ من الضيق ورأى انهُ لم يعد من حاجة لبقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع بقاء روانبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديهِ الى الطرق اللازمة لاستقامة امرهِ ووازع يدفعهُ الى النهوض بواجباتهِ وعلم ايضًا ان المرء مهما كان صادقًا في خدمة الحكومة يشتغل لنفسهِ اكثر مما يشتغل لغيرهِ ارتأى ان يعهد بامر البلاد الى اولئك الامراء مفوضًا لهم تعميرها واصلاحها بانفسهم ففعل ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابهِ

بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بان لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الواسطة نشطت الزراعة وتحسّنت تحسّناً عظيماً وما زالت الاراضي المصرية في يد المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها من المتعهدين واعادها الى اربابها . وفي جمادى الآخرة سنة ١٢٥٧ هـ او سبتمبر « ايلول » سنة ١٨٤٢ م انعم جلالة السلطان على محمد علي باشا برتبة صدر اعظم مكافأة لمثل هذه الاجراآت النافعة

واصيبت مصر هذه السنة بضربات وبائية في مواشيها وفي السنة التالية سطا عليها الجراد فاهلك مزروعاتها فتضايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة الناس سنة ١٢٥٩ هـ او ١٨٤٤ م لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم والحاج الحكومة في طلبها بكل واسطة وكانوا اذا خلت قرية من اهلها اضافوا رسومها على القرية التي بجانبها فكثر اللغط في البلاد . كل ذلك من سوء تصرف العمال ومحمد علي باشا غير عالم بشيء لانهم لم يكونوا يطلعونه على حقيقة الامر خوفاً من تاثير الغضب عليه لانه كان قد طعن في السن وملّ معاطاة الاحكام . فرأى ابنه ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال عن ابيه ربما يأول الى خراب البلاد فاخذ على نفسه القيام بتبليغ ذلك اليه فكلّف شقيقته في ٢٥ يونيو ان تبلغ اباها بطريقة غير رسمية ما وصلت اليه البلاد من العسر وما نتج عن ذلك من التشكيات والتظلمات المتواترة . فاشتعل محمد علي غيظاً وحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدّوها له فبارح سرايته في الاسكندرية وسار توًّا الى قرية صهره محرم بك بجانب الترعة المحمودية وجعل يغلظ في القول على مسمع ممن كان حاضراً هناك مصرحاً انه محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة

والذهاب الى مكة . فحاول ابناه ابراهيم باشا وسعيد باشا مخاطبتهُ واستعطافهُ فلم يصغ فجاء سامي باشا وكان من اعز اصدقائهِ وخاطبهُ فلم يقتنع الاَّ بما سبق اليهِ فهمهُ وان ذلك لم يحصل الاَّ عن يد خائنة تدس السم في الدسم فاستنتج الحضور من تلك الاعمال انهُ أُصيب بتغيير في عقلهِ . ثم ترك محمد علي القرية وسار في بعض حاشيتهِ وطبيبهِ قاصدًا القاهرة فتحدَّث الناس في الاسكندرية وعرضوا على ابنهِ ابراهيم باشا ان يتولى مكانهُ فاجاب انهُ لا يقبل ذلك طالما كان ابوهُ حيًّا

ولما جاء محمد علي القاهرة كان قد عاد الى روعهِ وفطن لنفسهِ فجمع اليهِ رجال ماليتهِ ووبَّخهم لاخفائهم تظلمات الاهالي عنهُ ثم تداخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل . وكان على ديوان المالية شريف باشا حاكم سوريا سابقًا وعلى ديوان المدارس ادهم بك

وفي صيف سنة ١٨٤٥ م (١٢٦٠ ﻫ) اصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحتهِ فسار الى اوربا ترويحًا للنفس فاصاب ترحابًا عظيماً في سائر الممالك الاوربية ولا سيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف سنة ١٨٤٦ م (١٢٦١ ﻫ) وكان والدهُ قد توجه قبل وصولهِ بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديتهُ لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٦ م (١٢٦٢ ﻫ) ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي امير المؤمنين فترحب بهِ ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكهُ واجلسهُ بجانبهِ ومكث معهُ ساعة يتحادثان ثم انصرف شاكرًا وزار عدوَّهُ القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة بارح الاستانة قاصدًا قوله مسقط رأسهِ فاقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم بارحها الى الاسكندرية فتقبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليهِ المهنُّون من الاصدقاء افواجًا فكان يستقبلهم وعلى صدرهِ الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

ولاية ابراهيم باشا بن محمد علي

وفي منتصف سنة ١٢٦٤ هـ (سنة ١٨٤٨ م) توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيهِ ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدٌّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيتهِ على ولاية مصر خلفاً لابيهِ فثبَّتهُ السلطان بنفسهِ فعاد لمعاطاة الاحكام وكان مهيباً اكثر مما كان محبوباً بخلاف والدهِ الذي كان مهيباً ومحبوباً معاً . ثم راجعهُ العياء واشتد عليهِ بغتةً ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر «ت ٢» سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاتهِ باحدى عشر ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي جنوبي القاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستُقدم حالاً لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج وبما انهُ اكبر ابناء العائلة لم يكن ثم اعتراض على توليتهِ فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولَّى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منهُ العياء مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلاً حتى ٢ اوغسطس «آب» سنة ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس ذلك لانهُ مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منهُ تقاطر الناس من الاعيان والفناصل الى سراي راس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا بهِ في قاعة الاستقبال موضوعاً في محمل تغطيهِ شيلان الكشمير وعلى صدرهِ سيفهُ والقرآن الكريم وعلى رأسهِ طربوشهُ الجهادي احمر تونسي وحولهُ ٢٢ من العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة . وكان سعيد باشا اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوهُ خطابات التعزية .

ثم نقلهُ سعيد باشا الى القاهرة ودفنهُ في جامعهِ في القلعة ولم يكن الجامع تام البناء بعد ولا يزال هناك الى هذه الغاية

« صفات محمد علي باشا الشخصيَّة في آخر أيَّامهِ »

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غابرها صغير الفم باسمهُ كبير الانف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة . ابيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديهِ متصالبتين وراء ظهرهِ غالبًا وعلى الخصوص اذا مشى في دارهِ متفكرًا في امر « وكذلك كان يفعل بونابرت » . وقلما كان يتفاخر باللباس فكان لباسهُ غالبًا على زيّ المماليك وعلى رأسهِ الطربوش الجهادي ثم ابدلهُ بالعمامة فزادتهُ هيبةً ووقارًا وابدل اللباس العسكري بلباس واسع بسيط لا يمتاز بهِ عن بعض اتباعهِ

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابهِ الَّا رجل واحد يخفرهُ . واذا استوى في مجلسهِ لا يتقلد السلاح انما يجلس وفي يدهِ حقة العاطوس والمسبحة يتلاهى بها وكان يحب العاب البلياردو والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط واما جلساؤهُ العاديُّون فالقناصل وكبار السواح وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ جدًّا ويلقبونهُ احيانًا بسيد المماليك او مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيرًا ما كان ينقاد بدسائس المفسدين وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفًا . وكان يتفاخر بعصاميَّتهِ ويرتاح للتكلم عن سابق حياتهِ . وكان محبًّا للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يعتبر الجرائد وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها لهُ فيطالعها بتمعن

اما هواجسهُ السياسية فكانت تقلق راحتهُ فلا ينام الَّا يسيرًا وقلما يرتاح في نومهِ ولا ينفك متقلبًا من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشهِ

اثنين من خدمتهِ يتناوبان اليقظة لتغطيتهِ اذا انكشف عنهُ الغطاء من النقلب . ويقال ان من جملة دواعي ارقهِ الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليهِ كثيرًا وكان قد اصيب بها في حملتهِ على الوهابيين على اثر رعب شديد . على ان ذلك الأرق لم يكن ليضعف شيئًا من سرعة حركتهِ فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهارهُ في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبة استعراضات العساكر واستطلاع امور اخرى تتعلق بصوالح الامة . وكان بارعًا في الحساب بغير تعلم لانهُ شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره ويقال انهُ ابتدأ بتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمهِ والكتابة على احد المشائخ وهذا مما يزيده شرفًا وفخرًا ويبرهن على ما فطر عليهِ من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن الاسلوب . وكان متمسكًا بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرّب اصحابها منهُ ويعهد اليهم اهمّ اعمالهِ

ويقال بالاجمال انهُ كان لرعيتهِ ابًا حنونًا وصديقًا مخلصًا ولذوي قرباهُ نصيرًا مسعفًا ولاولادهُ ابًا حقيقيًّا ولذلك تراهُ بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليهِ الحزن حتى اثر في صحتهِ تأثيرًا رافقهُ الى اللحد . اما محبّة الرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عمومًا اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد فضائلهِ ينطق جمادها بمزيد فضلهِ هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنائن هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب تردّد ما لاقتهُ من نجدتهِ . وقد كان معتبرًا ليس فقط من رعيتهِ او ذويهِ بل من الاجانب البعيدين منهُ وطنًا ودينًا ومشربًا وكثيرًا ما تقربوا اليهِ بالنياشين والهدايا اقرارًا بفضلهِ على العالم عمومًا بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص

ولاية عباس باشا

من سنة ١٢٦٥ ــ ١٢٧٠ ﻫ او من ١٨٤٨ ــ ١٨٥٤ م

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد سنة ١٢٢٨ ﻫ او ١٨١٢ م وربي احسن تربية وكان محبًّا لركوب الخيل فرافق عمهُ ابراهيم باشا في حملتهِ الى الديار الشامية وشهد اكثر المواقع . وفي ربيع آخر سنة ١٢٦٥ او دسمبر «ك١» سنة ١٨٤٨ م تولى زمام الاحكام على الديار المصرية واتبع خطوات سابقية وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جدهُ كان يحبهُ كثيرًا فاعتنى بتعليمهِ في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاتهِ المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان لهُ غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي وكان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ ﻫ وتشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد فاحبهُ وزوَّجهُ بابنتهِ وغمرهُ بنعمهِ فرجع الى مصر شاكرًا حامدًا والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم سمو الخديوي الحالي توفيق الاول

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيدهِ وقد كان لذلك احتفال عظيم حضرهُ كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيهِ الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي ايامهِ كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسهِ لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فالقى في الجمهور خطابًا

بليغًا منشطًا

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو «تموز» سنة ١٨٥٤م في سرايتهِ في مدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

ولاية سعيد باشا

من سنة ١٢٧٠ ــ ١٢٧٩ ه او من ١٨٥٤ ــ ١٨٦٢ م

هو ابن ساكن الجنان محمد علي باشا ولد في اسكندرية سنة ١٢٤٧ ه « ١٨٣٢ م » وكان محبًّا للعلم بارعًا فيهِ وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيدًا . تولّى زمام الاحكام سنه ١٢٧٠ ه او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيهِ وكان محبًّا للعدل والفضيلة مهتمًّا بالاصلاح الاداري . ومن اعمالهِ المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيرًا من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامهِ تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطًا كبيرًا واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دُعيت باسمهِ وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من تولّيهِ على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند راس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرت على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعهِ والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند راس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما

يكون من الرسم وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد ان المغفور لهُ محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيدهِ في يوم الاحد ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٧١ هـ لاجل حماية الديار المصرية . وهاك نص ما هو مكتوب هناك بالحرف الواحد بلغتهِ الاصلية

«قواله لى مشهور محمد علي صلبندن بيك ايكيبوز اوتوز بدي سنه هجريه سنده اسكندريه ده دنيايه كلوب يتمش سنه سي شوال المكرمنده خطه جسيمه مصره حكمي جاري اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايجون اشبو استحكامات قويه يه بيك ايكيبوز يتمش بر سنه سي جمادى الثانينك يكرمي اوچنجي دوشنبه كوني ومولودينك اوتوز دردنجي سنه سي كندي يديله وضع اساس ايتمشدر »

وفي ايامهِ ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدأت الاحوال . ولما اختتن نجلهُ طوسون بك اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى القاتلين . وقد زار محمد سعيد باشا الحرمين وادّى فروض الحج ولذلك يلقبونهُ بالحاج محمد سعيد باشا . وفي ايامهِ اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولّى عليها البرنس حليم باشا حكمدارًا . وفي سنة ١٢٧٦ هـ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت مدة ثلاثة ايام ونزل ضيفًا كريمًا على وجهاء المدينة وكان اثناء مرورهِ في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفي المغفور لهُ السلطان عبد المجيد وتولى الخلافة بعدهُ السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ او ١٧ يناير (ك٢) ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ثم نقل الى المدفن الملكي في مصر ودفن في جامع النبي دانيال

ولاية اسماعيل باشا خديوي مصر الاول

من سنة ١٢٧٩ ـ ١٢٩٦ ﻫ او من ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م

هو ثاني ابناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد علي باشا ولد سنة ١٢٤٦ ﻫ او ١٨٣٠ م وتربى احسن تربية وتثقفت قواه العاقلة بالعلم والمعرفة فاتقن فن الهندسة وبرع على الخصوص في التخطيط والرسم ثم جال في اوربا واختبر احوالها وعوائدها . وفي ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ ﻫ او ١٨ يناير (ك ٢) ١٨٦٣ م تولى زمام الاحكام في الديار المصرية بعد وفاة عمّهِ سعيد وفي سنة توليتهِ شرف هذه الديار بحلول اعنابهِ الشريفة جلالة المغفور لهُ السلطان عبد العزيز خان فلاقى ترحاباً لم يسبق لهُ مثيل . وكان اسماعيل باشا كثير الميل الى تحسين المدن الى ما يقربها من زي مدن اوربا فشرع في ذلك وكان شديد الرغبة فيهِ الى ما يفوق التصديق فتسهلت سبل التجارة في ايامهِ ونقاطر الى الديار المصرية الاجانب افواجاً افواجاً . وفي سنة ١٢٨٢ ﻫ او ١٨٦٦ م نال من الباب العالي خطًّا شريفًا مؤذنًا بالارث الصريح في عائلتهِ وسيأتي شرح ذلك وفي السنة التالية نال من انعام جلالة السلطان لقب خديوي وهو اول من نال هذا اللقب الذي هو ارفع رتب وزراء الدولة

وفي ١٤ شعبان سنة ١٢٨٦ ﻫ او ١٩ نوفمبر (ت ٢) ١٨٦٩ م كان الاحتفال بافتتاح ترعة السويس وبالنظر لعظم اهمية هذا العمل وفائدتهِ لعالم التجارة في سائر العالم رأيت ان افرد فصلاً مخصوصًا اشرح فيهِ تاريخ الوسائل التي اتخذت منذ القديم لايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر فاقول

ش ٩٠ اسماعيل باشا الخديوي السابق

فصلٌ

في ملخص تاريخ الوسائل التي اتخذت لايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر

ما برح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون الى ايجاد مثل هذا الاتصال وقد اتخذوا لذلك سبلاً عديدة تعود الى ثلاثة

(١) بواسطة النيل وفروعهِ
(٢) « النيل والصحراء
(٣) « ترعة مالحة

وقبل شرح كلّ من هذه الوسائط نأتي على شيءٍ من جغرافية مصر القديمة نعني بها الخارطة التي رسمت في عهد اليونان وهي تمتاز عن الخارطات الحديثة على الخصوص بتعداد فروع النيل ومواقعها وامتداد البحر الاحمر وبحيرات اخرى (انظر خارطة مصر في ايام الفراعنة)

فالنيل الآن بعد ان ينقسم بالقرب من القاهرة الى فرعَيهِ الكبيرين يسيران شمالاً فيمر الشرقي منهما بينها فميت غمر فسمنود فالمنصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط. والغربي يمرُّ بمنوف فكفر الزيات فدسوق الى ان يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد. وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن وقلما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية. اما في الازمنة الخالية فكانت لهما فروع اخرى كبيرة اكبرها متفرع من الفرع الشرقي. وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد ان يصل الى قرب بنها يسير منهُ فرع غربي ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة

نصب عند بحيرتَي المنزلة والبرلس . وكيفية ذلك انهُ اذا تجاوز اتريب (اتريبس) قليلاً تفرع منهُ فرعٌ كبير شرقيٌّ يقال لهُ فرع بلوسيوم يسير الى الشمال الشرقي فيمرُّ ببوباسطس (تل بسطة) فالصالحية فدفنة الى ان يصب في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي الفرما و يتفرع ما بقي الى فرعين او اكثر قد اغفلنا ذكرها لاستغنائنا عنها فيما نحن في صددهِ . اما بحر القلزم او البحر الاحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجًا يدعى خليج هيروبوليس نسبة الى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من رأسهِ بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة) . واذ قد تمهد ذلك نقول

(١) « الاتصال بواسطة النيل وفروعهِ »

قد مرَّ بك في الكلام عن العائلة التاسعة عشرة الملكية في فذلكة تاريخ مصر القديم من هذا الكتاب ان الملك سيتي الاول هو اول من سعى الى ايصال النيل بالبحيرة المرة الكبرى ويظن ارستوتل وسترابو وبلينيوس ان سيزوستريس (رعمسيس الثاني او الاكبر) هو اول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد وربما كان ظنهم هذا مبنيًّا على ان هذا الملك هو الذي اسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجحوا انهُ احتفر اليها ترعة من النيل لريّها وهذه الترعة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيتم الاتصال المطلوب . اما المعول عليهِ بالاسناد الى المصادر التاريخية الوثيقة ان اول من اخرج ذلك الى عالم الفعل انما هو الملك نخاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباسطس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القنال حتى هيروبوليس ويقال ان امتداد هذه الترعة كان ٦٣ ميلاً من الاميال الرومانية (نحو ٥٧ ميلاً انكليزيًّا)

فلما استولى الفرس على مصر اتمَّها الملك داريوس (دارا) بن هستاسبس

سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الاحمر قد كاد يمتلئ من الرواسب فامر بحرفه وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة اميال ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف اذ ذاك ان البحر الاحمر اعلى من النيل فلم يجسر نخاو ولا داريوس على ايصال ترعتها هذه الى الخليج تماماً خشية ان يختلط الماآن او يطوف المالح على العذب . فتمّت المواصلة اذ ذاك على هذه الصورة . تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم الى بوباستس ومنها في تلك الترعة الى هيروبوليس ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات الى مراكب البحر الاحمر على الدواب او غيرها فكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولّى بطليموس فيلادلفوس وجّه اهتمامهُ الى اصلاح ذلك الخلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة موصلة بين هيروبوليس وراس البحر الاحمر وترعة اخرى من هيروبوليس الى خليج هيروبوليس ووسع المضيق فاصبح هناك ترعتان وكلاهما متصلتان بالبحر الاحمر واتخذ حواجز واحتياطات اخرى لمنع طغو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن ان تمرّ الى الخليج والى البحر الاحمر مع توقّي الطغيان . وابتنى عند مصب الخليج في البحر الاحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة تجارية تنتهي اليها المراكب القادمة عن طريق النيل وتقلع منها السائرة في البحر الاحمر وبالعكس

ثم اخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئاً فشيئاً حتى نضح ماؤهُ فبطلت تلك الترعة . حتى اذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص كما مرَّ بكَ امرهُ الخليفة بانشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها الى الحجاز فاحتفر ترعة دعاها خليج امير المؤمنين فابتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدئ خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر الفسطاط حتى

القاهرة اليوم ومنها الى المطرية ومنها الى بوباسنس حيث تبتدئ الترعة القديمة ومن بوباسنس الى البحر الاحمر . وما زالت تسير السفن في خليج امير المؤمنين من الفسطاط واليها مدة ١٣٤ سنة حتى ايام الخليفة المنصور ابي جعفر ثاني الخلفاء العباسيين ومؤسس مدينة بغداد فامر بردمهِ منعًا لامداد العلويين الذين ثاروا في المدينة وما زال مردومًا الى الآن ويقال ان الملك الحاكم بامر الله الفاطمي امر بحفرهِ سنة ١٠٠٠ للميلاد لتسيير فيهِ السفن الصغيرة ثم اهمل فطمرتهُ الرمال . ولم يبقَ من اثارهِ الآن الاَّ الخليج الذي يقطع القاهرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . ينشأ من فم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل ان يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة الفيل ثم سراي درب الجماميز فتكيَّة الحبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا الى ان يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركًا كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان الى يسارهِ وكنيسة الارمن وكنيسة القبط الى يمينهِ الى ان يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينهِ ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركًا جامع الظاهر الى يمينهِ حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي . اما فائدة هذا الخليج الآن فمقصورة على ري المدينة وبعض ضواحيها وهو الخليج الذي يحتفلون بفتحهِ سنويًّا عند وفاء النيل بين الخامس والسادس عشر من اوغسطس (آب)

(٣) « الاتصال بواسطة النيل والصحراء »

اوجد هذا الاتصال مربرع احد ملوك العائلة السادسة ثم اتمهُ حنُّو في ايام العائلة الحادية عشرة كما مرَّ بكَ غير ان بعض المتاخرين يزعم ان بطليموس فيلادلفوس المتقدم ذكرهُ هو الذي اوجد هذا الاتصال ولعلَّ

الصواب انهُ اعادهُ بعد اهمالهِ

والاتصال المذكور يتم بطريق في الصحراء بين برنيس على البحر الاحمر وقفط على النيل بقرب قوص بمصر العليا فكانت المنقولات تحمل على الجمال اوما شاكل من برنيس الى قفط ومن هناك تنقل على مراكب نيليَّة الى البحر المتوسط عن طريق دمياط اورشيد وما زالت هذه الطريق عظيمة الاهمية حتى اكتشف راس الرجاء الصالح جنوبي افريقيا سنة ١٤٩٧م فانحطت اهميتها . ولما فتح خليج السويس كادت تهمل كلية لكنا نرى انها لا تزال تستعمل في بعض الاحوال وقد اصبح الاتصال الآن بين القصير على البحر الاحمر وقنا على النيل عوضًا من برنيس وقفط وقد يكون الى قفط ولا تستعمل الَّا اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الاحمر ومصر العليا رأسًا

(٢) « الاتصال بواسطة ترعة مالحة (ترعة السويس)

كانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها واكثرهم اشتغالاً بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر فلما اكتُشف رأس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا في امر انشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر اذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت المخابرات بهذا الشان دائرة حتى الفتوح العثماني سنة ١٥١٧م فبطلت واهمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنساوية اهتم نابوليون بونابرت بذلك الاتصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعهُ المهندس الشهير موسيو لابير سنة ١٢١٢هـ او ١٧٩٨م وتفحصاهُ تفحُّصًا مدققًا فاكتشف لابير ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدمًا ولذلك رأى عدم مناسبة فتح ترعة موصلة بين البحرين رأسًا فقدم التقرير الآتي وهو يتضمن افضل ما رآه من الطرق

(١) المواصلة بواسطة النيل وفروعهِ وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبخليج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرّة حيث يقام حواجز ومن هناك الى السويس بترعة مالحة

(٢) المواصلة بين البحرين رأساً وكيفية ذلك ان تحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة وباوسيوم

الاّ ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذهُ قبل ان قضي على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ هـ او ١٨٣٧ م اقامت شركة البواخر الشرقية خطًّا للمواصلة بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بكيفية ان تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى اول البرزخ فتنقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ هـ او ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لاير فقررت ان الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعبأُ بهِ الاّ انها انحلت ولم تصل الى نتيجة تاركة ذلك الى احد اعضائها الموسيو تالابوت فكان من رأيهِ تتبع الترعة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الزقازيق) رأساً واحتفار ترعة من هناك الى رأس الذلتا حيث القناطر الخيرية الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك الترعة الى البر الغربي ومن هناك تتم الترعة الى الاسكندرية فكأنهُ يريد ايصال البحرين بترعة تمرُّ بين السويس والاسكندرية وتقطع الذلتا عند رأسهِ فلم يصادف مشروعهُ استحسانًا لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم تقدم تقرير آخر من الخواجات بارولت من مقتضاهُ ان يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل هناك وتتم الترعة الى رشيد فيقطع فرع رشيد ايضًا وتوصل الترعة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا نجاحًا ايضًا لمشابهتهِ

بمشروع نالابوت

وفي سنة ١٢٧١ هـ او ١٨٥٥ م اهم لينان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلسبس في امر هذه المواصلة بعد ان حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر اذ ذاك فاقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم مارة في البحيرات المرة فبحيرة التمساح فالمنزلة وان تتصل هذه الترعة من طرفيها بحواجز عند النقائها بالبحرين واقروا ايضاً على احتفار ترعة عذبة من بولاق مصر الى منتصف البرزخ ومن هناك الى السويس لاجل حمل المياه اللازمة للشرب والري وترعة توصل المياه الى بلوسيوم. فعمل الموسيو دلسبس تقريراً في ذلك وعرضهُ سنة ١٢٧٢ هـ او ١٨٥٦ م على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول اوستريا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فادخلت فيهِ تحويرات من مقتضاها ان تنتهي تلك الترعة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ١/٢ ميلاً الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك ان مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و ٣٠ قدماً على مسافة ميلين من الشاطئ اما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الاَّ على مسافة خمسة اميال. وان تغفل الحواجز عند طرفي الترعة وتحويرات اخرى

ثم تمَّ القرار على ذلك وباشر الموسيو دلسبس حفر الترعة الذي كان انتهاؤهُ في ١٤ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ (١٧ نوفمبر (ت ٣) ١٨٦٩ م) في ايام اسماعيل باشا الخديوي السابق واحتفل الخديوي المشار اليهِ في ذلك اليوم احتفالاً عظيماً بافتتاحها حضرهُ سائر ملوك اوربا او مندوبوهم وكانت رسوم المرور في تلك الترعة بموجب نص البراءة عشرة فرنكات على التونولاتو ونحو ذلك على الراكب فضلاً عن نفقات اخرى

عودٌ

وفي سنة ١٢٨٩ هـ او ١٨٧٢ م تعدّى اهل الحبشة على الحدود المصرية مما يلي بلادهم واسروا عددًا وافرًا من الاهالي فبعثت الحكومة الخديوية تطلب استرجاعهم وتستفهم عما اقتضى تلك المعاملة . ثم اقتضت الاحوال فجردت الحكومة المصرية على الحبشة لكنها لم تنجح بتلك التجريدة

ثم باشر اسماعيل باشا بناء مرفإ الاسكندرية وارصفتهِ . وفي سنة ١٢٩٠ هـ او ١٨٧٣ م زار اسماعيل باشا الاستانة فقوبل بالترحاب ونال التفاتًا عظيماً من لدن الحضرة الشاهانية . وفي هذه السنة ايضًا احتفل بزواج انجالهِ الكرام وهم سمو الخديوي الحالي محمد توفيق باشا والبرنس حسين باشا والمرحوم البرنس حسن باشا وكان اقترانهم جميعًا في شهر واحد ومُنحوا ايضًا في الوقت نفسهِ رتبة الوزارة معًا

وفي ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ (٨ يوليو (تموز) ١٨٧٣ م) جاءهُ الفرمان الشاهاني يخولهُ كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لاول ابنائهِ والاستقلال بالاحكام الادارية واقامة المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض والجزية التي تدفع للدولة العلية (١٥٠٠٠٠ كيس) . وهاك تعريب الفرمان السلطاني الذي ورد بهذا الشأن بعد الديباجة

« قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار خط سلطاني يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالي محمد علي باشا الحكومة الارثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة او بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها . فهذا الفرمان من شأنهِ ان ينسخ في المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنهُ مما سيأتي بعد ويكون دائمًا نافذًا مرعي الاجراء

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر سنة ١٢٧٥ ﻫ قد غيّرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوّئي كرسيها الى كبير ابنائهِ ومن هذا الى بكر ابنائهِ ايضًا وهلمَّ جرًّا علمًا بان ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصًا لك بانعطافي الذي صرت لهُ اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتًا لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوَّع وتوابعهما كما نقدم بيانهُ بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائهِ من بعده . فاذا لم يرزق من ولّي الخديوية ولدًا ذكرًا كانت الولاية من بعدهِ لاكبر اخوتهِ او لاكبر بني اخيهِ الاكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تابيد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصرًا على الصورة الاتية وهي

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولدهِ قاصرًا اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويًّا بحق الوراثة فيصدر اليهِ فرماننا بوجه السرعة واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاتهِ اسلوبًا للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من روساء حكومتهِ فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب يثبتهم في مناصبهم ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنهُ قاصرًا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولّي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هولاء الذوات وينتخبون للخديوي وصيًّا باجماع الرأي او باغلبيتهِ فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبةً باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعًا امور الخديوية

ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليهِ بالفرمان الشريف . وكما انهُ لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيأة الوصاية قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى اي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية واما اذا توفي الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشدًا فيباشر ادارة امور الخديويــة وذلك مما تقرر لدينا واقتضتهُ ارادتنا السلطانية

«ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من اهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقًا للحكومة المصرية . وذلك انهُ لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الاَّ بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب ولتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير اسباب التجارة منحناكم ايضًا الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور الجمارك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجبًا للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزًا لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت لهُ الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزومًا على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناهُ الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازهُ القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق او تمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعتهِ ان ينشئها متى شاء

« ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأبيدها اصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايوني واعطيناكم متممًا ومعدلاً وشارحًا للخطوط الشريفة والاوامر المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت في وراثة الحكومة المصرية وفي كيفية الوصاية او في ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط ان تكون احكام هذا الفرمان الجديد نافذة مرعية الاجراء على ممر الزمان قائمة مقام احكام الفرمانات السالفة على ما اقتضتهُ ارادتنا السلطانية . فينبغي ان تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ باسباب وقاية الرعية واصلاح شؤونها وتابيد راحتها على حسب ما فطرتم عليهِ من الغيرة والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليهِ من احوال تلك الجهات وان تراعوا احكام

الشروط الواردة في هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين الف كيس المضروبة على الديار المصرية خراجًا سنويًا في اوقاتها المعينة الى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية » انتهى

فكان ذلك الفرمان منشطًا لهمة اسماعيل باشا فاخذ في اتمام مشروعاتهِ في الاصلاح وعلى الخصوص فيما يتعلق بتنظيم البلاد وانشاء البنايات والشوارع والحدائق فتهدت سبل التجارة فازداد في ايامهِ تقاطر الاوربيين الى القطر المصري وكان يكرم وفادتهم ويحبب اليهم الاقامة في القطر لما كانوا يتمتعون بهِ من الارباح والرغد . وفي سنة ١٢٩٣ ﻫ (سنة ١٨٧٥ م) ابتاعت الحكومة الانكليزية من اسهم ترعة السويس ما يساوي اربعة ملايين من الجنيهات الانكليزية فكان ذلك حاملاً على تداخلها في المالية المصرية بعد ذلك

وفي سنة ١٢٩٣ ﻫ او ١٨٧٦ م توفي المغفورلهُ السلطان عبد العزيز وتولى بعدهُ السلطان مراد الخامس مدة قصيرة ثم اعتلى اريكة السلطنة جلالة السلطان عبد الحميد خان ولا يزال على اريكتها الى الان أبَّد الله سلطانهُ وعزَّز انصارهُ واعوانهُ

وترى في شكل ٩١ صورة النقود المضروبة على عهد السلطان عبد العزيز بتاريخ ١٢٧٧ ﻫ وهي سنة توليتهِ السلطنة وهذه القطعة من النقود يقال لها (عشرين خردا) وقد كانت تساوي في اول امرها

ش ٩١ نقود السلطان عبد العزيز

نصف غرش اي عشرين بارة ثم انحطت منذ بضع سنوات الى بارتين ثم بعد ان ضربت النقود الحديثة الآتي ذكرها لم تعد لها قيمة معلومة

ومن المشروعات المهمة التي أتمت او بوشرت في ايام اسماعيل باشا انهُ انشأ المتحف المصري في بولاق والكتبخانة الخديوية المشهورة في درب الجماميز بمصر واصلح الطرق وشيد الابنية العمومية منها الاوبرا الخديوية بقرب الازبكية في القاهرة . والذي يشاهد هذا المرسح الجميل يندهش لما فيهِ من الاتقان وحسن الذوق ولا سيما في النقوش على الستاير مع اتقان الملابس اللازمة للتشخيص ويزيد اندهاشهُ عند ما يعلم انها بنيت وتمت معداتها في مدة خمسة اشهر فقط وسبب ذلك ان الخديوي كان قد اعدَّ سنة ١٢٨٦ هـ او ١٨٦٩ م احتفالاً عظيماً دعا اليهِ اكثر ملوك الارض لحضور افتتاح ترعة السويس كما مرَّ بك فامر ببناء هذا المرسح في القاهرة لاحياء اوقات للعب فيهِ ولم يكن لديهِ الاَّ مدة خمسة اشهر الصيف فاكثر من العملة البارعين ولا تسل عما انفق في سبيل ذلك من النقود . ومن اعمالهِ انهُ ابتنى ايضاً مرسح زيزينيا في الاسكندرية وسرايات اخرى عجيبة وجرَّ الماء الى العاصمة ووزعهُ في البيوت وعمم زرع الاشجار على الطرق ونوَّر القاهرة بالغاز وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب الآلات لاطفاء النيران وفتح المدارس وعمم المعارف وحسَّن مطبعة بولاق الاميرية وامر بترجمة الكتب المفيدة الى العربية وطبعها واسَّس معمل الورق وغيرهُ من المعامل ونظَّم المجالس واصلح ترع النيل ومجاريها واوصل الخطوط التلغرافية والسكك الحديدية الى نوبيا ونظم البوسطة وبنى مدينة الاسماعيلية وزينها بالحدائق والقصور وانشأ المنارات في البحر وابطل تجارة الرقيق وسعى لاكتشاف ما غمض من قارَّة افريقيا بمدد اصحاب الخبرة وزيَّن حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها وترتيب الموسيقى فيها على ما هي عليهِ الان . وغير ذلك من الاعمال الكثيرة التي تفوق الحصر .

وابتنى عدة بنايات بالقرب من طره على طريق حلوان لاجل معامل البارود والاسلحة الصغيرة وانفق على بنائها مبالغ فاحشة ولكنه لم يستعملها

وكان اسماعيل باشا لشدة رغبتهِ في التنظيم والتزيين لا ينظر الى نسبة النفقات التي تقتضيها تلك المشروعات الى دخل البلاد فتراكمت الديون على القطر الى حدٍّ اوجب قلق الدول التي لها يد في تلك الديون فآل الامر الى تعيين لجنة مالية مختلطة لمراقبة دخل ونفقة الحكومة المصرية وذلك في ٢٦ ربيع اول سنة ١٢٩٥ هـ (٣٠ مارس (اذار) ١٨٧٨ م) فرأت عجزًا مقدارهُ مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكهِ الخاصة واملاك عائلتهِ ملافاة لما تدارك البلاد من الديون الكثيرة وهي التي تعرف الآن باملاك الدومين . ثم صادق على تعيين ناظر انكليزي للمالية يقال لهُ المستر ريفرس ويلسون وآخر فرنساوي لنظارة الاشغال العمومية يقال لهُ الموسيو بلينير . وكانت اجراآت الحكومة المصرية راجعة الى الخديوي رأسًا فاجراها اسماعيل باشا بواسطة مجلس النظار كما هي الحال الان

وفي تلك السنة تقرر استقراض مبلغ ثمانية ملايين ونصف من الجنيهات فاستدانوها وجعلوا عليها املاك الدومين رهنًا . وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد . ثم رأى مجلس النظار وجوب توفير شيءٍ من نفقات الجيش فرفت عددًا كبيرًا من العساكر والضباط . وفي ٢٥ صفر سنة ١٢٩٦ هـ (١٨ فبراير (شباط) ١٨٧٩ م) ثار المرفونون وجاء نحوٌ من الفي نفر واربعماية ضابط منهم الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ويلسون وطلبوا اليهما ما كان متأخرًا لهم من الروانب ثم علت الغوغاء ولم ينكف الناس حتى اشرف اسماعيل باشا فلما رأوهُ بهتوا رعبة وكأنهُ اثر عليهم تاثيرًا سحريًا فكلمهم وطيَّب خاطرهم ووعدهم باجراء مطلوبهم فانصرفوا . ثم استقال الوزيران رياض باشا ونوبار باشا تخلصًا

من المسئولية في حكومة لا يعرف لها رأس . فولّى اسماعيل باشا ابنهُ البرنس توفيق باشا (وهو الآن سمو الخديوي الحالي) رئاسة مجلس النظار

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ١٢٩٦ هـ (٧ افريل (نيسان) ١٨٧٩ م) قلب اسماعيل باشا هيئة مجلس النظار وعزل كل من كان فيهِ من الاجانب وجعل في اماكنهم نظارًا وطنيين تحت رئاسة المرحوم شريف باشا وامر ان تزاد القوة العسكرية الى ستين الفًا فشقّ ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا عزلهُ للناظرين الانكليزي والفرنساوي لغير علّة من الاعمال العدوانية فسعيا الى الانتقام بكل ما لديهما من السُبُل . وفي ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ (٢٥ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ م) أُقيل اسماعيل باشا من خديوية مصر وولّي ابنهُ محمد توفيق باشا الخديوي الحالي مكانهُ

ولاية محمد توفيق باشا الخديوي الحالي

من سنة ١٢٩٦ هـ او ١٨٧٩ م ولا تزال

تولّى سمو محمد توفيق باشا خديوية مصر يوم الخميس الواقع في ٧ رجب سنة ١٢٩٦ هـ (٢٦ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ م) واعتلى اريكتها بين امور مختلّة واحوال مرتبكة بسبب المصاعب التي طرأت على احوال القطر المصري قبل توليتهِ . ومن اهم اسباب الاختلال اذ ذاك عسر المالية وعدم انتظام الجندية ونحو ذلك مما نشأ عن تداخل الاجانب في امور البلاد على عهد الوزارة المختلطة واشتداد وطأتهم على العسكرية وطموح ابصارهم الى ما اوجب يومئذٍ استحكام الضغائن في صدور الجهادية . ففي الساعة ١١ ٤ من نهار الخميس المذكور ورد الى مصر تلغراف من الباب العالي مشعرًا بتولية سموه وتعريبهُ . ـ

توفيق باشا خديوي مصر المعظم

ش ٩٣ محمد توفيق باشا الخديوي الحالي

«بناءً على ان الخطة المصرية هي من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين اسباب الترقي وحفظ الأمن والعمارة في الممالك وبناءً على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة

الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصري ناشئًا عما وقع فيهِ من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انهُ بناء على ما اتصفت بهِ ذاتكم السامية الآصفية من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجإ الخلافة الاسمى من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال اسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفاق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال آصفانيتكم وبناء على الفرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليهِ اسماعيل باشا من تخليهِ عن النظر في امور الحكومة وتفرغهِ منها بصورة وقوع انفصالهِ قد تحرر تلغراف هذا العاجز لكي يعلن حال وصولهِ للعلماء والامراء والاعيان واهل المملكة جميعًا وتباشر من بعدهِ امور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفانيتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأ ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم ايها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر افندم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموهُ في القلعة يستقبل المهنّين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحقانية ثم النواب ووجهاء البلاد ثم ارباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم . ومن جملة من وفد للتهنئة

وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الاعظم المصري فقدم عبوديتهُ فنال من سموهِ عواطف الرضاء عنهم وعن اعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتها فانصرفوا شاكرين . وبعد ذلك ارسل الجناب الخديوي تلغرافًا الى الباب العالي جوابًا على التلغراف المؤذن بارتقائهِ الى كرسي الخديوية

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ه (٢٠ يونيو (حزيران) ١٨٧٩م) سافر الخديوي السابق من القاهرة الى الاسكندرية ومنها ركب وسافر على الباخرة (المحروسة) الى اوربا وكان لوداعهِ على المحطة في القاهرة ازدحام وفي مقدمة المودعين سمو نجلهِ الخديوي الحالي فكلم اسماعيل باشا الجمهور مودعًا ثم خاطب نجلهُ قائلاً

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا اعز البنين خديوي مصر فاوصيك باخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل بعض المصاعب التي اخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتَّبع رأي ذوي شوراك وكن اسعد حالاً من ابيك » (١)

ثم عين مجلس النظار رواتب العائلة الخديوية فتنازل سمو الخديوي عن عشرين الف جنيه من راتبهِ الخصوصي على ان يضمها لراتب والدهِ . ثم استعفت الوزارة جريًا على المعتاد فنظمها الامير الجديد تحت رئاسة شريف باشا وكتب اليهِ رقيمًا بذلك وبعث ايضًا الى هيئة النظار منشورًا بتاريخ ١٤ رجب سنة ١٢٩٦ه يظهر فيهِ افكارهُ واراءهُ ومستقبل سياستهِ واجراآت حكمهِ

ومضت مدة بعد ورود تلغراف الباب العالي المؤذن بولاية توفيق

---

(١) وقال اخرون انهُ خاطبهُ بذلك في منزلهِ وانهُ بارح العاصمة في ٢٦ يونيو

باشا ولم يرد الفرمان السلطاني المؤيد لذلك فاختلفت اقوال الناس وظنونهم في اسباب تأخر الباب العالي عن اصداره . وفي اثناء ذلك صدر الامر للجهادية بصرف عشرة آلاف من الجند المجتمعين تحت السلاح وجعل الجيش اثنى عشر الفًا واهتمت الوزارة بتسوية الدين السائر وغيره . وفي ٢٦ شعبان سنة ١٢٩٦ ﻫ (١٤ اوغسطس «آب» سنة ١٨٧٩ م) ورد الفرمان الشاهاني الآمر بتولية سموّ محمد توفيق باشا خديوية مصر وتعريبهُ .

«فرمان تولية توفيق باشا المعظم»

«الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشاننا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشاننا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا ادام الله تعالى اجلالهُ وضاعف بالتأييد اقتدارهُ واقبالهُ

«انهُ لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلومًا لكم انهُ بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفًا ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفوء لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجّهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمّة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقًا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ ﻫ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث

انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليهِ قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية . ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن اجلّ مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العلي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيهِ الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديمًا نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما نقرر اجراؤهُ الآن هو المواد الآتية وهي

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني . وحيث ان اهالي مصر ايضًا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة امور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعدٍّ في وقت من الاوقات فخديوي مصر يكون مأذونًا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضًا يكون خديوي مصر مأذونًا بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البولونيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضًا يكون حائزًا للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنهُ لا يكون مأذونًا بعقد استقراض من الآن فصاعدًا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونًا بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين او وكلائهم الذين يتعينون رسميًّا . وهذا الاستقراض يكون مخصصًا في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصًا

بها وحيث ان الامتيازات التي أُعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصَّت بها الخديوية واودعت لديها لا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية الذي هو الوبركو المقرر دفعهُ في كل سنة في اوانهِ وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كافٍ لحفظ امنية ايالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشئ سفناً مدرعة الاَّ بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليهِ من دولتنا العلية . ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاهُ بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحبة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فواد بك باشكاتب الهمايون الهمايوني ومن اعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف

«حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف»

وفي غاية شعبان (١٧ اوغسطس (آب)) استعفت وزارة شريف باشا استعفاء غير مبني على سبب ظاهر فتألفت وزارة جديدة تحت رئاسة

الجناب الخديوي . وكان رياض باشا اذ ذاك خارج القطر المصري فامر الخديوي ان يستقدم تلغرافيًّا . وفي يوم الاربعاء ٣ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٩م الموافق ١٧ رمضان سنة ١٢٩٦ﻫ وصل رياض باشا الاسكندرية ومعهُ ولدهُ وتوجه توًّا الى المحروسة . وفي ٢١ منهُ كلفهُ الجناب الخديوي بتشكيل وزارة جديدة تحت رئاستهِ بعد ان قدم الوزراء استعفاءهم فلبّى الطلب ونظم وزارة جديدة ولم تمضِ ٣ اشهر على وزارتهِ حتى اخذت حال البلاد في التحسن وهدأت الامور

وفي ١٨ رمضان سنة ١٢٩٦ﻫ (٤ سبتمبر (ايلول) ١٨٧٩م) وقّع سمو الخديوي على الامر الناطق بتعيين الموسيو بارنج والمسيو دي بلينيار بصفة مفتشين ماليَّين . وفي اواخر هذه السنة ايضًا قدم نوبار باشا من اوربا واستعفى غوردون باشا من حكمدارية السودان وكان قد وليها سنة ١٢٩٠ﻫ (١٨٧٣م) في عهد الخديوي السابق وتعيَّن رأُوف باشا في مكانهِ وفي ايامهِ ظهر المهدي بدعوتهِ . ثم كلّفت الوزارة الجناب الخديوي ان يتجوَّل في انحاء القطر جريًا على المألوف في مثل هذه الحال اي في حال تولية امير جديد فسار سموهُ في ١٠ صفر سنة ١٢٩٧ﻫ او ٢٢ يناير (ك٢) ١٨٨٠م نحو الصعيد ثم الى الوجه البحري وعاد الى المحروسة في ٤ مايو

وفي ١١ يناير من تلك السنة قرر مجلس النظار تشكيل لجنة خصوصية للنظر في مبادي اعمال التصفية ومرجع هذه اللجنة ينحصر في ناظر المالية وكاتب اسرارهِ الثاني . ولما قدم المفتشان العموميان الى مصر نظما لائحة فيما يتعلق بتسوية الدين المنظم . وفي ٥ صفر سنة ١٢٩٧ﻫ او ١٧ يناير (ك٢) ١٨٨٠م صدر الامر العالي بالغاء الضرائب الدنيئة والشخصية التي لا يتجاوز مجموعها ستماية الف جنيه في السنة وذلك بناء على تقرير رفعهُ اليهِ ناظر المالية

وفي ٩ صفر او ٢١ يناير (ك٢) صدر امرٌ خديوي متعلق بابطال

بون حليم باشا . وفي ٢٥ ربيع آخر او ٥ افريل (نيسان) من هذه السنة تعينت لجنة التصفية مؤلفة من خمسة اعضاء ورئيس اوروباويين وعضو وطني هو بطرس بك غالي (اليوم بطرس باشا) لينوب عن الحكومة المصرية . وفي ١٨ جمادى الاولى او ١٧ افريل (نيسان) عقدت اللجنة جلستها التمهيدية وجرت المخابرات بين المفتشين الماليين ولجنة التصفية فيما يجب تقريرهُ بخصوص المواد الآتية (١) الدين الممتاز (٢) الموحد (٣) التعيينات (٤) متأخرات كوبونات الموحد (٥) القروض القريبة الآجال (٦) بيان اجمال الدين غير المنظم (٧) لائحة تتضمن مسائل عديدة وديوناً متنوعة . وفي ١٨ جمادى الآخرة او ٢٧ مايو « ايار » رفع رياض باشا الى سموّ الخديوي كتاباً يتضمن بيان احتياج البلاد الى تعميم المعارف . فامر سموهُ بتشكيل لجنة للنظر في ما يتعلق بالتعليم العمومي وما يحتاج اليهِ من التحوير تحت رئاسة علي باشا ابراهيم ناظر المعارف اذ ذاك . وفي ١٦ رجب او ٢٤ يونيو « حزيران » تعين الموسيو كولفن مفتشاً ماليًّا بدلاً من المستر بارنج . وفي ١٩ رجب ورد تلغراف من الباب العالي بتوجيه رتبة المشيرية الى رياض باشا

وفي ١٠ شعبان او ١١ يوليو « تموز » أتمت لجنة التصفية اعمالها وانهت قانونها وصادق عليهِ الجناب الخديوي وهاك ملخصهُ

(١) ان صافي ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات ومينا الاسكندرية يكون مخصصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيرهِ اما فائدتهُ فتبقى ٥ بالماية على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنويًّا لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١١٥٧٧٦٨ جنيهاً سنويًّا

(٢) ان صافي ايرادات الكمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط بما فيهِ جميع الرسوم المقررة الآ ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الايرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين

الموحد والفائدة باعتبار اربعة بالماية

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشوفات والرهونات العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمانة دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩ م في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين المنتظم ومن الزائد من دفعات المقابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المتأخرات لغاية ١٨٧٩ م من العوائد والرسوم والاموال من اي نوع كانت ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة وما ينتج من تغيير البونات او السندات ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن احبَّ التفصيل فليراجع القانون نفسهُ فانهُ مؤلف من ٩٩ بنداً وبرفقتهِ كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وتكاثر منح الرتب من انعام الحضرة الخديوية في ذلك الاثناء وكانت الرتب تستلزم زيادة المرتبات كما هي الحال الآن في رتب الجهادية فملافاة للتثقيل على المالية اصدرت نظارة الداخلية امراً مفادهُ ان الرتب الملكية لا توجب زيادة المرتب وانما تكون لتحلية ذويها بحلية الشرف فقط

واشتهر سمو الخديوي بميلهِ الخصوصي الى ابناء البلاد ورفع شأنهم وبث الحرية بين ظهرانيهم فتألفت قلوبهم واتحدت كلمتهم ووجهوا انتباههم

الى اصلاح شؤونهم . وانما كانت تلك الحرية لدى البعض هبة في غير محلها وقبل اوانها فجاءت بامور آلت الى الثورة العرابية التي كانت عثرة في سبيل فلاحهم فاوصلت البلاد الى ما نراها عليهِ الان

الحوادث العرابيَّة

ولد احمد عرابي في سنة ١٢٤٨ه وقيل سنة ١٢٥٧ ه او سنة ١٨٥٩م في قرية (هرية رزنة) من مديرية الشرقية من عائلة بدوية الاصل وفي سنة ١٢٧٣ ه انتظم في سلك العسكرية في عهد المغفور لهُ محمد سعيد باشا ثم ترقى في ايامهِ الى رتبة الملازم ثم الى رتبة اليوز باشي ولم تأتِ سنة ١٢٧٦ ه حتى بلغ رتبة بكباشي . وفي سنة ١٢٧٧ه نال رتبة القائمقام ثم اعتزل الخدمة ثم عاد اليها في اوائل ولاية اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ه وما زال حتى وقعت بينهُ وبين خسرو باشا الشركسي مخاصمة ادت الى ابعاد عرابي من الخدمة العسكرية مدة سنة وهذا سبب بغضهِ للشراكسة ثم الحق باشغال الدائرة الحلمية واقترن بابنة مرضعة المرحوم الهامي باشا التي هي شقيقة حرم الخديوي الحالي بالرضاع فعفا عنهُ الخديوي السابق وارجعهُ الى وظيفتهِ في احد الالايات سنة ١٢٩٢ ه فاخذ من ذلك الحين في تأليف قلوب الضباط وجمع كلمتهم على ولائهِ بما كان يظهرهُ من الاسف على حرمانهم من الترقيات حال كون غيرهم من الشراكسة والاتراك متمتعين بها الى غير ذلك

وما زال في ذلك الى تولية الخديوي الحالي فارتقى الى رتبة امير الاي سنة ١٢٩٦ ه او ١٨٧٩م وكان على نظارة الجهادية عثمان باشا رفقي شارعًا في سن قانون عسكري يؤخذ من فحواه حرمان كل من تحت السلاح من الترقي فتذمر عرابي ورفاقهُ وحملوا ذلك على الايقاع بابناء

الوطن وجعلهم انفارًا تحت سلطة الترك والشراكسة فاجتمع ثلاثة من زعمائهم وهم علي فهمي (كان علي باشا فهمي) وعبد العال (عبد العال باشا) واحمد عبد الغفار (احمد بك عبد الغفار) في منزل عرابي وتآمروا على معاكسة ذلك القانون ومنع صدورهِ فتحالفوا وحثّوا ضباط الاياتهم على التشيع لهم بعد ان اقنعوهم بنبالة مقصدهم واجمع رأيهم على كتابة تقارير ممضية من جميع الضباط مرفوعة اليهم بالتظلم من ناظر الجهادية وطلب تنزيلهِ فحفظوها عندهم وقدموا تقريرًا منهم رفعوهُ الى مجلس النظار يطلبون تنزيل ناظر الجهادية فصدر امر النظار بسجنهم في قصر النيل فاستُدعوا اليهِ فساروا بعد ان امروا الاياتهم بالاستعداد للمقاومة عند اول اشارة. فلما وصلوا الى القصر جُرّدوا من سلاحهم وأُودعوا السجن فوصلت الاشارة الى الاي عابدين فسار الى قصر النيل واخرج المسجونين بالعنف وبعثوا الاعلامات الى الاي العباسية والاي طره بالحضور حالاً الى سراي عابدين وبعد يسير اجتمعت الالايات امام سراي عابدين رغماً عما حاولهُ الجناب الخديوي من منع مجيئهم بواسطة الرسل والتهديد ولما تمّ اجتماعهم قام عرابي خطيبًا فيهم فشكرهم على تلك الهمة والغيرة وكانت ساحة عابدين غاصة بجماهير المتفرجين ثم تقدم عرابي امام سمو الخديوي وطلب لهم العفو عما اتوهُ من القحة. وطلب خلع عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية. فاجاب سموهُ الطلب وجعل على نظارة الجهادية محمود سامي (كان محمود باشا سامي)

وبعد ان سكنت عوامل هذه الحركة خاف زعماء الثورة من هذا النجاح السريع واعتبروا اجابة طلبهم هذه مكيدة من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل احمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في امر اجتماع كلمتهم والوقاية من الاغتيال فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات

عديدة تعزّز جانبهم فتمكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يبث افكارهُ بين الاهالي من مشايخ العربان وعمد البلاد واعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعهِ العائد الى نفعهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثوروية ايقاعًا بالوزارة الرياضية

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ﻫ او ٣٠ ابريل (نيسان) ١٨٨١م اصدر الجناب الخديوي بناءً على اقتراح رياض باشا رئيس النظار امرًا عاليًا بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناءً على طلب محمود سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخرًا في قصر النيل دعا اليهِ النظار والمفتشين احتفاءً بصدور ذلك الامر خطب فيهِ رياض باشا ومحمود سامي واحمد عرابي ثناءً طيبًا على المكارم الخديوية لما منحهُ لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شعبان او ٢٥ يوليو (تموز) كان الجناب الخديوي في مصيفهِ في الاسكندرية فاتفق ان عربة احد تجار الاسكندرية صدمت جنديًا من الطبجية صدمة قضت عليهِ فحملهُ رفقاؤهُ الى سراي راس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في امرهِ فوعدهم فسكن جاشهم . وبعد بضعة ايام تشكل مجلس حربي اصدر حكمهُ على النفر الذي حمل رفقاءهُ على المسير الى راس التين بالاشغال الشاقة طول حياتهِ . اما رفقاؤهُ وعددهم نحو الثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في الليمان وبعد ذلك يرسلون الى السودان انفارًا للجهادية . فبعث عبد العال امير الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الخديوي فتكدر واستدعى في الحال الوزراء تلغرافيًا الى الاسكندرية فاتوها في ٧ رمضان او ٣ اوغسطس (آب) وعقدوا برئاستهِ مجلسًا قدم فيهِ ناظر الجهادية استعفاءهُ فقبل وعين بدلاً منهُ داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال

وفي شوال او سبتمبر (ايلول) بعد عود الجناب الخديوي من الاسكندرية صدر امرٌ من نظارة الجهادية الى الاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وامرٌ آخر الى الاي الاسكندرية بالمجيء الى المحروسة فاوعز عرابي الى الاي القلعة ان تلك الاوامر لا يقصد بها الاَّ تفريق كلمتهم فصرَّح ذلك الالاي بعدم امتثالهِ لما أُمر بهِ . وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الالايات بالاشارة ان يستعدوا للحضور الى ميدان عابدين في اول سبتمبر ثم ارسل كتابة الى الجناب الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبيناً ان لا خوف من هذه الحركات على ابناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية . فارسل الجناب الخديوي وفداً الى زعماء الثورة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم ان يكفوا عن اجراآتهم وتوجه سموه بنفسهِ الى الاي عابدين واخذ ينصحهم فتظاهروا بالانتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها تم توجه وفي معيتهِ النظار الى القلعة للغرض عينهِ . فاجابهُ الجيش هناك «نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا في كبري كفر الزيات» فقال سموهُ لمن معهُ يظهر ان العساكر مغرورون ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجدهُ وقيل لهُ انهُ سار في جندهِ الى عابدين فعاد سموهُ ايضاً اليها

ولما تكامل اجتماع الالايات في ميدان عابدين في ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٩ سبتمبر (ايلول) ١٨٨١م) كانت الساحة غاصة بجماهير المتفرجين وقناصل الدول داخل السراي فاشرف الجناب الخديوي من السلاملك وامر باحضار عرابي فحضر على جواده مشهراً سيفهُ وحولهُ ضباط السواري فامرهُ باغماد السيف والترجل وابعاد الضباط ففعل

فقال الخديوي الم اك سيدك ومولاك

« عرابي نعم

« الخديوي الم ارقّك الى رتبة الميرالاي

« عرابي نعم ولكن بعد ترقية نحو الاربعماية

« الخديوي وما هي اسباب حضورك بالجند الى هنا

« عرابي لنوال طلبات عادلة

« الخديوي وما هي هذه الطلبات

« عرابي هي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

« الخديوي كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية

فكف عرابي واشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل . ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك اما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليهِ اما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسنادهِ على اسباب »

فاجاب عرابي . اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم اقدم عليها الاَّ لانهم انابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوة التي ينفّذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة . واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ

القنصل . اذًا تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منهُ ضياع بلادكم

عرابي . ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا

فاعلم اننا نقاومهُ اشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا

القنصل . وابن هذه القوة التي ستقاوم بها

عرابي . في وسعي ان احشد في زمن يسير مليونًا من العساكر طوع ارادتي

القنصل . وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت

عرابي . اقول كلمة ثانية

القنصل . وما هي

عرابي . لا اقولها الاَّ عند القنوط

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحوًا من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي اثناءها داخل السراي واستقر الرأي على اجابة طلبات عرابي وانفاذها تدريجيًا لان بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالي فاصرَّ عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافهِ فتزلت واستدعي شريف باشا وبعد اللتيَّا والتي قبل بان يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد لهُ رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامرهِ وان يقدّم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة وجعل محمود سامي ناظرًا للجهادية .

فاوعز شريف باشا الى عرابي ان يتوجه بالايهِ الى راس الوادي في مديرية الشرقية والى عبد العال ان يسير بالايهِ الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث أُمرا باحتفال عظيم وخطب عبدالله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في المحطة خطبًا هنأوا بها الحزب الوطني على فوزهِ

ولما استقر عرابي في رأس الوادي جعل يتجول في انحاء المديرية يبثُّ مباديهُ في نفوس عمد البلاد ومشائخ العربان فاستدعتهُ الحكومة الى العاصمة وعرضت عليهِ رتبة لواء ووظيفة وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليبقى الالاي في عهدتهِ . ولما استوى على منصبهِ

الجديد جعل يعقد المحافل في منزلهِ علانية وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد احد تجار المحروسة وكان مبعدًا في السودان فاجابهُ الجناب الخديوي الى ذلك ثم سعى الى عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبدالهِ بالشيخ الامبابي

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ﻫ (٢٢ سبتمبر (ايلول) ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظامات العسكرية وقانون الترقي وقانون الضمائم والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفدٌ جهادي وقدموا لهُ الشكر على اعتنائهِ بمطاليبهم وبينوا ارتياحهم الى وزارتهِ واكدوا لهُ اخلاصهم

وفي ١١ ذي القعدة او ٤ اكتوبر (ت ١) من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناءً على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلاً بالف وستماية توقيع يتضمَّن طلب تشكيل المجلس النيابي ومن مقتضى تلك اللائحة ان يكون النواب واحد او اثنين من كل قسم من اقسام المديرية و٣ من مصر و ٢ من الاسكندرية وواحد من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك في المديريات

وفي ١٢ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ ﻫ او ١٠ اكتوبر (ت ١) ١٨٨١ م وصل الى الاسكندرية وفد عثماني وهو عبارة عن لجنة مخصوصة مبعوثة من الاستانة بامر الجناب السلطاني مؤلفة من نظامي باشا وراضي باشا وعلي فؤاد بك وصفر افندي فاستُقبلوا في الاسكندرية وفي يوم وصولهم قدموا العاصمة فانزلهم الجناب الخديوي في قصر النزهة في شوبرا وفي اليوم التالي

سار ولمقابلة سموهِ في سراي الاسماعيلية وبلغوهُ رضى الجناب السلطاني عما توجهت اليهِ همم الحضرة الخديوية من تحسين الاحوال وحفظ النظام وان حضور هذا الوفد انما هو عنوان ما للذات الملوكية من الاعتماد وشدة الوثوق بحضرة الخديوي المعظم وان المقصد الاول من حضورهم انما هو تأييد نفوذهِ وتعزيز موقعهِ وتثبيت مركزهِ فشكر سموهُ لتعطفات الحضرة السلطانية وابتهل الى الله تعالى بدوام بقائها . ثم قاموا وانصرفوا وبعد يسير سار الجناب الخديوي لرد تلك الزيارة . ثم سار علي نظامي باشا لزيارة الاي قصر النيل فاحتفل بهِ محمود سامي احتفالاً عظيماً وبعد ان لاحظ نظامي باشا حركات الالاي اثنى على اميرهِ . ثم زار شيخ الاسلام ونقيب الاشراف . واقام رجال الوفد في مصر بضعة عشر يوماً ادبت لهم فيها المآدب وكان الناس يرحبون بهم . ثم ظهر للوفد ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب فعادوا الى الاستانة راضين مقتنعين عن طريق الاسكندرية في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ه (١٩ اكتوبر (ت ١) ١٨٨١م)

ثم توجّهت عناية شريف باشا الى تنظيم المحاكم الاهلية فانصرفت الانظار الى مشروع تنظيمها وفي ٢٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٨ه (١٧ نوفمبر (ت ٣) ١٨٨١م) صدر الامر العالي مؤذناً بذلك مع لائحة ترتيب المحاكم . وبتاريخهِ أُلغيت جريدتا الحجاز ولجيبت الاولى لانها طعنت في الاجانب والثانية لخروجها عن الحد في التعبير عن الحضرة النبوية . وفيهِ انفذ الخديوي الى الاستانة وفداً مصريًا رداً للوفد العثماني الذي جاءهُ . وفيهِ انشئ صندوق للاذخار في ديوان الجهادية يجعل فيهِ من ماهيات الضباط خمسة في المائة يشترى بمجموعها قراطيس مالية وتضم الفائدة الى الاصل كل عام ويشترى بالمجموع قراطيس وهكذا . ومثل ذلك فعل مستخدمو الدائرة السنية

وفي ١٩ محرم سنة ١٢٩٩ه (٩ دسمبر (ك ١) ١٨٨١م) صدر الامر

العالي بتولية العلّامة الشيخ الامبابي مشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ العباسي وقد تقدم ان عرابي كان ساعيًا الى ذلك . وفيهِ طلبت نظارة الجهادية ان يزاد في ميزانيتها مبلغ ١٢٠ الف جنيه فاجيب طلبها رغمًا عن امساك المالية عن اجابة مثل هذه الطلبات

وفي ٥ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ (٢٦ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٨١ م) تم انتخاب اعضاء مجلس النواب بمقتضى اللائحة التي اشير اليها فكان مؤلفًا من اثنين وثمانين عضوًا أُقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيسًا وعبدالله باشا فكري رئيسًا للكتبة وأُعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون مقرَّ انعقادهِ . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بيَّن فيها شدة رغبتهِ في تأليف ذلك المجلس وتنشيطهِ . وقال انهُ يرجو ان يكون مساعدًا لهُ في نشر العلوم والمعارف بين افراد الامة مخلصًا في خدمة المصالح . وحضر تلك الجلسة ايضًا جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونهِ فرتب اقلامهُ وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاتهُ على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان موعودًا من مجلس النظار بارسالها اليهِ لينظر فيها لان مجلس النواب افتتح بمقتضى اللائحة الشورية القديمة

وفي ١١ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ (٣ يناير (ك ٢) ١٨٨٢ م) وفد شريف باشا على مجلس النواب لتقديم اللائحة الاساسية الجديدة التي اعدَّها لهُ فقدمها وخطب في ذلك خطابًا اثر في اذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على احكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر في القوانين والمصروفات العمومية وان لا يُنفذ قانونٌ ولا يُعتبر نظام ما لم يصادق عليهِ في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء ارائهم . فتعينت لجنة من اعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات

عديدة قررت اكثر بنود اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق بالميزانية من تلك اللائحة . وفي ٢٧ صفر من تلك السنة اعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد ان بينوا ما يريدون تحويرهُ فيها . فرأى النظار ان يغيروا شيئًا من تحويرات النواب فلم يقبل اولئك واصروا الاَّ تنفيذ تحويرات لجنتهم . وفي ١١ ربيع اول سنة ١٢٩٩ ﻫ (٣١ يناير (ك ٢) ١٨٨٢ م) اعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بافادة مفادها ان وكيلي الدولتين فرنسا وانكلترا يريان ان لا حقَّ لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة في هذا الشأن بشرط ان يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود اللائحة . وبناءً على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية ليبنما يعطي النواب رأيهم النهائي فيهِ . فنظر النواب في تلك الافادة عدة ساعات فقرروا احالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتنقيح اللائحة وطلبوا اليها اعادة النظر في التعديلات التي أدخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وادخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما ارادت . وقررت في الوقت نفسهِ عدم قبول تداخل القنصلين في ذلك الامر

وفي يوم الخميس ١٢ ربيع اول (٢ فبراير « شباط ») سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائبًا الى الجناب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قررهُ او استعفاء الوزارة فوعدهم سموهُ الى صباح السبت وانصرفوا فتقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين فاصر شريف باشا على رأيهِ واستعفى للحال فاستدعى الجناب الخديوي لجنة النواب وكلفها ان تختار رئيسًا للوزارة فقالوا ان ذلك من حقوق الجناب الخديوي فالح عليهم فامتنعوا ولكنهم قالوا نريد وزارة تنفذ لائحتنا فاختار لهم محمود سامي وقلَّدهُ منصب الوزارة وعهد اليهِ تشكيل وزارة جديدة فشكلها وجعل احمد عرابي ناظرًا للجهادية .

فسرَّ الحزب الوطني بذلك كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر القطر من وطنيين واجانب واقام النواب احتفالاً لفوزهم . وفي ١٥ ربيع اول او ١٤ فبراير « شباط » اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغقول آغاسي فما فوق ومثلوا بين يدي الجناب الخديوي للتشكر واظهار الطاعة فشكرهم سموهُ وخاطبهم بما شفَّ عن حبهِ لاصلاح البلاد . وفي ١٩ ربيع اول حضر محمود سامي الى مجلس النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسرَّ النواب بنفوذ رأيهم فخطب فيهم ونشطهم واقرَّ لهم على اللائحة كما حوروها . فلما علم الناس بالتصديق على لائحة النواب اقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني واصبح الجهاديون القوة المتسلطة في البلاد والبهم يوجه الثناء كأن تلك المنى قد أُدركت بمساعيهم .

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحربية والبحرية أُحسن عليهِ وعلى عبد العال برتبة لوا « باشا » ثم سعى الى ترقية كثيرين من رفقائهِ الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائهِ . وتخلصاً من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً الجهادية شكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو الستماية منهم واكثرهم من الاتراك والشراكسة فاصبحت الجهادية وطنية محضة . وذكرت جرائد اوربا اذ ذاك ان الحزب الوطني وفي مقدمتهِ عرابي كان يتهدد مجلس النواب ويتوعدهُ بالسوء اذا لم يسر على غرضهِ فنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة . ثم تخصصت جريدة الطائف لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بافكار اعضائهِ والدفاع عنهم . وفي اواسط ربيع آخر او مارس « اذار » استعفى بلينيار احد المراقبين الماليين فعين بدلاً منهُ الموسيو بريديف . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٦ مارس « اذار » سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من اعمالهِ لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية

(٣) لائحة الانتخاب (٤) امورًا اخرى مهمة . وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معًا لاي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولودًا في القطر المصري او مقيمًا فيهِ منذ عشر سنين . ولما ودع النواب الجناب الخديوي سلم سموُّهُ كلاًّ منهم امرًا مؤذنًا بتعيينهِ عضوًا في المجلس المشار اليهِ الى خمس سنوات

ثم بلغ عرابي ان بعض ضباط الشراكسة المتأهبين للسفر الى السودان تكلموا بشأنهِ بما لا يليق وان في عزمهم الكيد بهِ فامر بالقبض عليهم فقُبض على اربعين منهم وفي جملتهم عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية سابقًا واودعهم السجن في قصر النيل وعاملهم بالقسوة والغلظ . ثم تشكل مجلس حربي لمحاكمتهم برئاسة راشد باشا الشركسي فصدر الحكم عليهم بالنفي الى اقاصي السودان ثم خفف الجناب الخديوي هذا الحكم الى الابعاد عن القطر المصري . وبعد صدور ذلك الامر وقع الخلاف بين الخديوي والنظار في هذا الشأن فاجتمع النظار في ١١ مايو «ايار» اجتماعًا طويلاً حضر اثناءهُ وكلاء الدول وسألوا النظار عن حال الاوربيين في القطر المصري وعما اذا كان يتوعدهم خطر فاكدوا لهم ان لا شيء في الامر من مثل ذلك

ثم بعث النظار يستقدمون النواب من بلادهم للاجتماع والنظر في امر ذلك الخلاف فاجتمعوا وحاولوا اصلاح الخلاف فلم ينوزوا وسار وفدٌ منهم الى الجناب الخديوي يرجونهُ اجابة سؤلهم فاجابهم آسفًا لعدم امكانهِ ذلك فعادوا واخبروا بما كان فتعينت لجنة ثانية في ٢٥ جمادى الاخرة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٤ مايو «ايار» ١٨٨٢ م لتعرض على سموهِ قبول الاقتراح بشرط ان ينزل رئيس النظار فقط وان يجعل مكانهُ مصطفى باشا فهمي فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموهِ فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا فهمي يسألونهُ اذا كان يقبل تلك الرئاسة فابى

فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تجسُّماً فوقفت حركة الاعمال وباتت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا الى توفيق ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعدهُ ناظر المعارف وناظر الاوقاف فلم ينجح . وبينما هم في ذلك ورد تلغراف من لندرا منبئ بصدور الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش ان يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط فاوجس الناس خيفة

وما زال النواب يسعون الى حل ذلك المشكل بدون نتيجة فاستدعوا العلماء والوجهاء لعقد اجتماع عمومي يتخابرون فيهِ ويتشاورون في كيفية حلهِ . فاجتمعوا في ٢٧ جمادى الآخرة او ١٥ مايو «ايار» وسارت منهم لجنة الى الجناب الخديوي وما زالوا يستعطفونهُ حتى وافقهم على ما ارادوا مع استبقاء الوزارة . وفي اليوم التالي سار النظار الى دواوينهم وبعثوا الى الجهات يبشرون بزوال الخلاف الاَّ ان الهواجس لم تهدأ تماماً . ثم كثرت الاشاعات عن قرب وصول الاسطول الانكليزي واسطول آخر فرنساوي فازداد الاضطراب وتلونت الاقاويل . ثم ورد تلغراف من اكريت ينبئ بخروج الاسطول الفرنساوي منها قاصداً ثغر الاسكندرية وان الانكليزي باقٍ فيها ينتظر قدوم الاسطول العثماني فيأتي الاثنان في وقت واحد وينضمّان الى الاسطول الفرنساوي

وفي مساء الجمعة غرة رجب او ١٩ مايو «ايار» وفدت على مينا الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان اخريان وثلاث دوارع فرنساوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معهما اسطول عثماني فكثر نقول الناس في سبب قدوم هذه العمارات على هذه الصورة . ثم اشيع ان قدومها كان بوفاق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموماً بشرط ان تسرع بعد انهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب او ٢٥ مايو «ايار» قدَّم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغًا نهائيًّا من دولتيهما تطلبان فيهِ سقوط الوزارة وخروج عرابي من القطر المصري بان تضمنا لهُ حفظ رتبهِ ورواتبهِ ونياشينهِ وابعاد عبد العال حلمي وعلي فهمي الى الارياف في جهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ورواتبهما ونياشينهما وان الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك وهما تكلفان الجناب الخديوي ان يصدر عنوًا عامًّا على جميع الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليهِ بدعوى قولهم « ان لا علاقة للدول الاوربية معنا فاذا شئن فليخابرن الاستانة اما نحن فاننا مستعدون للمقاومة » فاخذ سلطان باشا يسعى الى التوفيق فحبط مسعاهُ . وفي ٨ رجب او ٢٦ مايو «ايار» استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلبانهما فكُلِّف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فابى واصرَّ على الاباءة فاطلعهُ قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليهِ من وزارة فرنسا ونصهُ

« الامل ان يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة واكدوا لهُ اننا نعضدهُ ونؤيّدهُ بكل جهدنا » فلم يقنعهُ ذلك واصرَّ على الرفض

ثم عُقدت جلسة عند الجناب الخديوي حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انهُ يقبل ان يشكل وزارة جديدة بشرط ان تنفذ الجهادية ما آل طلبات الدولتين فقال طلبة « نحن مطيعون انما يستحيل علينا تنفيذها ولا حق للدولتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي » قال ذلك وخرج فتبعهُ الضباط . وبتاريخهِ ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لا يقبلون غير عرابي ناظرًا عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبهِ لا يكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعهُ فزاد الاشكال والاضطراب فتمكن شريف باشا وغيرهُ من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورئيسهم وحضر

عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب ايضاً عبد العال وغيرهُ يطلبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فارسل الجناب الخديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم اقاموا الحجة على طلب الدولتين . فاجابهُ ان الحضرة السلطانية امرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة ايام للنظر في هذا الامر . فامر الجناب الخديوي ان يرجع عرابي الى مركزهِ موقتاً للتأمين على الاجانب لبينما يصل الوفد العثماني فسرَّ الجند بذلك . وبعث عرابي منشوراً الى قناصل الدول يضمن لهم تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين وفي الوقت عينهِ اقترح ثلاثة امور

(١) اعادة لائحة الدولتين وانسحاب اسطوليهما

(٢) وضع قانون اساسي تبيَّن فيهِ حدود كل من الجناب الخديوي ووزرائهِ

(٣) قطع المخابرات والعلاقات توًّا مع الدولتين ومع سائر الدول الاَّ بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوي وتولية البرنس حليم باشا وكثيراً ما كانوا يصرحون بذلك في مجالسهم . ثم صرفوا الهمَّة الى الاهبة والتحصين كأنهم يتوقعون قتالاً فصرَّح المستر غلادستون وزير انكلترا اذ ذاك ان دولتهُ تريد ان تؤيِّد كلمة الجناب الخديوي توفيق باشا لما اظهر من ادلة الصداقة والاخلاص . وفي ٢٠ رجب او ٧ يونيو (حزيران) وصل الى ثغر الاسكندرية اليخت الشاهاني يقل درويش باشا المعتمد العثماني فسار توًّا الى العاصمة للنظر فيما هو واقع بين الخديوي وجندهِ

«حادثة ١١ يونيو (حزيران)»

وما انقضى شهر مايو حتى بلغ الاضطراب والقلق من ساكني مصر مبلغاً عظيماً فكثرت الاشاعات وزادت بواعث الايجاس فنزع النزلاء

الاجانب الى الجلاء والهاجرة الى اوربا خوفًا من امر يأتي او فرارًا من بلاء محسوب . فاصبحت الاسكندرية ملجأ للوافدين من جالية الريف على امل ان يكونوا فيها آمنين غوائل التعدي لكثرة من فيها من الاجانب او بالحري احتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي

ثم احسّ الاجانب فيها ان سفلة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في امورهم فكانوا يخطرون في الازقة تيهًا يمتهنون الرفيع ويستعبدون الوضيع ثم لاح لهم ان اولئك الاجانب يريدون بهم شرًّا فجعلوا يتوقعون منهم ما يتذرعون بهِ الى الوقيعة بهم توهمًا منهم ان اولئك من الدّ الاعداء لوطنهم . فعلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سرًّا للدفاع بما امكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجنرالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فانكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

اما اهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهمُّوا بهم في ٢٤ رجب او ١١ يونيو وابتدأوا الفتنة بخصام بين حمار ومالطي انصلوا منها الى الغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا بهِ في السبل فلم تكن ترى الاَّ اخلاطًا من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمارة والحمالون وامثالهم يهجمون جماعات على من لقوهُ في طريقهم فقتلوا نحوًا من ٣٠٠ نفس وقُتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكنًا وتمارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذٍ الى المدينة وجرح في هذه الموقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسون قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل الروسية وكثيرون غيرهم . فامر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الامير الاي سليمان داود ان يبعث الجند لايقاف الاهالي

ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فاجاب انهُ لا يستطيع ذلك الَّا بعد ان يأتيهُ امرٌ من عرابي فجاءهُ الامر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فسار الجند والمحافظ امامهم ساعيًا على قدميهِ يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة فرأوا المخازن قد نهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطرق وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كلٌّ منزلهُ وانقضى الليل ولم يحدث شيءٌ . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحرًا حتى خيل للناس انهُ لم يبق في المدينة احد من الاجانب فنزل من المدينة في يوم واحد نحو من عشرة الآف وتفرقوا في السفن . كل ذلك خوفًا مما كانوا يخشون حدوثهُ من مثل ما قاسوهُ . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمَّت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندرانيون واستمرَّت الحال على ذلك بضعة ايام حتى كاد يخلو القطر من النزلاء وقد عدَّل بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين الفًا . فقفلت الحوانيت وبطلت المعاملات ولم يبق في البلد شغل الَّا لارباب العربات واصحاب الصنادل وادارات البابورات والسكة الحديدية وما شاكل .

« عودٌ »

ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالعاصمة اضطرب اهلها وفي صباح ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام عنيف وسألوهُ ان يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوربيين واموالهم في جميع انحاء القطر فعقد مجلسًا في عابدين حضرهُ الجناب الخديوي ودرويش باشا ومن معهُ وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا ان تعطى للقناصل ضمانات اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاوربيين واموالهم ومن اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر لهُ من الخديوي فدعي وسئل فاجاب بالقبول وتعهد

باجراء ما يضمن الراحة واخذ درويش باشا على نفسهِ تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركًا مع عرابي ومسئولاً معهُ في تنفيذ تلك الاوامر فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا واخذ عرابي يهتم قيامًا بتعهدهِ فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياب . وكانت قد تعينت لجنة بامر الجناب الخديوي للنظر في امر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت اعمالها وقرّرت ما خيّل لها انها تدابير فعالة لاعادة الامنية

وفي ٢٦ رجب او ١٢ يونيو (حزيران) وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية يصحبهُ درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفّت لهما الجنود من المحطة الى سراي راس التين وأُطلقت المدافع تحية لهما ثم زارهُ قناصل الدول الاَّ قنصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر فابدى لهم اسفهُ الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخماد الفتنة وخاطبهم درويش باشا ايضًا بمثل ذلك وزاد عليهِ انهُ واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الاَّ ان الخديوي اسرَّ الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انهُ غير واثق باستمرار الامن والراحة وانهُ يعتبر مهمَّة درويش باشا كانها قد انتهت ولم تنجح وانهُ لا يرى بدًّا من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف من الجند بالاسلحة الكاملة ولديهم من المهمات ما يكفي خمسين الفًا

ثم بلّغت القناصل رعاياها ان يتخذوا اقرب السبل للنجاة مما ربما يحدث فاوعزت اليهم ان يهاجروا من المدينة فتناقلت الالسن هذه الاخبار فتاكد الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كلُّ دولة من الدول الاجنبية سفنًا لنقل رعاياها المهاجرين مجانًا فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورت سعيد

حيث كانت تلك السفن معدة لنقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءهُ امرٌ من لندرا بان يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حيثما توجه فاتاها واتى معهُ المسيو سنكوفيتش وكيل فرنسا فخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوُّها لعرابي وجماعتهِ واستفحل امرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسألة المصرية فظنوا انهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب التناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فاشاروا على الجناب الخديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظرًا للجهادية والبحرية فكان رأي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الامر ان يصدر عفو عمومي وان يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليهِ مسئولية او اشتراك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الاَّ المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت المحاكمة » فوافقها الجناب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ ﻫ او ٢١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الخديوي منشورًا الى راغب باشا يطلب اليهِ التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فاجابهُ بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنّع الباب العالي من ذلك بدعوى ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتمادًا على تقارير درويش باشا المرسلة منهُ وكان ذلك مما شدَّد عزائم الحزب الوطني ولا سيما لما رأوا الباب العالي واثقًا بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعهِ ان وجود هذه الاساطيل في مينا الاسكندرية لا يخشى منهُ البتة لانها انما اتت هذا البحر للتنزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . اما انكلترا فلم تنفك ساعية الى عقد المؤتمر بدعوى انهُ يستحيل اعادة الامن الى مصر بغير واسطة فعالة وكان الباب العالي يجيب على ذلك بقولهِ انهُ

بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقهُ على رأيهِ هذا دول المانيا واوستريا وايطاليا والروسية وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنيَّاتهم اكَّدت لهم انها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول ألَّا تسعى البتة الى ضم ارضٍ ما اليها او الاستيلاء على مصر او قسم منها او الحصول على امتياز ما سياسي او تجاري بدون ان يكون فيهِ نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر اما الدولة العلية فاصرَّت على عدم لزومهِ

وفي ٧ شعبان او ٢٤ يونيو «حزيران» عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيهِ فقرر ما يأتي ممضيًّا من سائر المعتمدين . «ان الحكومات التي وقَّع وكلاؤُها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات التجرية ولا يستطيع ان ينالهُ غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في اي مسألة حصل التوافق عليها بسعيها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا اثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعدادًا للحرب مدَّعية ان تلك الاستعدادات انما هي من قبيل التهديد لعرابي وكانت في الوقت عينهِ تلحُّ على سائر الدول ان تساعدها في ذلك . اما دول اوربا فكانت شديدة الحذر من انفراد انكلترا في المسألة المصرية لكنها لم تكن تستطيع معارضتها بالعنف

وجاء في اثناء ذلك الى عرابي نيشانٌ من لدن الحضرة السلطانية فاتخذهُ الناس ذريعة الى اثبات رضاء الباب العالي عن اعمالهِ وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعدهُ على مقاومة انكلترا اذا مسَّت الحاجة . وفي ٥ شعبان او ٢٢ يونيو «حزيران» تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فأُنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة ايام ثم سافر الى

برندزي . وفي ٢٥ منهُ نحى المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضهِ بسبب الجراح التي كان قد اصيب بها اثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل (١) مصر اما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي راس التين وعرابي مقيمًا في التوسحانة وتحت امرهِ في ثغر الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة اقرَّ الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطلبون منهُ ارسال جنود عثمانية الى مصر لاخماد الفتنة ففعلوا فابى . فاتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتداخلها بالقوَّة وكان بهِ نجاح سياستها فاخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية ينخل سببًا ولو طفيفًا لمباشرة العدوان فادعى ان الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون احجارًا ضخمة يدفنونها عند فم المضيق وان القصد بها سد مدخل المينا فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقهِ فكلف الحكومة المصرية ان تكف عن تقوية الاستحكامات حالاً والاَّ اضطرتهُ الحال الى اطلاق مدافعهِ عليها فيدكُّها عن آخرها . فاجابهُ طلبة باشا عصمت ان لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك فخافت الناس وأُوعز الى الجناب الخديوي بواسطة المستر كولفن ان يتخَّى صيانة لحياتهِ فاجابهُ « لا يليق بي ان اترك الكثيرين من رعيتي الامناء في اوان الشدة ولا يليق بي ايضًا ان اترك البلاد في اوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فسعى عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار وطلبوا اليهِ ان يكتب تقريرًا في المسألة مفادهُ « ان الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وانهُ لا بدَّ من مقاومتهِ وان عرابي وقومهُ مفوضون في امر الدفاع عن البلاد » ودار وا بهِ على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليهِ فوقع بعضهم اختيارًا والبعض اضطرارًا ويقال ان الخديوي

(١) فرنسا

نفسهُ صدَّق عليهِ او الجئ للتصديق ثم ارسلوهُ الى الاميرال سيمور . وارسل عرابي منشورًا الى المدراء يطلب اليهم ان يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان او ٩ يوليو « تموز » جاء المستر كارترايت الى الخديوي واعلنهُ رسميًّا عن عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو « تموز » والح عليهِ ان يترك سراي راس التين ويلجا الى سراي الرمل ففعل . ثم حرر رسميًّا الى درويش باشا يطلب اليهِ ان يحافظ على حياة الجناب الخديوي والقى عليهِ التبعة اذا أُصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان او ١٠ يوليو « تموز » ارسل الاميرال سيمور كتابات رسمية الى كلٍّ من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمها عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية واعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك بدعوى « انها لم ترَ بدًّا من ذلك غير انها مع ذلك تصرح ان ليس لها ارب خفي او نيَّة غير بينة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصًا على مصلحة الجناب الشاهاني » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنساوي متقهقرًا تاركًا سفينتين من سفنهِ فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ١١ يوليو « تموز » ١٨٨٢ م اطلقت العمارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها وانفجر مستودع البارود في قلعة أطه . فجاء راغب باشا الى الجناب الخديوي في الرمل واخبرهُ ان الحصون قاومت اشدَّ المقاومة وان كثيرًا من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسرورًا ولكن قولهُ هذا ما لبث ان نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموِّهِ فسألهُ عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بد لنا من

تدابير اخرى او ان نتساهل مع الاميرال» وبعد المخابرة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث اتى . فعاد طلبة باشا من عند الاميرال واخبر الجناب الخديوي ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلع والاّ يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر . ثم قال « ولكني قلت له ان هذه المدة لا تكفي لاتمام المخابرة بشأن ذلك فطلبتُ تطويلها فابى فاتيت لاعلم سموّكم ملتمسًا رأيكم» فعُقد مجلس تقرر فيه انهُ لا يحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخابرة الباب العالي الاّ ان الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما رأى رجال الحصون المصرية عدم استطاعتهم مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار وكانت الحصون قد تهدمت فعلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبهُ احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلس ١٢ يوليو « تموز » فرسانًا في احياء المدينة يأمرون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية على الفور وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالاي سليمان داود وامر ايضًا زمرًا من الرعاع ان تطوف المدينة وتحرقها فابتدأوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطرمة الجوانب منهوبة المخازن لا ترى فيها الاّ لهبًا متصاعدة واناسًا حاملين الامتعة والمصاغ فارّين الى داخلية البلاد

وكان الخديوي في سراي الرمل وبمعيتهِ عثمان باشا واسماعيل باشا الشركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتيكران باشا وزهراب بك « اليوم زهراب باشا » وغيرهم لا يزيد عدد الجميع عن الخمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو اربعماية فارس وبعض المشاة واحتاطوا بها فسئلوا عن الغاية من مجيئهم فقالوا « قد اتينا للمحافظة على

السراي » والحقيقة انهم جاءوا مامورين باحراقها وقتل من يخرج منها وفي الساعة ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليهِ فساروا وتخلف منهم احد البكباشية ومعهُ ٢٥٠ فارساً فمثل بين يدي الجناب الخديوي واقسم انهُ يموت بين يديهِ واقتدى رجالهُ بهِ واخبرهُ انهم كانوا قد اتوا بريدون شراً . وفي خلال ذلك ارسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من اسطولهِ لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الحضرة الخديوية ويقال انها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبرهُ بما كان من النهب والحرق في احياء المدينة فارسل سموهُ كامل باشا الشركسي وبرفقتهِ زبير باشا ليمنعوا الناس من ذلك

ونحو الساعة ٢½ بعد ظهر ٢٦ شعبان او ١٢ يوليو (تموز) كانت جنود عرابي قد انجلت عن الاسكندرية . فجاء زهراب بك بهذا النبأ الى الخديوي وان الاميرال سيمور عازم على انزال جنود بحرية الى راس التين وانهُ يدعو الحضرة الخديوية الى سفينتهِ حيث يكون آمنا ففضّل سموهُ التوجه الى سراي راس التين فسار وبمعيتهِ درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضاً من جنودهِ ينتظرونهُ في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهنأوا سموهُ بسلامتهِ وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية . وفي الصباح التالي انزل الاميرال فرقاً اخرى من رجالهِ يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكيناً لخواطر الباقين فيها

وقد قدرت الخسائر فبلغت نحو سبعماية من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع هذا فضلاً عن المذابح التي حصلت في اثناء ذلك في طنطا والمحلة الكبرى وسمنود وجهات اخرى . وبعد انتقال العائلة الخديوية الى راس التين استدعى الجناب الخديوي زهراب بك وجعلهُ ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهِ ان يمنع ايّاً كان من

الدخول الى القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفرًا من الجواسيس لاستطلاع حالة السراي . اما عرابي واتباعهُ ففروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع

ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية جعلوا ينظرون في تنظيف الاسواق ونقل جثث القتلى ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمانينة واستدعي اثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه .

وحرر راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبرهُ ان اجراءات عرابي من الآن فصاعدًا مخالفة لاوامر الخديوي وانهُ هو وحدهُ (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمرهُ بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وامرهُ ان يأتي الى سراي راس التين حالاً

فاجاب عرابي « ان مقاومة العمارة الانكليزية حصل باقرار مجلس النظار ودرويش باشا وان النظار هم الذين اعلنوا باقامة الحرب مع الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبًا للصلح ولا يجوز ان يكون انكارًا للحرب » الى ان قال « انهُ يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها ولتبارح مراكبهُ مياه الاسكندرية وانهُ للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب السواحل المصرية وانهُ يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الاسكندرية ما برحت محتلة بالانكليز ولذلك لا يمكنهُ الحضور اليها » ثم طلب التئام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد على ما يظهر من اقوالها. وحرر عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمها انها متحاملة على الجهادية الوطنية وانها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري ويطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها او عدمه. فلما وصل تحرير عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحربية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو (تموز) ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن. واستقر الرأي اخيراً على لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وان تعيّن لجنة من ستة اشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء انظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل. وبناءً على ذلك القرار سار الوفد فمرّ بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاخبر منهُ اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكرهُ. فوصلا اليها وقابلا الجناب العالي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا لهُ الحالة فاصدر امراً عالياً يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية واعلن ذلك في البلاد. ثم ارسل الى الباب العالي يخبرهُ بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليه وهو المسئول عنهُ

اما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائهِ فحاول سدّ ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاعة البلاد الى غير ذلك اثارةً لخواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكرهُ في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للمدافعة عن الوطن

وايقاف اوامر الخديوي بدعوى انهُ خرج عن قواعد الشرع الشريف .

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فجعل الاميرال سيمور سلكًا تلغرافيًا بين الاسكندرية وبورت سعيد واعلن الخديوي ثانية بعصيان عرابي . غير ان جميع هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب ادراج الرياح لان الاهالي اصبحوا منقادين للحزب الوطني انقيادًا امست البلاد بهِ آلة بيد زعيم الثورة يديرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اوغسطس فلم تقوَ عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين ابي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حربية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكلترا فامدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . اما عرابي فكان في كفر الدوار في اربعة الايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدّرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي فبلغت اربعة عشر الفًا من المشاة واربع فرق من الفرسان والف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعًا ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة آلاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطا وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

الّا ان كل هذه الاعدادات لم تكن لتثني العرابيين عن عزمهم فان عرابي حرر الى المدبرين بتاريخ ١٢ اوغسطس ان يجمعوا جندًا يبلغ مجموعهُ ٣٥ الفًا وطلب ان يكون فيهم الحفراء لانهم اقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوهُ اليهِ الحالة من السرعة في حشد الجيوش

وفرض ايضًا على المدبرين اموالاً يجمعونها من الاهالي امدادًا للحرب فلا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . واخذ في تقوية الاستحكامات وتشييد الطوابي فمدّها فيما بين ما فوق الرملة باربعة كيلومترات الى كفر الدوار وانشأ في كفر الدوار سدًّا عرضهُ ٢٠ مترًا وخندقًا عرضهُ اربعة امتار وجعلهُ فاصلاً بين السد وارض اكثرَ فيها من مواقع الاستحكام وكان الخط الدفاعي الاول ممتدًّا مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابي حمص ويوجد بين ابي حمص ودمنهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعًا فاختارهُ عرابي موقعًا يقيه من الانكليز اذا قضت عليهِ الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع

وقد قام بين الوطنيين من افاضلهم من خطب فيهم او حرر لهم ايضاحًا لما اتوهُ ويأتونهُ من الاغلاط في سيرهم فلم يفقهوا بل كان يقوم من بينهم من يخطب خطبًا تهييجية مدحًا في عرابي ومشروعاتهِ . وكان عرابي اثناء قيامهِ بالاعمال الحربية معتمدًا على مساعدة الباب العالي في مشروعهِ ولكن خاب املهُ اثر صدور المنشورات الخديوية واتصال الخبر بهِ ان القوم في دار السعادة عدُّوهُ عاصيًا ولم تمض مدة حتى تحقق ذلك الخبر بمنشور اصدرهُ الباب العالي بعصيان عرابي واتباعهِ ووجوب الرضوخ لاوامر الجناب الخديوي

وفي اواسط اوغسطس وصل الجنرال السير وولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم اخذت تتوارد القوات الانكليزية فبلغت في اواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ الفًا وكان قدوم هذا القائد العظيم داعيًا لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظرًا لما اشتهر بهِ من البسالة والدراية

العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلانًا مآله انهُ لم يأتِ الى مصر الاَّ لتابيد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الاَّ الذين يخالفون اوامر مليك البلاد . ثم اخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرابيين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولفوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولّي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونهُ الى معسكرهِ اما القتلى فكانوا يدفنونهم

وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٠ اغسطس (آب) ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين موقعة في كفر الدوار استمرت ساعتين وكان فيها عدد العرابيين ضعفي عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ واسروا ٦٢ . وحصلت موقعة اخرى في اليوم التالي لم يفز بها احد الطرفين . اما في اليوم الثالث ٧ شوال فاقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً تعزز فيهِ جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتنكص العرابيون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقعهم يتوقعون فرصة . وكان العرابيون بعد كل موقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون . اما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الخديوي رياض باشا من اوربا حيث كان متغيبًا فقدم في اواسط اوغسطس وبعد قدومهِ دعا الخديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فلبّى الدعوة وتعين رياض باشا ناظرًا للداخلية وعمر باشا لطفي ناظرًا للجهادية

وارسل الانكليز فرقًا من جيوشهم عن طريق الاسماعيلية ليقدموا مصر فاشتبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٤ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م مع

العرابيين بين المسخوطة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز واستولى الانكليز ايضًا على المحسمة فاصبحوا على عشرة اميال من التل الكبير وفي ٢٨ اوغسطس حصلت موقعة القصاصين بين المحسمة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال او ١٢ سبتمبر (ايلول) ورد للجناب الخديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا منبئ باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصّن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ افرنجي بعد منتصف الليل وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الاَّ ٣٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضائها على التل فغنموا ٤٠ مدفعًا وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والزخائر ثم اخذوا يتعقبون الجند المنهزم

وتفصيل ذلك ان عرابي كانت قد وصلت اليهِ نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور جلالة السلطان باعتبارهِ عاصيًا فاغتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجتهُ الكبرى كانت انهُ مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبدالله نديم واقرَّ على اخفاء ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيهِ بقوَّة ٢٠ الف مقاتل و ٧٠ مدفعًا زحفت الجنود الانكليزية تحت قيادة الجنرال وولسلي بقوة ١٢ الفًا و ٦٠ مدفعًا وقبل وصولهم الى معسكر العرابيين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخًا من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع اولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فعلم عرابي بذلك فجمع اليهِ الضباط وتشاور معهم فاقرُّوا على استمرار الدفاع محاباةً ورياءً . وفيهِ كتب علي بك يوسف امير الاي المقدمة الى عرابي انهُ قد تحقق ان العدو لا يخرج في هذه الليلة فاصدر عرابي امرهُ ان يرتاح الجيش اما العساكر الانكليزية فسارت من

اول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب العالي وامامهم عربان الهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة في آخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومرّوا بين العساكر لا رادَّ بردهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرّت فاستيقظ عرابي من نومهِ على دوي المدافع وخرج من خيمتهِ فارتاع لما علم ان العدو قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فاخذ يناديهم فلم يلبّهِ مجيب ثم رأى خيمتهُ قد أُصيبت بقنبلة فطارت فعلم انهُ لا ينجيهِ من الموت الاَّ الفرار فركب جواداً كريماً وفرَّ وتبعهُ ندبم فحاول بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالا حتى وصلا محطة ابي حماد فنزلا في القطار وامرا السائق بالمسير فتعلَّل فهددا هُ فسار حتى وصل القاهرة

فتوجه عرابي توًّا الى قصر النيل وعقد مجلساً من امراء العسكرية والملكية واخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الاراء فنهض البرنس ابراهيم باشا (ابن عم الجناب الخديوي) وخطب في الناس محرضاً علي الدفاع فوافقوهُ بحسب الظاهر واستقرَّ الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة فسار عرابي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال لهُ احد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها ما يهمُّك فاعلم ان لنا فيها نساءً واطفالاً واملاكاً لا نسلّم بضياعها تنفيذاً لاغراضك ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعدة ويكفي ما قد جرى »

فانذهل عرابي وارتبك في امرهِ لا سيما لما رأى الباقين مستحسنين ما

قالهُ رفيقهم فكرَّ راجعًا على عقبيهِ كئيبًا فاجتمع باصدقائهِ ودعاهم الى النظر في الامر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوي يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون لهُ الخضوع فحرروا عريضة وارسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الرويي ومحمد رأوف باشا ثم اردفوها بعريضة اخرى ارسلوها مع عبدالله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٩ﻫ او ١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢م فابى الخديوي قبول العريضة وامر بالقبض على الرويي وسجنهِ . اما نديم فانهُ ركب القطار الذي قدم عليهِ وعاد من فورهِ بعد ان وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليهِ الى الان

اما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فمرَّت ببلبيس فالزقازيق واستولت عليهما ثم سارت حتى اتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منهُ وعسكرت في سفح الجبل المقطم فاوجس الناس خيفة ان يدخل الانكليز مصر محاربين ولكن الامر جاء بخلاف ما كانوا يتوهمون لان الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقًا لما تنبأ بهِ الجنرال وولسلي والقت القبض على عرابي . وبعد وصول الجنرال وولسلي الى القاهرة انفذ السير الجنرال افلن وود الى كفر الدوار فوصلها في ١٦ منهُ فسلمت فامر بنسف الطابية التي كان قد بناها العرابيون في قرية اصلان ومثل ذلك سلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد واخيرًا دمياط فانها لم تسلم الاَّ في ٢١ سبتمبر (ايلول)

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلعة والمقطم وقصر النيل ونزل الجنرال السر وولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة البرنس دي كنوت ابن ملكة انكلترا . وأودع عرابي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن

الضبطية والجهادية في القلعة

ثم صدرت الاوامر الخديوية بتعيين حكام المديريات من اهل النزاهة والاخلاص وصدرت اوامر اخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و ١١ يوليو الى غاية ١٦ منهُ وتقديم التقارير بما تستطلعهُ . واوامر اخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وارسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من يجدون ممن وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرابيين . ولا تسل عن التهاني التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي والجنرال وولسلي بما اناها الله من النصر المبين . وفي ٢٣ سبتمبر ألغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منهُ اقبل الجناب الخديوي الى العاصمة وبصحبتهِ شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقاة سموهِ في المحطة ثم سار والى يسارهِ ابن الملكة وامامهُ الجنرال وولسلي والمستر مالت حتى اتى سراي الاسماعيلية فنزل وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة لاجراء التشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢ م امر سموهُ بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا ايوب لتحقيق قضية كل من كان لهُ يدٌ في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقررهُ لنظارة الداخلية لتنفذهُ . واصدر امرًا آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد راوف باشا للحكم بالدعاوي التي تقدم من اللجنة المخصوصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف . واصدر امرًا آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوي التي تقدم لها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا . فشرع كل من هذه اللجنات والمحاكم

في اجراء ما عُهد اليهِ . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٢ اوكتوبر (ت ١) سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامبابي . وكافأ الجناب الخديوي سلطان باشا بمبلغ عشرة آلاف جنيه على صداقتهِ التي ابداها اثناء الثورة . ثم اصدر الجناب العالي امرًا بالغاء الجيش المصري بقصد صرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش كعرابي وعبد العال وغيرهما ثم امر بتجديد تنظيمهِ . وفي ١١ ذي الحجة او ٢٤ اوكتوبر (ت ١) صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض الاستثناء . وانعم الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطًا من ضباط الجيش الانكليزي . واخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى الى تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفائها وبرهنوا على اخلاصهم لمليك البلاد . وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها اهاليها بسبب الحرق والنهب

ثم جاء اللورد دوفرين معتمدًا من قبل دولة انكلترا لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن ذلك برضاء الباب العالي . واخذ اللورد دوفرين منذ وصولهِ الى القاهرة يجتمع بالخديوي والوزراء ويتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها ذلك بعد ان درس احوال البلاد وبحث بنفسهِ عن الامور التي كان عازمًا على وضعها . ثم حرَّر تقريرهُ المشهور وارسلهُ الى لندرا في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيهِ بحثًا دقيقًا في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية وعلى نوع خاص بديون الفلاحين ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنساوية بقصد الانفراد بالعمل فكبر ذلك على فرنسا ولكنها لم تستطع امرًا يمنع الغاءها فأُلغيت وجعل في مكانها بامر الحضرة الخديوية مأمور مصريٌّ دعوهُ مستشارًا

مالياً ولهُ الحق ان يحضر في جلسات مجلس النظار فتعيَّن السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب . وكانت الحكومة قد باشرت محاكمة زعماء الثورة العرابية بواسطة اللجن التي سبق ذكرها وكان الفراغ من تلك المحاكمة في ١٩ شوال سنة ١٢٩٩ ه (٣ دسمبر (ك١) ١٨٨٢ م) ثم التأمت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عُرضت على الجناب العالي فتكرَّم بالعفو عمَّن حكم عليهم بالقتل فاصبحت الاحكام بعد ذلك العفو نقضي بتجريدهم من الرتب والالقاب والنياشين ونفيهم وهاك ما صدر بشأن ذلك

« (١) الحكم الصادر على كلٍّ من احمد عرابي وطلبة عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع تبديلهُ بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

« (٢) ان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها » . ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط املاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنويٌّ كافٍ لمعيشتهم فصدر بذلك امر عالٍ في ٢٠ شوال او ١٤ دسمبر (ك١) من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كلٍّ بحسب استحقاقهِ . وكان الامر بالنفي على ما تقدم يقضي بتسفيرهم حالاً وانما رات الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر او ٢٧ دسمبر (ك١) وعند ذلك ركبوا في قطار مخصوص مع من ارادوا استصحابهُ من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان محل منفاهم ولا يزالون هناك الى اليوم . ثم اصدر الجناب الخديوي امرًا عاليًا بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ ه الموافق ٣ يناير (ك٢) سنة ١٨٨٣ م بالعفو عن كل اهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ما عدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخهِ

ولاحظ رياض باشا بعين الناقد ان نيات الانكليز منصرفة الى

مساعدة عرابي ورفقائهِ اثناء محاكمتهم فابت نفسهُ الكظم على ما في ضميرهِ فقدم استعفاءهُ من نظارة الداخلية فكان ذلك مكدرًا لعموم الاهالي . وقد خاضت الجرائد بهذا الشأن ولا سيما جريدة الديبا واباانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعلهِ مؤثرًا الاستعفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها التصرف بالحرية التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤهُ عين بدلاً منهُ اسماعيل باشا ايوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منهُ خيري باشا

وفي ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٠ هـ (١ مايو (ايار) ١٨٨٣ م) صدر الامر العالي بتشكيل (١) مجالس المديريات مجلس في كل مديرية ويكون لها ان تقرر رسومًا فوق العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية انما لا تكون قراراتها في هذا الشأن قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها (٢) مجلس شورى القوانين . وفائدتهُ النظر في القوانين التي تسنّ حديثًا قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون او امر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداء الى هذا المجلس لاخذ رأيهِ فيهِ وان لم تعول الحكومة على رايهِ فعليها ان تعلنهُ بالاسباب التي اوجبت ذلك انما لا يترتب على اعلانهِ بهذه الاسباب جواز مناقشة فيها (٣) الجمعية العمومية . وهذه لا يجوز ربط اموال جديدة او رسوم على منقولات او عقارات او عوائد شخصية في القطر المصري الا بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك واقرارها عليهِ (٤) مجلس شورى الحكومة . صدر الامر بتشكيلهِ وتأجل بيان وظائفهِ

ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما ألغت الجيش القديم على ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن لهُ يدٌ في الحوادث العرابية واخذت بعد ذلك في تنظيم الجندرمة والبوليس وجعلت

السير افلن وود قائدًا عامًّا للجيش المصري وباكر باشا قائدًا للجندرمة والبوليس فكان عدد الجندرمة ٢٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ ماش . ثم تعين الجنرال السير افلن وود سردارًا للجيش المصري ورئيسًا لاركان حربهِ فاختار لمساعدتهِ عددًا من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربهِ وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية . ثم نظمت المجالس المحلية ووُضع لها قوانين عادلة وتعين لها رجال يقبضون على ازمتها وقد انصرف اليها هم اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة فخري باشا لانتقاء اللائقين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . ثم اهتم مجلس النظار في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل ان يكون في كل مجلس ابتدائي اوربيان وفي الاستئناف اربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ يونيو (حزيران) ١٨٨٣ م) صدر الامر الخديوي بترتيب هذه المحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الكريم بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

وفي صيف سنة ١٨٨٣ م ظهر في هذا القطر السعيد الوباء المشوم المعروف بالكوليرا (الهواء الاصفر) فاقيمت الحجور الصحية واعتنت الحكومة بتنظيف البلاد وبلغ عدد الوفيات بهذا الداء نحوًا من ستين الف نسمة

الحوادث السودانيَّة

ظهر في رمضان سنة ١٢٩٨ هـ اوائل اوغسطس (آب) سنة ١٨٨١ م رجلٌ نوبيٌّ المنشإ يدعى احمد محمد بن عبدالله وادَّعى انهُ المهدي المنتظر وكان مقيمًا في جزيرة ابا من اعمال السودان فالتفَّ حولهُ عصابة قوية وكان على حكمدارية السودان رأُوف باشا فانفذ اليهِ احد رجال بطانتهِ

يطلب حضورهُ الى الخرطوم عاصمة السودان فابى فبعث اليهِ ثلاثماية مقاتل على باخرتين فعادوا خاسرين فاستمسك الرجل بهدويتهِ وكثر انصارهُ فبعث محمد سعيد باشا مدير كردوفان جيشًا كبيرًا يقتفي اثرهُ وكان قد نزح الى جبل الغور شمالي فشوده واستنجد باهلهِ فعاد ولم ينل منهُ وطرًا . ثم جرد اليهِ راشد بك مدير فشوده وقاتلهُ فشتَّت المقاتلة عن قتل راشد بك وتشتت رجالهِ واكتسب المهدي كل ما كان معهم من المؤن والزخائر . وانتشر اتباع المهدي المعروفون بالدراويش بين القبائل السودانية يحثونهم على الجهاد في سبيل الله وما زالت الفتنة تقوى وتنتشر حتى اوائل سنة ١٨٨٢ م حينما استُقدم رأُوف باشا من السودان واقيم عبد القادر باشا مكانهُ

وفي ربيع اول سنة ١٢٩٩ هـ اوائل افريل سنة ١٨٨٢ م تقدم احد اقارب المهدي في شرذمة من رجالهِ الى سنار فسارت نجدة من رجال الخرطوم لمساعدة حامية سنار فشُتِّت شمل العصاة وأُنقذت سنار . وظهر في ذلك الاثناء رجل يدعى محمد طاها ادعى انهُ وزير المهدي وجمع اليهِ عصابة زادت اتباع المهدي قوة لكنهُ ما لبث ان ظهر حتى تبدد شملهُ وشمل رجالهِ

وفي شوال من تلك السنة نزل المهدي الى العُبَيد في ستين الفًا وكانت حاميتها ستة آلاف بالاسلحة التامة و١٢ مدفعًا فحاصرها بعد ان هاجمها دفعتين ولم يفز منها بشيء . فوجه عبد القادر باشا عنايتهُ الى تحصين الخرطوم خوفًا من الغائلة . وفي اواخر هذه السنة أُرسل القائمقام ستيوارت الى الخرطوم ليرفع للحكومة تقريرًا عن احوال السودان . وفي اوائل سنة ١٨٨٣ م ملَّت حامية العبيد الحصار فسلَّمت فصارت كردوفان ومن فيها انصارًا للمهدي . ثم استُقدم عبد القادر باشا الى مصر واقيم مقامهُ علاء الدين باشا وتولَّى حسين باشا قيادة جيش سنار . ثم توالت

الحوادث الى اوائل فبراير من هذه السنة فانفذت الحكومة المصرية حملة من ١١ الف مقاتل تحت قيادة قائد انكليزي النزعة يقال لهُ هيكس باشا لانقاذ العُبيد وقمع العصاة المهدويين وما زالت حتى انت الخرطوم فمكثت مدة للراحة ونهضت منها قاصدة العبيد فهلكت عن آخرها بمكيدة كانت منصوبة لها في وسط الصحراء وهلك معها قائدها ولم يرجع منها مخبر

وفي اثناء ذلك كان توفيق بك محافظ سواكن محاصرًا في سنكات لاحتدام نار الثورة في تلك الاقطار تحت قيادة احد قواد المهدي المدعو عثمان دجنا . واشتد الحصار على توفيق بك ولم يكن لديهِ الاَّ ستون مقاتلاً واما عدد العصاة فلا يقدَّر لكثرتهِ فطلب عثمان من توفيق بك ان يسلم والاَّ قتلهُ ومن معهُ فطاولهُ حتى تحصَّن فهجم عليهِ عثمان ففتل بعضًا من رجالهِ ولكنهُ لم يفز بهِ . فانتشر سمُّ الثورة في تلك الانحاء وحاصر العصاة طوكار وهي على ٤٥ ميلاً من سواكن ثم تقدموا حتى هاجموا سواكن نفسها وعادوا خائبين . وفي اواخر سنة ١٣٠٠ هـ او سنة ١٨٨٣ م أعدت الحكومة المصرية حملة تسير الى جهات سواكن تحت قيادة باكر باشا لانقاذ الحاميات ثم تسير الى بربر وتعيد المواصلات بينها وبين سواكن . فسار اولاً الى مصوع ليتحالف مع روساء القبائل ليعدَّ طريقًا لانسحاب حامية الخرطوم عن طريق كسالا ثم عاد الى سواكن واخذ في اعداد ما يلزم لتخليص حاميات طوكار وسنكات وحصلت مواقع كثيرة انتهت باستيلاء العصاة على سنكات وقتل توفيق بك حاميها وبطلها بعد ان اظهر من البسالة وعلو الهمة ما يفتخر التاريخ بذكرهِ وعاد باكر باشا بجيشهِ الى سواكن وحصنها ثم انيطت حكومتها بالاميرال هيوت واستُقدم باكر باشا الى القاهرة وبقيت طوكار محاصرة

وفي اثناء ذلك اشارت الحكومة الانكليزية على الحكومة المصرية ان تخلي السودان وتسحب جيوشها منها فلم يصادف ذلك قبولاً لدى شريف

باشا رئيس النظار فاصر الانكليز ومن ذهب مذهبهم على الاخلاء واستمسك شريف برأيهِ علمًا منهُ بامكان اخضاع السودانيين واستبقاء السودان فلما رأى اصرار الفئة المضادة لرأيهِ استقال من رئاسة النظار في ٥ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ (٤ يناير (ك٢) سنة ١٨٨٤ م) ورضي نوبار باشا بتشكيل وزارة جديدة قابلاً بما اشار بهِ الانكليز على شرط استبقاء سواكن فلم يعد على الحكومة الاَّ سحب حاميتها ورعاياها المقيمين في الاقطار السودانية فدار البحث على انسب طريقة لذلك . وفي ٩ ربيع اوَّل او ٨ يناير (ك٢) منها انتدبت الحكومة الانكليزية غوردون باشا احد رجالها المشهورين ليسير الى السودان يرفع عنها تقريرًا مفصلاً وعلى الخصوص عن حالتها الحربية والوسائط المناسبة لسلامة من بها من الحاميات والسكان الاوربا ويين وعن احسن طريقة لاخلاء داخليتها وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وابطال تجارة الرقيق التي كانت قد عادت الى ما كانت عليهِ واسلم طريقة لانسحاب الجيش المصري . وكان غوردون عالمًا باحوال السودان لانهُ تولاَّها في عهد الخديوي السابق

فبارح الجنرال غوردون انكلترا مستصحبًا الكولونيل ستيوارت كاتم اسرارهِ فوصل القاهرة في ٢٥ يناير (ك٢) فاخبرهُ السير افلن بارنج وكيل انكلترا السياسي في مصر ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليهِ اخلاء السودان وانها تطلب اليهِ اعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمون فيها عند ما فتحها المغفور لهُ محمد علي باشا . وفي اليوم التالي اصدر الجناب الخديوي امرًا عاليًا بتولية غوردون على الاقطار السودانية وفوَّض اليهِ امر اخلائها ثم سافر غوردون فوصل بربر في ١١ ربيع آخر او ٩ فبراير (شباط) وهناك اباح للاهالي جهارًا الاتجار بالرقيق بدعوى ان السودان اصبحت دولة مستقلَّة عن مصر وان المهدي قد اقيم سلطانًا على كردوفان .

وفي ١٨ فبراير (شباط) وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاهُ اهلها

وحامينها بالترحاب فقال لهم «اني اتيت لانقاذ السودان مما رزئت بهِ ولم آتِ بجيش بل اتكلت على معونة الله فلا احارب الاَّ بسلاح العدل» وكانوا يحبونهُ فوقع كلامهُ من قلوبهم موقع الاستحسان واستتبت الراحة في الخرطوم

ثم رأى الناس قد عادوا الى الثورة فحرر الى انكلترا مشيرًا بوجوب كسر شوكة المهدي قبل اخلاء السودان لانهُ يخشى منهُ اذا ملك الخرطوم ان يسير الى حدود مصر واشار بترك سواكن ومصوَّع . واخذ من الجهة الثانية يبشر السودانيين بالسلم وبانهُ لم يأت الاَّ مسالمًا فلم تنجح دعواه فناهضهم فلم يفز وكان عند وصولهِ قد ارسل الى المهدي يخبرهُ انهُ قد عينهُ سلطانًا على كردوفان فرفض تلك العطية وتهددهُ بالقتال والمسير الى مصر فاخذ في عدوانهِ وجعل يرسل بواخرهُ الى البحر الازرق لمحاربتهِ ولم ينتهِ مارس (اذار) من تلك السنة حتى اصبحت الخرطوم في حصار تام فجعل غوردون يستحث الحكومة الانكليزية على انهُ لا بد من محاربة المهدي وكسر شوكتهِ وانهُ يكفي لذلك ٣ آلاف من مشاة الاتراك وبعض خيالتها

وفي اثناء ذلك بعثت الحكومة الانكليزية جيشًا من رجالها لانقاذ طوكار وحامينها تحت قيادة الجنرال غراهم . ولكن «لم يأتِ الترياق من العراق حتى كان العليل فارق» الاَّ ان الجنرال غراهم ما انفك حتى جاء طوكار بعد مقاساة شديدة وانقذ حامينها وكانت قد أُسرت واستعبدت ورجع الى سواكن . ثم عاد ثانية لمحاربة العربان فنتك بهم ولكن لم تكن ثم نتيجة لتلك الغلبات الاَّ زيادة الرعب للقبائل المسالمة ولا سيما بعد انسحاب غراهم من سواكن في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ او ٢٥ مارس (اذار) سنة ١٨٨٤ م

وتماهلت الحكومة الانكليزية في اجابة طلب غوردون فكتب الى صديق لهُ في لوندرا يدعى السير صموئيل باكر يقول «الا يقرضنا اغنياء انكلترا واميركا ميئتي الف ليرة انكليزية فنستأجر بها الفين او ثلاثة

آلاف من الباشبوزوق التركي ونرسلهم الى بربر » . ثم كتب الى السير افلن بارنج في القاهرة يقول « قد علمت منك ان قصدك ان لا تمدنا بنجدة الى هنا او الى بربر فلذلك اراني حرًّا ان افعل بحسب ما تقتضيه الاحوال فسابقى هنا ما امكن وساخمد الثورة اذا استطعت والاَّ فاني ارجع الى خط الاستواء ويبقى العار على الذين اهملوا حامية سنار وكسالا وبربر ودنقلة عالمًا حق العلم انهُ لا بدَّ لكم من محاربة المهدي وقهرهِ في ظروف وعرة واحوال عسرة اذا كان قصدكم حفظ السلام في القطر المصري »

وقد قال انهُ سائر الى خط الاستواء لانهُ ظنها الطريق الافضل للنجاة بمن معهُ لان الاعداء كانوا قد احاطوا بهِ من كل الجهات وقد سقطت بربر وما جاورها

الاَّ ان الحكومة الانكليزية أقرَّت اخيرًا على ارسال حملة من رجالها دعتها الحملة النيلية لتسير الى السودان عن طريق النيل لانقاذ غوردون ومن معهُ جعلتها مؤلفة من سبعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال اللورد وولسلي قائد حملة سنة ١٨٨٣ م . فبارح لندرا في ٩ ذي القعدة سنة ١٣٠١ هـ او ٢١ اوغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ م وبارح القاهرة في ٢٧ سبتمبر منها . وكان قد سار في مقدمة الجيش الماجور كتشنر (اليوم كتشنر باشا) ليستطلع الاحوال فأُخبر ان الكولونيل ستيوارت كاتب اسرار غوردون بينما كان نازلاً في باخرة مرَّ ببربر فانكسرت بهِ الباخرة وغدر العربان بهِ وبمن معهُ وقتلوهم . اما الحملة النيلية فسارت حتى اتت حلفا عند الشلال الثاني وقاست اشر العذاب في تطليع مراكبها فوق الشلالات وعلى الخصوص الشلالين الاول والثاني ومن حلفا مدُّوا سكة حديدية الى سرس على مسافة ٣٠ ميلاً منها ومن هناك سار وولسلي حتى اتى دنقلة فلاقاهُ مدبرها مصطفى بك ياور (اليوم مصطفى باشا ياور) فسلمهُ لقب ورتبة (سير) من انعام جلالة ملكة

انكلترا مكافأة على خدامتهِ في محاربة العصاة لانهُ بثباتهِ مع قلّة رجالهِ منعهم من التقدم الى ما وراء بربر

ثم اخذ اللورد وولسلي رسالة من غوردون باشا بتاريخ ٤ نوفمبر يقول فيها انهُ لا يمكنهُ حفظ المدينة (الخرطوم) اكثر من اربعين يومًا ويشير عليهِ ان يأتي برجالهِ عن طريق امبوكول فالمتمة عن طريق الصحراء . فرأى وجوب الاسراع فسار الى كورتي قرب امبوكول وهناك جعل جيشهُ قسمين ارسل احدهما تحت قيادة الجنرال إرل ليسير على النيل حتى ابي حمد وبربر فيقهر العربان الذين قتلوا الجنرال ستيوارت ثم يفتح طريق الصحراء بين ابي حمد وكروسكو لتسهيل نقل المؤن . والقسم الثاني ارسلهُ عن طريق الصحراء الى المتمة تحت قيادة الجنرال ستيوارت ليفتح طريق الخرطوم ويسرع الى غوردون فينقذهُ . وبين كورتي والمتمة مسير ١٢ يومًا في ارض رملية قاحلة لا ماء فيها الاَّ في بعض الآبار التي ماء معظمها مجتمع من الامطار وهي افضل طريق موصلة الى الخرطوم من امبوكول . فسار الجنرال ستيوارت في ١٢ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ او ٣٠ دسمبر «ك ١» سنة ١٨٨٤ م في فرقة من الجند لاستكشاف احوال الآبار فجاء اولاً آبار الهوائر ثم آبار جكدول فرأى فيها ماء كافيًا لحملتهِ مع الجهد فعاد الى كورتي

وفي ٢١ ربيع اوَّل سنة ١٣٠٢ هـ او ٨ يناير «ك ٢» ١٨٨٥ م عاد قاصدًا المتمة في الف وستماية مقاتل ونحو الفين من الجمال وثلاثماية من الهجانة المصريين فوصل جكدول في ١٢ يناير وبارحها في ١٤ منهُ بعد ان ترك فيها حامية قليلة وبعد يومين قابل التلال التي تحيط بآبار ابي طليح فارسل بعض الفرسان لاستطلاع حالة الآبار فعادوا واخبروا انها محفوفة بالخيام والاعلام المهدوية ومعظم السواد الى غربيها . فعسكر ستيوارت في منخفض وسيع واحاط معسكرهُ بزريبة وباتوا تلك الليلة ساهرين وفي

الصباح التالي انتظروا هجوم العدو فلم يهجم احدٌ منهم فأمر الجنرال ستيوارت رجاله ان يترجلوا تاركين مطيهم في الزريبة وليسيروا على هيئة مربع لامتلاك الآبار لان الماء لا يلبث ان ينفد من معسكرهم وترك في الزريبة ١٥٠ جنديًّا لحراسة المتاع وسار نحو العدو فمشى ساعة ثم هجم عليهِ العربان فلاقاهم بعزم ثابت فتقهقر وافتتبعهم المربع حتى تواروا فوصل الآبار واستولى عليها وفي صباح اليوم التالي استقدم من كان باقيًا في الزريبة . وقد قُتل من الانكليز في هذه الموقعة تسعة ضباط وستون جنديًّا وقتل من العربان ثمانماية

وفي غاية ربيع اول او مساء ١٧ يناير «ك ٢» بارح الجنرال ستيوارت آبار ابي طليح تاركًا عندها حامية وسار في ظلام الليل قاصدًا المتمة حيث ينزل على النيل الى الخرطوم وكان ليلاً حالكًا وقد أُتيح لي ان اكون من رفقاء تلك الحملة في تلك الليلة الليلاء فكنَّا سائرين لا نرى شيئًا من آثار الطريق المؤدي الى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالابرة المغنطيسية (البُصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام متلمّسين وطورًا نعثر ارجل جمالنا باعشاب او أنجم شوكية ولم نكن نخرج صونًا ولا نقدح نارًا لئلاَّ يكون بالقرب منا من الاعداء من يستطلع احوالنا فتحبط مقاصدنا ولم يأتِ آخر الليل حتى اصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منهُ النعس مأخذًا عظيمًا . وكانت تأخذ من احدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبهُ وهو على وشك السقوط فيعتدل

وعند ما اصبح يوم غرة ربيع آخر او ١٨ يناير «ك ٢» اشرفنا على النيل المبارك عن بعدٍ والمتمة عن يسارنا ولم نكد نقف والغزالة في الضحى حتى خرج الينا من اسوار المدينة (المتمة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منَّا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فامر الجنرال ستيوارت بالترجل

وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فامر الجنرال بتشكيل مربّع ثم وقف وراء احد المدافع وبيدهِ المنظار يراقب حركات العدو فاصابتهُ رصاصة في بطنهِ فسقط على الارض وسقطت قلوبنا معهُ وكان بجانبي المستر سانكي هربرت كاتب سر الجنرال فسألتهُ ما ظنّهُ بحياة الجنرال فاجاب متأسفًا انهُ لا يرجو لهُ شفاء . وما اتمّ كلامهُ حتى اصيب هو برصاصة في رأسهِ فشهق وسقط ميتًا لا حراك بهِ وكان خادمهُ بجانبهِ يخاطبهُ في بعض حاجاتهِ فلما رآهُ ساقطًا رفع يدهُ مناديًا يا سيدي يا سيدي ولم يتمّ قولهُ هذا حتى اصيبت يدهُ عند المعصم برصاصة ثقبتها من الجانب الواحد الى الآخر وكنا نرى كثيرين غيرهُ يسقطون مثل تلك السقطة . فلا تسل عما حل بالجند من اليأس الاّ انهم تجلدوا واقاموا عليهم اكبر ضباطهم قائدًا فانمّوا تشكيل المربع بعدان رفعوا الجنرال جريحًا جرحًا بليغًا لم يعش بعدهُ اكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء

فسار المربّع ونحن داخلهُ قاصدًا النيل فهاجمنا الاعداء ببسالة غريبة ثم ما لبثوا ان اقتربوا من مربعنا حتى تشتّت شملهم فسرنا حتى ادركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا اياهُ نحوًا من اسبوعين فحيّيناهُ تحية ملتاح وعسكرنا على ضفتهِ للمبيت تلك الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزريبة ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبّة وقد دعاها بعض الكتبة « جوبات » غلطًا . وهناك التقى الجيش باربع بواخر كان قد ارسلها غوردون من الخرطوم لملاقاتهم فاستلموها وكان فيها نصحي باشا وخشم الموس بك « اليوم خشم الموس باشا » وكلاهما من المخلصين لغوردون باشا والحكومة المصرية

وفي ٧ ربيع آخر او ٢٤ يناير « ك ٢ » ركب السير شارلس ولسن رئيس قلم المخابرات في سريّة من الجند على باخرتين ومعهُ خشم الموس

بك وسار قاصدًا الخرطوم وفي اليوم التالي وصلوا الى الشلال السادس «شلال السبلوكا» فانكسرت احدى الباخرتين فاحتشد الجند في الباخرة الباقية ثم ساروا قليلاً فلاقاهم اعرابيٌّ واخبرهم ان الخرطوم قد سقطت فلم يصدقوا حتى وصلوا اليها ورأوا الاعلام المهدوية تخفق فوق اسوارها فعادوا وقد يئسوا مما ارادوا . ثم علموا ان سقوطها كان بخيانة فرج باشا اكبر قواد الاسوار وان غوردون قد قُتل وقتل معهُ كثيرون من الاوربيين وغيرهم فعاد السير شارلس بباخرتهِ وعند وصولهِ الى الشلال المعهود صدمت الباخرة الباقية صخرًا فانكسرت فنزل بمن كان معهُ من الجيش الى البر فاتاهم اعرابي وفي يدهِ كتاب من المهدي يطلب اليهم التسليم فطاولوهُ الى ان انتهم باخرة من المتمة ولم تصلهم الاَّ بعد شق الانفس لما كان يتهددها من الطوابي القائمة على الضفتين وكانوا قد ارسلوا احد الضباط لاستجلابها وتبليغ ما كان من الخرطوم وسقوطها . فركبوا الباخرة حتى اتوا القبة وهم لم يصدقوا انهم نجوا . فأُرسلت هذه الاخبار الى اللورد وولسلي في كورتي فاستشار حكومتهُ فامرتهُ بالانسحاب فبعث بتلك الاوامر الى حملتي المتمة وابي حمد

اما حملة ابي حمد التي كانت تحت قيادة الجنرال إرل فكانت قد حاربت العربان في اماكن متعددة قتل فيها الجنرال ارل وامير الايان وسبعة عساكر ثم تقدموا الى ابي حمد فظفروا ببقية باخرة الكولونيل ستيوارت وبعض اوراقهِ ثم ادركتهم اوامر اللورد وولسلي بالانسحاب فانسحبوا الى كورتي . ومثل ذلك فعلت حملة المتمة فانها عادت حتى اتت كورتي وفي ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢ هـ او ٨ مارس «اذار» سنة ١٨٨٥ م التقت عساكر اللورد وولسلي مرة ثانية في كورتي فاعلنهم ان الحكومة الانكليزية قد عزمت على سحب كل الحملة في الخريف القادم وكان الانكليز قد ارسلوا حملةً ثانيةً الى سواكن تحت قيادة الجنرال

غرام لفتح طريق بربر ومد سكة حديدية فمدّوها الى عطبرة وطنبوك بكل مشقة لما كان يحول دون ذلك من مناوشات العربان وتعدياتهم

وفي رجب سنة ١٣٠٢ هـ اوائل مايو «ايار» سنة ١٨٨٥ م جاء اللورد وولسلي الى سواكن وشاهد تلك الاجراءات وفي اواخر هذا الشهر اعتمدت الحكومة الانكليزية على اخلاء السودان من عساكرها لاسباب دعتها اليها سياستها الخارجية فاخذت الجيوش بالانسحاب وفي شوال او يوليو (تموز) شرعوا بالانسحاب من دنقلة على نيّة ان يتحصنوا في وادي حلفا وكروسكو واصوان ويتركوا للعصاة ما وراء ذلك من البلاد

اما المهدي فبقي في حصن ام درمان بجوار الخرطوم يحشد جيشاً لافتتاح القطر المصري . وفي ٦ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ او ١٩ يونيو (حزيران) ١٨٨٥ م اصيب بالجدري ومات في مساء اليوم التالي بعد ان استخلف عبد الله التعايشي على خليفته . ولم يضعف موت المهدي شيئاً من الثورة بل بقيت على ما كانت عليه قبل موته وظل العصاة يتجمعون ويتفرقون ويقتتلون اثر الانكليز حتى احتلوا دنقلة فصارت تجارة الرقيق الى ما كانت عليه وتكاثر عدد المخاسين

اما الجيوش الانكليزية فاصبحت بعد سفر اللورد وولسلي تحت قيادة الجنرال غرانفيل ومعه بعض الجيوش المصرية وقد احتلت الحدود المصرية الى وادي حلفا فكانت تهاجمهم الدراويش مرة ويهاجمونهم اخرى حتى كانت واقعة جنس ثم مواقع اخرى وكان النوز دائماً للعساكر الانكليزية والمصرية الى ان خمدت ولم نعد نسمع الاّ بمناوشات طفيفة وقد اصبحت آخر الحدود المصرية الآن وادي حلفا ولا يزال العربان في ما وراء ذلك على نية مقاومة الحكومة المصرية وقاها الله من كل غدر وحرسها بعنايته .

وقد استقلّ الدراويش المهدويّون بالاقطار السودانية وتشبّهوا بالدول الأخرى فخطبوا لمهديهم وخلفائه وضربوا النقود بامرهم في ازمنة

مختلفة فمنها ما هو مضروب في سنة الهجرة وهي هجرة المهدي على ما يزعمون ومنها ما هو مضروب بعد ذلك . وقد عثرت على قطعة فضية من هذه النقود ترى رسمها في شكل ٩٣ بحجمها الطبيعي على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « ام درمان » بجوار الخرطوم قد اتخذها المهدي عند افتتاح الخرطوم مقرًّا لهُ وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية والى اعلاها رقم واحد يقصدون بهِ السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الآخر ما يشبهُ الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كانهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند اسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي او هجرتهِ

ش ٩٣ نقود محمد احمد المهدي

هذا ملخَّص الحرب السودانية التي انتهت بخروج معظم الاقطار السودانية من حوزة الحكومة المصرية بعد ان هدرت في سبيل ذلك دماء غزيرة وأُنفقت مبالغ جسيمة تفوق ما بذلهُ المغفور لهُ محمد علي باشا على افتتاحها فقد صح فيها قول الشاعر

ويلاهُ ان نظرت وان هي اعرضت وقع السهام ونزعهنَّ اليمُ

« عودٌ »

اما ما كان من امر مصر فان الاشاعات تكاثرت بعزم الحكومة

الانكليزية ان تضع حمايتها على هذا البرّ ثم اثبت الزمان كذب تلك الاشاعات . ثم تكاثر القول بقرب انجلاء عسكرها عن مصر . وفي شعبان سنة ١٣٠١ ه اويونيو (حزيران) ١٨٨٤ م تشكّل مؤتمرٌ دولي من جميع الدول وانعقد في لندرا تحت رئاسة اللورد غرانفيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في امور كثيرة تتعلق بمصر فقرّر تحويرات كثيرة انتهت الى غير نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١ ه (اوائل سبتمر (ايلول) ١٨٨٤ م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمدًا من انكلترا للنظر في المسألة المالية واحوال الادارة الداخلية مستصحبًا معهُ القاضي الهندي سميع الله خان بناء على رغبة اللورد في انتخاب قاض مسلم يصحبهُ الى مصر ويكون شريكًا لهُ في هذه المهمّة فتحدثت الناس كثيرًا بسبب قدوم هذا المعتمد اما هو فاخذ في ملاحظة ما اتى من اجلهِ وطاف البلاد شمالاً وجنوبًا وبعد ان قضى اياماً طوالاً عاد الى بلادهِ ونظم تقريرًا رفعهُ الى حكومتهِ فلم يحُز قبولاً فنسجت عليهِ عناكب النسيان

ورأت الحكومة المصرية انها لا تقوى على القيام بالتعهدات وبذل النفقات وكانت الاحوال تستدعي التخفيف عن المالية بقدر الامكان فرأت ان تعمد الى توقيف استهلاك الدين الموحد بالرغم عمّا في ذلك من مس قانون التصفية ففعلت . ثم عمدت ملافاةً لعسر المالية ايضًا الى الاقتصاد وعلى الخصوص في نفقات الدوائر فاخذت في رفت مستخدميها الذين تراءى لها امكان استغناء مراكزهم عنهم فرفتت منهم ما يعد بالآلاف ومعظمهم من اصحاب الرواتب القليلة والذين لم يعد يمكنهم معاطاة اشغال أُخرى تجاريّة او صناعية اوغيرها فتظلموا على اساليب مختلفة وقد جالت الجرائد المحلية في هذا الشأن واكثرت من تعنيف الحكومة ولومها على ذلك . وانما ذلك لم يكن ليسد عوز المالية ويكفي الحكومة

مؤنة الرفت فهي رغماً عن رغبتها في الرحمة بالرعايا لا تزال آخذة بالاقتصاد من باب الرفت وغيره

وفي اواخر عام ١٨٨٤م أنشأت الحكومة المصرية المعرض القطني واصدرت نظارة الداخلية لائحة عمومية في تعيين يوم افتتاحه وتنظيمه وادارة اعماله . وفائدة ان تُعرض فيه كل المحصولات الأما كان فيها داخلاً في نطاق الصناعة الداخلية ويُعطَى لمن ياتي باجود المحصولات جائزة . وفي ٨ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ ه او ٢٤ يناير (ك٢) ١٨٨٥م افتُتح هذا المعرض بحضور الجناب الخديوي والنظار والقناصل

ثم اهتمت الحكومة الخديوية باستبدال النقود المصرية القديمة بنقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث حتى اواخر سنة ١٨٨٥ م فصدر امر عالٍ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٣ ه او ١٤ نوفمبر (ت٢) ١٨٨٥ م مؤذنٌ بضربها وفي اواخر سنة ١٨٨٧ م ظهرت وتداولتها الايدي وهي مبنية على حساب الكسور العشرية تسهيلاً للمعاملة . وكيفية ذلك انهم جعلوا الجنيه المصري بقيمة مائة غرش كما كان قبلاً وقسموهُ الى الف جزء دعوا الواحد منها مليمًا اي جزء من الف فالمليم هو جزءٌ من الف من الجنيه المصري والغرش عشر مليمات والريال مايتا مليم (عشرون غرش) وهكذا والجنيه واجزاؤهُ مصنوعة من الذهب والريالات واجزاؤها من الفضة والمليم ومركباتهُ الى ابي الخمس مليمات من النكل وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منها بنصف عشر الغرش وقسموا كلاًّ من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منها بربع عشر الغرش اي جزء من اربعين من الغرش وهي البارة وجميع اجزاء المليم مصنوعة من النحاس

وترى في شكل ٩٤ مثال النقود المضروبة حديثًا وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة غروش اومائة مليم وترى على احد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٢ ه وهي السنة التي تولّى بها جلالة السلطان

عبد الحميد خان الخلافة العثمانية ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من تولية جلالتهِ وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم جلالتهِ ايضاً والى اسفلها رقم عشرة تحتهُ حرف شين للدلالة على قيمة هذه القطعة اي عشرة غروش

ش ٩٤ النقود المصرية الجديدة

اما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الاتي

	بارة	غرش صاغ	او مليمًا
الليرة الانكليزية تساوي	٣٠	٩٧	٩٧٥
الليرة العثمانية «	٣٠	٨٧	٨٧٧ ١/٢
الليرة الفرنساوية (فاتي)	٠٦	٧٧	٧٧١ ١/٢

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ هـ او ١٢ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٧م الحَّ الباب العالي على الحكومة الانكليزية ان تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري فاجابت انها لا يمكنها ذلك الاَّ متى استتبَّ النظام فيها وفي ٣ فبراير تقرر ان يكون جيش الاحتلال منحصرًا في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة الفان وتسع مئة جندي وفي الاسكندرية ٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ . وفي ١٥ جمادى الاولى او ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الآتية بما يتعلق بمصر وهي

(١) استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية

(٢) ان تكون حالة مصر من قبيل الحيادة على مثال حالة بلجيكا

(٣) حرية المرور في قنال السويس في زمني الحرب والسلم

(٤) اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان تجمع الدول على وجوب ذلك

فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفتور وطلب ان يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الانجلاء وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت

وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ او ١٩ افريل (نيسان) ١٨٨٧ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقًا بينما كان في اوربا يسعى الى ترويح النفس فاسف الجميع على فقدهِ وحملت جثتهِ الى مصر ودفنت فيها

وفي ١١ شعبان او ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي ان يكون زمن احتلالها في مصر خمس سنوات فطلب الباب العالي ان يكون ٣ سنوات ولم يتقرر شيء . وفي اوائل يونيو عرض على الباب العالي وفاق بينهُ وبين انكلترا بخصوص مصر وهاك نصّهُ

(١) تبقى مصر كما هي حسب نصوص الفرمانات السلطانية

(٢) يبقى خليج السويس على الحيادة وتضمن الدول سلامة مصر

(٣) تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين

(٤) لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد خنام السنة الثالثة من التوقيع على هذا الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخليًا كان ام خارجيًا

(٥) يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع اختلال بها او خشي ان ترسل دولة اجنبية عساكرها الى مصر

(٦) تستدعي الدولة العلية وانكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدول اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية المخولة للاجانب في مصر جملة امتيازات

وبعد المخابرات الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليهِ

وفي ١٨ رمضان سنة ١٣٠٤ هـ او ١٠ يونيو (حزيران) ١٨٨٧ م توفي خيري باشا رئيس الديوان الخديوي . وزاد ارتفاع النيل في هذه السنة فطاف على كثير من الاراضي وخشي الناس فتكهُ . وفي ٢٢ سبتمبر منها طاف الجناب الخديوي في جهاتٍ القطر متفقدًا احوال الاهالي ومعزّيًا الذين اصيبوا بطغيان النيل فسار اولاً الى الوجه البحري ثم القبلي فاستغرقت السياحة المشار اليها ١٦ يومًا

واهمُّ حوادث سنة ١٨٨٨ م سقوط الوزارة النوبارية وتشكيل الوزارة الرياضية لان الناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا عن الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليهِ بابصارهم وقد احاطت بهِ آمالهم لما اشتهر بهِ هذا الوزير الخطير من الحب الشديد للشعب المصري ورغبتهِ الفائقة في اصلاح البلاد ولما لهُ من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرةً تضاهي شهرتهُ في حب العلم وتنشيط ذويهِ . ومن مبادئهِ حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو وكثيرًا ما قادهُ ذلك الى التنحّي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد افكارهِ ومخالفة مبادئهِ . فعندما سقطت الوزارة النوبارية في ٢٠ رمضان سنة ١٣٠٥ هـ او ٩ يونيو «حزيران» ١٨٨٨ م لم يكن يصدق الناس ان رياض باشا يقبل ان يشكل وزارة جديدة . فلما انبأهم البرق بجلوسهِ على

دستها وتقلده اعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطيرون على اجنحة الآمال وتطاولت اعناقهم استطلاعاً لما سيكون من امر هذه الوزارة الجديدة . وقد تحققت بعض الامال الآن ولا يزال الناس ينتظرون تحقق الباقي مع الزمن

ومن اعمال الوزارة الرياضية انشاء المحاكم في جهات الصعيد وهي مأثرة لا تخفى اهميتها على احد . وقد باشرت امورًا كثيرة تعود بالخير والفلاح على الامة المصرية وحكومتها نطلب الى الله ان يعضدها في مشروعاتها وينفعنا بسعيها ونشاطها تحت ظل الحضرة الخديوية الفخيمة ورعاية جلالة مولانا امير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان أيّد الله سلطانهُ وعزّز جنودهُ واعوانهُ

تمّ الجزء الثاني

(فائدة) اذا تأملت بصور النقود المطبوعة في هذا الكتاب وقابلت اشكال خطوطها بعضها ببعض متدرجًا بذلك من قديمها الى حديثها يتمثل لك كيفية انتقال الخط العربي من الشكل الكوفي الى ما هو عليهِ الآن

جدول عام

وهو يتضمن اسماء الذين حكموا في مصر منذ فتوح الاسلام الى هذه الايام . وهم على ثمانية اقسام

(١) الامراء العرب . وهم الذين تولوا مصر منذ فتوحها الى مجيء الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي الى القاهرة . وقد تولوها تحت رعاية الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين من سنة ١٨ ـ ٣٦٢ ﻫ او من ٦٤٠ ـ ٩٧٢ م وقد دعوناهم عربًا لان معظمهم من العرب

(٢) الخلفاء . وهم الخلفاء الفاطميون اولهم المعزّ لدين الله وآخرهم العاضد بن يوسف من سنة ٣٦٢ ـ ٥٦٧ ﻫ او من ٩٧٢ ـ ١١٧١ م

(٣) السلاطين . وهم سلاطين الدولة الايوبية ودولة المماليك الاولى والثانية . اولهم السلطان صلاح الدين الايوبي وآخرهم السلطان الملك الاشرف طومان باي من سنة ٥٦٧ ـ ٩٢٣ ﻫ او من ١١٧١ ـ ١٥١٦ م

(٤) الباشوات . وهم الولاة الذين تولّوا مصر باسم الدولة العثمانية منذ فتوحها اياها الى استبداد الامراء المماليك من سنة ٩٢٣ الى ١١١٩ ﻫ اوّلهم خير بك باشا وآخرهم حسن باشا

(٥) الامراء المماليك . وهم مشائخ البلد الذين كانوا يتولون حكومة القاهرة وقد كانت سلطتهم في بادئ الرأي محدودة ثم قويت شوكتهم فاستبدوا اما مرجعهم فالى الدولة العثمانية اوّلهم قاسم عيواظ بك وآخرهم ابراهيم بك ومراد بك من سنة ١١١٩ الى ١٢١٣ ﻫ

(٦) الامراء الفرنساويون . وهم قواد الحملة الفرنساوية اولهم نابوليون بونابرت وآخرهم الجنرال مينو من سنة ١٢١٣ الى ١٢١٦ ﻫ

(٧) باشوات آخرون . وهم الولاة الذين تولوا مصر باسم الدولة العلية منذ خروج الحملة الفرنساوية الى ايام محمد علي . اوّلهم خسرو باشا وآخرهم خورشيد باشا من سنة ١٢١٦ الى ١٢٢٠ ﻫ

(٨) الدولة المحمدية العلوية . وهم سلالة رجل الاصلاح المغفور لهُ محمد علي باشا من سنة ١٢٢٠ ﻫ ولا تزال

وهاك جدولاً شاملاً لاسماء الذين حكموا في مصر مرتبة حسب سنيّ توليانهم مع مراعاة التقسيم المتقدم ذكرهُ والاشارة الى الاماكن المذكورة فيها تلك التوليات من هذا الكتاب ثم اذا كانوا امراءاو ولاةً تذكر بجانب ذلك اسماء الخلفاء او السلاطين الذين حكموا تحت رعايتهم

(١) الامراء العرب

تحت رعاية الخلفاء الراشدين

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
عمرو بن العاص	١٨	٩٤	عمر بن الخطاب
عبدالله بن سعد	٢٥	١٢٤	عثمان بن عفان
محمد بن ابي حذيفة	٣٥	١٢٨	«
قيس بن سعد	٣٦	١٣٢	علي بن ابي طالب
محمدٌ بن ابي بكر الصديق	٣٧	١٣٤	«

تحت رعاية الخلفاء الامويين

عمرو بن العاص (ثانيةً)	٤١	١٤٠	معاوية بن ابي سفيان
عتبة بن ابي سفيان	٤٣	١٤٠	«
عقبة بن عامر	٤٤	١٤١	«

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
مسلمة بن مخلد	٤٥	١٤١	معاوية بن ابي سفيان
سعيد بن يزيد الازدي	٦٣	١٤٢	يزيد بن معاوية
عبد الرحمن بن عنبة	٦٤	١٤٥	عبدالله بن الزبير
عبد العزيز بن مروان	٦٥	١٤٦	مروان بن الحكم
عبدالله بن عبد الملك	٨٦	١٤٨	عبد الملك بن مروان
قرة بن شريك	٩٠	١٤٩	الوليد بن عبد الملك
عبد الملك بن رفاعة	٩٦	١٤٩	»
ايوب بن شرحبيل	٩٩	١٥١	عمر بن عبد العزيز
بشر بن صفوان	١٠١	١٥٢	يزيد بن عبد الملك
حنظلة بن صفوان	١٠٣	١٥٣	»
محمد بن عبد الملك بن مروان	١٠٤	١٥٣	»
الحر بن يوسف	١٠٥	١٥٣	هشام بن عبد الملك
حفص بن الوليد	١٠٨	١٥٣	»
عبد الملك بن رفاعة (ثانيةً)	١٠٩	١٥٣	»
الوليد بن رفاعة	١٠٩	١٥٣	»
عبد الرحمن بن خالد	١١٧	١٥٣	»
حنظلة بن صفوان (ثانيةً)	١١٩	١٥٣	»
حفص بن الوليد (ثانية)	١٢٤	١٥٤	»
حسان بن عناهية	١٢٧	١٥٦	مروان بن محمد
حفص بن الوليد (ثالثةً)	١٢٧	١٥٧	»
الحوثرة بن سهل الباهلي	١٢٨	١٥٧	»
المغيرة بن عبيدالله	١٣١	١٥٧	»
عبد الملك بن موسى	١٣٢	١٥٧	»

تحت رعاية الخلفاء العباسيين

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
صالح بن علي	١٣٢	١٥٩	ابو العباس ابن محمد
ابو عون عبد الملك بن يزيد	١٤٠	١٦٠	المنصور بن محمد
موسى بن كعب	١٤١	١٦٠	»
محمد بن الاشعث	١٤١	١٦٠	»
حميد بن قحطبة	١٤٣	١٦٠	»
يزيد بن حاتم	١٤٤	١٦٠	»
عبدالله بن عبد الرحمن	١٥٢	١٦١	»
محمد بن عبد الرحمن	١٥٥	١٦٢	»
موسى بن علي	١٥٦	١٦٢	»
عيسى بن لقمان	١٦١	١٦٣	محمد المهدي
واضح مولى ابي جعفر	١٦٢	١٦٣	»
منصور بن يزيد الرعيني	١٦٢	١٦٣	»
يحيى بن داود	١٦٣	١٦٣	»
سالم بن سوادة	١٦٤	١٦٣	»
ابراهيم بن صالح	١٦٥	١٦٣	»
موسى بن مصعب	١٦٧	١٦٣	»
اسامة بن عمرو	١٦٨	١٦٤	»
الفضل بن صالح	١٦٨	١٦٤	»
علي بن سليمان	١٦٩	١٦٥	»
موسى بن عيسى	١٧١	١٦٦	هارون الرشيد
مسلمة بن يحيى	١٧٣	١٦٦	»

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن زهير	١٧٣	١٦٦	«
داود بن يزيد بن حاتم	١٧٣	«	هارون الرشيد
موسى بن عيسى (ثانية)	١٧٥	«	«
ابراهيم بن صالح «	١٧٦	«	«
عبدالله بن المسيب	«	«	«
اسحق بن سليمان	١٧٧	«	«
هرثمة بن اعين	١٧٨	«	«
عبد الملك بن صالح	«	١٦٧	«
عبدالله بن المهدي	١٧٩	«	«
موسى بن عيسى (ثالثة)	١٧٩	«	«
عبيدالله بن المهدي (ثانية)	١٨٠	«	«
اسماعيل بن صالح	١٨١	«	«
اسماعيل بن عيسى	١٨٢	«	«
الليث بن الفضل	١٨٣	«	«
احمد بن اسماعيل	١٨٧	١٦٨	«
عبيدالله بن محمد	١٨٩	١٦٨	«
الحسين بن جميل	١٨٩	١٦٨	«
مالك بن دلهم	١٩٣	١٦٨	«
الحسن بن جميل	١٩٣	١٦٨	«
حاتم بن هرثمة	١٩٤	١٧٠	محمد الامين
جابر بن الاشعث	١٩٥	١٧٠	«
عباد بن محمد	١٩٦	١٧١	«
المطلب بن عبدالله الخزاعي	١٩٨	١٧١	عبدالله المأمون

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
عباس بن موسى ابن عيسى	١٩٨	١٧١	عبدالله المأمون
المطلب بن عبدالله (ثانيةً)	١٩٩	١٧٢	«
السري بن الحكم	٢٠٠	"	«
محمد بن السري	٢٠٤	"	«
عبيدالله بن السري	٢٠٦	١٧٣	«
عبدالله بن الطاهر	٢١١	"	«
عيسى بن يزيد الجلودي	٢١٢	"	«
عمير بن الوليد التميمي	٢١٤	"	«
عيسى بن يزيد الجلودي (ثانيةً)	٢١٤	"	«
عبدويه بن جبلة	٢١٥	"	«
عيسى بن منصور	٢١٦	١٧٤	«
كيدر الصفدي	٢١٧	"	«
المظفر بن كيدر الصفدي	٢١٩	١٧٧	محمد المعتصم
موسى بن ابي العباس	"	"	«
مالك بن كيدر الصفدي	٢٢٤	"	«
ابو جعفر اشناس	٢٢٥	"	«
علي بن يحيى الارمني	٢٢٨	١٨١	الواثق بن المعتصم
عيسى بن المنصور (ثانيةً)	٢٢٩	"	«
هرثمة بن نصر الجبلي	٢٣٢	١٨٢	المتوكل بن المعتصم
حاتم بن هرثمة (ثانيةً)	٢٣٤	"	«
علي بن يحيى الارمني (ثانيةً)	"	"	«
اسحق بن يحيى الجبلي	٢٣٥	"	«
خوط عبد الواحد بن يحيى	٢٣٦	"	«

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
عنبسة بن اسحق	٢٣٨	١٨٣	المتوكل بن المعتصم
يزيد بن عبدالله	٢٤٥	"	«
مزاحم بن خاقان التركي	٢٥٣	١٨٨	المعتز بن المتوكل
احمد بن مزاحم	٢٥٤	١٨٩	«
باكباك	٢٥٤	"	«

الدولة الطولونية

تحت رعاية الدولة العباسية

احمد بن طولون	٢٥٥	١٨٩	المعتز بن المتوكل
خمارويه بن احمد	٢٧١	٢١٨	المعتمد بن المتوكل
ابو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٢٢٥	المعتضد بن الموفق
هارون بن خمارويه	٢٨٣	"	«
شيبان بن احمد	٢٩٢	٢٢٨	المكتفي بن المعتضد

تحت رعاية الدولة العباسية الثانية

محمد بن سليمان	٢٩٢	٢٢٨	المكتفي بن المعتضد
عيسى بن محمد النوشري	"	٢٣٢	«
محمد بن الخليج	٢٩٥	"	المقتدر بن المعتضد
عيسى بن محمد النوشري (ثانية)	٢٩٥	"	«
تكين الخزري ابو منصور	٢٩٧	"	«
زكا الرومي ابو الحسن الاعور	٣٠٢	"	«
تكين الخزري (ثانية)	٣٠٧	٢٣٣	«
محمد بن تكين	"	"	«

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن طغج	٣٣٠	٣٣٣	القاهر بن المعتضد
احمد بن كيغلغ	٣٣١	٣٣٥	»

الدولة الاخشيدية

تحت رعاية الدولة العباسية

محمد بن طغج (ثانية)	٣٣٣	٣٣٥	الراضي بن المقتدر
انوجور بن الاخشيد	٣٣٤	٣٤٣	المطيع بن المقتدر
علي بن الاخشيد	٣٤٩	٣٤٤	»
كافور الاخشيدي	٣٥٥	٣٤٥	»
ابي الفوارس ابن علي	٣٥٧	»	»

(٢) الخلفاء

الدولة الفاطمية

اسم الخليفة	سنة ٥٠	الصفحة ج ١
المعز بن المنصور	٣٦٢	٣٤٦
العزيز بالله ابن المعز	٣٦٥	٣٥٤
الحاكم بامر الله ابن العزيز	٣٨٦	٣٥٨
الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم	٤١١	٣٦٣
المستنصر بالله ابن الظاهر	٤٢٧	٣٦٣
المستعلي بالله ابن المستنصر	٤٨٧	٣٨٤
الآمر باحكام الله ابن المستعلي	٤٩٥	٣٨٩
الحافظ لدين الله ابن محمد	٥٢٤	٣٩٣
الظافر بامر الله ابن الحافظ	٥٤٤	٣٩٥
الفائز بنصر الله ابن الظافر	٥٤٩	٣٩٦

العاضد لدين الله ابن يوسف ٥٥٦ ٢٩٨

(٣) السلاطين

الدولة الايوبية

اسم السلطان		
الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي	٥٦٧	٢١٥
" العزيز عماد الدين ابن يوسف	٥٨٩	٢٢٤
" المنصور بن العزيز	٥٩٥	٢٢٧
" العادل بن ايوب	٥٩٦	٢٢٨
" الكامل بن العادل	٦١٥	٢٤١
" العادل بن الكامل	٦٣٥	٢٥٠
" الصالح بن الكامل	٦٣٧	٢٥٠
" المعظم بن الصالح	٦٤٧	٢٥٥

دولة المماليك الاولى

اسم السلطان	سنة ٥٠	الصفحة ج ٣
شجرة الدر الصالحية	٦٤٨	٠٠٥
الملك المعز ايبك الجاشنكير	٦٤٨	٠٠٦
" الاشرف بن يوسف	٦٤٨	٠٠٦
" المنصور نور الدين علي بن ايبك	٦٥٥	٠١١
" المظفر سيف الدين قطوز	٦٥٧	٠١٢
" الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨	٠١٤
" السعيد برقة خان ابن بيبرس	٦٧٦	٠٢٢
" العادل سلامش بن بيبرس	٦٧٨	٠٢٢

اسم السلطان	سنة ٥٠	الصفحة ج ٢
الملك المنصور قلاون الالفي	٦٧٨	٢٣.
" الاشرف خليل بن قلاون	٦٨٩	٢٧.
" القاهر بيدرا	٦٩٣	٢٧.
" الناصر ابن قلاون (اولاً)	٦٩٣	٢٨.
" العادل زين الدين كتبوغا	٦٩٤	٢٨.
" المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦	٣٠.
" الناصر ابن قلاون (ثانيةً)	٦٩٨	٣١.
" المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨	٣٣.
" الناصر ابن قلاون (ثالثةً)	٧٠٩	٣٤.
" المنصور ابو بكر ابن الناصر	٧٤١	٣٧.
" الاشرف كجيك بن الناصر	٧٤٢	٣٧.
" الناصر احمد بن الناصر	٧٤٢	٣٧.
" الصالح اسماعيل بن الناصر	٧٤٣	٣٧.
" الكامل شعبان بن الناصر	٧٤٦	٣٧.
" المظفر حاجي بن الناصر	٧٤٧	٣٧.
" الناصر حسن بن الناصر	٧٤٨	٣٨.
" الصالح صلاح الدين بن الناصر	٧٥٢	٣٨.
" الناصر حسن بن محمد بن قلاون	٧٥٥	٣٩.
" المنصور محمد بن حاجي	٧٦٢	٣٩.
" الاشرف شعبان بن حسين	٧٦٤	٤٠.
" المنصور علي بن شعبان	٧٧٨	٤١.
" الصالح حاجي بن شعبان	٧٨٣	٤٢.

دولة المماليك الثانية

اسم السلطان	سنة ٥٠	الصفحة ج ٣
الملك الظاهر برقوق	٧٨٤	٤٤.
» الناصر فرج بن برقوق (اولاً)	٨٠١	٤٧.
» المنصور عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨	٤٨.
» الناصر فرج بن برقوق (ثانيةً)	٨٠٨	٤٩.
الخليفة الامام المستعين بالله	٨١٥	٥٠.
الملك المؤيد الشيخ المحمودي	»	٥١.
» المظفر احمد بن المحمودي	٨٢٤	٥٢.
» الظاهر سيف الدين ططر	»	»
» الصالح محمد بن ططر	»	»
» الاشرف برسباي	٨٢٥	»
» العزيز يوسف بن برسباي	٨٤١	٥٣.
» الظاهر جقمق	٨٤٣	٥٤.
» المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧	٥٤.
» الاشرف ينال	»	٥٥.
» المؤيد احمد بن ينال	٨٦٥	»
» الظاهر خوش قدم	»	٥٦.
» الظاهر بلباي	٨٧٢	»
» الظاهر تمربغا	»	»
» الاشرف قايتباي	»	٥٧.
» الناصر محمد بن قايتباي	٩٠١	٥٩.
» الظاهر قنصوه خمسمية	»	٦٠.

اسم السلطان	سنة ٩٠٠ هـ	الصفحة ج ٢
الملك قنسو ابو سعيد	٩٠٤	٦٠.
» الاشرف جان بلد	٩٠٥	»
» العادل طومان باي	٩٠٦	»
» الاشرف قنسو الغوري	»	٦١.
» » طومان باي	٩٢٢	٦٢.

(٤) الباشوات

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الباشا	سنة ٩٠٠ هـ	الصفحة ج ٢	السلطان
خير بك باشا	٩٢٣	٦٦.	سليم بن بيازيد
مصطفى »	٩٢٦	٧١.	سليمان بن سليم
احمد »	٩٢٧	٧٢.	»
قاسم »	٩٣١	»	»
ابراهيم »	٩٣٣	»	»
سليمان »	٩٣٣	»	»
داود »	٩٤٥	»	»
علي »	٩٥٦	٧٣.	»
محمد »	٩٦١	»	»
اسكندر »	٩٦٣	»	»
علي » الخادم	٩٦٨	»	»
مصطفى » (٢)	٩٦٩	»	»
علي » الصوفي	٩٧١	»	»
محمود »	٩٧٣	»	»

اسم الباشا	سنة ٥٠	الصفحة ج ٢	السلطان
سنان باشا	٩٧٥	٧٤.	سليم بن سليمان
حسين »	٩٨٠	٧٥.	»
مسيح »	٩٨٢	٧٦.	مراد بن سليم
حسن » الخادم	٩٨٨	»	»
ابراهيم » (٢)	٩٩١	»	»
سنان » »	٩٩٢	٧٧.	»
عويس »	٩٩٤	»	»
حافظ احمد باشا	٩٩٩	»	»
قورط باشا	١٠٠٢	٧٨.	محمد بن مراد
السيد محمد باشا	١٠٠٤	»	»
خضر باشا	١٠٠٦	٧٩.	»
علي » السلحدار	١٠٠٩	»	»
ابراهيم » (٣)	١٠١٢	٨٠.	احمد بن محمد
محمد » الكورجي	١٠١٣	٨١.	»
حسن »	»	٨٢.	»
محمد » الصوفي	١٠١٦	»	»
احمد » (٣)	١٠٢٢	٨٤.	»
مصطفى » لفغلي	١٠٢٦	٨٥.	مصطفى بن محمد
جعفر »	١٠٢٧	»	عثمان بن احمد
مصطفى » (٤)	١٠٢٨	»	»
حسين » (٢)	»	٨٦.	»
محمد » (٤)	١٠٣١	»	»
ابراهيم » (٤)	»	»	مصطفى بن محمد (٣)

اسم الباشا	سنة ٥٠	الصفحة ج ٢	السلطان
مصطفى باشا (٥)	١٠٢٢	٠٨٦	مصطفى بن محمد (٢)
علي » (٥)	»	٠٨٧	مراد بن محمد
مصطفى » (٥) (ثانية)	»	»	»
بيرام »	١٠٢٧	٠٨٩	»
محمد » (٥)	»	٠٨٩	»
موسى »	١٠٤٠	٠٩٠	»
خليل »	١٠٤١	٠٩١	»
احمد » الكورجي	١٠٤٣	٠٩٣	»
حسين » (٣)	١٠٤٣	٠٩٣	»
محمد بن احمد باشا	١٠٤٥	٠٩٤	»
مصطفى باشا البستانجي	١٠٤٩	٠٩٥	ابراهيم بن احمد
مقصود »	١٠٥١	٠٩٦	»
ايوب »	١٠٥٤	٠٩٩	»
محمد » ابن حيدر	»	»	»
احمد » (٤)	١٠٥٨	١٠١	محمد بن ابراهيم
عبد الرحمن باشا	١٠٦٣	١٠٢	»
عدّة باشوات	....	١٠٣	»
حسين باشا (٣)	١١١٩	»	احمد بن محمد

(٥) الامراء المماليك

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الامير	سنة ٥٠	الصفحة ج ٢	السلطان
قاسم عيواظ بك	١١١٩	١٠٣	احمد بن محمد

اسماعيل بك	١١٤٦	١٠٤	أحمد بن محمد
شركس بك	١١٤٦	١٠٦	»
ذو الفقار »	»	١٠٧	»
عثمان »	١١٤٣	١٠٨	محمود بن مصطفى
ابراهيم كخيا	١١٥٦	١١٣	»
رضوان بك	١١٦٨	١١٦	عثمان بن مصطفى
حسين »	»	١١٧	»
خليل »	»	»	»
علي » الكبير	١١٧٧	١١٩	مصطفى بن احمد
محمد » ابو الذهب	١١٨٦	١٢٨	»
اسماعيل » (٢)	١١٨٩	١٢٧	عبد الحميد بن احمد
ابراهيم بك ومراد بك	»	»	»

(٦) الامراء الفرنساويون

تحت رعاية الجمهورية الفرنساوية

بونابرت	١٢١٣	١٦٨
كلابر	١٢١٤	٢٠٣
مينو	١٢١٥	٢١٠

(٧) باشوات آخرون

تحت رعاية الدولة العثمانية

خسرو باشا	١٢١٦	٢١٧	سليم بن مصطفى
علي باشا الطرابلسي	١٢١٨	٢٢٢	»
خورشيد باشا	»	٢٢٤	»

(٨) العائلة المحمدية العلوية

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الباشا	سنة	الصفحة ج ٢	
محمد علي باشا	١٢٢٠	٢٢٦	سليم بن مصطفى
ابراهيم «	١٢٦٤	٢٥٠	عبد المجيد بن محمود
عباس «	١٢٦٥	٢٥٢	«
سعيد «	١٢٧٠	٢٥٤	«
اسماعيل «	١٢٧٩	٢٥٦	عبد العزيز بن محمود
محمد توفيق باشا	١٢٩٦	٢٧٢	عبد الحميد بن عبد المجيد

فهرس الجزء الثاني من تاريخ مصر الحديث

دولة المماليك الاولى

	صفحة
منشأ المماليك ومبدأ امرهم	٢
سلطنة شجرة الدر	٥
« ايبك الجاشنكير	٦
« الملك الاشرف ابن يوسف	٦
« نور الدين علي بن ايبك	١١
« المظفر سيف الدين قطوز	١٢
« الظاهر بيبرس البندقداري	١٤

صفحة

سلطنة برقة خمان بن بيبرس ٣٣
" سلامش بن بيبرس ٣٣
" الملك المنصور قلاون ٣٥
" خليل بن قلاون ثم القاهر بيدرا ٣٧
" الملك الناصر ابن قلاون « اولاً » ٣٨
" " العادل كتبوغا ٣٩
" " المنصور لاجين ٤٠
" " الناصر ابن قلاون « ثانية » ٤١
" بيبرس الجاشنكير ٤٢
" الملك الناصر ابن قلاون « ثالثة » ٤٤
" اولاد الناصر بن قلاون ٤٧
" محمد بن حاجي ٤٩
" شعبان بن حسن ٥٠
" علي بن شعبان ٥١
" حاجي بن شعبان ٥٢

دولة المماليك الثانية

منشأ المماليك الشراكسة ٥٣
سلطنة الملك الظاهر برقوق ٥٤
" فرج بن برقوق « اولاً » ٥٧
" عبد العزيز بن برقوق ٥٨
" فرج بن برقوق « ثانية » ٥٩
" الامام المستعين بالله ٦٠
" الشيخ المحمودي ٦١

صفحة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين تتر ثم محمد بن تتر ٥٣
« الملك الاشرف برس باي ٥٣
« يوسف بن برس باي ٥٣
« الملك الظاهر جقمق ٥٤
« عثمان بن جقمق ٥٤
« الملك الاشرف ينال ٥٥
« احمد بن ينال ٥٥
« الظاهر خوش قدم ٥٦
« الظاهر بلباي ثم الظاهر تمار بوغا ٥٦
« الملك الاشرف قايت باي ٥٧
« محمد بن قايت باي ثم قنسو خمسمية ثم قنسو ابي سعيد ثم قنسوجان بلد ثم العادل طومان باي ٥٩
« قنسو الغوري ٦١
« الملك الاشرف طومان باي ٦٣

الدولة العثمانية

سلطنة سليم بن بيازيد ٦٥
« سليمان بن سليم ٦٨
« سليم بن سليمان ٧٤
« مراد بن سليم ٧٦
« محمد بن مراد ٧٨
« احمد بن محمد ٨٠
« مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانيةً ٨٥

صفحة

سلطنة مراد بن احمد ٨٧
« ابراهيم بن احمد ٩٥
« محمد بن ابراهيم ١٠١
« سليمان بن ابراهيم ثم احمد بن ابراهيم ثم مصطفى بن محمد ١٠٢
« احمد بن محمد ١٠٢
« محمود بن مصطفى ١٠٩
« عثمان بن مصطفى ١١٦
« مصطفى بن احمد ١١٧
« علي بك الكبير ١١٩
« عبد الحميد بن احمد ١٢٢
« سليم بن مصطفى ١٤٢

الحملة الفرنساوية

لماذا جرّد الفرنساويون الى مصر ١٤٨
حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنساوية ١٥٢
قدوم الفرنساويين الى مصر ١٥٦
من انسحاب الفرنساويين الى تولية محمد علي ٢١٥

الدولة المحمدية العلوية

ولاية محمد علي باشا ٢١٨
« ابراهيم باشا بن محمد علي ٢٥٠
« عباس باشا ٢٥٢
« سعيد باشا ٢٥٤
« اسماعيل باشا الخديوي الاول ٢٥٦

	صفحة
تاريخ الوسائل لايصال البحرين	٢٥٨
ولاية محمد توفيق باشا الخديوي الحالي	٢٧٢
الحوادث العرابية	٢٨٢
« السودانية	٣١٨
جدول عامّ	٣٣٦

فهرس عامّ

قد رأيت ان اضع فضلاً عن الفهرس لكلِّ جزءٍ من جزئي الكتاب فهرساً عامّاً يتضمن اهمّ مواد هذا الكتاب مرتبة على الحروف الابجدية تسهيلاً للاهتداء الى اماكنها

(١)

	صفحة	الجزء
الآثار المصرية	١٢	ج ١
الهة المصريين	٢١	«
الآمر باحكام الله	٢٨٩	«
اباكه خان	٢٤	ج ٢
ابراهيم باشا «١»	٧٣	«
« « «٢»	٧٦	«
« « «٣»	٨٤	«
« « «٤»	٨٦	«
ابراهيم بن احمد	٩٥	ج ٢
« بن صالح	١٦٣	ج ١
« بن الوليد	١٥٥	«
« كخيا	١١٢	ج ٢
ابركرومبي	٢١١	«
ابن المدبّر	١٩٠	ج ١
ابو الذهب	١٢٢	ج ٢
ابو العباس	١٥٧	ج ١
ابو العساكر	٢٢٥	«
ابو الفارس بن علي	٢٤٥	ج ١

	صفحة	
ابراهيم بك الكبير	١٢٧	ج ٢
» بن محمد علي	٢٢٥	»
ابو الهول	٠٢٩	ج ١
ابو بكر بن الناصر	٠٢٧	ج ٢
ابو جعفر اشناس	١٧٧	ج ١
ابو طليح	٢٢٥	ج ٢
ابو عون بن يزيد	١٦٠	ج ١
ابو قير	١٧٢	ج ٢
ابيفان	٧٥	ج ١
انسز	٢٧٩	»
احمد باشا «١»	٧٢	ج ٢
» » «٢»	٨٤	»
» » الكورجي	٩٢	»
» » «٤»	١٠١	»
احمد بن ابراهيم	١٠٢	»
» » اسماعيل	١٦٨	ج ١
» » المحمودي	٠٥٢	ج ٢
» » الناصر	٠٢٧	»
» » طولون	١٩٢	ج ١
» » كيغلغ	٢٢٥	»
» » محمد	٠٨٠	ج ٢
» » »	١٠٢	»
» » مزاحم	١٨٩	ج ١

	صفحة	
احمد بن ينال	٥٥	ج ٢
الاخشيد	٢٢٢	ج ١
ادفو	٠٧٥	»
الارنقبون	٢٨٦	»
الازبكية	٢٢٨	ج ٢
اسامة بن عمر	١٦٤	ج ١
» » يزيد	١٥٠	»
اسحق بن سليمان	١٦٦	»
» » يحيى	١٨٢	»
اسكندر الثاني	٧٨	»
» المكدوني	٧٢	»
» باشا	٧٢	ج ٢
اسماعيل باشا الخديو	٢٥٦	»
» بن محمد علي	٢٢٦	»
» بك «١»	١٠٤	»
» » «٢»	١٢٧	»
» بن الناصر	٠٢٧	»
» » صالح	١٦٧	ج ١
» » عيسى	»	»
الاشرف برس باي	٥٢	ج ٢
» بن يوسف	٠٦	»
» قايت باي	٥٧	»
» ينال	٥٥	»

	صفحة	
افريجيت الثاني	٧٧	ج ١
الافضل شاهين شاه	٣٨٤	"
الامام الشافعي	١٧٢	"
امبابه	١٦٦	ج ٢
امنوفيس الثالث	٤٩.	ج ١
انس الوجود	٧٣	"
انوجور بن الاخشيد	٣٤٣	"
اهرام الجيزة	٣٠	"
الاوبرا الخديوية	٣٧٠	ج ٢
اوليتس	٧٩.	ج ١
الاوبراتية	٣٩	ج ٢
ايبك الجاشنكير	٦.	"
ايوب باشا	٩٩	"
ايوب بن شرحبيل	١٥١	ج ١
(ب)		
بابليون	٩٦و١١٢	ج ١
الباطنيون	١٨	ج ٢
باكباك	١٨٩	ج ١
باكر باشا	٣٣٠	ج ٢
بدر الجمالي	٣٧٣	ج ١
بردويل	٣٩٣	"
برس باي	٥٣.	ج ٢
برقة بن يبرس	٣٣	"

	صفحة	
برقوق	٤٣	ج ٢
بركة موريس	٣٩	ج ١
بشر بن صفوان	١٥٣	"
البطالسة	٧٣	"
بلباي الظاهر	٥٦	ج ٢
بولاق مصر	٣٥	"
بونابرت «قدومهُ»	١٥٠	"
" «سفرهُ»	١٦٨	"
بيازيد الاول	٤٥	"
بيرام باشا	٨٩	"
بيمارستان قلاون	٣٤	"
(ت)		
تنا	٣٧	ج ١
تحوتمس الثالث	٤٦	"
ترعة السويس	٣٥٨	ج ٢
التل الكبير	٣١٠	"
تكين الخزري	٣٣٣	ج ١
تمار بوغا	٥٦	ج ٢
توفيق باشا الخديوي	٣٧٣	"
تيمور لنك التتري	٤٥.	"
(ث)		
ثيودوسيوس	٨٣.	ج ١

(ج)

	صفحة	
جابر بن الاشعث	١٧٠	ج ١
جامع ابن طولون	٢٠٥	"
" الازهر	٢٥٢	"
" التنور	١٩٦	"
" الحاكم	٢٦١	"
" الحسين	٣٠٠	"
" الظاهر	٠٢٠	ج ٢
" السلطان حسن	٠٣٩	"
الجامع الناصري	٠٣٥	"
جامع برقوق	٠٤٦	"
" شيخون	٠٣٨	"
" عمرو	١١٦	ج ١
" قايت باي	٠٥٩	ج ٢
" قلاون	٠٢٤	"
جدول حكام مصر	٣٣٦	"
جزيرة فيلوي	٠٧٣	ج ١
جعفر باشا	٠٨٥	ج ٢
جغرافية مصر الحديثة	٠٨٩	ج ١
" " القديمة	٠١٦	"
جقمق الظاهر	٠٥٤	ج ٢
الجوكار	١٦٠ و ١٧٧	"
جوهر القائد	٢٤٧	ج ١
جوهر مؤتمن الخلافة	٣٠٩	ج ١
جيش بن خمارويه	٢٢٥	"

(ح)

	صفحة	
حاتم بن هرثمة	١٧٠	ج ١
حاجي بن الناصر	٠٣٧	ج ٢
" " شعبان	٠٤٣	"
حادثة ١١ يونيو	٣٩٧	"
حافظ باشا	٠٧٧	"
الحافظ بن محمد	٣٩٣	ج ١
الحاكم بامر الله	٢٥٨	"
حجر رشيد	٠١٤	"
الحر بن يوسف	١٥٣	"
حسان بن عناهية	١٥٦	"
حسن باشا الخادم	٠٧٦	ج ٢
" " «٢»	٠٨٢	"
" " «٣»	١٠٣	"
" بن الناصر	٠٣٧	"
الحسن بن جميل	١٦٨	ج ١
حسين باشا «١»	٠٧٥	ج ٢
" " «٢»	٠٨٦	"
" " «٣»	٠٩٣	"
" قبطان	٢١٥	"
الحسين بن جميل	١٦٨	ج ١

	صفحة	
حسين بك	١١٧	ج ٢
حفص بن الوليد	١٥٣	ج ١
الحملة الفرنساوية	١٤٨	ج ٢
حملة عثمانية	١٤٠ و٣٠٠	»
الحملة النيلية	٣٢٣	»
حميد بن قحطبة	١٦٠	ج ١
حنظلة بن صفوان	١٥٣	»
الحوثرة بن سهل	١٥٧	»
حي دارا	٢٧٥	»
(خ)		
الخان الخليلي	٠٢٧	ج ٢
الخانكاه	١٧٣	»
خسرو باشا	٢١٧	»
خضر باشا	٠٧٩	»
خفرع	٠٤٠	ج ١
خليج امير المؤمنين	١٣١	»
خليل باشا	٠٩١	ج ٢
» بك	١١٧	»
» بن قلاون	٠٢٧	»
خمارويه بن أحمد	٢١٨	ج ١
خورشد باشا	٢٢٤	ج ٢
خوش قدم	٠٥٦	»
خوط بن يحيى	١٨٣	ج ١

	صفحة	
خوفو	٠٤٠	ج ١
خير بك باشا	٠٦٦	ج ٢
(د)		
داود باشا	٠٧٣	ج ٢
داود بن يزيد	١٦٦	ج ١
دحية	١٦٤	»
درويش باشا	٢٩٦	ج ٢
دمياط ١٢٠ و١٨٣ و٢١٢ و٢٢٩ و٢٥٣ ج ١ و٨ و١٢		ج ٢
ديانة المصريين القدماء	٠٢٠	ج ١
دبزه	١٩٠	ج ٢
(ذ)		
ذو الفقار بك	١٠٧	ج ٢
(ر)		
الراضي بن المقتدر	٢٣٥	ج ١
راغب باشا	٢٠٠	ج ٢
رحبعام	٠٥٨	ج ١
رضوان بك	١١٦	ج ٢
الرعاة	٠٤١	ج ١
رعمسيس الثاني	٠٥٣	»
رفح	٠٩٥	»
رياض باشا ٢٧٩ و٣١٧		ج ٢
» »	٣٣٤	»

(ز)

	صفحة	
زبير باشا	٤٠٥	ج ٢
زكّا الرومي	٣٤٣	ج ١

(س)

سالم بن سوادة	١٦٤	ج ١
سباقون	٠٦١	»
سبسكاف	٠٤١	»
السبع سفايات	٠٢٠	ج ٢
سحورع	٠٤١	ج ١
السري بن الحكم	١٧١	»
سعيد باشا	٢٥٤	ج ٢
سعيد بن يزيد	١٤٢	ج ١
سلاطيس	٠٤١	»
سلامش بن بيبرس	٠٢٢	ج ٢
سليم بن بيازيد	٠٦٢	»
» بن سليمان	٠٧٤	»
» بن مصطفى	١٢٤	»
سليمان الحلبي	٢٠٩	»
» باشا	٠٧٢	»
» بن ابراهيم	١٠٢	»
» » سليم	٠٦٨	»
» » عبد الملك	١٥٠	ج ١
سنان باشا	٠٧٤	ج ٢

	صفحة	
سنان باشا «٢»	٠٧٧	ج ٢
سوتر الاول والثاني	٠٧٨	ج ١
السودان	٢٢٦	ج ٢
سور القاهرة	٢٨٠ و٣٢٢	ج ١
السيد محمد باشا	٠٧٨	ج ٢
السير سدني سميث	١٩٨	»
سيسيليا	٢٨٢	ج ١
سيف الدولة	٢٤١	»
» الدين نتر	٠٥٢	ج ٢

(ش)

شاور	٢٩٩	ج ١
شجرة الدر	٢٥٤ ج ١ و٥	ج ٢
شركس بك	١٠٧	»
ششناق	٠٥٧	ج ١
شعبان بن حسن	٠٤٠	ج ٢
» » الناصر	٠٢٧	»
شمس الدين	٠٢٥	»
شوطار	٠٧٨	ج ١
شيبان بن احمد	٢٢٨	»
الشيخ ضاهر	١٢٤	ج ٢
» المحمودي	٠٥١	»
شير كويه	٢٠١	ج ١

(ص)

	صفحة	
الصالح بن الكامل	٢٥٠	ج ١
» » علي	١٥٩	»
» » نور الدين	٢٣٠	»
» ظلائع	٢٩٨ و ٣٠٨	»
صلاح الدين بن الناصر	٢٤٧	ج ٢
صلاح الدين يوسف	٢٠١	ج ١

(ض)

ضرب الاسكندرية	٢٠٢	ج ٢
ضرغام ابو الاشبال	٢٠١	ج ١

(ط)

طلائع بن رزيك	٢٩٧	ج ١
الطواحين	٢٢٢	ج ١
طوسون باشا	٢٢١	ج ٢
طولون	١٨٠	ج ١
طومان باي الاشرف	٦٣٠	ج ٢
طومان باي العادل	٥٩٠	»

(ظ)

الظافر بن الحافظ	٢٩٥	ج ١
الظاهر برقوق	٤٤٠	ج ٢
الظاهر بلباي	٥٦٠	ج ٢
الظاهر بن الحاكم	٢٦٣	ج ١
» البندقداري	١٤٠	ج ٢
» تمار بوغا	٥٦٠	»
» جقمق	٥٤٠	»
» خوش قدم	٥٦٠	»

(ع)

العادل بن ايوب	٢٢٨	ج ١
» بن الكامل	٢٥٠	»
العاضد بن يوسف	٢٢٤	»
عباد بن محمد	١٧١	ج ١
عباس باشا	٢٥٢	ج ٢
عباس بن احمد	٢٠٩	ج ١
عباس بن موسى	١٧١	»
عبد الحميد الاول	١٢٢	ج ٢
» » الثاني	٢٦٩	»
عبد الرحمن باشا	١٠٢	ج ٢
» » بن خالد	١٥٢	ج ١
عبد الرحمن بن عنبة	١٤٥	»
عبد الشهيد	٢٤ و ٢٨	ج ٢
عبد العزيز السلطان	٢٥٥	»
عبد العزيز بن برقوق	٤٨٠	ج ٢
» » » مروان	١٤٦	ج ١
عبد الله المأمون	١٧١	ج ١

	صفحة	
عبد الله بن الزبير	١٤٢	ج ١
عبد الله بن سعد	٠٩٥	»
عبد الله بن المسيب	١٦٦	»
عبد الله بن طاهر	١٧٣	»
عبد الله بن عبد الرحمن	١٦٣	»
عبد المجيد . السلطان	٢٤٥	ج ٢
» الملك بن رفاعه	١٤٩	ج ١
» » » صالح	١٦٧	»
» » » مروان	١٤٧	»
» » » موسى	١٥٧	»
» » » يزيد	١٦٠	»
عبدويه بن جبلة	١٧٣	»
عبيد الله بن السري	١٧٣	»
» » المهدي	١٦٧	»
» » محمد	١٦٨	»
عتبة بن ابي سفيان	١٤٠	»
عثمان بك	١٠٨	ج ٢
عثمان بن احمد	٠٨٥	»
» » جقمق	٠٥٤	»
» » عفان	١٣٣	ج ١
» » مصطفى	١١٦	ج ٢
عرابي	٢٨٣	»
العريش	٢٠٥	»

	صفحة	
العزيز بن المعز	٢٥٤	ج ١
» » يوسف	٣٣٤	»
العسكر	١٥٨	»
عقبة بن عامر	١٤١	»
علي الارمني	١٨١	»
» باشا	٠٧٣	ج ٢
» » «٤»	٠٨٧	»
» » الخادم	٠٧٣	»
» » السلحدار	٠٧٩	»
» » الصوفي	٠٧٣	»
» » الطرابلسي	٢٣٣	»
علي بك	١١٤ و١١٩	»
علي بن ابي طالب	١٣٠	ج ١
علي بن الاخشيد	٢٤٤	»
علي بن سليمان	١٦٥	»
علي بن شعبان	٠٤١	ج ٢
عمر بن الخطاب	٠٩٣	ج ١
عمر بن عبد العزيز	١٥١	»
عمرو بن العاص	٩٤ و١٣٦	»
عمير التميمي	١٧٣	»
عنبسة بن اسحق	١٨٣	»
عويس باشا	٠٧٧	ج ٢
عيسى الجلودي	١٧٣	ج ١

	صفحة	
عيسى النوشري	٢٣٢	ج ١
عيسى بن لقمان	١٦٣	"
عيسى بن منصور	١٧٤	"
عيواظ بك	١٠٤	ج ٢
(غ)		
الغوري	٠٦١	ج ٢
(ف)		
الفائز بن الظافر	٢٩٦	ج ١
الفارس اقطاي	٠٠٨	ج ٢
فتاح	٠٦٩	ج ١
فتح مصر (الاسلامي)	٠٩٤	"
فتح مصر (العثماني)	٠٦٤	ج ٢
فرج بن برقوق	٠٤٧	"
الفسطاط	١٠٧	ج ١
الفضل بن صالح	١٦٤	"
فهرس الجزء الاول	٣٥٧	"
فهرس الجزء الثاني	٣٥١	ج ٢
فيلاد لفوس	٠٧٣	ج ١
فيلوباتر	٠٧٥	"
فيلوماتر	٠٧٧	"
(ق)		
قاسم باشا	٠٧٢	ج ٢
قاسم بك عيواظ	١٠٣	"

	صفحة	
القاهر بن المعتضد	٢٣٣	ج ١
القاهر بيدرا	٠٢٧	ج ٢
القاهرة (بناؤها)	٢٥٠	ج ١
قايت باي	٠٥٧	ج ٢
القرامطة	٢٢٧ و ٢٣١	ج ١
قرة بن شريك	١٤٩	"
قصر الشمع	١١٢	"
القطائع	١٩٣	"
قلاون (السلطان)	٠٢٣	ج ٢
قلعة الجبل	٢٣٣	ج ١
القناطر الخيرية	٠٤٢	ج ٢
قناطر السباع	٠٢٠	"
قنسوا بو سعيد	٠٥٩	"
قنسو جان بلد	٠٥٩	"
قنسو خمسمية	٠٥٩	"
قنسو الغوري	٠٦١	"
قوجوق بن الناصر	٠٢٧	"
قورط باشا	٠٧٨	"
قيس بن سعد	١٢٠	ج ١
(ك)		
كافور الاخشيدي	١٤١ و ٢٤٥	ج ١
الكامل بن العادل	٢٤١	"
كايه خوس	٠٢٨	"

	صفحة	
كتبوغا	٢٨٠	ج ٢
كفر الدوار	٢٠٦	»
كلابر	٢٠٢ و ٢٠٩	»
كليوبيطرا	٧٩٠	ج ١
كمبيس	٦٦٠	»
كيدر الصفدي	١٧٤	»
كيروس	٦٦٠	»
(ل)		
لابرانتا	٣٩٠	ج ١
لاجين (المنصور)	٤٠٠	ج ٢
اللورد دوفرين	٣١٥	»
الليث بن الفضل	١٦٧	ج ١
(م)		
مالك بن دلهم	١٦٨	ج ١
مالك بن كيدر	١٧٧	ج ١
المتقي لله	٣٣٩	»
المتوكل بن المعتصم	١٨١	»
محمد الامين	١٦٩	»
» الكاتب	٣٩٣	»
» المهدي	١٦٣	»
» باشا «١»	٧٣٠	ج ٢
» باشا الكورجي	٨١٠	ج ٢
» باشا الصوفي	٨٢٠	»
محمد باشا «٤»	٨٦٠	ج ٢
» » «٥»	٨٩٠	»
» » البستانجي	٩٤٠	»
» » حيدر	٩٩٠	»
» » قبطان	١٤٠	»
» بك ابو الذهب	١٢٨	»
» بن ابراهيم	١٠١	»
» بن ابي بكر	١٣٤	ج ١
» بن ابي حذيفة	١٢٨	»
» بن احمد باشا	٩٤٠	ج ٢
» بن الاشعث	١٦٠	ج ١
» بن السري	١٧٣	»
» بن الخليج	٣٣٣	»
» بن تتر	٥٣٠	ج ٢
» بن تكين	٣٣٣	ج ١
» بن حاجي	٣٩٠	ج ٢
» بن زهير	١٦٦	ج ١
» بن سليمان	٣٣٧	»
» بن طغج	٣٣٣	»
» بن عبد الرحمن	١٦٣	»
» بن عبد الملك	١٥٣	»
» بن قايت باي	٥٩٠	ج ٢
» بن مراد	٧٨٠	»

	صفحة	
محمد توفيق باشا	٢٧٣	ج ٢
» سعيد »	٢٥٤	»
» علي »	٢٢٦	»
محمود الثاني	٢٢٨	»
» باشا	٠٧٣	»
» بن مصطفى	١٠٩	»
مراد بك	١٤٧	»
مراد بن احمد	٠٨٧	»
مراد بن سليم	٠٧٦	»
مروان بن الحكم	١٤٢	ج ١
» بن محمد	١٥٦	»
مزاحم بن خاقان	١٨٨	»
المستعلي (الخليفة)	٢٨٤	»
المستعين بالله	٠٥٠	ج ٢
المستعين بن محمد	١٨٥	ج ١
المستكفي بالله	٢٤٠	»
المستنصر بن الظاهر	٢٦٣	»
مسلمة بن مخلد	١٤١	»
مسلمة بن يحيى	١٦٦	»
مسيح باشا	٠٧٦	ج ٢
مصطفى باشا «١»	٠٧٣	»
» » «٢»	٠٧٣	»
» » لفغلي	٠٨٥	»

	صفحة	
مصطفى باشا «٤»	٠٨٥	ج ٢
» » «٥»	٠٨٦	»
مصطفى الاول	٠٨٥	»
» الثاني	١٠٢	»
» الثالث	١١٧	»
» الرابع	٢٢٨	»
المعتز بن المتوكل	١٨٧	ج ١
المعتصم	١٧٣ و١٧٧	»
المعتضد بالله	٢٢٣	»
المعتمد بن المتوكل	١٩١	»
مطبعة بولاق	٢٧٠	ج ٢
المطرية	٠٢٧	ج ١
المطلب بن عبدالله	١٧١	»
المطيع لله	٢٤٠	»
المظفر بن كيدر	١٧٧	»
المظفر قطوز	٠١٢	ج ٢
معاهدة العريش	٢٠٥	»
معاهدة كوناهيا	٢٤٢	»
معاهدة لندرا	٢٤٥	»
معاوية بن ابي سفيان	١٢١ و١٤٠	ج ١
معاوية بن يزيد	١٤٢	»
المعز بن المنصور	٢٤٦	»

	صفحة	
المعز بن باديس	٢٦٤	ج ١
المعظم بن الصالح	٣٥٥	"
المغيرة بن عبدالله	١٥٧	"
المقتدر بن المعتضد	٣٣٣	"
المقتدي بالله	٣٨٣	"
مقصود باشا	٠٩٦	ج ٢
المقوقس	٩٣ و٠٩٧	ج ١
المكتبة الخديوية	٢٧٠	ج ٢
مكتبة الاسكندرية	١١٠	ج ١
المكتفي بالله	٣٢٧ و٣٣٣	"
المماليك . اصلهم	١٧٩	"
	و٣ و٠٤٣	ج ٢
المماليك الجاقية	١١٠	"
" الفقارية	١٠٣	"
" القاسمية	١٠٣	"
" القزدغلية	١١٠	"
المماليك . مهلكهم	٣٣١	"
المنتصر بن المتوكل	٣٨٤	ج ١
المنصور بن محمد	١٦٠	"
منصور الرعيني	١٦٣	"
المنصور بن العزيز	٣٣٧	"
المنصورة	٣٤٥	"
المنصور لاجين	٠٣٠	ج ٢

	صفحة	
منف (بناؤها)	٠٣٦	ج ١
منكورع	٠٣١	"
منّا	٠٣٦	"
المهتدي بن الواثق	١٩١	"
المهدي السوداني	٣١٨	ج ٢
مؤتمر الاستانة	٣٠١	"
الموسكي	٣٣٣	ج ١
موسى الهادي	١٦٥	"
" باشا	٠٩٠	ج ٢
" بن ابي العباس	١٧٧	ج ١
" بن بغا	٣٠٤	"
" بن علي	١٦٣	"
" بن عيسى	١٦٦	"
" بن كعب	١٦٠	"
" بن مصعب	١٦٣	"
الموفق بن المتوكل	١٩٩ و٢١٤	"
مينو	٢١٠	ج ٢

(ن)

ناصر الدولة	٢٦٦ و٢٧٠	ج ١
الناصر بن قلاون	٣٨ و٣١ و٣٤	ج ٢
ناصيف باشا	٣٠٦	"
نزار بن المستنصر	٣٨٥	ج ١
النقود الجديدة	٣٣٣	ج ٢

مصر العليا
ميل انكليزى
لتاريخ مصر الحديث
سنة ۱۸۸۹
صحرا ليبيا
مصر
العليا
مصر
الوسطى
خليج
السويس
شبه جزيرة سينا
جبل الدخان
جبل توتى
جبل توخ
جبل خليل
جبل ابو دراج
وادى العربا
وادى عيير
الفيوم
حلوان
اسيوط
جرجا
قنا
اسنا
اصوان
الشلال الاول
۳۳ طول شرقى عن غرينوتش

	صفحة	
نلسون	١٧٣	ج ٢
نور الدين العادل	٢٠١	ج ١
" " علي	٠١٠	ج ٢
(ه)		
هارون الرشيد	١٦٤	ج ١
" بن خمارويه	٢٢٥	"
هتشنسون	٢١٣	ج ٢
هرثمة بن اعين	١٦٦	ج ١
هرثمة بن نصر	١٨٣	"
هرقل	٠٨٣	"
هشام بن عبد الملك	١٥٣	"
هفتكين الشرابي	٢٥٥	"
هولاكو التتري	٠١٣	ج ٢
الهيروغليف	٠١٣	ج ١
هيكس باشا	٠٣٢	ج ٢
(و)		
الواثق بن المعتصم	١٨١	ج ١
واضح مولى ابي جعفر	١٦٣	ج ١
الوليد بن رفاعة	١٥٣	"
الوليد بن عبد الملك	١٤٨	"
" بن يزيد	١٥٤	"
الوهابيون	٣٢٩	ج ٢
وولسلي	٣٠٩	"
(ي)		
يحيى بن داود	١٦٣	ج ١
يزيد بن الوليد	١٥٥	"
" بن حاتم	١٦٠	"
" بن عبدالله	١٨٣	"
" بن عبد الملك	١٥٢	"
" بن معاوية	١٤٣	"
يعقوب بن كلس	٣٥٣	"
يوسف باشا الصدر	٣٠٤	ج ٢
" برس باي	٠٥٣	"

«حالة مصر الادبية»

قد وعدنا في مثال نشرناهُ من هذا الكتاب اننا سنذيلهُ بشرح موجز عن حالة مصر الادبية الحاضرة فنعدد مافيها من الجرائد والمدارس والجمعيات على اختلاف نزعاتها وقد سعينا الى انجاز هذا الوعد جهدنا فاعلنّا بطرق مختلفة نطلب الى المدارس والجمعيات في القطر المصري ان تبعث الينا

بما يفيدنا عن تاريخها فاجابنا بعضها ولا نزال في انتظار البعض الباقي . فالآن قد نجز طبع الكتاب ولم تتم لدينا المعدّات اللازمة لاستيفاء الكلام بهذا الشان فارجأنا ذلك الى فرصةٍ اخرى فنفرد لهذا الموضوع كتاباً مخصوصاً مستوفياً ان شاء الله تعالى

اصلاح خطاء

الجزء الاول

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٢٤	١٨	اخيه	اخاهُ
١٨١	٠٧	٢٨٨	٢٢٨
٢٣٤	٢٣	خلفًا	خلعًا
٢٣٩	١٤	بابي هور	بانوجور

الجزء الثاني

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٦٥	٠٢	١٢٠٣	١٢١٣
٠٦٥	٠٢	١٧٨٩	١٧٩٨
١٠٧	٢٢	موقعة (ضعها في آخر سطر ٢١)	
١٤٣	٢٠	جعل يعيثا	جعلا يعيثان
٢٣٢	١٣و١٤	جنبو	ينبع
٢٣٥	«	«	«
٢٤٣	٢٤	يؤمن يد	من يؤيد

مكتوب تحت صورة محمد علي باشا انهُ « خديوي مصر » وذلك خطاءٌ من حافر الرسم يجب اصلاحهُ لان المذكور لم يكن خديويًّا كما يفهم من تلاوة هذا التاريخ . وقد وقع سهو في ترتيب الصفحات في الجزء الثاني فوضعت صفحة ٧٩ قبل ٧٨ فعلى المطالع الانتباه الى ذلك . وربما يعثر القارئ على اغلاط اخرى مطبعية كزيادة او نقصان حرفٍ او حركة او ابدال احدهما بما يماثلهُ شكلاً مما لا يخفى اصلاحهُ على اللبيب ولذلك اغضينا عن ايرادهِ هنا

تم الكتاب بعون الله

BACK
6126 3-1 TRIM 61
(08)

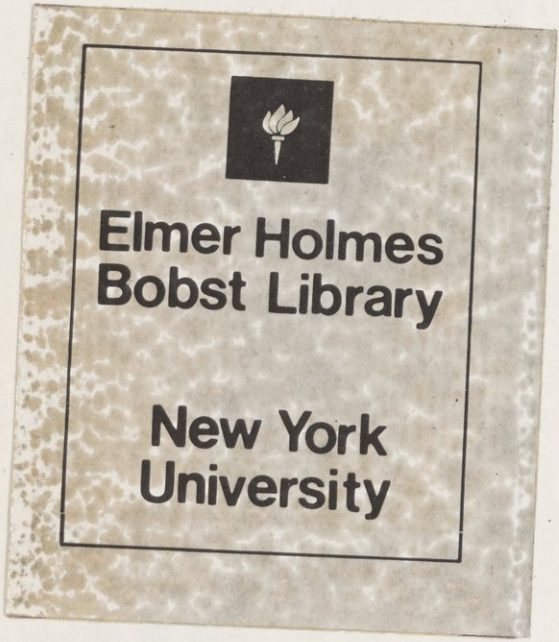
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University